سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء السادس عشر

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

بسم الله الرحمن الرحیم

من هدى القرآن

کاتب:

آیت الله سید محمد تقی مدرسی

نشرت فی الطباعة:

دار محبی الحسین (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

من هدی القرآن المجلد ۱۶

اشاره

سرشناسه:مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور:من هدی القرآن/ محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر:تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری:ج ۱۸

شابک:۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
-۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴
-۶۶-۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۹۱۰
-۸۲-۰۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
۳-۰۳-۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱۸۰۰۰۰-۰۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ ؛ ۱۸--۱۱۷-۲۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
-۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸
۳-۰۳-۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱۸۰۰۰۰-۰۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸

وضعیت فهرست نویسی:فهرستنویسی قبلی

یادداشت:عربی

یادداشت:کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت:کتابنامه

موضوع:تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره:BP۹۸/م ۴م ۸ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی:۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی:م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص :۱

اشاره

سوره التغابن

اشاره

ص:۳

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

فضل السوره:

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «من قرأ سوره التغابن فی فریضه کانت شفیعه له یوم القیامه،و شاهد عدل عند من یجیز شهادتها،ثم لا تفارقه حتی یدخل الجنه »

ص:۵

الإطار العام

كيف يمكن أن نربح صفقه العمر و نأتى يوم التغابن بالفوز الكبير،ذلك اليوم الذى تبلو الحقائق و يظهر مدى خساره الإنسان و مدى ربحه؟ قبل أن يبصّرنا السياق بالجواب يذكّرنا بجلال اللّه القدوس عن اىّ نقص و عجز،و انّ كل شىء يسبح بحمده،لانّ له الملك و الحمد جميعا.

و إنّما يكفر من كفر بعد تمام الحجه عليه،فهو المسؤول عن ضلاله،و هو المجزى بعمله،لأنّ اللّه قد خلق السموات و الأرض بالحق،و الجزاء صوره من صور الحق..و أكمل خلق الإنسان(فأعطاه ما يحتاجه لاختيار الحق و أكمل عليه الحجه)و اليه المصير للجزاء..و هو عليم بما يسرون و ما يعلنون..فانى لهم الفرار من الجزاء؟ و الجزاء حق واقع تاريخيّا.أ فلا نعتبر به؟فكم ذاق الكفّار الغابرون و بال

أمرهم.لمـاذا؟لأنّهم قالوا: «أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنٰا »فمن الـذى خسـر أ هم أم الرسل الطاهرون؟ كانت تلك عاقبه أمرهم فى الأولى،و فى الأـخرى يتبّؤهم اللّه بما عملوا و يتمّ عليهم الحجه البالغه ثم يعـذّبهم،و يا ويلهم!! فى ذلك اليوم يربـح المؤمنون الجنه تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها،و إنّه حقّا فوز عظيم.

و هكذا يبلغ السياق محور السوره،و يبيّن كيف يفوز عباد اللّه الصالحون فى يوم التغابن،و ذلك عبر بصائر تترى:

الأولى:الرضا بالقدر،و الإيمان بأنّ كل مصيبه تصيبه فبإذن اللّه.

الثانيه:الإيمان هدى القلب،و به يعرف الإنسان سبيل النجاه عن المصائب و به يتحدّاها.

الثالثه:الطاعه للّه و للرسول،و التوكل عليه.

الرابعه:الحـذر من أقرب النـاس إليه(و هم الأـزواج و الأولاـد)لأنّ فيهم من هو عـدو له،و لكنّ الحـذر لا يتحوّل عنـد المؤمن إلى عداء أو جفاء أو مواقف حدّيه.

الخامسه:اليقظه التامه من(حب)الأموال و الأولاد و(الافتتان)بهم.

السادسه:التقوى بكلّ اسـتطاعته،(و الاجتهاد فى الطاعه)،و الاسـتماع إلى أوامر الشريعه و وعيها،و الطاعه للقياده الرشيده،و الإنفاق و تجاوز شح الذات.

إنّ هذا سبيل الفلاح.

و فی خاتمه السوره یأمرنا اللّه بأن نقرضه قرضا حسنا(بالإنفاق أو الاستدانه)،لأنّه یضاعف ذلک و یغفر لصاحبه و اللّه شکور حلیم،و إنّه عالم الغیب و الشهاده،و هو العزیز الحکیم.

ص:۸

[سوره التغابن (۶۴): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ لَهُ اَلْمُلْكُ وَ لَهُ اَلْحَمْدُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) هُوَ اَلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كٰافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۳) يَعْلَمُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۴) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۵) ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَقٰالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنٰا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اِسْتَغْنَى اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۶) زَعَمَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ وَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيرٌ (۷) فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلنُّورِ اَلَّذِي أَنْزَلْنٰا وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۸) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ اَلْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلتَّغٰابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صٰالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئٰاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۹) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۱۰)

اللغه

۵[و بال أمرهم]:أی وخيم عاقبه كفرهم و ثقل أمرهم بما نالهم العذاب.

ذلک یوم التغابن

هدی من الآیات:

لکی نؤمن بالآخره إیمانا عمیقا لا بدّ من المعرفه باللّه أوّلا،لأنّها الدین (۱)، و الأساس الصحیح الذی تبنی علیه سائر البصائر و الحکم و الشرائع،لذلک نجد السیاق القرآنی و هو یمضی بنا فی التذکره بالبعث و الجزاء(یوم الجمع و التغابن) یهدینا إلی اللّه و أسمائه الحسنی(الآیات ۴/۱)،فهو السبّوح،الملک،المحمود، القادر،الخالق،البصیر،المصوّر،إلیه المصیر،و هو بکلّ شیء علیم،ثم تذکّرنا الآیات بالجزاء الذی لقیه الکافرون فی التاریخ کدلیل إلی الجزاء الأکبر فی الآخره،و أنّ سبب کفرهم هو الاعتماد علی المقاییس المادیه فی موقفهم من قیاده الرسل،و کفرهم بالبعث و الحساب،ممّا یبرر لهم عدم تحمّلهم المسؤولیه فی الحیاه، لذلک یؤکّد القرآن حقیقه الآخره و ضروره الإیمان باللّه و رسوله و الکتاب باعتباره السبیل إلی الصالحات و المستقبل الحسن فی الآخره،علی العکس من الکفر الذی

۱- ۱) و فی الخبر:«أوّل الدّین معرفته»

يقود الإنسان إلى بئس المصير فی الدّارين.

بينات من الآيات:

(۱)تتصوّر الفلسفات البشريه التی تتحدّد بالجهل و العجز و ضيق الأفق و شح النفس عند الإنسان تتصور العالم الكبير و ما فيه من اختلاف و تسابق ركاما من القوى المتناقضه و المتصارعه،و بالتالی حلبه لصراع الآلهه و الشركاء المختلفين، كلا..إنما العالم-فی القرآن-ينضوى تحت رايه العبوديه للّه.

يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ هكذا يسبّح جميع ما فی السموات و الأرض لربّ العزه،لأنّ كلّ شیء عارف باستحقاق ربه للتنزيه عن كلّ نقص و عيب،فهو وحده الكمال المطلق فی ضمير الخلق و عقله.و فعل المضارعه من التسبيح يدل على الاستمرار فی التسبيح،و السبب أنّ اللّه تجلّى لكلّ شیء بقدر وعيه،و أعطاه حسبما شاء من نوره،فوله كلّ شیء بربه و سبّحه و قدّسه بقدره.

لَهُ الْمُلْكُ وحده و إنما يملك أحد شيئا بتمليكه له،و مع ذلك يبقى ملكه محدودا،و ملك اللّه نافذ يسلبه متى شاء.و ربنا ليس متصرّفا فی الأشياء و حسب بل يملكها و يملك شهودها و ضميرها و مبدءها و مصيرها،يملكها دون أن تملك هی منه شيئا،بعكس البشر الذين لا يملكون شيئا إلاّ بقدر ما يمتلك منهم،لأنّهم و إيّاه سواء فی حدّ العبوديه و الضعف و العجز.و حرى بالمملوك أن يخضع لمالكه المطلق و يتوجّه له بالتسبيح دون سواه.و إنّ هذه الصفه كما صفه القدره و غيرهما لا تدعوه سبحانه كما الملوك إلى الظلم و القهر لمن تحت سلطانه،فكل أفعاله حميده.

وَ لَهُ الْحَمْدُ ممّا ينزل عليهم من نعمه و يدفع عنهم من البلاء،فسبحان الذى لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب.

و من تجلّيات حمده قدرته،فهو ذو القدره على كل ما يريد.

وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذه البصيره(قدره اللّه على كلّ شيء)هى التى ينبغى أن يتحسسها الإنسان،لأنّها محور لكثير من الحقائق و العقائد التى منها الإيمان بالآخره،فإنّ الذى لا يؤمن بقدره اللّه الثابته يصعب عليه التصديق بحقيقه البعث و الجزاء.

و هكذا تتصل هذه البصيره بما يأتى من التذكره بالبعث.

و تذكير الإنسان بأنّ الوجود كلّه يسبّح للّه يزرع فى نفسه الشعور بالشذوذ إذا ما كفر بربّه و خالف رسالته،بل و يزرع فى داخله الوازع الذى يدفعه للانتظام فى المسيره الحقّه الواحده حيث العبوديه للّه وحده و المعرفه به.

كما تهدينا هذه التذكره إلى حقيقه أخرى هامه و هى:أنّ الخليفه بكينونتها و السنن الحاكمه عليها تدعم المؤمن فى مسيرته،لأنّه يلتقى معها فى المسيره و الهدف،و هذا ما يجعل اتباع الحق سهلا ميسورا و اتباع الباطل عسيرا فى الدنيا و الآخره،و بهذا المضمون جاءت بعض الأخبار التى منها

قول الإمام على -عليه السلام-: «و من ضاق به العدل فالجور عليه أضيق» (1).

[٢]و يتساءل الإنسان:من أين أتيت؟و من الذى خلقنى؟و الإجابه على

١- ١) بح/ج ۴١ ص ١١۶

ذلک هی التی تحدد مبادئ الناس و مسیرتهم،فیهتدی البعض و یضل آخرون، و القرآن هنا یوجّهنا إلی الإجابه الحق لیضعنا علی الصراط المستقیم فی الحیاه. هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ و لیست الصدفه و لا الشرکاء المزعومین من دونه.تلک الفلسفات التی تاهت بعقول الکثیر و لا زالت حتی الیوم تضلّها.و حیث أنّ اللّه هو الخالق فإنّه أهل الملک و الحمد و القدره،و لکنّک مع ذلک تری بین الناس من یکفر به سبحانه بالرغم من تجلّیات أسمائه و آیاته فی الطبیعه و فی ضمیر الإنسان و عقله.

فَمِنْکُمْ کافِرٌ وَ مِنْکُمْ مُؤْمِنٌ و کما یؤکّد هذا المقطع حریه الإنسان فی اختیار مسیرته و مصیره فهو یبیّن مدی طغیان البشر الذین یکفرون بخالقهم بدل أن یشکروه علی نعمه الخلق و سائر النعم.

و تنسف الآیه فلسفه الجبر التی تقول بأن الکفر و الإیمان أمر تکوینی یحدّده اللّه، فکما یخلق الأسود و الأبیض کذلک یخلق المؤمن و الکافر،کلا..إنّ الخلق منه تعالی بینما الکفر و الإیمان رهین اختیار الناس و إرادتهم«فمنکم..و منکم».

وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ إذا فعمل الإنسان هو الذی یحدّد مذهبه و مصیره عند اللّه و لیس لونه أو مجیؤه من والدین کافرین أو مؤمنین و لا-أی شیء آخر.و فی الآیه تحذیر من طرف خفی بأنّ حریتک أیّها الإنسان لیست أبدیّه،و أنّ اللّه لم یخلق الناس لیترکهم سدی،أو أنّه مغلوله یداه و محجوب عن الخلق،إنّما هو رقیب و مهیمن علیهم،و هکذا تنفی الآیه التفویض کما تنفی الجبر لتثبت-بالتالی-أمرا وسطا بین الأمرین.

ص:۱۴

و کلمه أخیره فی هذه الآیه هی:أنّ اختلاف الناس إلی مؤمن و کافر،و مظلوم و ظالم،و قاتل و مقتول،تجعل البعث و الجزاء ضروره فطریه فی ضوء الإیمان بالإله الملک الحمید الذی من مظاهر حمده العدل.و هذه من الأفکار الرئیسیه فی المبادئ الإسلامیه.

[۳]و نجد آیه هادیه إلی الآخره عند النظر إلی الحیاه مفرده مفرده،فهی قائمه علی أساس الحق بکلّ ما تعنی هذه الکلمه من آفاق الواقعیه و النظام السلیم، و أهمّ تلک الآفاق بالنسبه للإنسان أنّ الحیاه عرصه یجری اللّه فیها الحق.

خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ و الهدفیه من الحق،کما أنّ العبثیه من الباطل.و إنّ الإنسان حینما یلقی بنظره و فکره إلی خلق الکون یراه بکلّ أجزائه حتی الذره قد خلق بحکمه و هدف معیّن،کما أنه عند ما یعود إلی نفسه من رحله الآفاق یری نفس الحقیقه،فهو قد صوّر و خلق کلّ عضو منه لغرض محدد،فالعین للابصار،و الإذن للسمع،و الأنف للشم و التنفّس و..و..

وَ صَوَّرَکُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَکُمْ فهل یعقل أن یکون الإنسان ککل بلا هدف؟!کلا..بل له هدف معیّن هو أن یقوم بالحق و هذا یقتضی أن یکون هناک جزاء و مصیر.و لأنّ الدنیا تقصر أن تکون محلا للجزاء الأوفی فلا بدّ من دار ثانیه یرجع فیها الناس إلی ربهم.

وَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ [۴]و هو تعالی لا یقضی للناس بمصائرهم اعتباطا،إنّما یجازی کلّ فرد و أمه

الجزاء الأوفى القائم على علمه النافذ فى كلّ دقائق الأمور و لطائفها حتى النوايا المنطويه عليها الصدور،و لا يشغله علم عن علم،و لا سمع عن سمع،بل يعلم كل شىء فى آن واحد.

يَعْلَمُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ خيرا أو شرا.

وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ و تأكيد اللّه على علمه المحيط بحياه الإنسان يتصل بمنهج الإسلام التربوى القائم على أساس زرع الوازع الدينى فى نفوس المؤمنين،فإنّ المتحسس لرقابه اللّه عليه لن يقتحم المحرمات و المعاصى،و لن يتخلّف فى أداء الواجبات..و هذه المنهجيه ذاتها هى التى تضع نهايه للخداع الذاتى(المنافقه)،حيث تضع الإنسان أمام يقين بعلم اللّه بذات صدره،و أنّ جزاءه للناس لا يعتمد على أعمالهم و أقوالهم الظاهره فحسب إنّما يعتمد على ما فى القلوب من النوايا و الخلفيات أيضا.

[۵]و يحثّنا القرآن إلى التفكر فى واحده من الآيات الكاشفه لحقيقه كون المصائر بيد اللّه،و لحقيقه البعث و الجزاء فى الآخره،و هى تاريخ الأمم و الأقوام الذين كفروا بالحق فاستأصلهم اللّه بألوان من العذاب.

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذٰاقُوا وَبٰالَ أَمْرِهِمْ فى الدنيا،و الوبال هو السوء،و هنا بمعنى العاقبه السيئه،و ما دام الإنسان مسئولا عن أفعاله فى الدنيا و هى دار امتحان فكيف لا يكون مسئولا عنها فى الآخره؟!و عموما:فإنّنا سوف نواجهه إن خالفنا عاجلا أم آجلا فى الدنيا أو فى الآخره.

ص:۱۶

وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ينتظرهم فى الآخره.و وصف اللّه للعذاب بأنّه«أليم»ينسف بعض الفلسفات التى حاولت تبرير الذنوب للناس بزعمها أنّ الإنسان يوم القيامه لا يشعر بحراره النار،و مثّلوا لذلك بالقول أنّ هناك بعض الحشرات تعيش فى النار و لا تتأثر بها!و هو زعم لا دليل عليه.

[۶]أمّا السبب الذى انتهى بأولئك إلى عذاب الدارين فهو تكبّرهم على الرسل،و كفرهم بهم،و تولّيهم عنهم إلى غيرهم.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كٰانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ أى الآيات الواضحه التى لا غموض فيها.إذن كانت الحجّه قائمه و بالغه ممّا يجعل العقلاء يخضعون لها،و لكنّ الكفّار لم يتبعوا العقل،إنّما اتبعوا الأهواء.لذلك لم يسلّموا لقياده الرسل.

فَقٰالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنٰا انّهم لم يجدوا ثغره فى رسالات اللّه لكى يعيبوها،و لا نقصا فى أخلاق الرسل و سلوكياتهم،و لكنّهم مع ذلك لم يكونوا مستعدين للخضوع لقياده واحد منهم، و لا لتحمّل المسؤوليه بأيّه صوره،لذلك صاروا يبحثون عن تبرير يتخلّصون به من المسؤوليه،فكان قولهم أنّ الرسل بشر لا يصح الخضوع لهم،و هذا ما يتشبّث به الكفّار عبر التاريخ..فلما ذا إذا يبعث اللّه الرسل من البشر أنفسهم؟و الجواب:

لأمرين أساسيين:

الأوّل:أنّ الكفّار أرادوا من ذلك تبرير انحرافهم و كفرهم،فلو أنّ اللّه بعث

ملائکه أو جنّا لبحثوا لهم عن تبریر آخر،و لو کان یهمّهم الحق لا تبعوا الرسل الذین جاءوهم بالبینات.

الثانی:أنّ الهدف من بعث الرسل هو تزکیه الإنسان و تطهّره من أمور النزعات السلبیه التی فیه کالکبر و السموّ به إلی آفاق العبودیه و التسلیم للقیم و الحق،و هذا یقتضی أن یکون الرسل من البشر أنفسهم حیث أنّ التسلیم لهم أبلغ أثرا فی امتحان البشر،و هل قد تخلّصوا من نزعه الکبر،و تعالوا إلی سماء التواضع للّه،علما بأنّ الصراع علی السلطه أعظم من أیّ صراع آخر،و شهوه الرئاسه أشد من أیّه شهوه أخری،و أنّ الرسل جاؤوا لیحکموا بین الناس بالعدل،و کان الطغاه یحکمونهم بالجور.و تری کیف یتنازل الطغاه عن سلطانهم و یسلموا لأمرهم و لأمر من ینوب عنهم من أوصیائهم و أولیائهم؟!إنّه حقا ابتلاء عظیم للطغاه و من أیّدهم و اتبعهم، و إنّها لفتنه عمیاء سقطت فیها أکثریه النفوس الضعیفه،و نجد صوره لها فی أمر اللّه إبلیس بالسجود لآدم و لیس لأعظم ملائکته ممّا أثار رفضه و تمرّده،ممّا یؤکّد بأنّ ظاهر القرآن الشریعه و باطنه الولایه،حیث أنّ خضوع الإنسان لبشر مثله باعتباره ولیّا علیه من عند اللّه أمر صعب مستصعب،و هکذا رفض الکفّار ذلک.

فَکَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا کفروا بالرسول و الرساله و لم یشکروا هاتین النعمتین،و حیث لا یمکن للإنسان أن یعیش فی الفراغ فإنّهم حوّلوا و جهتهم إلی القیم الفاسده و القیادات المنحرفه(الضلال)،و لعلّ التولّی هنا بهذا المفهوم،أی تولّوا إلی غیر اللّه بمعنی ولایه غیر اللّه،کما جاء فی بعض تفاسیر الآیه الکریمه:« فَهَلْ عَسَیْتُمْ -إِنْ تَوَلَّیْتُمْ -أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَکُمْ »،و قد یکون الکفر هو الموقف النفسی و المبدئی،بینما التولّی هو الموقف العملی السیاسی.

وَ اسْتَغْنَى اللّٰهُ أی أنّه تعالی کان یرید أن یظهر دینه و رسوله بهم فلمّا کفروا استغنی و أظهر غناه عنهم فنصر دینه بغیرهم من الناس و الملائکه،کما قال سبحانه:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ ».و هکذا یکون معنی الاستغناء فعل ما یظهر الغنی،و ذلک علی ضوء معرفتنا بربنا و أنّه لا یصدق علیه ما یصدق علینا من التحوّل و التبدل سبحانه،فلم یکن لربنا حاجه فیهم و لکن أراد أن یتفضّل علیهم بنصر دینه عبرهم فرفضوا،حیث أنّ من نعم اللّه علی عباده أن یجعلهم وسائل لنشر دینه و نصر رسله فیطلب منهم الدعوه أو الجهاد أو القرض و الإنفاق و ما أشبه..لا لحاجه منه إلیهم إنّما لیتلطّف بهم و ینعم علیهم بفضله! وَ اللّٰهُ غَنِيٌّ بذاته،و استغناء اللّه عن أحد یعنی قطع حبل رحمته عنه،و هذا سبب هلاک الأقوام التی کفرت من قبل،لأنّه إنّما یستقرضهم و یستنفقهم و یدعوهم للإیمان لکی یرحمهم،و لعلّ تأکید اللّه علی غناه و استغنائه یأتی لعلاج عقبه نفسیه طالما منعت و لا زالت تمنع الکثیر من الإیمان بالرساله و التسلیم للرسول،و هی عقبه الإحساس بالغنی عن الحق من جهه،و حاجه اللّه و رسوله إلیهم کما قال بعضهم: «إِنَّ اللّٰهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيٰاءُ » (1)من جهه أخری.

حَمِيدٌ و قد أضاف تعالی هذه الصفه للغنی لأنّه لیس کلّ غنی حمید،فقد یطغیه

ص:19

1- 1) آل عمران/181

الغنى،أو تبطره النعم.

[۷]ثم يبيّن السياق موقف الكفّار الأساسى الذى انشطر عنه الاستكبار و الكفر و التولّى،و هو عدم إيمانهم بالآخره،و طبيعى أنّ من يكفر بالجزاء لا يبالى بتحمل المسؤوليه.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا للجزاء بعد الموت،و الزعم هو مجرّد الادّعاء الذى لا يقين للإنسان به،و حيث أنّ الكفّار لم يجدوا دليلا ينفى الآخره باعتبارها حقيقه واقعيه فطريه فإنّهم لجأوا إلى تأكيد زعمهم بكلمه«لن»تبريرا لكفرهم بالحقائق،و لكن القرآن يكذّب زعمهم بالتأكيد على البعث و الحساب و من ثمّ على الجزاء إذ يقول تعالى يخاطب رسوله-صلّى اللّه عليه و آله-:

قُلْ بَلىٰ وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ و فى هذه الآيه تأكيدات عديده و ذلك فى مواجهه زعمهم الباطل،فالتأكيد اللفظى يواجه بتأكيدات فى الكلام أقوى منه. و أمره تعالى الرسول و من خلال ذلك كل مؤمن يواجه شبهات الكفار«قل»لا يعنى مجرد الدعوه للقول بل هو دعوه لاتخاذ موقف مضاد،إذ أنّ القول هو ما يحكى إيمان الإنسان،و المؤمن مكلّف أن يحكى إيمانه بالآخره موقفا صريحا يتحدى موقف الاستهزاء و الإنكار.ثم إنّهم نفوا البعث بينما نجد السياق يؤكّده و يضيف بالتأكيد على الجزاء لأنه محور القضيه، فهم زعموا أن لا بعث حتى يتحلّلوا من المسؤوليه،بينما القرآن أكّد أنّ إنكارهم البعث لا يخفّف عنهم من العذاب شيئا و لا يهوّن لهم من المسؤوليه أمرا.

و فى خاتمه الآيه إشاره إلى أهمّ عقبه نفسيه عند الكفّار أمام إيمانهم بالآخره

و نسفها.

وَ ذٰلِکَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ لأنّه تعالى قدير،فهو ليس كما نحن البشر عاجزا أو محدود القدره،بل هو صاحب المشيئه التامّه فلا شىء يمتنع عنه أو يصعب عليه.و قد نتلمّس فى الآيه إشاره إلى أنّ الكفّار زعموا للّه مجموعه من الصفات البشريه التى تجعله عاجزا عن بعث الناس بعد الموت فى فكرهم،و ذلك امتداد لتصوراتهم و مقاييسهم البشريه التى دعتهم للكفر و التولى عن بيّنات اللّه و رسله.

[٨]و لكى يتجنّب الناس و بال الأمر فى الدنيا و العذاب الأليم فى الآخره، و يفوزوا الفوز العظيم،يرسم القرآن المعالم الأساسيه لطريق النجاه و الفوز.إنّه فى الإيمان باللّه و رسوله و النور المنزل من عنده.

فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ الإيمان باللّه هو الأصل و لكنّه لا يكتمل إلاّ بالتسليم لرسوله حتى تتحوّل الرساله الإلهيه إلى واقع حضارى بالانتظام تحت رايه القياده الرساليه،و لا بد أن تصير واقعا تفصيليّا يضع لمساته على جوانب حياته و مفرداتها المختلفه،و بعباره:إنّ الإيمان باللّه و الرسول ليس عقيده مجرّده فى القلب،و لا مظاهر و طقوس فقط،إنّما هو منهج حياه يجب على الإنسان(فردا و أمّه)ان يلتزم به.

وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنٰا و القرآن نور لأنّه يخرج الإنسان من ظلمات الجهل و الكفر،و يثير دفائن عقله، و ينمّى بواعث الخير فى وجدانه،و يرسم له مناهج الحياه.و اى نور أعظم من حبل اللّه و كتابه الذى يوصل البشريه باللّه «نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »؟!

ص:٢١

و لقد مضى القول فى سوره النور و فى الصف عن أنّ القياده الرساليه هى الأخرى مظهر و تجل لنور اللّه،لأنّها صوره ناطقه لكتاب اللّه و مثل أعلى لرسالاته،و إنّ اتباعها ينير للإنسان دروب الحياه الفرعيه المتداخله،و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الباقر-عليه السلام-: «لنور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئه بالنهار» (١).

و الإسلام الأصيل لا يرى الإيمان مجرّد الإعتقاد(باللّه و بالرسول و بالنور)، إنّما الإيمان تسليم للّه،و اتباع للرسول،و تطبيق للكتاب،و بعباره:الإيمان هو العمل المستمر و المتقن و المخلص الذى يستمد جذوره من اليقين التام بهيمنه اللّه عزّ و جل،و هذا ما نفهمه من النصوص الدينيه و من قوله سبحانه فى هذه الآيه:

وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فالمؤمن يقرأ فى هذه الخاتمه أنّ عليه الاستمرار فى الإيمان و العمل به،و أن يخلص فيه لوجهه تعالى،بل و يتقن أداءه،لأنّه فى حضره خالقه الذى لا يمكنه خداعه أو التدليس عليه،فهو الخبير بأعمال الإنسان بأشمل و ألطف ممّا عند الإنسان نفسه.

و كلمه أخيره:كما أنّ الرساله نور و أنّ الرسول نور فإنّ من يحمل رساله الرسول اليوم و يكون امتدادا لقيادته الربّانيه و نائبا عن خلفائه الأمناء-عليهم السلام- فإنّه هو الآخر نور.أ و ليس داعيا إلى اللّه؟أ و ليس يحمل رسالات ربه إلى العباد؟ كذلك كان علماء أمه محمّد-صلّى اللّه عليه و آله-كأنبياء بنى إسرائيل.أو ليسوا هم خلفاء الرسول؟و كذلك نقرأ

فى حديث النبى يعظ سلمان المحمّدى:

«يا سلمان..و إنّ أكرم العباد إلى اللّه بعد الأنبياء العلماء،ثم حمله القرآن، يخرجون من الدنيا كما يخرج الأنبياء،و يحشرون من قبورهم مع الأنبياء،و يمرّون

١- ١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٣٤١

على الصراط مع الأنبياء،و يأخذون ثواب الأنبياء،فطوبى لطالب العلم و حامل القرآن ممّا لهم عند اللّه من الكرامه و الشرف» (۱).

[۹]و تأكيد اللّه على ضروره الإيمان به و برسوله و بنوره المنزل باعتبار ذلك هو طريق النجاه يوم القيامه.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ أى يجمع أوصالكم التى تفرّقت بعد الموت و يجمعكم إلى بعضكم مؤمنين و كافرين،و كذلك يجمع الناس مع الرسل ليشهدوا عليهم،و سمّيت القيامه بيوم الجمع و فى مواضع أخرى بيوم الحشر لأنّها اليوم الذى تجتمع فيه البشريه كلّها من آدم حتى آخر مولود آدمى.

ذٰلِكَ يَوْمُ التَّغٰابُنِ ماذا يعنى التغابن،و لماذا سمّى يوم القيامه بيوم التغابن؟ الجواب:إنّ الغبن فى البيع أو الشراء هو ظهور الخديعه و الغلبه،غبن فلانا نقّصه فى الثمن و غيره،فهو غابن و ذاك مغبون (۲)،و التغابن من التفاعل أى أنّ كل فرد أو طرف يسعى لإيقاع الغبن بالآخر،و سمّيت الآخره بذلك لأمور أهمها:

۱-إن لكلّ إنسان خلقه اللّه منزلين فى الآخره،أحدهما فى الجنه و الآخر فى النار،فإذا أفلح أن يكون أهلا للجنه ملك قصوره فيها و ورث أهل النار منزله فيها، كما يرث منازل أهل النار التى كانت لهم فى الجنه،و ذلك قوله تعالى:

۱- ۱) بح/ج ۹۲ ص ۱۸

۲- ۲) المنجد/ماده غبن بتصرف

أَولٰئِکَ هُمُ الْوٰارِثُونَ* الَّذِینَ یَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۱)،و یومئذ یظهر الغبن لدی أهل النار بخسرانهم الجنه و وقوعهم فی الخساره العظمی بدخول جهنم،و لأنّ المؤمنین یرثون منازلهم فی الجنه فکأنّهم أوقعوا بهم الغبن.

۲-إنّ المؤمنین و الکافرین فی صراع و تحدّ دائمین،و کلّ فریق یحاول إیقاع الخساره بالطرف الآخر عبر الإنتصار علیه أو تحطیمه،و حیث أنّ الدنیا دار الابتلاء لکلا الفریقین فهی للکافرین علی المؤمنین تاره،و تاره للمؤمنین علی الکافرین، و الغبن فیها نسبی محدود،أمّا فی الآخره و هی دار الخلود فإنّها المصداق الأعظم للتغابن،فالغابن فیها غابن حقّا،و المغبون فیها خاسر بتمام المعنی.صحیح أنّ أساس الغبن فی الدنیا،لأنّ الدنیا هی دار العمل،و لکنّ ظهوره لا یکون إلاّ فی الآخره و لا یسمّی الغبن غبنا إلاّ بعد أن یظهر للناس جلیّا.

وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ یَعْمَلْ صٰالِحاً أی یترجم إیمانه إلی العمل فإنّ الإیمان الحقیقی باللّه أصل کلّ خیر و الباعث علی کلّ صلاح.

یُکَفِّرْ عَنْهُ سَیِّئٰاتِهِ أی الخطایا الجانبیه.

وَ یُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ و هذا مصیر الطرف الغابن.و فی الآیه إشاره إلی أحد معانی الشفاعه و هی أن

۱- ۱) المؤمنون ۱۰/-۱۱

تكون لدى الإنسان حسنات كبيره تذهب بالسيئات الصغيره.

[۱۰]و فى نهايه الدرس الأوّل من سوره التغابن يضع القرآن بين أيدينا صوره للفريق المغبون،و أىّ غبن و خساره أعظم من الخلود فى عذاب النار؟!! وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ إنّ السبيل إلى الفوز كان فى الإيمان باللّه الذى بيده مصائر الناس،و فى اتباع رسله و القيادات الرساليه،و فى العمل بمنهج الفوز الذى تنطوى عليه آيات القرآن، و قد نبذوها وراء ظهورهم فصاروا إلى الخسران.

ص:۲۵

[سوره التغابن (۶۴): الآیات ۱۱ الی ۱۸]

اشاره

مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱) وَ أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَإِنَّمٰا عَلىٰ رَسُولِنَا اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (۱۲) اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۳) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ وَ
أَوْلاٰدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اَللّٰهُ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۵) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ
(۱۶) إِنْ تُقْرِضُوا اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (۱۷) عٰالِمُ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱۸)

ص:۲۶

إنّما أموالكم و أولادكم فتنه

هدى من الآيات:

كيـف نتجنّب الغبن فی یوم التغـابن؟ ١-لنعلم أوّلا:أنّ المصائب أقـدار إلهيه،و بالإیمان یهتـدی الإنسان کیف یتحصّن ضـدّها أو یتعامل معها دون أن ینهار.

٢-الطاعه للّه و الرسول،و التوکّل علی اللّه لمقاومه ضغوط الشهوات و نوائب الدهر.

٣-الحـذر من الأزواج و الأولاد،لأنّ فیهم من هو عدو لنا،ثم العفو عما تبدو منهم من إساءه،و لنعلم أنّهم فتنه،فلنقاوم الفتنه بابتغاء ما عند اللّه من أجر عظیم.

۴-التقوی حسب المستطاع،و الطاعه للقیاده،و مواجهه شحّ النفس بأداء

ص:٢٧

الحقوق.

۵-القروض الواجبه و الإنفاق المستحب.

بينات من الآيات:

[۱۱]ليس من تغيّر خيرا كان أو شرا إلاّ و يمرّ عبر تدبير اللّه و إذنه.

مٰا أَصٰابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ لأنّه تعالى الذى يمدّ كلّ شىء بنور الوجود و الاستمرار،و لأنّه الذى وضع السنن فى الخليقه و يجريها بسلطانه و ليست من مصيبه إلاّ فى سياق تلك السنن،و له الإراده غير المحدوده بأن يفعل ما يشاء و يغيّر ما يريد.و ما دامت المصائب تكون بإذنه تعالى و هو الحميد العادل الحكيم فلن تكون بلا سبب و من دون حكمه،بلى.و من حكمته و لطفه أنّه بيّن فى كتابه كيف يتخلّص الإنسان من المصيبه،و لكن أنّى للإنسان أن يستفيد من كتابه دون أن يؤمن به؟! وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَهُ و لهدايه القلب هنا معان أبرزها:

۱-إنّ الإيمان باللّه،و بالتالى معرفه أنّه الفعّال لما يشاء،و أنّه المهيمن على العالم،و أنّه لا تقع مصيبه إلاّ بإذنه،معرفه هذه الحقائق جميعا تجعل الإنسان يسمو إلى سماء التسليم للّه عزّ و جلّ،ممّا يجعله قادرا على الاستقامه فى طريق الحق رغم التحديات و المشاكل.و تقديم هذا البيان هو تمهيد للأمر القادم بطاعه القياده الرساليه حيث يواجه المؤمنون فى هذا الطريق ألوان الفتن و المصائب،و إذا كانت المصائب تسبّب للكثير الانحراف عن سواء السبيل فهى لا تزيد المؤمن إلاّ إيمانا

و تسليما.

المؤمن كما الذهب يزداد صفاء كلّما تعرّض لفتنه النار،و إنّ إيمانه باللّه ليزيده صله بربه عند المصائب،لأنّه يعلم بأنّها لا تقع إلاّ بإذنه و لا تزول إلاّ بإذنه،و أنّ خير وسيله لتحدّيها هو المزيد من الاتصال به و التقرّب إليه،بل يزداد إحساسه بالحاجه إلى اللّه و ضروره الاستعانه به،كما قال تعالى: اَلَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَهٌ قالُوا إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (١).

٢-و كما أنّ الإيمان معراج الروح إلى التسليم فهو معراج الفكر إلى الصواب، فإنّ المصيبه تفقد أكثر الناس توازنهم النفسى لما تحمله من الضغوط،فتزرع فيهم اليأس من التغيير،و قد تشلّ عقولهم عن التفكر،و لكنّ المؤمن يقف أمامها كالجبل الأشم لا تخرجه عن طوره،و هذا يبقيه مهتديا،و قادرا على الوصول إلى الصواب حتى فى ظروف المصيبه،بل إنّها تصبح مدخله لكثير من المعارف،فالمرض يدفعه لمعرفه سنن اللّه فى جسم الإنسان،و طغيان الظلمه يجعله يعرف سنن اللّه فى المجتمع،و هكذا..

٣-أضف إلى ذلك أنّه يجد الحل للمصيبه و الموقف السليم منها نتيجه الإيمان،فالإيمان باللّه أكثر من مجرّد الإعتقاد.إنّه منهجيّه حياه شامله،و المؤمن عند المصيبه يتذكّر بأنّ اللّه حكيم لا يفعل شيئا إلاّ لسبب فيبحث عن ذلك السبب،و يتذكّر أنّ الإنسان بأعماله هو السبب الرئيسى لكلّ ما يجرى عليه، تسليما لقوله تعالى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَهٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (٢)ثم يسعى للتغيير ايمانا بقوله تعالى: إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ (٣)،

١- ١) البقره/١٥٦

٢- ٢) الشورى/٣٠

٣- ٣) الرعد/١١

و یستعین باللّه بکلّ ما یستطیع من دعاء و صدقه،لإیمانه بأنّه علی کلّ شیء قدیر، و أنّه یمحو ما یشاء و یثبت،و لأنّه قال: أُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ (۱)،فالمصیبه إذن تتحوّل عند المؤمن إلی عمل بمناهج اللّه،و بالتالی الوصول إلی الحل،و ذلک من مصادیق الهدایه.

وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ و هذه الخاتمه تبنی روح التسلیم لقضاء اللّه عند کلّ مؤمن،حیث تؤکّد له أنّ إذن اللّه و تدبیره متأسس علی علمه،فهو لحکمه یعرفها،و لأسباب أحاط بها.

و نجد فی الآیه التفاته لطیفه تتصل بنظریه الجبر التی عالجها کثیر من المفسّرین عند هذه الآیه،فقد زعم البعض بأنّ الإنسان لیس له اختیار فی الحیاه ما دام اللّه هو الذی یقدّر شؤونها-کالمصائب-و یجریها کیف یشاء!و لکنّ القرآن یحل هذه الإشکالیه باختصار و بأسلوب بلیغ حیث یؤکّد دور الإنسان فی صنع واقعه و مصیره بالقول: وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ یَهْدِ قَلْبَهُ .إذن فالهدایه التی هی من عند اللّه لا تحصل إلاّ بعد إیمان الإنسان نفسه باللّه،و علی هذه السنه تمضی الحیاه بخیرها و شرها، بأفراحها و أحزانها،کما أننا نستطیع أن نفسّر کل الحوادث بهذه البصیره.

و سؤال أخیر فی الآیه:لماذا قال ربنا: «یَهْدِ قَلْبَهُ » و لم یقل:یهدیه،کما فی کثیر من الآیات الأخری؟ و الجواب:أوّلا:لبیان أنّ صلاح الإنسان و فساده(هدایته و ضلاله)کلّ ذلک متصل بما ینطوی علیه قلبه من الأفکار و المعتقدات،و بالتالی فإنّ التغییر الحقیقی و الجذری یتمّ بتغییر القلب.

۱- ۱) غافر ۶۰/

ثانیا:لبیان شمولیه الهدایه فهدایه اللّه لقلب المؤمن تجعله خالصا من کلّ انحراف و ضلاله،فإنّ القلوب قد تکون مزیجا من الحقّ و الباطل إلاّ قلب المؤمن حیث یصفو للحقّ دون الباطل و للهدی دون الضلال،أی أنّ الإیمان صنو لهدایه القلب حیث یقوده إلی سائر الحقائق،و یبصّره فی جمیع أبعاده و جوانب الحیاه، و کلّما زاد إیمان أحد زاد هدی قلبه.

[۱۲]و أعظم مصیبه تصیب البشر هی التخلّف فی الدنیا و دخول النار و التعرّض لسخط اللّه فی الآخره،و لکی یتجنّبها الإنسان یجب أن یطیع اللّه،و یتبع القیاده الشرعیه،و یعمل بمناهج الحق التی بلّغها الرسول-صلّی اللّه علیه و آله- و فصّلها أئمه الهدی و العلماء الصالحون.و هکذا یوصل القرآن حقیقه الإیمان باللّه و بالآخره بحقیقه الإیمان بالرسول(القیاده الإلهیه).و لقد مهّد السیاق للحدیث عن طاعه القیاده بما تضمّنته الآیه السالفه من بیان عن المصاعب،و انطوت علیه من دعوه للتسلیم للّه فیها،لأنّ الطاعه للّه و اتباع القیاده الرسالیه التی تنشد التغییر سوف یتسبب بلا شک فی کثیر من المشاکل و الضغوط التی ینبغی تحدّیها بروح التسلیم للّه عزّ و جل،و لکنّها تقضی علی مشاکل أکبر بصوره جذریه.

وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ و نقف هنا عند تعبیر القرآن الکریم،فهو تاره یقول: أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ و أخری یقول: أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ ،بإضافه فعل الأمر أَطِیعُوا ،کما فی هذه الآیه.أ و لیس العطف بالواو وحده کاف لتأدیه نفس المعنی؟ و الجواب:إنّ لکلا التعبیرین ظلاله الخاص فی المعنی و النفس،و لعل العطف بالواو وحدها یبیّن أنّ طاعه الرسول هی امتداد لطاعه اللّه،بینما العطف بها مع الفعل: أَطِیعُوا یؤکّد استحاله الفصل بین طاعه اللّه و طاعه القیاده الرسالیه،

بأن يزعم البعض بأنّه يكتفى بالقرآن طاعه للّه و بعدها لا داعى لطاعه أحد رسولا أو إماما أو عالما..و اللطيف أنّ هذا التعبير ورد فى سياق سوره التغابن التى تعرّضت لإشكاليّه الفصل بين طاعه اللّه و طاعه رسوله حيث قال الكفّار: أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا (الآيه ۶)محاوله للفصل بين الطاعتين.و يحذّر اللّه من عصيانه و رسوله و التولّى لغيرهما إذ يقول:

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ و كفى بهذه الآيه تحذيرا للناس و تهديدا للكفّار.

[۱۳]و لما انتقد القرآن موقف الكفر و التولّى من قبل الكفّار تجاه رسلهم لكونهم بشر أمثالهم،و بالتالى التقليل من شأنهم و تبرير عصيانهم،أكّد هنا فى سياق أمره بطاعه الرسول(القائد الربّانى)و انطلاقا من منهجيته المتوازنه على حقيقه التوحيد كحدّ لتقديس الرسل و الأولياء القاده،فإنّه لا يجوز بحال من الأحوال اعتبارهم شركاء للّه أو أنصاف آلهه،كما صنع بعض النصارى و اليهود بالنسبه لعيسى و عزير -عليه السلام-،فالطاعه للقياده و العباده للّه وحده.

اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ و قد أكّد القرآن على ضروره التوحيد و التوكّل فى سياق أمره بطاعته و طاعه رسوله لأنّ هناك سببين يدعوان الإنسان للتخلف عن الطاعه لهما:

الأوّل:الشرك باللّه سبحانه شركا مبدئيّا باتباع الأفكار و الفلسفات الضاله، أو عمليّا بالخضوع للإرادات الأخرى من دون اللّه لمجاراه الشهوات و المصالح،أو اتباع الطواغيت و الركوع إليهم.و لكى يسمو الإنسان إلى آفاق الطاعه و التسليم للّه و لقياده الحق يجب أوّلا أن يتطهّر من رواسب الشرك،و يتخلّص من أغلاله،

و يتحدّى الأنداد المزعومه.

الثانی:الضعف و الانهزام أمام الضغوط و التحدّيات المضاده لخط الرسول و القياده الإلهيه،فإن أجلى صور التحدى و الضغوط تبرز فی مواجهه النظام الاجتماعی بكلّ أبعاده سياسيّا و اقتصاديّا و اجتماعيّا و أخلاقيّا و يجب على المؤمن أن يستقيم فی خطّ التوحيد رغم ذلك،و هذا بحاجه إلى إراده صلبه تجعله أشد من الجبال،و هذه يستمدها من الاستعانه بصاحب القدره الواسعه و التوكل عليه.و ما أحوج الحركات الرساليه و المجاهدين للصمود فی مسيره التغيير عبر التوكل على خالق السماوات و الأرض،و الالتجاء إلى حصن ولايته و عزّته و قدرته.

[۱۴]و يذكّرنا الوحی بأحد أقوى و أخطر التحديات التی يواجهها المؤمنون فی طريق الجهاد و الطاعه للّه و للقياده الرساليه و هو تحدی الأسره،ذلك لأنّ الأسره هی حلقه الوصل الأساسيه بين الإنسان و محيطه الثقافی و السياسی،و لذلك فهی أقرب تأثيرا و أبلغ نفاذا فی إراده المجاهد.

ثم إنّ مقاومه المؤمنين للطاغوت تنعكس بصوره حادّه و سريعه على أسرهم، فإذا بها كلّها أو بعضها تقف عقبه فی طريق الجهاد،فينهاروا نتيجه الصلات التی تربطهم بها.و لكی يستقيم المؤمن لا بد أن يتذكّر هذه الحقيقه،و يحرق سفن العوده إلى الشرك،و يتحصّن ضد وسائل الضغوط،و من أبرزها الأسره،و ذلك عبر تحدّيها بصلابه التقوى و الإيمان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

قال الإمام الباقر-عليه السلام-: «و ذلك أنّ الرجل كان إذا أراد الهجره إلى الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-تعلّق به ابنه و امرأته،و قالوا:ننشدك اللّه أن تذهب عنّا و تدعنا فنضيع بعدك،فمنهم من يطيع أهله فيقيم،فحذّرهم اللّه

أبنـاءهم و نساءهم و نهاهم عن طاعتهم،و منهم من يمضـى و يـذرهم و يقول:أما و اللّه لئن لم تهاجروا معى ثم يجمع اللّه بينى و بينكم فى دار الهجره لا أنفعكم بشىء أبدا» (۱).

و فى توجيه القرآن الخطاب للمؤمنين بالـذات فى هـذه الآيه بيان لحقيقه واقعيه و هى:أنّ المؤمن الحقيقى مجاهـد بطبعه،لـذلك تتـوالى عليه الضـغوط و التحـديات، و لأنـّه من دون سـائر النـاس يتحمّـل المسؤوليه الرسـاليه،و بالتـالى فـإنّه الأـولى بمثـل هـذا الخطاب،و الأقرب لفهم معانيه،فهو هنا ذلك الإنسان الـذى آمن بربه وحـده، و أطاع قياده الحق متوكّلا على اللّه.و كيف يدرك المتقـاعسون معنى التحـديات الأسـريه و الاجتمـاعيه و السياسـيه و هـم يسـبحون مع تيّارهـا و ليس ضـده كمـا يفعـل المؤمنـون الصـادقون؟! و لا تعنى الآيه من الأزواج النساء و فقط،فقـد تكون الزوجه مؤمنه مجاهـده و يكون العـدو هم الزوج و الأولاد فهى مسئوله أيضـا.و مـا أروع موقف وهب الأنصـارى حينمـا تحـدّى تثبيـط زوجته إذ تعلّقت به لتردعه عن خوض القتـال دفاعـا عن الإسـلام بين يـدى الإمام الحسـين-عليه السـلام-و لكنّه اندفع إلى الشـهاده، لأنّ حبّ اللّه كان أنفذ بقلبه من عاطفته تجاه زوجته الشـابّه!و مـا أعظم موقف آسـيه بنت مزاحم و هى تتحـدى طغيـان زوجهـا فرعون حـتى استشـهدت موثّقه بالأوتـاد! و لعمرى إنّ التاريخ الرسالى لحافل بمواقف البطوله للنساء و الرجال على سواء،الذين فكّوا حلقه الأسـره،و انطلقوا فى رحاب الدفاع عن القيم الساميه.

و كما أنّ العداوه تتخذ ألوانا فإنّ عداوه الأزواج و الأولاد قد لا تظهر على شـفره سـيف،و لا سنان رمح،و لكنّها تتمثل فى مظاهر أخرى عاطفيه و اجتماعيه و اقتصاديه،فحينما يكون المؤمن متفانيا لقضيته منصهرا فى بوتقه أهدافه فإنّ معاداه

۱- ۱) تفسير القمّى/ج ۲ ص ۳۷۲

أسرته للقضيه و الأهداف هی فی الواقع معاداه له ذاته،و لو جاءت تلک المعادات فی صوره قشیبه من جهه التظاهر بحبّه.

و إذا لم یحذر المؤمن هذه العداوه فإنّ عاقبته الخسران،ذلک أنّ الطغاه و المترفین و الکسالی و الرجعیین یحسنون استخدام سلاح الأسره ضد المؤمن الرسالی،لذلک تراهم ما یبرحون یسعون بشتی الأسالیب ترغیبا و ترهیبا و تضلیلا لإدخالها فی معادله الصراع ضد الرسالیین.

فَاحْذَرُوهُمْ أی خذوا الحیطه المسبقه،و تحصّنوا ضد عداوتهم.و أمره تعالی بالاحتیاط هنا ثم دعوته إلی الصفح و التسامح بعدئذ یدلّ علی أنّ العداوه المعنیّه لیست التی تصل إلی حدّ القتال بل هی العداوه الخفیه،کالتی تستهدف التثبیط و النیل من عزیمه الجهاد لدی الإنسان المؤمن.

و ثمّه ملاحظه جدیره بالانتباه تجدها فی وزن کلمات الآیه من الزاویه البلاغیه،فقد قال تعالی:«عدوّا»بالإفراد،ثم قال:«فاحذروهم»بالجمع، لأنّ العدو قد یکون واحدا منهم و لکنّه مندسّ بین أبناء العائله و مؤثّر فیهم فلا بد أن یحذر المؤمن الجمیع و یتوجّس خیفه من أیّ کلمه تثبیط تتغلّف بالودّ و العاطفه، سواء صدرت من أمه و أبیه أو زوجته و بنیه أو أخته و أخیه،و بهذا الحذر وحده یستطیع أن یتجنّب الفضل الذی وقع فیه الکثیر من الناس،فما أکثر القرارات الصائبه التی ضربت عرض الحائط بسبب دمعه تحلّقت فی جفون الزوجات أو کلمه عاطفیه صدرت من أم أو أب؟!! و لیست الدعوه إلی الحذر تعنی المقاطعه التامّه مع الأسره،کلاّ..بل لا بد أن یتحرک فی علاقاته ضمن معادله متوازنه إحدی کفّتیها الاحتیاط و الحذر،و الأخری

العفو و الصفح و الغفران.

وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا و هـذه ثلاث درجات لصـفه واحـده هى التنازل عن الحقوق الشخصـيه بالسـماحه وسـعه الصدر لصالح الأسـره.و ينبغى للمؤمن أن يسـمو بنفسه إلى آفاق الحلم و السماحه تخلّقا بأخلاق اللّه،و يتحمّل بعض الإساءات من أجل جذب أسرته إلى الرساله.

فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر للمتسـامحين و يرحمهم،و هى أعلى درجـات التسامـح.و تحسـس المـؤمن بحـاجته إلى غفران اللّه و رحمته لا شك يدعوه للتلطّف بمن هو تحت يده و قدرته.

و نعود الآـن إلى معنى الكلمـات الثلاـث:(العفو،الصـفح،الغفران)،فـالعفو هو التنـازل عن حقّ الانتقـام و الممـاثله فى القصـاص و بالذّات عند المقدره،و الصفح درجه أرفع،إذ قد يتنازل الإنسان عن حقّه فى الاقتصاص مثلا و لكنّ علاقته مع الطرف الآخر تبقى كدره بسـبب الإساءه،أمّا إذا صـفح عنه فهو يطوى صـفحه الماضى و يفتح صفحه جديده فتعود علاقته الظاهره به علاقه طبيعيه،و ليس بالضـروره أن تزول الآثار النفسيه الداخليه بذلك،بلى.إذا غفر أزال حتى هذه الآثار،بل و تنازل عن طلب الانتقام من اللّه عزّ و جـل. و هـذه الصـفات ينبغى أن يتحلّى بها المؤمن تجاه أسـرته و الآخرين على كلّ حال و فى كل الظروف،و بالـذّات عنـد ما يحتدم الصـراع المبدئى بينه و بينهم،فإنّ هذا الصـراع ينبغى أن يبقى فى حدود المبدء و لا يتحوّل إلى صراع شخصى مستمر،فإذا عادت زوجته التى كانت تمنعه من العمل فى سبيل اللّه إلى رشدها أو اقتنع أبواه و سائر أسـرته فإنّ عليه أن ينسـى الإساءات التى صدرت منهم تجاهه،و لا يذكّرهم بها،و لا يحمل فى نفسه

غضاضه،و لا يطالبهم بالغرامه،و ما أشبه.

[15]و قد لا تبدر العداوه من قبل الأسره تجاه المؤمن،و لكنّه يفتتن بهم أو بماله،و لربما نجد البعض تحرّضه زوجته أو أسرته على الجهاد و لكنّ تفكيره فى مستقبلها بعده يمنعه من الإقدام عليه،لذلك حذّرنا اللّه عن ذلك بقوله:

إِنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ قد ينجح المؤمن فى مواجهتها و قد يفشل و لكنّها كلّها بالحصر و دون استثناء فتنه،أى أنّها تضعه أمام مفترق طريقين:أحدهما الحق و الآخر الباطل،و تثير فيه نفسه الأماره و الأخرى اللوامه،ليختار بعقله و يمشى بإرادته فى أيّهما شاء.

وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ و إنّما يذكّر ربنا بهذه الحقيقه لأنّ الإيمان الصادق بها كفيل بأن يدفع الإنسان لتجاوز الفتنه بنجاح فيختار ما عند اللّه على ما فى الدنيا،كما أنّ هذه البصيره ترغّب المؤمن ليسخّر الأموال و الأولاد فى سبيل الحصول على ما عنده تعالى، و ليس جعلها عقبه دون ذلك،و فرق بين الإمام الحسين-عليه السلام-الذى جعل أولاده و أصحابه و أهل بيته و أمواله وسيله للتقرّب من اللّه و بين الزبير الذى أدخله افتتانه بولده عبد اللّه فى حرب مع وليّ اللّه و حزبه فى موقعه الجمل،

فقال عنه أمير المؤمنين-عليه السلام- يصف عامل الانحراف فى حياته:«ما زال الزبير رجلا منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد اللّه» (1)، لأنّه الذى دفعه الى حب الدنيا و الرئاسه،و حرّضه على الحرب ضد الإمام-عليه السلام-.و هذه البصيره تجعل المؤمن يتصرّف تصرّفا معتدلا مع أمواله و أولاده،فلا يفرط فى حقّ أبنائه،و لا يبذّر فى صرف أمواله،إنّما يتبع طريقا وسطا يزن كلّ موقف منه

ص:37

1- 1) نهج/حکمه 453

تجاههما بدقه،و يتصرّف بحكمه،و يتجنّب الاسترسال فی موقف إیجابی أو سلبی.

و هکـذا روی المفسـرون حـدیثا عن الرسول-صـلّی اللّه علیه و آله-نسـتلهم منه معنی إیجابیا للفتنه،و أنّها لا تعنی طرد الأولاد أو نبذ الأموال،بل التصرّف الحکیم معها.الحدیث کما یلی:

روی عبـد اللّه بن یزیـد عن أبیه قـال: کـان رسول اللّه یخطب فجاء الحسن و الحسـین-علیهما السـلام-و علیهما قمیصان أحمران یمشـیان و یعثران،فنزل رسول اللّه إلیهمـا فأخـذهما فوضـعهما فی حجره علی المنبر،و قـال:«صـدق اللّه عزّ و جل: إِنَّمٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ أَوْلاٰدُکُمْ فِتْنَهٌ نظرت إلی هذین الصبیّین یمشیان و یعثران فلم أصبر حتی قطعت حدیثی و رفعتهما»، ثم أخذ فی خطبته (۱).

[۱۷-۱۶]و لیس من درع یتحصّن به المؤمنون ضـد الفتن أفضـل من تقوی اللّه،لأنّهـا الحبـل المتین الـذی یوصل الإنسان بربه فی کـل مکـان و فی کـل لحظه من عمره،و فی کـل سعی و قول یصـدر عنه.هـذا أوّلا،و ثانیا:السـماع للّه و لرسوله و الطاعه لهما،و ثالثـا:الإنفـاق فی سبیـل اللّه و التضـحیه بکـل مـا یملکه الإنسـان،فـإنّ ذلک هو السبیل المسـتقیم لنیل ما عنـده تعالی من الأجر،و الإنتصار علی شح النفس الذی هو أساس کل انحراف فی حیاه البشر،و بالتالی الفلاح الحقیقی فی الدنیا و الآخره.

فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ و هذه الآیه بیان لقول اللّه فی موضع آخر: اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ (۲)،و ذلک

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۰۱

۲- ۲) آل عمران/۱۰۲

من وجهين:

الأوّل:أنّ اللّه سبحانه حينما فرض التقوى على الإنسان أعطاه من الاستطاعه ما يمكنه بها إحرازها كما يريدها منه تعالى،

قال الإمام الصادق -عليه السلام-: «ما كلّف اللّه العباد كلفه فعل و لا نهاهم عن شيء حتى جعل لهم الاستطاعه ثم أمرهم و نهاهم» (۱)و

قال-عليه السلام-: «و إنما وقع التكليف من اللّه تبارك و تعالى بعد الاستطاعه،و لا يكون مكلّفا للفعل إلّا مستطيعا» (۲) كما قال تعالى:

لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا (۳).إذن فتقوى اللّه بقدر ما يستطيع الإنسان هى نفس حقّ التقاه.

الثانى:أنّ تقوى اللّه حقّ تقاته تختلف من إنسان إلى آخر باختلاف الظروف و الإمكانات الذاتيه،فتقوى الأعرج و الأعمى و المريض تختلف عن تقوى السليم فى بدنه،و تقوى العالم تختلف عن تقوى الجاهل،و تقوى السجين تختلف عن تقوى الحر،و هكذا..فإذا ما بذل الإنسان كلّ ذرّه من جهد يستطيعه فقد اتقى ربه حقّ تقاته عمليّا.و لذلك فرّق تعالى فى الكم بين إنفاق الموسع و المقتر فقال: لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّٰا آتٰاهُ اللّٰهُ لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ مٰا آتٰاهٰا (۴).

و نستوحى من الآيه:أنّ المؤمن يجب أن يكون واقعيّا فى نظرته إلى الدين، فيتقى اللّه حسب استطاعته و مكنته،و إذا لم يستطع فلا يؤنّب نفسه و لا يقنط من

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۳۴۳

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) البقره/۲۸۶

۴- ۴) الطلاق/۷

رحمه اللّه،بل یفعل بقدر وسعه.مثلا:من لم یستطع طولا أن یصلّی قائما فلا یترک صلاته رأسا،بل یصلّیها عن جلوس،و من لم یستطع أن یعارض حاکم السوء فلا یجاریه بقلبه بل یتقیه ظاهرا و یستمر فی مقاومته فی السر،و هکذا..

قال تعالی: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اللّٰهِ فِی شَیْءٍ إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاةً (۱)،و قال: مَنْ کَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِهِ إِلاّٰ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمٰانِ (۲)..و الحاصل:أنّ الإنسان حینما یضطر إلی التقوی الممکنه عملیّا لسبب مشروع فهو فی الواقع صار إلی التقوی المأمور بها،لأنّ تقوی اللّه حقّ تقاته تکون بالتزام أحکامه سواء کانت أحکاما أوّلیه أو ثانویه،و قد لا تحرز التقوی بحق إلاّ بشرب الخمر و أکل المیته و العمل ظاهریا فی جهاز الحاکم الجائر،کما أکّد ذلک الإمام الکاظم-علیه السلام- لصاحبه علی بن یقطین الذی أراد الاستقاله من رئاسه الوزراء فی عهد هارون حیث منعه و بیّن له بأنّ بقاءه هو الواجب المطلوب شرعا.

و الآیه الکریمه التی نحن بصددها تعبیر عن النظره الواقعیه فی الإسلام،و ینبغی للحرکات الرسالیه اعتبارها أصلا من أصول التحرک حیث أنّ النظره المثالیه إلی الشریعه تجعل الأولویات ضحیّه للأمور الثانویه و الأصول ضحیّه للفروع.

وَ اسْمَعُوا وَ أَطِیعُوا فالمهم إذن لیس الاستماع إلی کلام اللّه و توجیهات القیاده الرسالیه فقط،إنّما الأهم هو الطاعه و الإتباع،لأنّ التوجیه لا یؤثّر فی الواقع إلاّ إذا سلّمنا له و عملنا بمضامینه،و بالذات تلک التی تتطلب من الإنسان التضحیه لأنّها الأصعب،

۱- ۱) آل عمران۲۸/

۲- ۲) النحل۱۰۶/

و التزام الإنسان بها مؤشّر على عمق إيمانه،و اقتحامه عقبه الشح الكبرى. لذا قال تعالى:

وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ أى أنّ الإنفاق يعود على صاحبه بالخير،فهو يزكّى النفس و يزيد إيمانها، و يتقدّم بالمجتمع اقتصاديّا لما يسبّبه من نماء فى الثروه و تدوير لها.و للآيه تفسير آخر هو:أنفقوا خيرا فى مقابل الشر،فإنّ الخير هو الذى يعود للنفس و المجتمع بالنفع.

وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و شحّ النفس هو مجموع الصفات السلبيه التى تعبّر عن حب الذات و حب الدنيا،كالبخل و الحرص و العنصريه و ما أشبه،و إذا انتصر الإنسان على شح نفسه صار من المصلحين لأنّه جذر كلّ ضلال و انحراف و معصيه فى حياه البشر،و لأنّ الإنتصار عليه يفتح الطريق له نحو كل فضيله و صلاح،و لذلك

يحدّثنا أبو قرّه فيقول: رأيت أبا عبد اللّه(الإمام الصادق عليه السلام)يطوف من أوّل الليل إلى الصباح و هو يقول:اللّهم قنى شحّ نفسى،فقلت:جعلت فداك ما سمعتك تدعو بغير هذا الدعاء؟!قال:و أىّ شىء أشد من شح النفس،و إنّ اللّه يقول: «وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (۱)و الإنفاق من أهم العوامل التى تقضى على شح النفس،

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-: «من أدّى الزكاه فقد وقى شح نفسه» (۲) إِنْ تُقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعِفْهُ لَكُمْ

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۳۴۶

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۳۰۱

ما هو القرض هنا؟قال بعضهم:هو الدين،و قال البعض:بل هو كل إنفاق،أو الإنفاق المندوب(بينما الأوّل كان فی عموم الإنفاق).و أنّی کان فإنّ لکل هذه المفردات آثارا مبارکه فی حیاه الفرد و المجتمع،و لها أیضا آثار معنویه تتصل بمصیر الإنسان فی الآخره،إذ تسبّب فی غفران الذنوب باعتباره من الحسنات الکبیره التی تشفع فی السیئات.

وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اللّٰهُ شَکُورٌ حَلِیمٌ فهو یرد القرض مضاعفا بشکره،و یغفر الذنوب بحلمه.

[۱۸]و کلّما کان الإنفاق أصفی من شوائب الریاء و السمعه و المنّ و الاستکبار و ابتغاء المصالح المادیه کلّما کان أقرب إلی اللّه و أنفع للنفس و أزکی لها،و ربما لذلک ختمت السوره بالتذکره بأسماء اللّه:

عٰالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهٰادَهِ یعرف ما ینفق،و یعرف لماذا و بأیّه نیه.

اَلْعَزِیزُ الذی لا یحتاج إلی إنفاق أحد أو نصر أحد،قال سبحانه وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَی اللّٰهُ وَ اللّٰهُ غَنِیٌّ حَمِیدٌ .

اَلْحَکِیمُ الذی یثیب من یثیب بقدر طاعته و إخلاصه،و یعاقب من یعاقب حسب ذنبه و کفره.

نسأل اللّه أن یجعلنا ممن یتبصر هذه الحقائق حتی لا نکون من المغبونین.

ص:۴۲

سوره الطلاق

اشاره

ص:۴۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

من کتاب ثواب الأعمال و عقابها للصدوق(رض)بإسناده عن أبی عبد اللّه الصادق -علیه السلام-قال: «من قرأ سوره الطلاق و التحریم فی فریضه أعاذه اللّه من أن یکون یوم القیامه ممّن یخاف أو یحزن،و عوفی من النّار،و أدخله اللّه الجنّه بتلاوته إیّاهما،و محافظته علیهما؛لأنّهما للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله» تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۴۶

ص:۴۵

الإطار العام

فی بادئ الأمر یتراءی أنّ سوره الطلاق تتحدث عن قانون الطلاق، و لکن حینما نتدبر فی سیاقها نجد محور السوره الحدیث عن التقوی،و ما الحدیث عن قانون الطلاق و سنن اللّه فی الغابرین و..و..إلا إطارا لهذا المحور،و السؤال: ما هو سبب مزج السیاق بین الأحکام الشرعیه و بین الأوامر المؤکّده بالتقوی؟ و الجواب:

۱-إنّ التقوی هی أفضل ضمانه لتنفیذ الأحکام الشرعیه،و التزام الحدود الإلهیه،و الإعتبار بالمواعظ،و العمل بقیم الذکر،و بالذات فی صورتین:

الأولی:القضایا الفردیه التی لا تتصل بالنظام السیاسی للأمه بقدر اتصالها بالنظام الاجتماعی و بالقرارات الفردیه للإنسان.

الثانیه:غیاب النظام الإسلامی المتکامل(المجتمع الإسلامی،و الحکومه الإلهیه)إذ مع وجود هذا النظام یصعب علی الفرد أن یتجاوز حدود اللّه،لأنّه

سیجـد من یمنعه و یقف فی طریقه،و بالـذات فی المسائل الاجتماعیه،لـذا فقد یلتزم الإنسان بالأحکام خشـیه الناس و القانون،أمّا إذا نمت روح التقوی عند أحد فإنّ من ربه ستکون أعظم من کلّ شیء،و ذلک ما یدعوه لاتباع الحق فی أیّ مکان و زمان حتی لو لم یکن ثمّه نظام إسلامی قائم،بل و لو کان وحده لا یراه أحد من الناس.

۲-انّ حقیقه التقوی لاـ تنمو فی القلب إلاّ إذا اتصـلت بمجمل سـلوک الإنسان،فهی لیست مفهوما ذهنیّا أو ماده للمعرفه،إنّما هی صبغه حیاه و لون سـلوک،و منهـج تکامل،و موقف من الأحـداث المتحرکه حول الإنسان،لذلک یحدّثنا الوحی عنها عبر تیارات الحیاه و تطوراتها،و أمواج ضغوطها المختلفه،لکی لا نتعامل مع التقوی کقضیه مجرّده،و بعیده عن التفاعل فی قضایانا الیومیه.

و بهـذه الطریقه تتصل التقوی بکلّ التعالیم الـدینیه،فإذا أمر اللّه بالتقوی عنـد الحدیث عن قانون الطلاق فإنّ معناها یکون الالتزام بأحکام اللّه و حدوده فیه.

ص:۴۷

[سوره الطلاق (۶۵): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا اَلْعِدَّةَ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ رَبَّكُمْ لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لاٰ يَخْرُجْنَ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اَللّٰهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اَللّٰهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاٰ تَدْرِي لَعَلَّ اَللّٰهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً (۱) فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فٰارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا اَلشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اَللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اَللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اَللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (۳) وَ اَللاّٰئِي يَئِسْنَ مِنَ اَلْمَحِيضِ مِنْ نِسٰائِكُمْ إِنِ اِرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاٰثَةُ أَشْهُرٍ وَ اَللاّٰئِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاٰتُ اَلْأَحْمٰالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اَللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (۴) ذٰلِكَ أَمْرُ اَللّٰهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اَللّٰهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئٰاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (۵)

ص:۴۹

وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً

هدى من الآيات:

الأسره كما يراها الإسلام هى اللبنه الأولى فى بناء المجتمع الإسلامى،و قد أولاها القرآن اهتماما بالغا باعتبارها حصن الفرد و المجتمع،و المدرسه التى تتربى فيها الأجيال،فهو ما يفتأ يعالج القضايا المتصله بها بين سوره و أخرى،ليرسم المنهج المتكامل لمسيره النكاح و المعاشره و التربيه،و لنظامها الداخلى(الدخول و الخروج،و الأكل و النوم)و علاقاتها المختلفه،و فيما بينها حالات الشقاق و الطلاق.

و بالرغم من أنّ بعضا من المذاهب كالمسيحيه الكاثوليكيه تحرّم الطلاق البته، و بالرغم من أنّه فى شريعه الإسلام نفسه أبغض الحلال إلى اللّه،

فقد جاء الحديث المأثور عن النبى-صلّى اللّه عليّه و آله-أنّه قال: «تزوّجوا و لا تطلّقوا فإنّ

الطلاق يهتزّ منه العرش» (۱)و

جاء فی حدیث آخر عنه-صلّی اللّه علیه و آله-: «لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبه فإنّ اللّه لا يحب الذوّاقين و الذوّاقات» (۲) إلّا أنّه تعالی يشرّعه لأنّ الروابط الزوجيه فی نظر الإسلام إنّما وضعت لأهداف فرديه و أسريه و اجتماعيه و حضاريه،فإذا أصبحت لا تؤدی الأغراض أو أضرّت بها فإنّ الطلاق يصير الأولی منها.

و حيث أنّ الطلاق عمليه هدم لكيان الأسره فقد أسّس اللّه دينه علی الوقايه منه،و فی هذا السياق تنتظم الكثير من القيود التی وضعت ليصبح الطلاق مشروعا،كوجوب العدّه،و بقاء الزوجه فی بيت زوجها حينها لا هو يخرجها و لا هی تخرج منه،و حضور شاهدی عدل حين الطلاق،و ما إلی ذلك.

و لا يعتبر الإسلام الطلاق مسأله شخصيّه يتصرف فيها الرجل كيف يشاء -كما يظن البعض،و كما هی عند بعض المذاهب-إنّما هو قضيه اجتماعيه قس كيان الأسره بصوره خاصه و المجتمع بصوره عامه.لذا يضع اللّه حدودا يحذّر من تجاوزها،بل لا يقع الطلاق من الناحيه القانونيه و الواقعيه و الشرعيه إلّا ضمنها.

و يلاحظ إلی جانب السياق الذی يعالج مشكله الطلاق من الناحيه القانونيه تأكيدات متتاليه علی أهميه التقوی و بصيغ مختلفه،لأنّها الدرع التی تحصّن المجتمع ضد المشاكل كالطلاق،و لأنّها الضمانه الحقيقيه و الأهم لالتزام الإنسان بحدود اللّه و تنفيذها فی كلّ مكان و زمان.

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۳۰۴.

۲- ۲) المصدر.

بينات من الآيات:

[۱-۲]فی أوّل آیه من السیاق یوجّه اللّه الخطاب إلی رسوله بصوره خاصه:

یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ باعتباره مسئولا عن الأمه و شاهدا علیها،ثم یعمّ المسلمین ببلاغه فائقه:«طلّقتم»،و ذلک لکی ینسف المزاعم التی تقول بأنّ علاقه الرجل بزوجته و تدبیره لشؤونها أمرا خاصّا به،و لا یمتّ بصله إلی الدّین الذی تمثّله القیاده الإسلامیه،و یؤکّد بأنّ هذا الوهم غلط فاضح،لأنّ علاقه الرجل بزوجته لا تقف عند حدود مصالح الفرد بل تنتشر إلی کلّ امرأه.أو لیست الزوجه عضوه فی المجتمع الإسلامی،و بالتالی لها امتداداتها و علاقاتها بالمجتمع و بقیادته؟فلا بد إذا أن یکون التعامل معها ضمن حدود اللّه و توجیه القیاده الإلهیّه،و لذلک بدأ الخطاب بالنبی ثم توسع إلی سائر المسلمین.

یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ و الملاحظ أنّه تعالی قال: طَلَّقْتُمُ بصیغه الماضی،ثم قال:«فطلّقوهن»ممّا یدل علی أنّ للطلاق مرحلتین:المرحله النفسیه الداخلیه،و المرحله القانونیه الظاهریه،و تلک تسبق هذه إلاّ أنّها لا تکفی لتحقّق الطلاق لأنّه یجب إجراء الطلاق وفق حدوده و منها الصیغه التی تفید إیقاعه کقول الرجل:زوجتی فلانه طالق،أو:أنت طالق..کما یفید قوله:«طلقتم»الجزم و الاستقرار أی جزمتم و استقریتم علی هذا القرار فی أنفسکم و أردتم إیقاعه.

و لعل کلمه«النساء»تنصرف إلی الزوجات اللاتی تمّ الدخول بهن،فإنّ غیر المدخول بها لیس لها عدّه،لأنّ الحکمه منها حسب الأخبار منع اختلاف المیاه،و هذا منتف إلاّ فی المدخول بهن.

ص:۵۳

و لأنّ هناك طلاق الجاهليه و طلاق البدعه لم يدع الوحى الكلمه هكذا إنّما حدّد النوع المشروع و الصحيح من الطلاق،و هو الذى الآيات اللاحقه تأتى على بيان حدوده و شروطه،و من شروطه العده،و أن يتمّ فى طهر لم يواقعها فيه،لأنّه وحده الذى يدخل فى حساب العده الشرعيه (۱).

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ و كلمه«طلّقوهن»من الناحيه القانونيه تعتبر تشريعا للطلاق،الأمر الذى يختلف فيه الإسلام عن بعض المذاهب التى حرمته و منعته فلم تحل المشكله،بل تسبب فى كثير من المشاكل النفسيه و الأسريه و الاجتماعيه.و لم يقل اللّه للعده لكونها تختلف عن امرأه لأخرى،فعده الحامل تختلف عن غير الحامل،قالوا فى تفسير كلمه«لعدّتهن»أى لزمان عدتهن،و ذلک أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه،عن ابن عباس و ابن مسعود و الحسن و مجاهد و ابن سيرين و قتاده و الضحّاک و السدّى،فهذا هو الطلاق للعده لأنّها تعتد بذلک الطهر من عدتها،و تحصل فى العده عقيب الطلاق.فالمعنى فطلقوهن لطهرهن الذى يحصيهن من عدتهن،و لا تطلقوهن لحيضهن الذى لا يعتدون به من قرئهن،فعلى هذا يكون العده الطهر (۲).

و تهدينا الآيه إلى أنّ المرأه لا تنفصل كلّيا عن زوجها بمجرد أن تنطلق من لسانه صيغه الطلاق الأولى،لتكون حرّه فى اختيار غيره مثلا،إنّما تبقى فى بيته و تحت مسئوليته أثناء عدتها،فإذا انتهت العده سرى مفعول الطلاق عمليا فتنفصل المرأه عن زوجها تماما لتصبح فى غير عهدته إلاّ أن يرجع إليها و ترجع إليه،لذلک قال تعالى:

۱- ۱) قال الامام الصادق عليه السلام «لا طلاق إلاّ على طهر من غير جماع» نور الثقلين/ج ۵ ص ۳۴۷ نقلا عن أصول الكافى.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۳۰۳.

وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللّهَ رَبَّكُمْ و قد أمر الرجل بالذات بالإحصاء لأنّ الطلاق بيده و لأنّه المسؤول عن المرأه فى سكنها و نفقتها و حمايتها،فلا بد أن يحصى لكى يعرف بالضبط متى يمكنه التحلل من هذه المسؤوليه الشرعيه.و التأكيد على التقوى بعد الأمر بإحصاء العدّه يهدينا إلى ضروره الدقه فى الحساب،لأنّ التقوى هى التى تمنع الكذب و التلاعب.و فى الآيه تحذير للزوجين بأنّ اللّه رقيب و شاهد لا يمكن مخادعته أبدا،و ينبغى اتقاء سخطه و عذابه.و لان فتره العده مصيريه بالنسبه لعلاقه الطرفين ففيها يراجع الرجل نفسه و يقيّم زوجته من جديد ليقرر الرجوع إليها أو الانفصال عنها فيجب عليه أن يراقب اللّه من كلّ ذلك و يكون منصفا.و لعل الرجل بالذات يستطيع مضارّه زوجته فيتلاعب بالمده بعيدا عن علم أىّ أحد،و حيث لا يوجد النظام الإسلامى المتكامل فهو قادر على صنع ما يشاء دون أن يواجه أىّ إجراءات قضائيه و قانونيه تخالف هواه،لذا فهو محتاج إلى مراقبه اللّه قبل كل شىء و تقواه(باعتبارها أهم الضمانات التنفيذيه للحدود و الشرائع).

و يوصل القرآن الدعوه للتقوى بالنهى عن إخراج المطلقات من بيوت الزوجيه قبل العده،و هكذا نهيهن عن الخروج،لأنّ ذلك هو الآخر يحتاج إلى المزيد من خشيه اللّه و تقواه.

لاٰ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لاٰ يَخْرُجْنَ إذن فقول الرجل لامرأته:أنت طالق لا يخرجها من مسئوليته،و لا يبرّر لها التمرد عليه..فإنّ البيت يبقى بيتها لا يجوز له إخراجها منه،و هى تبقى فى عهدته لا يحق لها الخروج من تحت يده ما دامت العده لم تنقض

«ثلاثه قروء و هى ثلاث حيضات،و إن لم تكن تحيض ثلاثه أشهر،و إن كان بها حمل فإذا وضعت

انقضی أجلها» (۱)کما یقول الإمام الصادق-علیه السلام-.

و لعل بقاء المرأه فی بیت زوجها أثناء العده-بالذات مع ملاحظه ما ندب إلیه الإسلام من التبرج و التزین لزوجها-صلاح کبیر،باعتباره یشدهما لبعضهما، و یعید الرجل إلی زوجته من زوایا إنسانیه عاطفیه و جنسیه حیث یری ضعفها و انکسارها بین یدیه و حیث یری الزینه و الجمال،و من زاویه دینیه باستشعار التقوی إن کان ثمّه طریق للرجعه و الانسجام.

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «المطلّقه تکتحل و تختضب و تطّیب و تلبس ما شاءت من الثیاب لأنّ اللّه عزّ و جلّ یقول: لَعَلَّ اللّهَ یُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِکَ أَمْراً لعلها أن تقع فی نفسه فیراجعها» (۲)و یستثنی القرآن مبرّرا واحدا تبین بسببه الزوجه من زوجها مباشره بحیث یجوز له إخراجها من بیته فلا یکون بیتها و لا یتحمل مسئولیه الإنفاق و ما أشبه فی العده، و هو أن تأتی بفاحشه.

إِلاّٰ أَنْ یَأْتِینَ بِفٰاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ الأقرب أنّ الفاحشه هی المعاصی الجنسیه و أظهرها الزنا و السحاق،لقوله تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنیٰ إِنَّهُ کٰانَ فٰاحِشَهً وَ سٰاءَ سَبِیلاً (۳)،و فی ذلک جاء الحدیث المأثور عن الإمام الصادق-علیه السلام-حیث قال فی تفسیر الآیه:

إلا أن تزنی فتخرج و یقام علیها الحد (۴)..

۱- ۱) تفسیر القمی/ج ۲ عند الآیه الرابعه.

۲- ۲) تفسیر نور الثقلین ج ۵ ص ۳۵۲.

۳- ۳) الإسراء/۳۲.

۴- ۴) تفسیر نور الثقلین ج ۲ ص ۳۵۰.

و لكنّ الفاحشه المبيّنه تعم حتى سائر الـذنوب الكبيره،و بالـذات تلك التى تؤثر فى العلاقات الزوجيه،كما جاء فى عده نصوص منها

المروى عن الإمام الباقر -عليه السلام- فى تفسير الآيه«أنّها الإيذاء» (۱)، و منها

المأثور عن الإمام الرضا -عليه السلام-قال: «الفاحشه أن تؤذى أهل زوجها و تسبهم» (۲).

وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ و ما دامت حـدود اللّه فهى مفروضه و واجب مراعاتها بالسير على هداها و الخريطه التى ترسـمها،لما فيها من صلاح للفرد و للأسره و المجتمع،و لا يجوز للإنسـان أن يصـطنع لنسـفه حـدودا غيرها و يتبعها باللف و الـدوران،أو بادّعاء أنّ القضيه شخصيه،كلّا...إنّما التشريع للّه وحده.

وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لأنّه لا تبقى سـعاده و لا قيمه فى العلاقات الزوجيه التى لا تحكمها الضوابط، و لأنّ المجتمع الـذى لا يحـترم النظـام يحطم بعضه بعضـا و يسوده الظلم و التبـادل، و لكنّ أجلى صوره لظلم الإنسـان نفسه بتعـدى حـدود اللّه العذاب الذى يلقاه فى الآخره جزاء انتهاكه حرمه أحكام اللّه و شرائعه.

و يبيّن اللّه الحكمه الأساسيه التى جعلت من أجلها العـده،و وجب بقاء المرأه فى بيت زوجها أثنائها،و هى رجاء تغيّر المواقف و عوده العلاقه إلى حالها الطبيعى حيث الوئام و المحبه،فلا يصـح إذن أن يحكم الإنسان فى لحظه غضب و انتقام و ردّه فعل حكم يأس على علاقته مع شـريكه حياته بأنّها لا تصلح أبدا،فإنّ الأمور بيد اللّه يبدّل فيها كيف يشاء،فربما عطف القلوب على بعضها،و ألفها بعد الفرقه

ص:۵۷

۱- ۱) المصدر ص ۳۵۱.

۲- ۲) المصدر.

برحمته.

لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً و لعلّنا نهتدى هنا إلى فكره تشريعيه هامه هى:أنّ تشريع الطلاق من قبل اللّه عزّ و جل ينبغى أن لا يتنكر له البشر،أو يلغوه من قائمه القوانين الاجتماعيه،لأنّه إذا يرى فى موارده الموضوعيه و ضمن الحدود الإلهيه فإنّه يعود على المجتمع بالنفع، فإذا بتلك الروابط الضعيفه تصير متينه جدا،و تنتهى المشاجرات و أسباب الخلاف، و يزداد الحب بين الطرفين فلا يفكّرا إلاّ فى المزيد من التلاحم بعد أن ذاقا طعم الفراق بينهما،و بعباره:يحدث تحوّل إيجابى فى الروابط الزوجيه و الأسريه بسببه.

و معرفه الإنسان أنّه مكره على قبول زوجته لا يبعث فيه التطلع إلى تطوير علاقته معها و تنميه حبه لها بل يجعلها و كأنّها شر لا بد منها.

و إذا انقضت العده هنالك لا يسمح له بأن يذرها كالمعلّقه انتقاما كما يفعل أهل الجاهليه الذين لا يؤمنون بحدّ و لا قيمه فى العلاقه الزوجيه سوى الهوى و الشهوه،كلاّ.إنّه مخيّر بين أمرين لا ثالث لهما،فأمّا أن يرجع إلى العلاقه الطبيعيه مع أهله و التى شعارها المعروف(الحب و الاحترام و العقلانيه)،و أمّا الفراق و الانفصال بالمعروف(بعيدا عن التشفّى و الأذى و سوء الخلق).و يقدّم القرآن خيار الرجوع ترجيحا له على الفراق لأنّ اللّه يريد خير الأسره و المجتمع و الحفاظ على كيانهما بالحفاظ على تماسكهما من خلال العلاقات الوطيده التى منها العلاقات الزوجيه.

فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فٰارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ و استخدام القرآن تعبير أمسكوا يؤكد على أنّ الطلاق فى الإسلام قبل انتهاء العده لا يعنى إنهاء العلاقه الزوجيه و طرد الزوجه من أسرتها،إنما يبقى كل شيء

ص:٥٨

على طبيعته،فالزوج لا يزال زوجها و القائم عليها(ممسک بها)إلّا أن يختار الفراق فهنالک تتغيّر الأمور،فتطلق من زوجها بالمفهوم العرفی.

وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ على الطلاق إذا کان هو الخيار لا الرجعه،لأنّها لا تحتاج إلی شهود بل يکفی التصريح بإرادتها أو مقاربه الزوجه،

فقد جاء فی کتاب الکافی قال أبو الحسن موسی الإمام الکاظم-عليه السلام- «إنّ اللّه تعالی أمر فی کتابه فی الطلاق و أکد فيه بشاهدين و لم يرض بهما إلّا عدلين» (۱)و أهميه الشهود فی الطلاق لأمور منها وضع النقاط علی الحروف فی الإرث و فی حريه المرأه بعد فراق زوجها.فلو لا الشهود لکانت المطلقه تدعی فی الإرث ما ليس لها،و لکان الرجل يمنع مطلقته من الزواج بادعاء أنّها لا تزال فی عصمته مثلا.

و لکنّ الشهاده العظمی التی يجب علی المؤمن اعتبارها و إقامتها هی الشهاده للّه.

وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ و لا تقوم الشهاده للّه إلاّ بشروطها التی تتوافر عند المتقين الذين يؤمنون بالغيب، لأنّ اللّه لا يحضر عند العيون و الأسماع إنما يحضر عند القلوب المؤمنه به عزّ و جل.

و کذلک الآخره ليست شيئا محسوسا فی الدنيا إنّما يؤمن بها المؤمنون بالغيب.

ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أی يؤمن بعلم اللّه بالحقائق کما تکون،و يؤمن بالجزاء بعد البعث علی کلّ

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۳۵۲.

خير و شر،و شهاده اللّه لمن يؤمن بذلك أعظم واعظ له عن مخالفه أمره و حدوده علنا أو بما يسمّى بالحيل الشرعيه.

و قد أورد الدكتور بدران أبو العينين أستاذ الشريعه الإسلاميه فى كلّيه الحقوق بجامعتى الإسكندريه و بيروت الغربيه بحثا حول الشهاده على الطلاق و دورها فى تقليل نسبه الطلاق،هذا نصها من كتابه:الفقه المقارن للأحوال الشخصيه:

(ذهب أكثر الفقهاء على أنه لا يشترط الإشهاد على الطلاق،بل استحبوه فقط استنادا إلى أنّه لم يؤثر عن الرسول و لا صحابه رسول اللّه-صلى اللّه عليه و آله-اشتراط الشهود فى الطلاق،و حملوا الأمر الوارد فى قوله تعالى وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ على الندب كما فى: وَ أَشْهِدُوا إِذٰا تَبٰايَعْتُمْ ،و اشترط الإماميه و الظاهريه لوقوع الطلاق إشهاد عدلين،لقوله تعالى: فَإِذٰا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فٰارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ الطلاق/٢ فاللّه سبحانه طلب الإشهاد على الطلاق الذى سيق الكلام لبيان أحكامه،و من المستهجن أن يعود طلب الإشهاد إلى الرجعه،لأنّها إنّما ذكرت تبعا و استطرادا، كما قالوا إنّ من المعلوم أنّه ما من حلال أبغض إلى اللّه من الطلاق،فالدين الإسلامى لا يرغب فى أىّ نوع من أنواع الفرقه،و لا سيما فى العائله و الأسره،و على الأخص فى الزوجيه بعد ما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى.فالشارع بحكمته العاليه يريد تقليل وقوع الطلاق و الفرقه،بتكثير قيوده و شروطه بناء على القاعده المعروفه من أنّ الشىء إذا كثرت قيوده عز،أو قلّ وجوده.فلهذا اعتبر الشاهدين العدلين للضبط أوّلا،و للتأخير و الأناه ثانيا،عسى إلى أن يحضر الشاهدان،أو يحضر الزوجان،أو أحدهما عندها يحصل الندم،و يعودان إلى الألفه،يشير إلى هذا قوله تعالى: لاٰ تَدْرِى لَعَلَّ اللّٰهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً و أيضا قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ،فهذا الأمر

بالشهاده جاء بعد ذكر إنشاء الطلاق،و جواز الرجعه،فكان المناسب أن يكون راجعا إلى الطلاق،و إنّ تعليل الإشهاد بأنه يوعظ به من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر يرشح ذلك و يقويه،لأنّ حضور الشهود العدول لا يخلو من موعظه حسنه يزجّونها إلى الزوجين،فيكون لهما مخرج من الطلاق.

فإذا لم يشهد على الطلاق شاهدين ظاهرهما العداله يسمعان إنشاء الطلاق كان غير واقع،و كذا لا يقع إذا أشهد عدلا واحدا أو فاسقين يكون باطلا، فإنّهم قالوا:إنّ بالإشهاد على الطلاق يظهر التناسق بين إنشاء الزواج و إنهائه،بل قالوا:

إنّه لو طلق ثم أشهد لم يكن ذلك شيئا،و الشرط أن يكونا رجلين عدلين،فلا شهاده للنساء منفردات و لا منضمات للرجال.

و رأى الشيعه الإماميه هو الراجح إذ أنه يضيّق دائره الطلاق التى اتسعت الآن كثيرا،كما يسهل إثباته فيما لو وقع خلاف بين الزوجين فى الطلاق،و يجرى العمل فى مصر على أنّه يجب على الموثق«المأذون»أن يجرى الطلاق بحضور شاهدين يثبتهما فى إشهاد الطلاق،و يوقّعان على وثيقه الطلاق بالشهاده.و قد نص قانون حقوق العائله فى الماده(١١٠)على أنّ الزوج الذى يطلّق زوجته مجبور على إخبار المحاكم بذلك) (١).

و هذه شهاده بصوره أخرى يقرها القانون المدنى نظرا لأهميتها و واقعيتها.

و يقول الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ و رئيس قسم الشريعه الإسلاميه بكلّيه الحقوق بجامعه عين شمس بالقاهره فى كتابه:(الأحوال الشخصيه)مشيدا برأى الإماميه فى الشهاده:(و هذه وجهه نظر يجب عدم التغاضى عنها،فإنّ الأخذ

١- ١) الفقه المقارن للأحوال الشخصيه بين المذاهب الأربعه السنيه و المذهب الجعفرى و القانون طبعه دار النهضه العربيه ص ٣٧٨.

بهذا الرأی یمهّد السبیل للصلح فی کثیر من الحالات حقّا) (۱).

و من هنا

جاء فی الحدیث المأثور عن الإمام الکاظم-علیه السلام-أنّه قال لأبی یوسف(الفقیه الحنفی الشهیر): «یا أبا یوسف إنّ الدین لیس بقیاس کقیاسک و قیاس أصحابک.إنّ اللّه تبارک و تعالی أمر فی کتابه فی الطلاق و أکد فیه بشاهدین،و لم یرض بهما إلاّ عدلین،و أمر فی کتابه بالتزویج فأهمله بلا شهود،فأتیتم بشاهدین فیما أبطل اللّه،و أبطلتم شاهدین فیما أکّد اللّه تعالی» (۲).

و یعود القرآن لیؤکد علی أهمیه التقوی بالذات فی الظروف الصعبه و الحرجه، فإنّها قبل کل شیء سبیل الإنسان للانتصار علی المشاکل و حلّها،لما فیها من زخم إیمانی یثبّت المؤمن علی الحق،و لأن التقوی فی حقیقتها برنامج متکامل یجد فیه حلاّ لکلّ معضله و مخرجا من کلّ حرج مهما کان الظاهر باعثا علی الیأس و القنوط.

وَ مَنْ یَتَّقِ اللّٰهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً و تنقض هذه الآیه الکریمه ظنون البعض بأنّ اتباع شرع اللّه و أحکامه یضیّق علی الإنسان مدار حریته،و یسبّب له فی الحرج و الضیق،کلاّ..إنّما یصل البشر لأهدافه و یتخلص من مشاکله،و یجد الحلول الناجعه لها و المخارج من العسر و الحرج باتباع سنن اللّه و أحکامه،و ذلک لأنّ سنن اللّه کما السبل اللاحبه التی لو مشی علیها الإنسان بلغ أهدافه بیسر و بلا عقبات،و من یتقی اللّه یتقی-فی الواقع-الانزلاق عن هذه السنن إلی المتاهات التی لا تزید السائر فیها إلاّ ضلالا و بعدا عن أهدافه،فقد تبدو للبعض أنّ السرقه و الانتهاب و الحیله و الغش و الظلم

۱- ۱) الأحوال الشخصیه للدکتور محمد یوسف موسی ص ۲۷۱ طبعه ۱۹۵۸ م.

۲- ۲) نور الثقلین ج ۵ ص ۳۵۲.

و الاعتـداء و الربا و سائر الطرق المحرمه هى وسائل جيـده للارتزاق لما فى بعضـها من ربـح عاجل،إلّا أن عاقبه هـذه الطرق هى الخسـاره،بينمـا السـعى النظيف و الكسب الحلاـل هو بـاب الرزق الواسع و السبيـل اللاحب للثروه المشـروعه،أما غير المؤمن فهو ينهزم أمام الأزمات و المشاكل إلى حد الانتحار،و كثيرهم الذين انتحروا بسـبب عقده الفشل فى العلاقات الزوجيه أو الجنسيه.و فى تضـاعيف الآـيه إشـاره إلى أن المآزق التى يتورط فيها الإنسان تأتى فى الأغلب نتيجه ذنوبه و مخالفته لأحكام اللّه،فاذا اتقى ابتعـد عن الذنوب و نفذ القوانين،و هل نأتى الطرق المسدوده إلّا بسـبب مخالفه القوانين و الأنظمه؟! [۳]و لأن الفقر و الضيق من المآزق التى يواجهها الرجل فى إداره أسرته و الإنفاق على أهله و عياله،فإن الإسلام يسعى أن لا يكون مبررا للطلاق،و ذلک من خلال تنميه روح الأمل باللّه و التوكل عليه فى روعه بأنّه يضـمن له رزقه،و هـذه الأفكار و المنهجيه ترتكز على قيمه أساسـيه فى الإسلام هى إيمانه بضروره دفع الإنسان باتجاه المزيد من تحمل المسؤوليه و ليس تبرير التهرب منها.

وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاـ يَحْتَسِبُ أى أن هنـاک آفاقا للرزق لا يتوقعها الإنسان لمحـدوديه علمه و إحاطته يفتحها اللّه له،و خير شاهد على ذلک ما يكتشـفه العلم الحديث من الوسائل و الآفاق الجديده للتنميه و الاستثمار و الإقتصاد و التى ما كانت تخطر على بال أحد منذ قبل،

جاء فى الحديث المروى عن الإمام الصادق-عليه السـلام-فى رسالته إلى بعض أصـحابه: «أمّا بعد فإنى أوصـيک بتقوى اللّه،فإنّ اللّه قد ضمن لمن اتقاه أن يحوّله عما يكره إلى ما يحب،و يرزقه من حيث لا يحتسب،فإياک أن تكون ممن

یخاف علی العباد من ذنوبهم،و یأمن العقوبه من ذنبه» (۱)و

قـال علیه السـلام : «إنّ اللّه عزّ و جل جعل أرزاق المؤمنین من حیث لا یحتسـبون، و ذلک أنّ العبـد إذا لم یعرف وجه رزقه کثر دعاؤه» (۲)و

قال-فی حدیث آخر یفسر هذه الکلمه-: «یبارک له فیما آتاه» (۳)و الایمان بهذه الحقیقه یقشع عن عقل الإنسان و روحه سحب الیأس و یفکّ أغلاله،و یدعوه إلی المزید من البحث و السعی طلبا لتلک الآفاق.و ما دام ربنا یرزقنا من حیث لا نحتسب فبالأولی أن یأتنـا رزقه من حیث نتوقع حیث نعمـل و نسـعی و نتبع سـبله،و من المعروف:أنّ مالتز کان قـد حـذّر العالم قبل قرن من نقص هائل فی الموارد الغـذائیه فی هـذا القرن،و اتبعه الکثیر من الکتّاب و المؤسـسات الدراسـیه، بینما فتـح اللّه آفاقا جدیـده فی حقل التقدم العلمی و تنمیه الموارد الغذائیه التی تضاعفت خلال القرن الحاضر..و تبشّر الدراسات بأنّها ستتضاعف فی المستقبل.

إنّ آفاق التقدم لا تحد،و إنّ قدرات الإنسان علی التکامل عبرها لا تحصـی، و إنّما الیأس و سائر الأغلال و الأصـر تقید البشر من الانبعاث،و لو عرف الإنسان قیمه التوکل علی اللّه فاتقی ربه لرزقه اللّه من حیث لا یحتسب.

و لاـ ریب أنّ الآـیه لاـ تـدعونا إلی الکسل و الجلوس فی البیت علی أمل نزول رزق اللّه بالمعجزه،کلاّ..بل ینبغی النظر لمعناها و التدبر فیها ضـمن الأصول العامه التی جاء بها الإسـلام و الموجوده فی الآیات الأخری،کأصل السـعی و العمل و الکدح، بل الآیه نفسها تشیر إلی ذلک فی الخاتمه و تدعو إلی نفض غبار الیأس و القنوط،

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۵۵.

۲- ۲) المصدر/ص ۳۵۴.

۳- ۳) المصدر/ص ۳۵۷.

و الانبعاث بروح الأمل و التوكل.كذلك الآيه تواجه الوسوسه الشيطانيه التى تجعل البعض يزعم أن الرزق لا يتأتّى إلاّ عبر الحرام،لذلك يجد مثلا انفصاله عن دوائر الأنظمه و مؤسساتها أمرا لا يطاق،بينما لو توكلنا على اللّه فسوف نجده عند حسن ظننا به.

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أى الذى يكفيه،و لا ينبغى للمؤمن أبدا أن يشك فى قدره اللّه على تحقيق ما يعد به،مهما كانت الظروف صعبه و معاكسه كما يبدو للإنسان فإن إرادته تعالى فوق كل شيء.

إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ بلى.نحن البشر تثنينا الأسباب،و تحول بيننا و بين ما نريد العقبات و الموانع، لأنّ إرادتنا محدوده،أما اللّه فإنّ إرادته مطلقه.و لكنّه تعالى أبى أن يجرى الأمور إلاّ بحكمه و موازين.

قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً على الإطلاق،فليس من شيء خارج على هذا القانون الإلهى العام،و كما تحكم المقاييس الظاهريه الحجم و الوزن و الكثافه و اللون و الأجل وجود كل شيء و من ذلك المشاكل فإنّ هناك سننا و قوانين معنويه تحكمه أيضا،فلا يمكن للإنسان أن يجد رزقا حلالا من غير سعى مادى أو معنوى.و وعد اللّه برزق من يتقيه و يتوكل عليه أمر من أموره و هو لا ريب بالغه،و لكنّه جعل لذلك موازين و ضوابط «قدرا» ينبغى للإنسان معرفتها و حلّ مشاكله من خلالها،و يجب عليه السعى فى الحياه لتحقيق أهدافه و تطلعاته و مقاصده انطلاقا من الإيمان بهذه الحقيقه فى تدبير

اللّه لشؤون خلقه.من هنا

جاء فی تفسیر هذه الآیه:«أنّ الإمام الصادق-علیه السلام-سأل بعض أصحابه فقال:ما فعل عمر بن مسلم؟فقال له البعض:

جعلت فداک أقبل علی العباده و ترک التجاره،فقال:ویحه أما علم أنّ تارک الطلب لا یستجاب له.إنّ قوما من أصحاب رسول اللّه لمّا نزلت: «وَ مَنْ یَتَّقِ اللّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ »أغلقوا الأبواب،و أقبلوا علی العباده، و قالوا:قد کفینا،فبلغ ذلک النبی فأرسل إلیهم قال:ما حملکم علی ما صنعتم؟ فقالوا:یا رسول اللّه تکفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا علی العباده،قال:إنّه من فعل ذلک لم یستجب له،علیکم بالطلب» (۱).

[۵-۴]و کما تتجلی هذه الحقیقه فی عالم التکوین الطبیعیه الإقتصاد و الفیزیاء و ما أشبه،فإنها تطبع آثارها فی عالم التشریع أیضا،حیث فرض اللّه عدّه معینه کحق من حقوق المرأه و واجب من واجبات الرجل بعد الطلاق.

و بالطبع إنّ هناک حکمه لیست لذات الاعتداد و حسب،بل لاختلاف العده من امرأه إلی أخری کذلک،قد تتکشف للإنسان فی مفردات العده بالتفکیر العمیق.

وَ اللاّئِی یَئِسْنَ مِنَ الْمَحِیضِ مِنْ نِسائِکُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فی کونهن هل یئسن أم لا؟ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَهُ أَشْهُرٍ بناء علی الأصل السابق هو عدم الیأس،مما یجعل حکمهن کحکم النساء العادیات.أمّا لو تبین کونهن یائسات فلیست لهن عده،

فعن الإمام الصادق -علیه السلام- فی التی یئست من المحیض یطلقها زوجها قال:«قد بانت منه

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۱۵۵.

و لا عده علیها» (۱). و یظهر من النصوص أنّ الأشهر هی الأشهر الهلالیه.

وَ اللاّٰئِی لَمْ یَحِضْنَ إذا ارتیب فی کونهن بلغن الحیض فإنّ عدّتهن کالمشکوک فی یأسهن،أی ثلاثه أشهر،تأسیسا علی الاحتیاط،فإن کنّ لم یحضن فلیس ذلک بضارّ أحدا،و إن تبین حیضهن یکون الرجل قد أحرز التکلیف الشرعی الملقی علیه.و إلاّ فإن الصبیّه لا عده لها و لو دخل بها،

فعن علی بن إبراهیم،عن أبیه عن بن محبوب،عن حمّاد عن عثمان،عمّن رواه عن زراره،عن أبی عبد اللّه-علیه السلام- فی الصبیه التی لا تحیض مثلها و التی قد یئست من الحیض قال:«لیس علیهما عده و إن دخل بهما» (۲)و اعتبار الإسلام مجرد الریب و الشک بمنزله الیقین بعدم الیأس لدی النساء و بالحیض للصبیه عملیّا بحیث یعطی للمرأه حق الاعتداد ثلاث أشهر یظهر حرصه علی سلامه الأسره و العلاقات الزوجیه،إذ لعل الاختلاف یحلّ و تعود المیاه إلی مجاریها فی هذه الفرصه.

وَ أُولاٰتُ الْأَحْمٰالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ یَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فإذا ما وضعت الحمل انتهت عدتها،

قال أبو عبد اللّه-علیه السلام- «طلاق الحبلی واحده و إن شاء راجعها قبل أن تضع،فإن وضعت قبل أن یراجعها فقد بانت منه و هو خاطب من الخطاب» (۳)أی تقبله أو ترفضه.و وضع الحمل خروجه من بطنها ولدا أو سقطا،تماما أو مضغه،

عن عبد الرحمن الحجاج عن أبی الحسن-علیه السلام-قال: سألته عن الحبلی إذا طلقها زوجها فوضعت

۱- ۱) المصدر ص ۴۰۹.

۲- ۲) وسائل الشیعه ج ۱۵ ص ۴۰۸.

۳- ۳) المصدر ص ۴۱۹.

سقطا تم أو لم يتم أو وضعته مضغه فقال:«كلّ شيء يستبين أنّه حمل تم أو لم يتم فقد انقضت عدتها و إن كان مضغه» (۱)، و لا يعتد بالمده أ كانت ثمانيه أشهر أو لحظه واحده بين الطلاق و وضع الحمل.و قد تكون العله التى صارت من أجلها عده الحامل وضع الحمل أنّ مسئوليه الحمل مشتركه بين الأم و الأب لذلك تمتد عدتها زمنيا حتى تضع و قد يطول ذلك ثمانيه أشهر،كما أنّ ذلك يعطى للزوج فرصه أكبر للمراجعه و التفكير،فعسى يعدو إلى تكفّل الولد بعد أن يلقى اللّه فى قلبه حبه،و لعل ظاهر الآيه يدل على أنّ العده تنقضى حتى لو أجهضت المرأه نفسها لأن المعول على وضع الحمل.أما الحامل التى يتوفّى زوجها فعدتها أبعد الأجلين،

فعن سماعه عن الصادق عن الباقر-عليهما السلام-قال: «المتوفّى عنها زوجها الحامل أجلها آخر الأجلين،إن كانت حبلى فتمّت لها أربعه أشهر و عشر و لم تضع فإنّ عدتها إلى أن تضع،و إن كانت تضع حملها قبل أن يتم لها أربعه أشهر و عشر تعتد بعد ما تضع تمام أربعه أشهر و عشر،و ذلك أبعد الأجلين» (۲) وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً إذن فالطريق السليم الذى ينبغى للإنسان أن ينتهجه للخروج من العسره و المشاكل المتأزّمه هو التقوى،و خطأ ظن البعض أنه يصل إلى اليسر فى أموره بمخالفه حدود اللّه و أحكامه.

ذٰلِكَ أَمْرُ اللّٰهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ و أمره أحكامه و تعاليمه.

وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئٰاتِهِ

۱- ۱) المصدر ۴۲۱.

۲- ۲) المصدر ص ۴۵۵.

و نتساءل:كيف تكفّر التقوى سيئات الإنسان؟و الجواب لسببين:

١-لأنّ أخطاء الإنسان التى تنتهى به إلى المآزق و المشاكل كالطلاق و خراب علاقته مع أهله نتيجه مباشره لمنهجيه خاطئه يتبعها فى الحياه،كمنهجيه الهوى أو المناهج البشريه الضاله،و بالتالى عدم اتباعه لنهج اللّه القويم.و التقوى بمفهومها الواسع ليس مجرد الإيمان باللّه و الخشيه منه بل هى إضافه إلى ذلك عوده الإنسان إلى نهج ربه المستقيم الكفيل بتصحيح أخطائه و إزاله آثارها السلبيه فى الواقع.

٢-و لأن التقوى حسنه كبيره تشفع عند اللّه فى الأخطاء الجانبيه.و إلى جانب التكفير عن السيئات هناك ثمره عظيمه أخرى للتقوى تتمثل فى المزيد من الجزاء و الثواب.

وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً إذ لا شك أن العمل الصالح كالصدقه أعظم ثوابا و أجرا مع التقوى منه بدونها، ذلك أنّه كلما زاد إيمان الإنسان كلما زاد إتقانه للعمل و خلوصه فيه و قربه بالتالى به إلى ربه،مما يزيد فى جزائه عنده.

ص:۶۹

[سوره الطلاق (۶۵): الآيات ۶ الى ۱۲]

اشاره

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لاٰ تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاٰتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتّٰى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعٰاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرىٰ (۶) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّٰا آتٰاهُ اَللّٰهُ لاٰ يُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ مٰا آتٰاهٰا سَيَجْعَلُ اَللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهٰا وَ رُسُلِهِ فَحٰاسَبْنٰاهٰا حِسٰاباً شَدِيداً وَ عَذَّبْنٰاهٰا عَذٰاباً نُكْراً (۸) فَذٰاقَتْ وَبٰالَ أَمْرِهٰا وَ كٰانَ عٰاقِبَةُ أَمْرِهٰا خُسْراً (۹) أَعَدَّ اَللّٰهُ لَهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اَللّٰهَ يٰا أُولِي اَلْأَلْبٰابِ اَلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اَللّٰهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (۱۰) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيٰاتِ اَللّٰهِ مُبَيِّنٰاتٍ لِيُخْرِجَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صٰالِحاً يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اَللّٰهُ لَهُ رِزْقاً (۱۱) اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ اَلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ اَلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اَللّٰهَ قَدْ أَحٰاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (۱۲)

اللغه

۶[وجدكم]:أى بقدر امكاناتكم و غناكم و طاقتكم، و عن الحسن و الجبائى:أى ما تجدونه من المساكن،و عن الفراء:

يقول على ما يجد، فإن كان موسعا وسّع عليها فى المسكن و النفقه،و ان كان فقيرا فعلى قدر ذلك.

[تضاروهنّ]:أى تضيّقوا عليهن بالضرر فى السكن و النفقه:

[و أتمروا]:من الائتمار،و الائتمار:قبول الأمر،و ملاقاته بالتّقبّل.

ص:۷۰

هدی من الآیات:

فی الـدرس الأـخیر من سـوره الطلاـق یشـرّع اللّه مجموعه من الأحکـام المتصـله بالأسـره،و بالـذات بالعلاـقه بین الزوجین حیث العـده،لیقرّر للمرأه حقّ السـکنی و النفقه علی زوجها،بل أخذ أجره علی الرضاعه،کما و ینهی الرجل عن الإضـرار بها و التضـییق علیهـا تشـفّیا أو للخلاص من المسؤولیه بالضـغط،ثم یؤکّد بأنّ الائتمار بالمعروف کواجب شـرعی علی کل مؤمن و مؤمنه تجاه بعضـهم لا ینبغی أن یقطع حباله الاختلاف مهما بلغ..و لو بلغ حاله الطلاق..لأنّ المسؤولیه الاجتماعیه واجب إلهی یجب أن تبقی حاکمه فی علاقه المؤمنین ببعضـهم حیث بعضـهم أولیاء بعض فی کل زمان و مکان و ظرف..و تبلغ عنایه الدین الحنیف بالمرأه إلی حـدّ یقرر لهـا الحق فی قبول الرضاعه أو رفضـها،خلافا للعرف الـذی جرت علیه المجتمعات،و سارت علیه الجاهلیه و الکثیر من المذاهب البشریه.

ص:۷۲

ثم یعود القرآن لیضع المیزان الحق فی شأن النفقه،فهو کما یوجبها علی الرجل حقّا للمرأه،لا یسمح من جهه أخری للزوجه استغلال هذا الحق لتطالب زوجها عند قراره بالطلاق نفقه أکثر ممّا یتحمل تشفّیا منه،فلیس أحد مکلّفا فی شرع اللّه أکبر و أکثر مما یستطیع.

و ینتهی السیاق القرآنی الذی یتمحور حول التقوی فی هذه السوره لیحذّر من مخالفه شرائع اللّه و حدوده بصوره عامه و فی حق الأسره بالذات،مشیرا إلی أنّ الأسره لا تختلف فی ظلّ سننه عن المجتمع الکبیر الذی لو تجاوز الحدود فإنّ عاقبته الخساره و الدمار کما ینطق بذلک تاریخ الحضارات التی دمّرت فأصبحت عبرا و أحادیث.

و لأن المؤمنین أولی بدراسه التاریخ من غیرهم فإنّ الخطاب یتوجه إلیهم خاصه لکی یخرجوا بذلک إلی النور،و یختم السوره بالإشاره إلی الحکمه من خلق الإنسان و العالم المسخّر له ألا و هی أن یتعرّف اللّه لعباده عبر آیاته المبثوثه فی النفس و فی الآفاق لعلّهم یخلصون من ظلمات الضلال و الشرک.

بینات من الآیات:

[۶]لکی لا یظلم المرء زوجته التی عافتها نفسه،و مشی الشیطان بینهما بألف عقده و عقده،یأمر القرآن بأن یختار لها زوجها سکنا مناسبا لوضعهم الاجتماعی بلا تمیّز.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ و الوجد:ما یجده الإنسان و یقدر علیه،و فی المنجد:أنا واجد للشیء أی قادر علیه.و الوجد القدره،یقال أنا واجد الشیء أی قادر علیه.و الآیه تحدّثنا عن نوع

السکن و أنّه واجب علی الرجل لیس السکنی و حسب بل إسکان زوجته فی العدّه بالذات کما یسکن،فلا یصح أن یسکن هو فی المکان المکیّف صیفا و شتاء و یسکنها فیما دون ذلک،و لهذا جاء التعبیر ب«من»التبعیضیه و لا یکون بعض الشیء إلاّ من نوعه و جنسه.و یحرم الإسلام أن یضرّ الرجل بزوجته أثناء العدّه لیضطرها للتنازل عن النفقه أو الخروج من بیته قبل انتهاء العده باستخدام الضغوط المختلفه المادیه أو المعنویه نفسیه و اقتصادیه و اجتماعیه و أخلاقیه أو ما أشبه مما یحقّق نفس الغرض،بل لا بدّ أن تجد الزوجه الراحه و السعه من جمیع جوانبها قدر الإمکان.

وَ لاٰ تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَیِّقُوا عَلَیْهِنَّ و لعل أبلغ ضرر تناله المرأه المطلقه من زوجها هو جراحات اللسان،

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «لا یضار الرجل امرأته إذا طلقها فیضیق علیها حتی تنتقل قبل أن تنقضی عدتها فإنّ اللّه قد نهی عن ذلک» (۱)و التی لزوجها علیها السکنی و النفقه غیر المبتوته (۲)،

فعن أبی بصیر عنه-علیه السلام- أنّه «سأله عن المطلقه ثلاثا لها سکنی و نفقه؟قال:حبلی هی؟قلت:لا،قال:

لا» (۳)و

عن زراره عن أبی جعفر-علیه السلام-قال: «المطلقه ثلاثا لیس لها نفقه علی زوجها،إنّما ذلک للتی لزوجها علیها رجعه» (۴).

و کما تمتد عده الحامل إلی الوضع کذلک یجب أن یسکّنها و ینفق علیها حتی تضع حملها،لأنّ الولد له،و ثابت علمیّا أنّ الولد یستهلک ما یحتاج من أمّه،فلو

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۳۶۲.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المبتوته:المطلقه بائنها فلا یحق لزوجها الرجعه لها بته.

۴- ۴) تفسیر نور الثقلین ج ۵ ص ۳۶۲.

نقص الکالسیوم فی غذاء أمّه فإنّه سوف یؤثر علی ترکیبه عظامها،یقول الدکتور محمد علی البار فی کتابه خلق الإنسان بین الطب و القرآن:(تصاب بعض الأمهات الحوامل بلین فی العظام أثناء الحمل،کما تصاب أسنانهن بالالتهابات المتکرره،و السبب فی ذلک أنّ الجنین لکی یبنی عظامه یسحب من دم أمه و عظامها الکالسیوم و المواد الضروریه لبناء عظامه،حتی و لو ترکها هزیله هشّه العظام شاحبه الوجه تعانی من لین العظام و من فقر الدم..و یضیف:یقول مجموعه من أساتذه طب النساء و الولاده:و الطفل یعتبر کالنبات الطفیلی الذی یستمد کلّ ما یحتاج إلیه من الشجره التی یتعلق بها،یعیش و یأخذ غذاءه من الأم مهما کانت حالتها أو ظروفها حتی و لو ترکها شبحا) (۱)،لهذا فالمرأه أحوج ما تکون للعنایه فی فتره الحمل.

وَ إِنْ کُنَّ أُولاٰتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَیْهِنَّ حَتّٰی یَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ و

جاء فی أصول الکافی عن أبی جعفر-علیه السلام-قال: «الحامل أجلها أن تضع حملها و علیه نفقه بالمعروف حتی تضع حملها» (۲)،و لو أنّها أرضعت ولیدها بعدئذ فلها الحق أن تتقاضی أجرا علی الإرضاع،لأنّه من الناحیه الشرعیه لیس واجبا علی الأم بشکل عام حتی غیر المطلقه التی تنتهی عدتها و قیمومه الرجل علیها بعد الوضع،فالحلیب ملکها و إن کان من الناحیه التکوینیه یتکون مع الحمل و بسببه.

و العلم الحدیث یقر هذه الحقیقه،و علی أساسه دعت التشریعات الحدیثه الی تخصیصات للمرأه أثناء الرضاعه،و بعض البلدان تشرف علی طعام المرأه المرضع و الحامل،و تدعوا إلی الاهتمام بطعامها فی هاتین الفترتین.

۱- ۱) المصدر نقلا عن الکافی.

۲- ۲) المصدر ص ۴۴۸.

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكَمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فی مقابل الرضاعه.أمّا السکنی و النفقه فلیسا واجبین علی الزوج بعد الوضع.

و لا یحقّ للزوج أن یلزم زوجته-و بالذات المطلقه-بالرضاعه،بلی.یجوز التفاهم فی هذه المسأله بین الطرفین بعیدا عن أی لون من الضغوط و السبل الملتویه، بل بالحق.

وَ أْتَمِرُوا بَیْنَکُمْ بِمَعْرُوفٍ أی لیأمر بعضکم بعضا بالمعروف بالتشاور و التحاور،و لا بد أن یتمّ ذلک فی إطار صحیح لا یتنکر له العقلاء«بمعروف»حتی یستقر التآمر علی رأی یرضاه الطرفان.أمّا إذا حدث الاختلاف فإنّ الحق للأم تقبل الرضاعه أو ترفضها لتکون المرضعه غیرها.

وَ إِنْ تَعٰاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْریٰ و لا یجوز للأب أن یجبر أم ولده علی رضاعته کحل للتعاسر،لأنّ ولایه الرجال علی النساء لا تمتد إلی هذه الحدود فی الظروف الطبیعیه فکیف بعد الطلاق؟! و نهتدی من خاتمه الآیه أنّ للحاکم الشرعی أن یلزم الأم بالرضاعه لو توقفت حیاه الولد علیها،فیکون الزوج حینئذ ملزما بإعطاء أجره المثل.

[۷]و یعود القرآن لبیان المقیاس الذی ینبغی أن یکون میزانا فیصلا بین الطرفین فی مقدار النفقه،و لکن الوحی لا یحدد دینارا و لا درهما بل یضع قیمه تصلح لکل زمان و مکان واحد لأنه لم ینزل لامه دون أخری،و لا لجیل دون جیل.من هنا یطرح المقاییس الفطریه العامه بوضوح کاف لینطبق علی کل عصر،فما هو

المقیاس الذی یحدد کیف و کم تکون النفقه؟إنّه استطاعه الزوج المادیه الممکنه،و لیست صفاته،فلو کان غنیّا بخیلا فإنّه لا یجوز منه التقتیر علی زوجته المطلقه بالذات حیث تجب علیه نفقتها،بل علیه التوسیع علیها،کما لا یجوز للزوج و لا للحاکم أن یفرض علیه التوسیع فی النفقه لو کان مقترا فقیرا.

لِیُنْفِقْ ذُو سَعَهٍ مِنْ سَعَتِهِ أی بعضها و بنسبتها،فلیس مطالبا ببذل کل ما یملک، إنّما الواجب أن یفیض علیها من غناه بحیث یوسع علیها.

وَ مَنْ قُدِرَ عَلَیْهِ رِزْقُهُ و کان فقیرا.

فَلْیُنْفِقْ مِمّا آتاهُ اللّهُ لا یُکَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ ما آتاها فتشریعه عزّ و جلّ تشریع واقعی عملی،و حاشا له أن یکلّف أحدا ما لا یطیق، و هذه الآیه لا تقتصر علی مسأله النفقه علی الزوجه حین العده،بل هی قاعده لتنظیم الإقتصاد الفردی،و حل المشاکل المتصله به فی المجتمع و الأسره،فلا غروّ أن یوسع الغنی علی نفسه من المال الحلال لأنّ اللّه إذا أنعم علی عبد نعمه أحب أن یراها فیه،

قال الإمام أبو عبد اللّه-علیه السلام- و قد سأله أحد أصحابه عن الرجل الموسر یتخذ الثیاب الکثیره الجیاد و الطیالسه و القمص الکثیره یصون بعضها بعضا یتجمّل بها أ یکون مسرفا؟قال لا لأنّ اللّه عز و جلّ یقول:«الآیه» (۱)، و من جهه أخری یجب أن لا ینفق الفقیر أکثر من طاقته تلبیه لرغابته الشخصیه أو تظاهرا بین الناس أو لکی یوافق المجتمع المحیط فی معیشته و مظاهره،فإنّ ذلک یوقعه فی

۱- ۱) المصدر ص ۳۶۳.

مشاكل اقتصاديه تنتهى إلى انحرافات خطيره بعض الأحيان.

و هذه الآيه يجب أن يتخذها الإنسان شعارا فى إداره نفسه و أسرته.و حيث أنّ النفقه من واجبات الرجل تجاه أسرته و أهله فإنّ للمرأه الحق فى طلب الانفصال عنه لو لم يؤدّها الرجل،

فعن أبى بصير عن أبى عبد اللّه-عليه السلام-قال: «إن أنفق الرجل على امرأته ما يقيم ظهرها مع الكسوه و إلاّ فرّق بينهما» (1)، و لكنّ اللّه يعطى الإنسان شحنه من الأمل برحمته و رزقه،و فى نفس الوقت يدعو من طرف خفى الزوجه إلى الصبر و التحمل تسليما لقضاء اللّه،و أملا فى فضله،فإنّها لا تدرى لعل زوجها الفقير يصبح غنيّا مقتدرا بفضله تعالى.

سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً [8]و بعد أن يبيّن ربنا هذه الحدود الشرعيه يحذّر من عواقب خرقها و تعديها حيث الفشل و العذاب فى الدارين،فإنّها سنّه اللّه التى تتجلّى فى تاريخ البشريه، و هى كما تجرى فى المجتمعات الكبيره حينما تحادد اللّه و تخرج عن أمره تجرى فى الأسره ذلك المجتمع الصغير،لأنّ سنن اللّه واحده تجرى فى الموضوعات الصغيره بمثل ما تجرى فى الحقائق الجليله،أ رأيت سنّه اللّه فى النار.إنّها تحرق سواء كانت فى عود الثقّاب أو فى فرن عظيم!من هنا علينا أن ندرس التاريخ لنعتبر به فى سلوكنا الفردى فى تنظيم حياتنا الأسريه و فى نظام المجتمع و حركه الحضاره..لأنّ التاريخ تجسيد لسنن اللّه و سنن اللّه واحده فى الصغير و الكبير.

و تنتظم الآيات اللاحقه فى السياق العام للسوره(التقوى)من زاويه مباشره لهذا الموضوع، ذلك أنّ التفكر فى مصير الأمم الماضيه التى تمرّدت على شرائع اللّه و سننه فلقيت من العذاب ما لا يخطر ببال بشر كفيل بتنميه روح التقوى عند

1- 1) المصدر.

الإنسان.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَهٍ أی:و کم من قریه؟!!فکأیّن تفید الکثره.

و لعل التعبیر بصیغه الکثره الرهیبه یهدف مواجهه حاله الاسترخاء التی تصیب الإنسان بسبب تواتر نعم اللّه و تتابع آلائه الکثیره،حتی یزعم بأنّ الرب قد غفل عنه أو أهمله أو فوض إلیه أمره فیدعوه ذلک إلی الإیغال فی الذنوب،کلاّ..إنّ قری کثیره قد دمّرت فحذار أن تدمّر أیضا قریتک الصغیره المتمثله فی الأسره و الکبیره المتمثله فی بلدک،لأنها لیست فوق سنن اللّه بل هی کأیّ من القری الأخری.

و القریه-کما یبدو-تطلق فی القرآن عاده علی المجتمعات المتخلفه الفاسده،بینما تستخدم کلمه بلد أو المدینه للتعبیر عن المجتمعات المتحضره،و عدم تحدید الآیه لقریه بذاتها ینطوی علی دعوه لدراسه شامله لتأریخ البشریه،ذلک لأنّ الإنسان مفطور علی مراجعه التاریخ و الإعتبار به،و نظرته إلیه تحدد نظرته إلی الحاضر و تطلعه نحو المستقبل.و الرسالات الإلهیه تسعی إلی تصحیح تقییمه للتاریخ،لکی لا تکون نظراته خاطئه و لا حتی عابره،و ذلک لأنّ الکثیر حینما یمرّون علی آثار الماضین یکتفون بالسیاحه أو النیاحه،و الأدب العربی-کما سائر آداب البشر-زاخر بروائع الشعر التی تستوقف الإنسان علی الأطلال و البکاء حزنا عندها،و قد اشتهر هذا الاستهلال فی شعر العرب،قفا نبکی من ذکری حبیب و منزل..حتی قیل أنّه مطلع لسبعین رائعه شعریه!! بینما القرآن الکریم یستوقف الإنسان أیضا عند القری المدمّره و لکن لیس لمجرّد السیاحه أو النیاحه بل للاتعاظ و الإعتبار.

ص:۷۹

و لقد مرّ المسلمون فی عهد الإمام علی-علیه السلام-علی أطلال عاصمه کسری فأنشد بعضهم:

جرت الریاح علی دیارهم فکأنّهم کانوا علی میعاد

فنهره الإمام و أمره بأن یقرأ:« کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ ».

و هکـذا یوجّه القرآن هـذه النظره الکامنه فی الإنسان لیقف علی الأطلال، و یتـذکر الغابرین،و یعتبر بمصیرهم،و یهتدی بالسـنن التی کشفتها حیاتهم و مماتهم من أجل بناء حیاه سعیده آمنه.

و عـاده مـا ینقـل القرآن تاریـخ الشـعوب و لیس الأـفراد،و حتی إذا تحـدث عن فرد کفرعون أو هامـان أو قـارون فغالبا ما یضـع الحدیث عنه فی إطار اجتماعی باعتباره طاغیه أو مرتزق أو مترف،و السبب أنّ حرکه التاریخ أجلی و أوضح حینما یوجه الإنسان نظره و فکره إلی مسـیره الأـمم و تاریخهـا،و تـدمیر المجتمعات و الشـعوب أدلّ علی سـنن اللّه و حاکمیته من هلاک فرد لأنّه قد یکون موته بسبب طبیعی، بل إن موته لا یثیر الإنسان للتفکر و الإعتبار کما یثیره هلاک الأمم و المجتمعات.

إنّ هلاـک الأـمم و بصـوره متعـاقبه لاـ یمکن أن یکـون أمرا اعتیادیّـا،و هـذا مـا یتضـح عنـد دراسه تاریـخ القری الـتی دمّرت و الحضارات التی بادت،فإنّنا لا شک سـنجد سببا لهذه العاقبه و هو الفساد الواقع الذی أفقدها مبرّر الحیاه،حیث تمرّدت علی النظم الإلهیه،کما قال اللّه:

عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ و العتو:هو المبالغه فی العصیان و الانحراف و التحدی،أمّا الأمر فهو النهج

و السبیل المتمثل فی الشرائع و الحدود الإلهیه،کما قال تعالی بعد أن عدّد مجموعه من الأحکام و الحدود فی الآیات(۴/۱): ذٰلِکَ أَمْرُ اللّٰهِ أَنْزَلَهُ إِلَیْکُمْ (۱)، و لکنّ اللّه سمّاها کلّها أمرا بصفه الإفراد ربما لیؤکّد لنا بأنّها لا تقبل التجزأه أبدا، فمن یعص اللّه أو الرسول و لو فی أمر واحد فإنّه یعتبر عاصیا لهما،کما لا یسمّی مطیعا و ملتزما إلاّ من یسلّم لکلّ ما یصدر عنهما و یعمل به.

و قد أضاف إلی أمره«رسله»لأنّ الطاعه للقیاده الرسالیه من أعظم و أجلی أوامر اللّه،لأنّ أمر اللّه هو القیم التشریعیه کالأحکام و النظم و القوانین الصادره عن اللّه مباشره و المذکوره فی رسالته التی أنزلها للناس،بینما أمر الرسول-صلّی اللّه علیه و آله-هو الجانب العملی و السیاسی من أمر اللّه المتجسد فی النظام السیاسی و الدینی الذی یقوده صلی الله علیه و آله و من یمثله بحق،فلا یصح إذن أن یقول أحد:حسبی کتاب اللّه،بل لا بدّ له من البحث عن القیاده الإلهیه لکی ینتمی إلی خطها و یجنّد نفسه تحت لوائها فلا یعتو عن أمر من أوامرها أبدا،فإنّ فی ذلک الخسران و بئس العاقبه.

إنّ الهدف من الخلق و الوجود هو عباده اللّه: وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ (۲)،فإذا لم یحرز المجتمع هذا الهدف لم یبق مبرّر لوجوده،و إنّ قیمه الإنسان یستمدها من مدی تجسیده للحق و طاعته لربه،فإذا تمحض فی الشر و العصیان لم تبق له قیمه عند اللّه،و لا عجب حینئذ أن تری فی التاریخ تلک القری التی دمّرها اللّه لعتوّها عن أمره.

فَحٰاسَبْنٰاهٰا حِسٰاباً شَدِیداً وَ عَذَّبْنٰاهٰا عَذٰاباً نُکْراً إذن فالعذاب الذی حل بتلک القری لیس بالصدفه،و إنّما هو نتیجه طبیعیه

۱- ۱) الطلاق ۵.

۲- ۲) الذاریات ۵۶.

لأعمالها السيئه التی تتكشف بالدراسه و المتابعه و التحليل لمسيرتها التی سبقت الهلاك،فلكلّ فعل ردّ فعل،و لكلّ معصيه مردود سلبی علی صاحبها،فشرب الخمر يسبّب مجموعه من الأمراض،و الربا يؤدی إلی الفساد الاقتصادی،و الزنا يعدم الأسره،و لكنّك إذا جمعت بالحساب الدقيق انحرافات أمّه من الأمم تعتو عن أمر ربها فستجد رد فعلها الخسران و الدمار لا غير،و هذا ما حلّ بتلك القری من العذاب المنكر الذی لا يتصوّره البشر.

و ما دامت حركه التاريخ فی الأمم و الأفراد قائمه علی الحسابات الدقيقه فحریّ بالإنسان أن يدرس كلّ خطوه يقوم بها فی الحياه،و كلّ قرار يتخذه صغيرا و كبيرا، فی ضوء معادله الربح و الخساره و العاقبه المصيريه.

و الحساب الشديد هو الحساب الدقيق،ذلك لأنّ اللّه يحاسب الناس بلطفه فيتغاضی عن كثير من سيئاتهم،و لكنّه إذا سخط علی أحد بسبب انحراف مجمل سلوكه(أمّه أو فردا)حاسبه بعدله فيصير من الحساب اليسير إلی الآخر الشديد و العسير،و حينئذ لا ينجو من العذاب،و قد أشار اللّه إلی ذلك بقوله: وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ (١)،و كما أنّ اللّه يحاسب الإنسان الذی يكون مجمل مسيرته الصلاح و الحسنات الكبيره حسابا يسيرا فيكفّر عنه سيئاته،فإنّه سبحانه يحاسب الذی يكون مجمل مسيرته الفساد و الفواحش الكبيره حسابا عسيرا لا تغفر فيه سيئه بل تتضاعف،و هكذا فعل اللّه بالقری التی دمّرها،من هنا قال العلاّمه الطبرسی رحمه اللّه:«الحساب الشديد الذی ليس فيه عفو» (٢).

و تعذيب اللّه لتلك القری ينسف ظنون البعض بأنّه و هو الرحيم أجلّ من أن

١- ١) فاطر ۴۵.

٢- ٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٠٩.

يؤاخذ العباد بما يعصون، و بالتالى مما يبعثهم نحو الاسترسال فى الفسق و الانحراف من خلال هذا التبرير الواهى،و هذا أحد معانى قوله سبحانه وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ (1)و ذكر ذلك يزرع روح التقوى فى القلب،و يوقف مسيره الاسترسال نحو الهاويه! [٩]إنّ الإنسان لا يمكنه أن يتحرك فى الفراغ،لذلك فإنّ القرى حينما عتت عن أمر اللّه(مناهجه و نظمه)اصطنعت لنفسها نظما و قوانين بشريه،و لكن هل وصلت إلى أهدافها الحقيقيه،بل هل حقّقت مصالحها و رغباتها لا أقل؟كلاّ..

لأنّ رسالات اللّه وسيله وحدها التى تسعد الإنسان و تلبّى حاجاته،لذلك بقيت وحدها الخط الثابت عبر الزمن،رساله بعد أخرى،و جيلا بعد جيل،أمّا المذاهب البشريه فهى تبطل الواحد بعد الآخر،فكلّما ابتدع المترفون مذهبا وضعيّا ليكون بديلا عن رسالات اللّه و رسله و غطاء لتسلّطهم غير المشروع على رقاب الناس لم يلبث أن ظهر فساده،و انتشرت آثاره السيئه فاستبدلوه بمذهب آخر أو أفسد منه، و ها نحن اليوم نسمع و نقرأ عن إفلاس الشيوعيه،و ظهر ما جرّت على الناس من دمار و قمع و فساد عريض.أو ليس هذا وبالا و عذابا؟!بلى؛و لكن هل يعود الناس إلى مناهج الوحى؟كلاّ..إنما يبتدع لهم كبراؤهم مذهبا باطلا آخر و يأفكونهم به.

فَذٰاقَتْ وَبٰالَ أَمْرِهٰا أى ثقل عاقبه أمرها المتمثله فى الخسران.

وَ كٰانَ عٰاقِبَةُ أَمْرِهٰا خُسْراً

ص:٨٣

١- ١) فصلت٢٣.

فهی من جهه خسرت المکاسب و المعطیات العظیمه التی تنال بتطبیق أمر اللّه و رسله،و من جهه أخری خسرت سعیها و جهودها و الأهداف التی تمنّت بلوغها، و هذه هی نتیجه المسیره الخاطئه التی اختارها الناس لأنفسهم،و هکذا کلّ حضاره لا تقوم علی أساس رصین من الحق فإنّها تکون کبناء علی شرف هار،کلّما ارتفع البناء کلّما اقترب من الانهیار،و فی لحظه یتلاشی کلّ شیء،و تذهب جهود الملایین من البشر!! [۱۰-۱۱]و الخطیر فی الأمر أنّ الخساره و العذاب لیسا فی الدنیا فحسب فإنّ ما فی الآخره أشدّ و أخزی! أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِیداً و لعل إعداد العذاب بسبب أنّه یأتی نتیجه الأفعال التی یجترحها المذنبون فی الدنیا فیهیّئ اللّه لکلّ ذنب ما یناسبه من العذاب کمّا و کیفا،ممّا یجعلنا أشد حذرا من السیئات لأنّها تتحوّل إلی عذاب شدید فور وقوعها و لکنّنا محجوبون عنه الیوم.

و کما تهبط الأمم إلی حدّ الهلاک بالعتوّ عن أمر اللّه و رسله،و اتباع المناهج البشریه،فإنّها ترتقی فی مدارج الکمال و التقدم بالتسلیم لأمر اللّه و رسله و بالتقوی و تطبیق شرائعه و مناهجه فی الحیاه،فتفلح فی الدنیا بالخروج من الظلمات إلی النور،و فی الآخره بالخلود فی جنّات النعیم.

فَاتَّقُوا اللّهَ یا أُولِی الْأَلْبابِ الَّذِینَ آمَنُوا إنّ التقوی درجه رفیعه من الإیمان باللّه تبعث الإنسان إلی المزید من الوعی لأمر اللّه و التسلیم له،فهی إذن تکمّل لبّه و عقله،کما تکمّل إیمانه و جوانبه الروحیه.

ص:۸۴

من هنا فإنّها أكبر عامل و أوثق ضمانه لاستجابته للحق و التزامه به.

و قد قالوا أنّ أُولِي الْأَلْبَابِ بدل عن اَلَّذِينَ آمَنُوا ،و اللب هو مخ الشیء و عمقه،و ذی اللب هو صاحب البصیره التی تنفذ إلی أغوار الأمور،و قد خاطب اللّه المؤمنین من هذه الزاویه لأنّ دراسه التاریخ و ما صارت إلیه تلک القری و الإعتبار منه یحتاج إلی الإیمان و إلی الألباب و البصائر التی هی محور الثواب و العقاب،

ففی محاسن البرقی مرفوعا إلی الأئمه-علیهم السلام-قال: «ما یعبأ من أهل هذا الدّین بمن لا عقل له»،قال(الراوی)قلت:جعلت فداک أنا آتی قوما لا بأس بهم عندنا ممن یصف هذا الأمر لیست له تلک العقول؟فقال:«لیس هؤلاء ممن خاطب اللّه فی قوله:«یا ألی الألباب».إنّ اللّه خلق العقل فقال له:أقبل فأقبل،ثم قال له:أدبر فأدبر،ثم قال:و عزتی و جلالی ما خلقت شیئا أحسن منک و لا أحب إلیّ منک أبدا،بک آخذ و بک أعطی» (1)إنّ تقوی اللّه تعنی تجنّب الوقوع فی سخطه و عذابه، و هی لا تتحقق بالإیمان وحده،بل لا بد من لبّ یعرف به الإنسان ما یسخط الرب و ما یرضیه،ذلک لأنّ الشروط الموضوعیه للتقوی متوافره، فتلک هی عبر التاریخ أمامنا،و هذا کتاب اللّه و رسوله یذکّرنا اللّه بهما.

قَدْ أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً یذکّر الإنسان بربه،و بالحقائق الفطریه،و یذکّره بطاقاته،و قدراته الکامنه، و أهدافه،و تطلّعاته،و یستنقذه من الغفله،فما هو ذلک الذکر؟ رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللّٰهِ مُبَيِّنَاتٍ قال أکثر المفسرین أنّ الذکر هو الرسول،و الذی یبدو لی أن الذکر أعم.إنّه

ص:85

1- 1) المحاسن ج 1 ص 194.

الرسول و الرساله،لأنّهما جنبا إلى جنب يكمّل أحدهما الآخر ذكر اللّه للناس، و الرسول ليس منزلا إنّما المنزل هى صفه الرساله التى اشتق اسم الرسول منها، و هكذا وصف الرسول بالذكر لأنّه يتلو آيات بينات،و من هنا:لا يكون الذكر الكتاب وحده،و لا الرسول وحده،و إنّما هما معا.و هما معا يشكّلان حاله واحده لا ينفصلان و لا يفترقان حتى يوم القيامه.

و الآيه هى العلامه و الدلاله،و آيات اللّه كلّ ما يعرّف الإنسان به و يهديه، فالسماء آيه،و الشجر آيه،و المطر آيه و..و..،و لكنّ أجلى الآيات هى التى جاءت بها رساله اللّه عزّ و جلّ،و التى وصفها بأنّها«مبيّنات»لأنّها آيه فى ذاتها و تهدينا إلى سائر آيات اللّه،و هذا ما يميّز آيات القرآن عن الآيات الطبيعيه الأخرى.

ثم إنّها ترسم الطريق المستقيم،فتبين الصواب و الخطأ،و ما أحوجنا أن نتبعها.أو ليست تنصب لنا أنوار الهدايه،كما قال تعالى:

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان،و من ظلمات الجهل إلى نور العلم،و من ظلمات التفرّق إلى نور الوحده و..و..و بعباره أخرى:من كلّ شرّ و ظلمه إلى كلّ خير و نور،و نتساءل:أ و ليس المؤمنون قد خرجوا فعلا من ظلمه الكفر إلى ضياء التوحيد،فما ذا يعنى بيان أنّ اللّه يخرجهم من الظلمات إلى النور؟الجواب:

للإنسان فى البدء فرصتان متساويتان للإيمان و للكفر،و قلبه كالشفق فيه ضغث من نور و آخر من ظلمه،و آيات اللّه ليس تكشف له عن النور و الظلمه فقط،بل ترجّح فيه فرصه الإيمان و تزيد النور الذى فى قلبه لتميل به إلى الحق،ثم ترقى به درجه فدرجه فى مدارج النور و الكمال حتى يتمحض فى الإيمان فيخرج خروجا

کلّیا من الظلمات إلی النور،لأنّ کلّ عمل قبیح و نیّه فاسده و صفه ذمیمه ظلام فی القلب،و کلّ عمل صالح و نیّه رشیده و صفه حمیده نور،و کلّما تزکّی القلب و تطهّر السلوک من السیئات کلّما زاد القلب نورا حتی یصبح العبد من المخلّصین، کالذهب المصفّی لا یشوب نور إیمانه أی ظلام،و هذا مقام أولیاء اللّه المقرّبین.

و هکذا لیس آیات اللّه بدیلا عن سعی الإنسان نفسه،إنّما دورها هو رسم النهج السلیم للکمال و الرقی،و علی الإنسان الاجتهاد للعروج عبرها إلی الکمال.

وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ یَعْمَلْ صٰالِحاً یُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللّٰهُ لَهُ رِزْقاً و الرزق ما یعطی للإنسان شیئا فشیئا ممّا یوحی بأنّ نعیم المؤمنین فی الآخره لا ینحصر فی ما یعطونهم أوّل مرّه،إنّما هو فی ازدیاد و تکامل یوما بعد یوم.

[۱۲]و حیث دعتنا أکثر آیات السوره إلی تقوی اللّه جاءت الخاتمه تعرّفنا بربنا سبحانه،لأنّ التقوی بنت المعرفه،فکیف إذن نزداد معرفه ربنا لکی نزداد تقوی؟ لننظر إلی الآفاق من حولنا،إلی السماوات و الأرض،و إلی أسمائه المتجلّیه فی هذه الآفاق.إنها سبیلنا إلی معرفته تعالی،فحیثما رمیت ببصرک رأیت عجیب الصنع و عظمه الخلقه،و أنّی جلت ببصرک و تعمّقت بفکرک فلن تجد إلاّ إجابه واحده تقودک إلی حقیقه التقوی و سنام المعرفه.

اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ قیل:السبع کالسبعین کلمه تدلّ علی الکثره،و قیل:أنّ الظاهر هو المقصود،

ص:۸۷

فهناك سبع سماوات،فما هی السموات السبع؟هل هی ما تحیط بالأقالیم السبع من الفضاء القریب،باعتبار أنّ السماء هی الجهه المقابله للأرض،فإذا کانت الأرضون سبعا-حسب تقسیم الناس یومئذ-فإنّ سمواتها أیضا سبع،و علی هذا فإنّ الأرضین السبع هی تلک الأقالیم المشهوره فی أدب العرب و فی عرف الذین خوطبوا بالقرآن،و

قد جاء فی حدیث الإمام أمیر المؤمنین-علیه السلام-: «لو أعطیت الأقالیم السبعه بما تحت أفلاکها» (۱)، أم أنّ السماوات السبع اشاره إلی الکواکب أو إلی سبع منظومات شمسیه أو إلی المجرات؟لعلّ الإنسان یطلع علی معانی أخری إذا تقدّم به العلم.و المماثله بین السماوات و الأرضین هنا قد تکون عددیه و جنسیه حیث أنّ الأرض من رتق السماء.

یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ «و الأمر»:سنن اللّه و قضاؤه و تقدیراته و ما یبدو له ممّا یدبّر به شؤون الخلق، و لعلّ ذلک سمّی أمرا لأنّ اللّه و کّل ملائکه علی کلّ شیء ینفّذون إرادته فی الکائنات،فهو یأمرهم من فوقهم و هم یعملون بما یرید.

و إذا نبحث عن الفلسفه الأساسیه التی خلقت من أجلها السماوات و الأرض، و بالذات السماوات التی لا یطالها الإنسان فإنّنا سنجدها لیست المتعه بالنظر إلیها،و لا ما تقوم به من دور فی وجوده و حیاته،إنّما هی کما له المعنوی و الروحی بمعرفه ربه من خلال أسمائه المتجلّیه فی الکون من حوله.

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ حیث تتجلّی آیه قدرته فی الخلق العظیم للسماوات و الأرض لتهدینا إلی هذه

۱- ۱) نهج خ ۲۲۴.

الحقیقه.

وَ أَنَّ اللّهَ قَدْ أَحاطَ بِکُلِّ شَیْءٍ عِلْماً و آیه ذلک أمره الذی یتنزّل لتدبیر کلّ شیء.و علم الإنسان بقدره اللّه علی کلّ شیء و علمه المطلق و بالتالی إیمانه بذلک هو الذی یزرع فی نفسه التقوی،حیث یخشی سطوه اللّه القادر،و یتحسس رقابته علیه فلا یعصیه فی علن و لا خفاء.

و کلمه أخیره:إنّ الإنسان الذی لا یتخذ الخلیفه وسیله لتکامل معرفته و إیمانه بربه ضال عن هدف الخلقه،أو تدری کیف؟لأنّ اللّه سبحانه قد خلق ما فی الأرض للإنسان حتی أصبح الإنسان محور الخلیقه،فهل خلقها لجسده أم لروحه؟ إنّ الإنسان لا یتمیّز بجسده عن أی حیوان آخر،و لا-فضیله له فی ذلک أبدا.إذا حکمه الخلق تکمن فی روحه،و ماذا فی روح الإنسان غیر العقل الذی ینمو بالنظر فی آفاق السموات و الأرض؟!فمن لم یتکامل عقله فإنّه لیس یبطل حکمه خلقه فقط،بل و حکمه الوجود من حوله أیضا.ألیس کذلک؟

ص:۸۹

سوره التحریم

اشاره

ص:۹۱

الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم لقـد ارتفعت و لاـ تزال رايه الجـدل بين المـذاهب الإسـلاميه فى شأن زوجات الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-فاختلفوا إلى ثلاثه آراء رئيسه:

الأول:أضفى عليهن مسحه من العصمه متابعه لبعض النصوص،كقول اللّه:

اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ (1)،و كونهن مشمولات بآيه التطهير و أخبار وردت،و لأنهن زوجات أفضل خلق اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- الـذى لاـ يعقـل أنه يختـار لنفسه من الزوجـات إلاّ خير النساء،و قـد دعمت هـذا الرأى اعتبارات مذهبيه أخرى.

الثاني:و تطرف فريق إلى حد الطعن فيهن لدوافع مصـلحيه أو مذهبيه، كالمنافقين الذين نالوا بالإفك و البهتان من بعض زوجات الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-.

ص:٩٣

١- ١) الأحزاب ۶.

الثالث:و بين هـذا و ذلک أخذ فريق سبيلا وسطا،فلا تبرير للأخطاء،و لا تضخيم لها:و لكى يصل الباحث إلى الرأى الموضوعى لا بدّ أن يـدرس أمرين أساسيين:أحدهما:تاريخ زوجات الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-دراسه موضوعيه،و الآخر:موقف القرآن عبر دراسه شامله لكل ما أوردته آياته فى هـذا الموضوع،و لكن بما أن فى التاريخ اختلافا و تزويرا فإنّ القرآن يبقى هو الميزان الثابت و الفرقان الأعظم و بالخصوص فى القضايا الحساسه كالموقف من زوجات سيد الرسل-صلّى اللّه عليه و آله-،فما هو موقف القرآن؟ لقد سجلت الآيات القرآنيه موقف الرساله الإلهيه فى هذه القضيه،و يكفينا أن نعرض هنا ما جاءت به سوره التحريم التى يبدو أنّها تحدّثنا فيما تحدثنا عن هذا الموضوع كخط عام لآياتها.

١-ففى البدايه تبيّن أنّ الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-كان يتعرض للضغط من قبل بعض أزواجه،حتى يضطر فى بعض الأحيان أن يحرّم على نفسه ما أحلّه اللّه له،فيضيّق عليها طمعا فى مرضاتهنّ(الآيات ٢/١)،و هاتان الآيتان تعريض ببعض زوجات الرسول و ليس به-صلّى اللّه عليه و آله-.

٢-إنّ اثنتين منهنّ خانتا النبىّ بإفشاء بعض ما أفضى إليهما من الأسرار (الآيه ٣).

٣-إنّهن أو بعضهنّ كنّ يملن عن الحق فى بعض الأحيان(تصغى قلوبهن) و يمكن أن يتبن عن ذلک إلى اللّه،كما يمكن أن يتمادين فى الميل إلى حد المظاهره ضد-الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-،و بالتالى الوقوف ضد جبهه الحق التى مثّلها اللّه،و أمين وحيه(جبرئيل)،و خيره المؤمنين،و الملائكه الذين ينصرون النبى (الآيه ٤).

۴-إنّ نساء النبیّ لسن أفضل النساء علی الإطلاق،فهو لو طلّقهن فقد یجد خیرا منهن بین الناس ممن جمعت فیهن بصوره أفضل صفات الخیر و الفضیله کالإسلام و الإیمان و القنوت و التوبه و العباده و السیاحه،(الآیه ۵).

۵-و یفصل القرآن بین الزوج و زوجته فی التقییم،لأنّ قیمه کلّ إنسان ما یحسنه هو لا ما یحسنه الآخرون مهما کانت الرابطه بینه و بینهم قریبه و حمیمه،کما أنّ مقیاس القبح هو ما یقوم به الفرد من السیئات لا ما یقوم به الآخرون مهما قربوا منه،إذن فالتقییم الموضوعی الدقیق لأی أحد بتقییمه کفرد منقطع عن أیّ أحد، و هذا ما یجعل زوجتی نوح و لوط مثلا للکفّار فتدخلان النار لا فرق بینهما و بین سائر الناس عند اللّه من جهه،و من جهه أخری نفس هذه الحقیقه هی التی تجعل آسیه بنت مزاحم زوجه فرعون الذی ادّعی الربوبیه مثلا للمؤمنین عبر التاریخ، و کذلک مریم التی أحصنت فرجها و صدّقت بکلمات اللّه و کتبه و قنتت له مع القانتین(الآیات ۱۲،۱۱،۱۰).

۶-و هکذا کانت سوره التحریم تدور حول علاقه الزوج بزوجته حیث ینبغی أن تکون وفق المقاییس الإلهیه،فلا یجوز لأحد أن یقیّم الزوجه علی أساس زوجها سلبا أو إیجابا،فقد کانتا زوجتا لوط و نوح خائنتین و کانت آسیه صالحه..و لا یجوز للمرأه أنّی کانت أن تنشر أسرار البیت خارجه.و هکذا تتواصل آیات سوره التحریم لتکمّل بصائر آیات سوره الطلاق فی مراعاه التقوی فی سائر أبعاد الحیاه الزوجیه.

ص:۹۵

[سوره التحريم (۶۶): الآيات ۱ الی ۱۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أَحَلَّ اَللّٰهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضٰاتَ أَزْوٰاجِکَ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اَللّٰهُ
لَکُمْ تَحِلَّةَ أَيْمٰانِکُمْ وَ اَللّٰهُ مَوْلاٰکُمْ وَ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَکِيمُ (٢) وَ إِذْ أَسَرَّ اَلنَّبِيُّ إِلیٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِيثاً فَلَمّٰا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اَللّٰهُ عَلَيْهِ
عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمّٰا نَبَّأَهٰا بِهِ قٰالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هٰذٰا قٰالَ نَبَّأَنِیَ اَلْعَلِيمُ اَلْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبٰا إِلَی اَللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُمٰا
وَ إِنْ تَظٰاهَرٰا عَلَيْهِ فَإِنَّ اَللّٰهَ هُوَ مَوْلاٰهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صٰالِحُ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمَلاٰئِکَةُ بَعْدَ ذٰلِکَ ظَهِيرٌ (۴) عَسیٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ
أَزْوٰاجاً خَيْراً مِنْکُنَّ مُسْلِمٰاتٍ مُؤْمِنٰاتٍ قٰانِتٰاتٍ تٰائِبٰاتٍ عٰابِدٰاتٍ سٰائِحٰاتٍ ثَيِّبٰاتٍ وَ أَبْکٰاراً (۵) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَکُمْ وَ
أَهْلِيکُمْ نٰاراً وَقُودُهَا اَلنّٰاسُ وَ اَلْحِجٰارَةُ عَلَيْهٰا مَلاٰئِکَةٌ غِلاٰظٌ شِدٰادٌ لاٰ يَعْصُونَ اَللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ (۶) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ
کَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا اَلْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اَللّٰهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ يُکَفِّرَ عَنْکُمْ
سَيِّئٰاتِکُمْ وَ يُدْخِلَکُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ يَوْمَ لاٰ يُخْزِی اَللّٰهُ اَلنَّبِیَّ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعیٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمٰانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنٰا أَتْمِمْ لَنٰا نُورَنٰا وَ اِغْفِرْ لَنٰا إِنَّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ (٨) يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِیُّ جٰاهِدِ اَلْکُفّٰارَ وَ اَلْمُنٰافِقِينَ وَ اُغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوٰاهُمْ
جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ کَفَرُوا اِمْرَأَتَ نُوحٍ وَ اِمْرَأَتَ لُوطٍ کٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَيْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا
فَلَمْ يُغْنِيٰا عَنْهُمٰا مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً وَ قِيلَ اُدْخُلاَ اَلنّٰارَ مَعَ اَلدّٰاخِلِينَ (١٠) وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قٰالَتْ رَبِّ اِبْنِ لِی
عِنْدَکَ بَيْتاً فِی اَلْجَنَّةِ وَ نَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِی مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (١١) وَ مَرْيَمَ اِبْنَتَ عِمْرٰانَ اَلَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا
فِيهِ مِنْ رُوحِنٰا وَ صَدَّقَتْ بِکَلِمٰاتِ رَبِّهٰا وَ کُتُبِهِ وَ کٰانَتْ مِنَ اَلْقٰانِتِينَ (١٢)

اللغه

٢[تحلّه أيمانکم]:أصل الحلّ حلّ العقده،و هذه الآيه تقصد حل عقده الإيمان من الکفّاره،و روی فی الحديث:

«لا يموت للرّجل ثلاثه أولاد فتمسه النار إلا تحلّه القسم» أی قدر ما يقول:ان شاء اللّه تعالی،و فی الآيه دلاله علی أن النبی کان قد حلف علی الترک،و أمر بتحلّه يمينه بالکفّاره،فالتحله تحلل اليمين.

۳[عرّف بعضه]:أجمع المفسرون على أن المعنى أبان و فضح لزوجاته ما أذعنه،و لكن يبدو لى أن الكلمه«عرّف»بالتشديد تعنى الإبراز كما الجبل يسمى عرفا،و قد قال اللّه: «وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ »أى أبرزها و أظهرها كما العرف،و قال تعالى:

وَ عَلَى الْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمٰاهُمْ أى على مشارف، و الإعراض عكس الإعراف أى الإهمال و التغافل.

۴[صغت قلوبكما]:أى مالت،و قيل:ضاقت و عدلت عن الحق،و يبدوا أن ذلك لا ينسجم و الآيه:إذ تقول إِنْ تَتُوبٰا إِلَى اللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمٰا و الأصح أنها من الإصغاء لقوله تعالى: وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فكأن التوبه الى اللّه تفتح أسماع القلوب.

[تظاهرا عليه]:تتعاونا و تعاضدا عليه،و جواب هذا التظاهر و التعاون أن يتظاهر معه اللّه مولاه و جبريل و صالح المؤمنين و الملائكه بعد ذلك ظهير.أى معين و ناصر،و فى المصطلح الحديث:تظاهر الناس تظاهره،أى اجتمعوا أو خرجوا متعاونين كما فى المنجد،و استظهر به استعان،و الظّهره:

العون.

ص:۹۸

۵[مؤمنات قانتات]و جوابهما قوله: وَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ و قوله عن مريم: وَ كٰانَتْ مِنَ الْقٰانِتِينَ و لعل ذلك يؤيد الروايات التى تقول:ان اللّه سوف الجنه من امرأه فرعون و مريم عليه السلام .

[سانحات]:قيل:صائمات،و قيل:مجاهدات من الحديث:«سياحه أمتى الجهاد»و فى أخرى«جهاد المرأه حسن التبعّل»

ص:۹۹

۱۰[فخانتاهما]:الخيانه و النفاق واحد،الا أن الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه،و النفاق يقال اعتبارا بالـدّين، فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السرّ،و من الخطأ استعمال كلمه الخيانه فى الفاحشه،و القرآن لم يورد الخيانه فى الفاحشه قطّ،و على ذلك فمن الخطأ القول أنّ الخيانه الزوجيه تدل على الفاحشه.

ص:۱۰۰

لم تحرّم ما أحلّ اللّه لک

بينات من الآيات:

[۱]

قـالوا: إنّ رسول اللّه كـان فى بيت حفصه فى يومهـا،و عادت و كانت ماريه القبطيه تخـدمه،فـذهبت حفصه فى حاجه لها،فتناول رسول اللّه-صـلّى اللّه عليه و آله-مـاريه فعلمت حفصه بـذلك فغضـبت و أقبلت على رسول اللّه-صـلّى اللّه عليه و آله-فقالت:يا رسـول اللّه هـذا فى يومى،و فى دارى،و على فراشـى؟!!فاسـتحى رسول اللّه-صـلّى اللّه عليه و آله-منهـا فقـال:«كفى فقـد حرّمت ماريه على نفسـى،و لا أطأها بعـد هذا أبدا» (۱)، و على روايه عن الإمـام الصـادق-عليه السـلام-أنّه قال: «و اللّه ما أقربها» (۲)، و تكشف لنا هذه الحادثه التى ذكرها الرواه عن جانب من حياه الرسول مع زوجاته ببيان حقائق ثلاث:

الأولى:ما عليه الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-من عظيم الأخلاق،إذ

ص:۱۰۲

۱- ۱) تفسير القمى ج ۲ عند الآيه.

۲- ۲) المصدر

كان يتنازل عن حقوقه الشخصيه شريطه ألاّ تتعارض من الناحيه الشرعيه مع حقوق الآخرين،مع ما فى ذلك من الحرمان و المشقه ليعيش الآخرون فى راحه، فهو بأبى و نفسى كما

وصف أمير المؤمنين-عليه السلام-: «نفسه منه فى عناء، و الناس منه فى راحه،أتعب نفسه لآخرته،و أراح الناس من نفسه» (۱)، و ذلك مما يليق بمقام النبوه.

الثانيه:إنّ بعض زوجات النبىّ-و بالذات المعنيتين بمطلع سوره التحريم- كنّ يمارسن ضغوطا عليه لأغراض لا مبرّر لها،بل تتعارض الاستجابه لها عمليا مع أحكام الدين فتصيّر الحلال حراما.

الثالثه:و هكذا كان الرسول وحده الأسوه للمؤمنين،أمّا من حوله فليسوا موضع تأسى إلاّ بمقدار تجسيدهم للحق فى حياتهم و اقتدائهم بشخص الرسول، و هكذا بالنسبه إلى كل رسول و كل قائد رسالى إنّه وحده المقياس أما من حوله فقد يكونون أبعد الناس عن مثاله و منهجه،أليس ابن نوح كان من الهالكين؟أو ليست زوجه نوح و زوجه لوط دخلتا النار مع الداخلين؟و هكذا ينبغى أن ندرس التاريخ فى ضوء هذه الآيه من جديد.

أمّا كيف تدخّل الوحى فى حادث التحريم و عالجه؟فهذا ما يجيب عنه السياق حيث يؤكّد على أنّ تحريم النبى لما قد حرّمه على نفسه(مقاربه ماريه،أو لعق العسل،أو مقاربه كل نسائه)مما هو حلال فى الأصل لم يكن تشريعا إلهيّا تنزل به الوحى ليكون حكما جاريا إنّما هو مبادره شخصيه فى حدود الحقوق الشرعيه اختارها النبىّ لنفسه،لحكمه بالغه تمثّلت فى ابتغاء مرضاه الأزواج،و لهذا جاء الخطاب بقوله تعالى:

۱- ۱) نهج خ ۱۹۳ ص ۳۰۶

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ و ربما لم يخاطبه الجليل بصفته رسولا يبلّغ أحكام اللّه و رسالته بل بصفته نبيّا لكى لا يعدّ إيلاؤه جزء من الرساله.

لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّهُ لَكَ إنّ التحريم هنا بمعنى الامتناع و ليس بمعنى التشريع،قال اللّه تعالى فى شأن موسى-عليه السلام-: وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ (1)،و لو كان الرسول بتحريمه مشرّعا لجاء التعبير(لا تحرّم)بالنهى،لأنه لا مشرّع إلاّ اللّه و لا يجوز لأحد مهما كان أن يشرّع من دونه.

فعن زراره عن أبى جعفر-عليه السلام-قال: سألته عن رجل قال لامرأته:

أنت عليّ حرام،فقال لى«لو كان لى عليه سلطان لأوجعت رأسه و قلت له:اللّه أحلّها لك فما حرّمها عليك؟إنّه لم يزد على أن كذب فزعم أنّ ما أحلّ اللّه له حرام،و لا يدخل عليه طلاق و لا كفاره» (2)و لم يحرّم مشرّعا الرسول،إنّما امتنع عن مقاربه ماريه القبطيه لغايه هى إرضاء زوجاته اللاّتى أثارتهنّ الغيره.

تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ و فى الآيه تحذير للرسول و لكل قائد أن لا يتأثّر بأحد و لو كان أقرب الناس إليه، لأن الضغوط التى يوجهها المقربون للقياده ليس بالضروره آتيه من دوافع داخليه و إن كانت تتلبس بهذا الثوب،إنّما تنتقل عاده إلى بيت القائد من أبعد نقطه، و لكن عبر حلقات متواصله حتى تبلغ القائد،و بالخصوص فى هذا العصر الذى

۱- ۱) القصص ۱۲

۲- ۲) نور الثقلين ج ۵ ص ۳۶۸ نقلا عن الكافى.

تستهدف الدوائر الاستكباريه فيه محاربته و القضاء على الدين،فليس من شك أنّ أجهزه المخابرات و شبكات الأحزاب الفاسده كالشيوعيه و الماسونيه و الصهيونيه و فروعها المبثوثه فی أوساط الأمّه كلّها تسعى للتأثير على القيادات الدينيه عبر وسائط عديده،و إنّها قد تؤثر حتى فی مواقف بعض القيادات و آرائها و فتاويها،فكيف ينبغی أن يتعامل القائد مع مجاميع الضغط هذه فينفی تأثيراتها السلبيه؟إن للقائد صفتين:إنسانيه و قياديه،و عليه أن يحافظ على توازن حكيم،ففی الوقت الذی يتعامل مع زوجته و أولاده و ذوی قرباه بصفته الإنسانيه و بكامل عواطفه و أحاسيسه عليه ألاّ يسمح لذوی النفوذ أن يؤثروا عليه من خلالها على مركزه القيادی،و هذا ما يشير إليه القرآن فی آيه التحريم.

وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ و ينبغی للقائد أن يتحلّى بهاتين الصفتين أيضا،ففی الوقت الذی لا يتأثر بضغوط الزوجات لا ينال أذاهنّ من حلمه وسعه صدره بل يغفر لهن و يرحمهن تخلّقا بصفات اللّٰه و طمعا فی غفرانه و رحمته.

[٢]و من مظاهر غفرانه و رحمته عزّ و جلّ أن جعل للمؤمنين مخرجا يتحللون به من اليمين و آثاره الماديه و المعنويه بالكفّاره،و لو كان اللّٰه يجعل تحريم الإنسان على نفسه تشريعا لوقع الكثير من الناس فی العسر و لتفككت الكثير من الأسر،حيث تدعوهم الضغوط و حالات الغضب إلى التحريم باليمين فی أحيان كثيره.

قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمٰانِكُمْ

قال الإمام أبو جعفر-عليه السلام-: «إنّما حرّم عليه الجاريه ماريه و حلف أن لا يقربها،فإنّما جعل عليه الكفّاره فی الحلف و لم يجعل عليه فی

التحريم» (۱)،و هـذا واضـح فى الآيه «تَحِلَّةَ أَيْمَانِكَمْ »،فلو قال أحـد فلانه علىّ حرام دون يمين فلا هى تحرم عليه و لا تجب عليه الكفاره بخرقه لكلامه و قراره،بل لا يكون إيلاء إلاّ باليمين و لمده أربعه أشهر،

فعن أبى جعفر عليه السـلام قال: «لا يكون إيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعه أشهر» (۲)أى بهذين الشرطين،و الذى يظهر من النصوص أنّ ما كان من رسول اللّه تحريم بيمين و ليس إيلاء،لأن ماريه جاريه لا إيلاء فيها،

فعن أبى نصـر عن الامام الرضا عليه السـلام قال: سألته عن الرجل يولى من أمته،فقال:«لا.كيف يولى و ليس لها طلاق» (۳)إلاّ أن يكون النبى-صلّى اللّه عليه و آله-كما قال بعض المفسرين قد حلف بأن لا يقارب أزواجه جميعا بعد تحذير اللّه له من تحريم ما أحل له ابتغاء مرضاتهن،و اللّه أعلم.

و لكى يتحلـل الرجـل من الأيمـان بالإيلاء أو مجرّده فرض اللّه كفـاره كمخرج و كعقوبه حتى لا يعود لها مرّه أخرى،و هى فى صالحه،و هذا يدل عليه قوله سـبحانه«لكم»بالرغم من أنّ البعض يراها كلفه و غرامه للّه عليه،فهى تزكّى النفس،و توقف الغضـب عنـد حـدّه.و كفّـاره نقض اليمين واجبه فرضـها اللّه،إلاّ أن العود إلى مـا كان قـد حرّمه بها ليس متعلّقا بأدائها،فلا تتكرر الكفّاره بتكرار العود قبل أدائها كما هو فى الظهار،إنّما تجب مرّه واحده لكل يمين،و مقدارها إطعام عشره مساكين،

فعن أبى حمزه الثمالى قال: سألت أبا عبد اللّه-عليه السلام-عمن قال:و اللّه ثم لم يف،فقال:«كفّارته إطعام عشره مساكين» (۴).

و يأتى هذا الفرض من موقع الولايه الإلهيه على المؤمنين.

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) الوسائل ج ۱۵ ص ۵۳۸

۳- ۳) المصدر ص ۵۳۹

۴- ۴) المصدر ص ۵۷۱

وَ اللّهُ مَوْلاٰكُمْ فالـذى يفرضه هـو الـواجب،و لا يجـوز للمؤمنين أن يأخـذوا تشـريعاتهم من مصـدر سواه،لأنّه حيث يشـرّع أهل لذلك،لاحاطته علما بكلّ شىء،و لأنه لا يضع حكما إلاّ لحكمه بالغه.

وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ و إيمان الإنسان بهاتين الصـفتين للّه يبعث فيه روح التسـليم و الرضى بكل ما يفرضه عليه حيث يشعر بفطرته و عقله أنّه يتلقّى تشـريعاته من لدن عليم حكيم،بل إن ذلك يجعله لا يؤمن إلاّ بما يتنزل من عنده،أمّا ما يضـعه البشر من النظم و الأحكام فإنّها لا تدعوا إلى الاطمئنان بها،لأنّ واضعها محدود العلم و الحكمه.

[۳]و يكشف لنـا الوحى بعـد الكلام عن حادث التحريم الـذى جاء نتيجه ضـغوط بعض أزواج النبى عن صوره أخرى سـلبيه من تعـاملهنّ معه-صـلّى اللّه عليه و آله-حيث يفشـين أسـراره إلى الآخرين.الأمر الـذى ينطوى على خيانتين:خيانه له كزوج فالزوجه المخلصه يجب أن تكون مستودع سر زوجها و لا يليق بها إشاعته لأحد مهما كان قرابته و مكانته،و خيانه له كنبى و قائد للأمه.

وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلىٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِيثاً قيل أنّه تحريم ماريه على نفسه،و قيل أنّه تحدّث عن التيارات السياسيه و الاجتماعيه التى كانت فى الأمه،و عن مستقبل السلطه السياسيه فيها،و هو الأقرب و الأهم،لأن تحريم ماريه لم يكن فى الخفاء،و لا يحتاج الكلام عـن إفشـاء هكـذا حـديث إلى التأكيـد على مظـاهره اللّه و الملائكه و صالـح المـؤمنين للنـبى.و فى مجمـع البيـان قـال العلاّمه الطبرسى(رض):و لمّا حرّم ماريه القبطيه أخبر حفصه أنّه

یملک من بعده أبو بکر و عمر (۱).

فَلَمّٰا نَبَّأَتْ بِهِ قیل أنّ کلّا من حفصه و عائشه أخبرتا أبواهما بالأمر،إمّا بسبب العلاقات العاطفیه المتینه بین البنت و أبیها،أو لحب التظاهر بالحضوه عند الرسول،و هذان من أوسع الأبواب التی تخرج منها أسرار الإنسان إلی الآخرین.و إذا کان الإنباء بأسرار النبی یتمّ بعیدا عن سمعه و نظره فإنّه لن یکون بعیدا عن رقابه اللّه الذی أخبر رسوله بالأمر.

وَ أَظْهَرَهُ اللّٰهُ عَلَیْهِ أی کشف له أنّ هذه الزوجه لم تصن سره.

عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ مما یفصح عن معدن الرسول-صلّی اللّه علیه و آله-حیث الأخلاق و الحکمه،فهو لم یعاتبها علی کل شیء بل أظهر جانبا من أمرها و کأنّه یجهل الجوانب الأخری،و لعل ما أعرض عن ذکره کان یتسبب لو ذکره فی حرج عظیم لها،و آثار سلبیه لا تحمد عقباها،و ذلک غایه فی الحکمه لکل زوج فی أسرته، و لکل قائد تجاه أمته.

فَلَمّٰا نَبَّأَهٰا بِهِ قٰالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هٰذٰا و لعلها حینئذ کانت مرتابه فی أنّ من أطلعته علی السر هو الذی أخبر النبی -صلّی اللّه علیه و آله-و غاب عن بالها و إیمانها أنّه متصل بالوحی و مؤیّد من عند

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰ عند الآیه.

اللّه سبحانه،فأجابها-صلّى اللّه عليه و آله-:

قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ الـذى يحيـط بكلّ شـىء.و موقف الرسول-صـلّى اللّه عليه و آله-تجاه زوجته التى أذاعت سره ينبغى أن يدرسه كلّ زوج قائد،و يتخذه منهجا فى أمثال تلك المواقف و ظروفها.

[۴]و يؤكّـد القرآن أنّ مـا حـدث من اثنتين من نسـائه كان زيغا عن الحق و ميلا إلى الباطل،و أنّه بالتالى يحتاج إلى الإصـلاح و التوبه.

إِنْ تَتُوبٰا إِلَى اللّٰهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمٰا أى أنّكما تحتاجان إلى غسل دون الانحراف،و إصلاح الخطأ بالتوبه إلى اللّه و الاعتذار من الرسول-صـلّى اللّه عليه و آله-لأنّ قلوبكما قـد صـغت أى مالت، و أصـغى سـمعه لفلان أى مال به إلى كلامه.و تأكيـد اللّه على انحراف القلب يبيّن أنّ مـا حـدث لم يكن خطـأ عـابرا،إنّما هو انحراف له جـذور تمتـد إلى أعماق القلب، بلى.إنّ كشف أسـرار النبى ليس إلاّـ علامه على انحراف داخلى فى الجـذور، و هكـذا الكثير من مواقف و سـلوكيات الإنسـان الخاطئه.إنّها مره تكون سطحيه و أخرى جذريه.

و يحذّر اللّه الاثنتين من أنّهما لو رفضـتا التوبه و تماديا فى التظاهر ضد الرسول -صـلّى اللّه عليه و آله-فإنّ العاقبه سـتكون للخط الرسالى السليم لأنه مدعوم بقوّه لا تقهر.

وَ إِنْ تَظٰاهَرٰا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللّٰهَ هُوَ مَوْلاٰهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صٰالِحُ الْمُؤْمِنِينَ

ص:۱۰۹

أی خیرتهم و أفضلهم،و أفضل کلّ المؤمنین هو الإمام علی-علیه السلام- الذی نصر الرسول فی کل معارکه و حروبه العسکریه و السیاسیه و غیرهما،و لذلک جاءت بعض النصوص بهذا التأویل،

قال الإمام الصادق-علیه السلام- «صالح المؤمنین هو علیّ بن أبی طالب علیه السلام» (۱).

وَ الْمَلاٰئِکَهُ بَعْدَ ذٰلِکَ ظَهِیرٌ قال ابن عباس:سألت عمر بن الخطاب عن اللتان تظاهرتا علی رسول اللّه -صلّی اللّه علیه و آله-؟فقال:حفصه و عائشه.أورده البخاری فی الصحیح (۲).

[۵]و یحذّر اللّه زوجات الرسول من السلوک السلبی تجاهه بأنّ مصلحه رسالته فوق کل شیء،و هو مستعد لتطلیقهنّ لو عارضن الرساله دون أن یجعل قیادته و قراراته عرضه للتأثر بالضغوط و تبعا لأهواء الزوجات و میولهنّ.ثم أنّه لو فعل ذلک فلن تتعطل مسیرته بل ستستمر،و سیجد بین الناس و عند اللّه من هو خیر من زوجاته.

عَسیٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ یُبْدِلَهُ أَزْوٰاجاً خَیْراً مِنْکُنَّ من الجهه المعنویه و المادیه.و قد وجّه القرآن الحدیث من المثنی إلی الجمیع لکی یکون ما حدث عبره للجمیع،فلا تحدثهن أنفسهن بالسیر علی خطی الاثنتین.أما الصفات المعنویه التی ینبغی أن تکون فی شریکه حیاه الإنسان المؤمن فهی التالیه:

مُسْلِمٰاتٍ مُؤْمِنٰاتٍ قٰانِتٰاتٍ تٰائِبٰاتٍ عٰابِدٰاتٍ سٰائِحٰاتٍ

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۳۷۰

۲- ۲) مجمع البیان ج ۱۰ عند الآیه.

من السياحه و هی الجهاد

لقول رسول اللّه -صلّی اللّه علیه و آله-: «سیاحه أمتی الجهاد»، و الهجره صوره من السیاحه بهذا المفهوم،و الصفات الآنفه صفات متدرجه فالإیمان فوق التسلیم،و القنوت فوق الإیمان،و هکذا..و هذه الصفات هی الأهم،و تأتی فی الدرجه الثانیه الصفات المادیه الظاهره:

ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً [۶]و بعد أن بیّن القرآن بأنّ من الممکن للرسول-صلّی اللّه علیه و آله-أن یجد فی المجتمع زوجات خیرا من زوجاته لو طلقهن ملوّحا لهنّ بالطلاق لو لم یتبن إلی اللّه،أمر المؤمنین بتحمل المسؤولیه الرسالیه فی إطار الأسره،إذ یجب السعی الحثیث لإنقاذ نفسه و سائر أسرته من نار جهنم،و هذه أعظم مسئولیه للمؤمن تجاه أهله.

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَکُمْ وَ أَهْلِیکُمْ ناراً و إنّها لآیه عظیمه ترسم للإنسان المؤمن خطوط مسئولیته لتخرجه من إطار الفردیه إلی التطلعات الإنسانیه و الدینیه الواسعه،حیث التفکیر فی نجاه الآخرین و فلاحهم کجزء من المسؤولیه فی الحیاه.و علی هذا أکّد أئمه الهدی فی تفسیرهم لهذه الآیه الکریمه،

قال سلیمان بن خالد: قلت للإمام الصادق-علیه السلام- إنّ لی أهل بیت و هم یسمعون منی أ فأدعوهم إلی هذا الأمر؟فقال:«نعم.إنّ اللّه عزّ و جلّ یقول فی کتابه:الآیه» (۱)، و

عن أبی بصیر قال: سألت أبا عبد اللّه-علیه السلام-عن قول اللّه:الآیه،قلت:هذه نفسی أقیها فکیف أقی أهلی؟قال:

«تأمرهم بما أمرهم اللّه به،و تنهاهم عما نهاهم اللّه عنه،فإن أطاعوک کنت قد

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۳۷۲ نقلا عن أصول الکافی.

وقیتهم،و إن عصوک کنت قد قضیت ما علیک» (۱)، و هذه الروایه تؤکد بأنّ الدعوه للّه مسئولیه مفروضه علی المؤمن فی أوساط الأسره(الزوجه و الأولاد)،و أنه یجب علیه أن یکون رسولا لربه فیها یدعوهم إلی الحق و ینهاهم عن الباطل.

و لا یسقط المسؤولیه عدم استجابتهم للدعوه،

فقد سئل الإمام الصادق-علیه السلام-عن الآیه فقیل:کیف نقیهن؟قال:«تأمروهن و تنهونهن»،قیل له:

إنّا نأمرهن و ننهاهن فلا یقبلن؟قال:«إذا أمرتموهن و نهیتموهن فقد قضیتم ما علیکم» (۲)، و لعل الوقایه من النار تمر من خلال اجتناب السیئات و ترکیز الصفات المشار إلیها فی الآیه اللاحقه فی النفس و الأهل.و أیّ نار تلک التی یدعونا اللّه للوقایه منها؟ أوّلا:إنّها تشتعل باحتراق الناس و الحجاره.

وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ فلیس الناس هناک یحترقون بالنار بل یتحوّلون نیرانا،لأنّ کل شیء فی جهنم ذو طبیعه ناریه،فهل یتم الاحتراق بتفاعلات ذریه فی الجسم لذلک لا یتحولون رمادا بسرعه،بل یبدّل اللّه جلودهم کلّما نضجت لیذوقوا عذاب الهون،أم بطریقه أخری؟ لا نعلم،إنّما یکفینا أن نتصوّر ذلک المنظر الرهیب فنخشی و نتقی.

و قالوا عن الحجاره أنّها حجاره الکبریت،و لکن یمکن أن یکون عموم الحجاره و یکون احتراقها بتفاعلات ذریه.

ثانیا:

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) المصدر ص ۳۷۳.

عَلَيْهٰا مَلاٰئِكَهٌ غِلاٰظٌ شِدٰادٌ فهم قساه التعامل مع أهل النار،فلا ترى فى شخصيتهم البشاشه و اللطف، كما أنّهم أقوياء فتعذيبهم و أخذهم لا يكون إلّا بالشده.

لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ من قبل فى تعذيب أهل النار.

وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ فى كلّ زمان و على كلّ حال،فلا يتصور الإنسان أنّه قادر على إقامه علاقات خاصه معهم تثنيهم عن أمر اللّه تجاهه،فإنّهم عباد مأمورون للّه و ليسوا شركاء، و طاعتهم له عزّ و جلّ ليس فيها ثغره يهرب عبرها المعذّب من عذاب اللّه.و إذا كان ثمّه طريق لاتقاء غلظتهم و شدتهم و عذاب النار فهو الالتجاء إلى سيّدهم و التحبّب إليه بالإيمان و الطاعه،و لا يتمّ ذلك إلّا فى الدنيا،فلما ذا يضع البعض حجبا بينه و بين ربه باتباع الفلسفات البشريه الشركيه كعباده الأصنام و الملائكه؟! [۷]هنا فى الدنيا عند ما يواجه الإنسان حقيقه رهيبه أو مسئوليه ثقيله يحاول أن يتهرب منها بالخداع الذاتى،فتراه يلتمس الأعذار و التبريرات،و يتحصن وراء الأوهام و الظنون،كلّا..إنّها لا تفيده هنالك فى الآخره شيئا.

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و ما دام جزاء الآخره هو ذات عمل الإنسان فى الدنيا فلا معنى للعذر إذا، و كيف يتخلّص الإنسان مما هو جزء ذاته؟و فى الآيه إيحاء بأنّ عدم استعداد الكفّار للآخره و لقاء اللّه نتيجه طبيعيه لكفرهم بها.

ص:۱۱۳

[8]و ينبغى أن تكون هذه التذكره باعثا نحو المبادره إلى التوبه فى الدنيا قبل فوات الأوان،توبه صادقه كأروع ما تكون التوبه،فإن ذلك وحده الاعتذار الذى يقبله اللّه.

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّٰهِ تَوْبَةً نَصُوحاً بالندم على ما فات،و العزم على ترك الذنب،و إصلاح آثاره السلبيه نفسيه و اجتماعيه و اقتصاديه و..،و الاجتهاد فى الصالحات،هكذا

سأل أحمد بن هلال الإمام الهادى-عليه السلام-عن التوبه النصوح ما هى؟فكتب عليه السلام:

«أن يكون الباطن كالظاهر و أفضل من ذلك» (1)،و

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «هو صوم يوم الأربعاء و الخميس و الجمعه» (2)، لأنّ العمل الصالح جزء من التوبه،و

قال الإمام أبو الحسن-عليه السلام-: «يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه» (3)، و

قال رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- عن التوبه النصوح:«أن يتوب التائب ثم لا يرجع فى ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع» (4).

و هذه التوبه هى التى يقبلها اللّه فيعفو عن سيئات الإنسان بها و يدخله جنات النعيم يوم القيامه.

عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ حقا:إنّ التائب عن صدق يرجى له أن تتحوّل ذنوبه من عقده سيئه تعيق

ص:114

1- 1) المصدر ص 373.

2- 2) المصدر.

3- 3) المصدر ص 374.

4- 4) عن مجمع البيان ج 1 ص 318 و القرطبى ج 18 ص 197.

مسيرته نحو التكامل إلى دافع قوى نحو الخير و الفضيله،كما أنّ اللّه سبحانه يمحو من ديوانه السيئات فلا يطلع عليها أحدا حتى أقرب المقربين إليه،

قال معاويه بن وهب:سمعت أبا عبد اللّه-عليه السلام-(الإمام الصادق)يقول: «إذا تاب العبد توبه نصوحا أحبه اللّه فستر عليه فى الدنيا و الآخره»،فقلت:كيف يستر عليه؟قال:«ينسى ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب،و يوحى إلى جوارحه:

اكتمى عليه ذنوبه،و يوحى إلى بقاع الأرض:اكتمى ما كان يعمل عليك من الذنوب،فيلقى اللّه حين يلقاه و ليس شىء يشهد عليه بشىء من الذنوب» (۱)، فلا يبقى سبب يدخل به النار،و فوق هذا كله يدخله إلى رضوانه و نعيمه فى الجنان.

وَ يُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و تأكيد اللّه على الجنات يزرع فى الإنسان المؤمن إراده التحدى للشهوات و لزخارف الدنيا الزائله حيث يتطلع إلى النعيم الأعظم كمّا و نوعا فى الآخره.

يَوْمَ لا يُخْزِي اللّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بالعذاب و المذلّه بين الناس،و لعلّ فى الآيه إشاره إلى أنّ اللّه يمضى شفاعه الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-و المؤمنين معه من أئمه الهدى و الصالحين.

نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ التى كدحت فى سبيل اللّه،أمّا عن النور فالأظهر فيما قيل ثلاثه آراء لا تناقض بينها،أحدها:أنّه العمل الصالح و الإيمان يظهر فى صوره نور يوم القيامه، و الثانى:أنّه القرآن الذى مشى على هداه المؤمنون فهو يقودهم إلى الجنه كما قادهم فى الدنيا إلى الصواب و السعاده،و الثالث:أنّه أئمه الهدى و القاده الصالحون الذين

۱- ۱) المصدر.

اتبعوهم فی الدنیا،فهم یقودونهم إلی الجنان کما قادوهم إلی الحق و العمل الصالح فی دار الدنیا،

قال الإمام أبو عبد اللّه علیه السلام : «أئمه المؤمنین نورهم یسعی بین أیدیهم و بأیمانهم حتی ینزلوا منازلهم» (۱).

و عند ما نبحث عن الأسباب التی نجی بها المؤمنون من الخزی یوم القیامه، و سعی لأجلها نورهم بین أیدیهم،نجد من أهمها طموحهم الکبیر للکمال،و توکّلهم علی ربهم،و دعاؤهم إلیه أن یغفر لهم..هکذا یدعون ربهم:

یَقُولُونَ رَبَّنٰا أَتْمِمْ لَنٰا نُورَنٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا و من تمام النور کمال الوعی و اصابه الحق فی کل جوانب الحیاه و أبعادها المختلفه،و هناک علاقه بین دعاء المؤمنین بتمام النور و غفران الذنوب فإنّ الخطایا فی الحقیقه ظلمات معنویه تتمثل یوم القیامه،الظلم ظلمات،و الغش ظلمات و هکذا الکذب و الإسراف و..،فهم من جهه یسألون ربهم تمام النور،و من جهه أخری یطمحون إلی النجاه من ظلمات الذنوب و الخطایا.و دون هاتین الغایتین تقف التحدیات الصعبه التی تحتاج إلی عزم الإراده،و استقامه الإیمان،اللذان یستمدهما المؤمنون من ذی القوه المطلقه بالدعاء و التوکل،إذ یعلمون أنّ بلوغ الغایات السامیه (تمام النور،و الغفران)یحتاج إلی توفیق اللّه و أن تجانب سعیهم قدرته،و هذا ما تشیر إلیه الخاتمه:

إِنَّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ و کلمه أخیره:إنّ اللّه سبحانه بعد الأمر بالتوبه النصوح و الدعوه إلیها لم یقل جزما: یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ.. إنّما أضاف(عسی)التی تفید الترجّی..

ص:۱۱۶

۱- ۱) المصدر ص ۳۷۵.

فالنتیجه المترتبه قد تکون و قد لا تکون حسب المفهوم الظاهر للکلمه،و ذلک لکی لا یتسرب إلی أفئده المؤمنین الغرور و العجب فیکون الاعتماد منهم علی التمنیات بغفران اللّه بدل السعی و العمل.

[۹]و بعد أن أمر اللّه بوقایه النفس و الأهل من النار، و التوبه النصوح إلیه عزّ و جل،و بالتالی السعی للکمال،أمر النبی-صلّی اللّه علیه و آله-بجهاد الکفار و المنافقین کضروره لتهیئه الظروف و الأسباب من أجل الوقایه و التوبه و الکمال،و ذلک أنّ کثیرا من أسباب الانحراف و النقص التی یتعرض لها المؤمنون تأتی نتیجه تحرک الکفار من الخارج و المنافقین من الداخل ضد الحق و أتباعه،فلا بد إذن من مواجهه بؤره الفساد هذه و القضاء علیها بالجهاد لتکون الظروف ملائمه لبناء المجتمع النموذجی(المتقی،و التائب،و التام).لذلک جاء الأمر للنبی -صلّی اللّه علیه و آله-بمواجهه الکفار و المنافقین.

یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ جٰاهِدِ الْکُفّٰارَ وَ الْمُنٰافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ أی جهادا لا هواده فیه،باعتبار القائد الرسالی لیس مسئولا عن أسرته و حسب بل هو فی المجتمع کالأب مسئول أن یقی نفسه و یقیه من النار و الضلال،فلا بد أن یعمد إلی اجتثاث بؤر الانحراف عنه و مما حوله مهما کان ذلک الکافر أو هذا المنافق بعیدا أو قریبا.

وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ ففی الدنیا یلقون جزاءهم بمجاهده المؤمنین لهم،و فی الآخره الجزاء الأوفی حیث الخلود فی أسوء ما یصیر إلیه مخلوق من عاقبه.

[۱۰]و بمناسبه الحدیث عن زوجات الرسول الذی یحدد لنا سیاق هذه السوره

ص:۱۱۷

الموقف السليم منهن تأتی الآيات الثلاث الأخيره لتؤكد علی حقيقه هامه يجب الالتفات إليها فی تقييم الناس،و هی أنّ قيمه كل إنسان بأعماله و مواقفه هو صالحه أو فاسده،بغض النظر عمن حوله و من ينتمی إليه.إذن لا يصح أن نفسر التاريخ و القرآن و المواقف تفسيرا تبريريا توفيقيا عند الحديث عن أخطاء أقرباء الأنبياء نسبا أو صحابه أو زواجا لأنّ ذلك يجعلنا فی غموض،فقد يكون أقرب الناس إلی نبیّ من الأنبياء مثلا للكفار كزوجتی نوح و لوط-عليهما السلام-، بينما يصبح أقرب الناس إلی بؤر الانحراف أمثال فرعون و البيئات الفاسده مثلا للمؤمنين كآسيه بنت مزاحم و مريم ابنه عمران،دون أن يكون فی ذلك إساءه إلی الأنبياء و الصالحين و لا إحسان إلی المنحرفين اللذين ينتمی إليهم كلا المثلين.

ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَيْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا فَلَمْ يُغْنِيٰا عَنْهُمٰا مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً لأن الشفيع الحقيقی للإنسان عمله الصالح لا القرابات و لو كانت من الأنبياء و الأولياء،و أعمالهما كانت سيئه لما انطوت عليه من خيانه لزوجيهما بإذاعه السر و التظاهر لجبهه الكفر (1)و خيانه للرساله و القيم التی جاءا بهما،فما نفعتهما القرابات و ما بقی لهما شیء يتميزان به عن الناس،فالقرابه وحدها ليست ذات قيمه عند اللّه إنّما العمل،بل إنّ انتماء الإنسان إلی أیّ شخص أو أيّه جبهه لا يقاس بالحسابات الماديه كالمسافه و النسب إنما بنوع العمل، و انتماء هاتين الزوجتين كان إلی جبهه الكفار فی الدنيا و أهل النار فی الآخره لتجانس الأعمال لذلك لم يغنی عنهما نوح و لوط شيئا.

ص:118

1- 1) فی المجمع ج 10 قال ابن عباس:كانت امرأه نوح كافره تقول للناس إنّه مجنون،و إذا آمن بنوح أحد أخبرت الجبابره من قوم نوح به،و كانت امرأه لوط تدل علی أضيافه.

وَ قِيلَ ادْخُلاَ النّٰارَ مَعَ الدّٰاخِلِينَ و قد اعتبر اللّه هاتين المرأتين مثلا للذين كفروا لأنهما كان يفترض أن تكونا قمه فى الإيمان حيث كانتا تحت عبدين صالحين من الأنبياء،إلاّ أنّهما اختارتا الكفر بدل الإيمان رغم الظروف المساعده،و هذا المثل يهدينا إلى أنّ سعى المؤمنين لوقايه أهليهم من النار ليس بالضروره أن يؤدى إلى نتيجه إيجابيه،و أنّه من الخطأ تقييم أحد كالأنبياء من خلال زوجاتهم و من حولهم،إنّما التقييم السليم يكون عبر أعمالهم و رسالتهم.

و لنا فى الآيه وقفه عند كلمه الخيانه فهى-كما أعتقد-خيانه بالمقياس الرسالى أى خيانه لحركه الرسول و مبادئه،و ليس كما قد يتقوّل البعض لما فيه من عقد جنسيه أو لاعتماده على الإسرائيليات بأنّها خيانه جنسيه،كلاّ..إنّها خيانه فى رساله النبى بدليلين:

الأول:بدلاله السياق،فقد وقع الحديث عن الخيانه فى سياق الحديث عن إفشاء السر من قبل زوجات النبى،و حينما تكلم عن زوجتى نوح و لوط ضربهما مثلا للجبهه المضاده للحق «لِلَّذِينَ كَفَرُوا »،و لو كانت الخيانه جنسيه لضربهم مثلا للذين فسدوا مثلا أو للزناه.

الثانى:لأنّ تفسير الخيانه هنا بالخيانه الزوجيه ليس يمس زوجات الأنبياء و حسب بل يمس الأنبياء أنفسهم و يصوّر بيوتهم محلا للفاحشه و الدعاره،حاشا الأنبياء-عليهم السلام- (۱).

[۱۱-۱۲]و يضرب اللّه مثلا معاكسا للذين آمنوا،أحدهما من بيت فرعون

۱- ۱) و هذا ما سعى إليه الكاتب الضال سلمان رشدى فى أحد فصول كتابه:(الآيات الشيطانيه).

الطاغيه،و الآخر من بيئه بنى إسرائيل المنحرفه حيث مريم بنت عمران.

وَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ التى آمنت بنبىّ اللّه،و تحدّت إغراءات السلطه و ضغوط الطاغيه زوجها فى سبيل اللّه،رغم تظافر العوامل الماديه التى يعتبرها البعض من الحتميات،حيث كان فرعون زوجها و كانت فى ذات الوقت من رعاياه.كانت تنتمى إلى بنى إسرائيل الطبقه المستضعفه و المعدمه بينما كان فرعون قائد المستكبرين و المترفين، و كانت مصالحها الماديه مؤمّنه عند فرعون،فما الذى جعلها تتحداه و تواجه جبروته و سلطانه؟!إنّه الإيمان الذى جعلها تتحدى كل الظروف لتكون مثلا رفيعا يقتدى به المؤمنون عبر التاريخ،و جبلا لا تتأثر بإغراء و لا بإرهاب أو تضليل.

إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّهِ و هنا إشارتان لطيفتان نستوحيهما من الآيه:

الأولى:أنّ أعظم سبب للانحراف كانت تواجهه آسيه هو غرور السلطان و الملك،فلقد كانت زوجه لأعظم الملوك الذين عرفهم تاريخ البشريه، إلاّ أنها انتصرت على قمه تحدى الدنيا للإنسان بالرغبه فى نعيم الآخره الذى يتصاغر أمامه كل نعيم،و لقد جاء فى الأخبار أنّها كانت ترى قصورها فى الجنه و هى موتّده تصبّ عليها ألوان التعذيب.

الثانيه:أنّ هذه المرأه الشريفه لم يحالفها الحظ فى الزوج الذى ترغب إليه أمثالها من المؤمنات فطلبت من اللّه أن تصير إلى نعم بيت الزوجيه،و كان طلب البيت بمثابه طلب من فيه،و ماذا يطيب من البيت للمرأه من دون زوج كريم؟ و إذا كان دعاؤها بهذا المعنى فلما ذا لم يصرّح به فى القرآن؟لعلّ ذلك لأنّ الآداب الاجتماعيه عند العرب(و ربما عند غيرهم أيضا)ما كانت تستسيغ للمرأه العفيفه

أن تطلب زوجا.

و ممّا يؤكّد هذه الفكره الروايات التى بيّنت أنّها تصبح زوجه لرسول اللّه -صلّى اللّه عليه و آله-فى الجنه،

فقد أثر عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- أنّه دخل على خديجه-عليها السلام-و هى فى مرض الموت فقال لها:«بالرغم منّا ما نرى يا خديجه،فإذا قدمت على ضرائرک(أى اللاّتى هنّ أزواج الرسول كما خديجه)فاقرئيهنّ السلام»،فقالت:من هنّ يا رسول اللّه؟فقال:«مريم بنت عمران،و كلثم أخت موسى،و آسيه امرأه فرعون»،و توحى بهذه الحقيقه أيضا بقيه الآيه:

وَ نَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ فكانت ترفض البقاء فى ظلّه،و يهدينا قوله سبحانه:«و عمله»إلى فكره هامه هى أنّ الإنسان المؤمن قد ينجو بالهجره أو بسقوط النظام الفاسد من أذى الظالمين المباشر،لكنّه قد لا ينجو من أعمالهم،فإذا به يصبح ظالما مثلهم و يعمل الفواحش و يقع فى الفساد،لذلک ينبغى الدعاء و العمل للنجاه من الظلمه و من الظلم.

وَ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِینَ أمّا المثل الثانى للمؤمنين فهى مريم ابنه عمران-عليها السلام-فإنّها رغم انحراف بنى إسرائيل بعد موسى و شياع الفاحشه بينهم تحدّت الانحراف فحافظت على عفّتها و طهارتها.

وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها و لا ريب أنّ الأرحام المحصنه و الفروج العفيفه و الحجور الطيبه الطاهره ستكون

منطلق الأجيال الصالحه،و موضع تجلّی روح اللّه.

فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا و برزت عظمه مريم-عليها السلام-فی تصديقها بكلمات اللّه و كتبه، و لعلّ كلمات اللّه هی أنبياؤه كعيسی بن مريم،لأنّ الأنبياء لسانه فی خلقه و ينطقون بوحيه و كلماته،أو هی البصائر الإلهيه البارزه التی من الصعب التصديق بها،أمّا الكتب فهی الرسالات.و لقد جعلت مريم نفسها مصداقا للحق الذی جاء به الأنبياء و انطوت عليه كتب اللّه.

وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ و القانتون هم المثابرون بالدعاء إلی اللّه المسلّمون له ممّا يؤكّد روحانيتها و تبتّلها الدائم.و نستوحی من الآيه تأكيدا للروايات التی قالت بأنّها تكون من زوجات رسولنا الأكرم-صلّی اللّه عليه و آله-فی الآخره حيث وعده اللّه فيما وعده بالزوجات القانتات التی هی منهن.

و قد يكون من معانی التصديق بكلمات اللّه و قنوتها أنّها بلغت مرحله العصمه، حيث أنّ الإنسان بين أمرين:بين الاستجابه لنداء الباطل و كلماته،أو التصديق بالحق و اتباع ندائه و مناديه،و إذا كان الإنسان جادّا فی اتباع الحق تمايز فی داخله نداء الشيطان المنبعث من شهواته و وساوس نفسه الأمّاره بالسوء و همزات شيطانه الرجيم تمايز عن نداء الرحمن المنبعث من عقله و وجدان نفسه اللوّامه و إلهامات ربه عبر ملائكته الكرام.

و هذا أحد وسائل الوحی الذی هو نقر فی القلب،و الذی من أمثلته ما ألهمت أمّ موسی-عليها السلام-أن تلقی بولدها فی اليمّ.

ص:١٢٢

و هـذه الآيات الثلاث تهدينا إلى حقيقه رئيسـيه هى أنّ الإنسان قادر على الاسـتقلال بإرادته و قراره و عمله مهما كانت الظروف مساعده أو معاكسه لما يختاره لنفسه،فالكفر و الإيمان يبدءان من داخل الإنسان و ليس من الظروف و العوامل المحيطه،و بالتالى يمكن القول أنّ هـذه الآيـات بمـا ضـربته من الأمثال تنسف الفلسـفات الضاله القائمه على أساس الإيمان بالحتميات اقتصاديه أو اجتمـاعيه أو وراثيه أو..أو..فيما يتصل بقرار الإيمان و الكفر فى حياه الإنسان،فهـذه آسـيه بنت مزاحم و مريم ابنه عمران تحـديتا الظروف و الضـغوط و آمنتا باللّه،بينما كفرت زوجه نوح و لوط رغم العوامل الإيجابيه و المساعده على الإيمان،و إذا كانت هذه البصيره صادقه فى المرأه فإنّ صدقها بالنسبه إلى الرجل أوضح و أجلى أ ليست المرأه ضعيفه أمام الرجل؟

ص:١٢٣

سوره الملک

اشاره

ص:۱۲۵

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فی أصول الکافی عن أبی جعفر(الباقر)علیه السلام قال: «سوره الملک هی المانعه تمنع من عذاب القبر،و هی مکتوبه فی التوراه سوره الملک،و من قرأها فی لیله فقد أکثر و أطاب و لم یکتب من الغافلین،و إنی لأرکع بها بعد عشاء الآخره و أنا جالس،و إنّ والدی-علیه السلام-کان یقرؤها فی یومه و لیلته،و من قرأها إذا ادخل علیه ناکر و نکیر من قبل رجلیه قالت رجلاه:لیس لکما إلی ما قبلی سبیل قد کان هذا العبد یقوم علیّ فیقرأ سوره الملک فی کلّ یوم و لیله،و إذا أتیاه من قبل جوفه قال لهما:لیس لکما إلی ما قبلی سبیل قد کان هذا العبد اوعانی سوره الملک،و إذا أتیاه من قبل لسانه قال لهما:لیس لکما إلی ما قبلی سبیل قد کان هذا العبد یقرأ بی فی کلّ یوم و لیله سوره الملک» نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۷۸

ص:۱۲۷

الإطار العام

لعلّ زرع الخشيه من اللّه بـالغيب هو المحور الـذى تتصـل به كـلّ آيات سوره الملك،التى هى بـدايه انعطافه كبيره فى السـياق القرآنى نحو البصائر التى تنزّل بها الوحى فى الجزئين الأخيرين،و اللـذان يتألّفان فى الأكثر من السوره المكيه التى تـذكّر بأصول الإسلام كالإيمان باللّه،و بالرسول و الرساله،و بالآخره.

۱-ففى مطلع السوره يتجلّى اللّه العظيم بأسـمائه الحسـنى(تبـارك،الملـك، و القـدير،و الخـالق،و العزيز،و الغفور،و الرحمن)لأنّ المعرفه السـليمه بـاللّه تضع الإنسان المخلوق بوجـدانه و عقله و كلّ حواسه أمام اللّه الخالق سـبحانه،ممّا تمنحه الخشـيه منه عزّ و جل.و لا ريب أنّ خشيه الإنسان من ربه تكون بقدر معرفته به.

أ و لم يقـل تعـالى: إِنَّمٰا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ ؟ (۱).و لكى تكون المعرفه بتلك الـدرجه نجد السـياق يمزج بينهما و بين تعريف الإنسان بأعظم الأهداف التى

۱- ۱) فاطر/۲۸

خلق من أجلها لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكَمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ـ فليس فی منهج الإسلام إذن معرفه لا ـ تقود إلی العمل الصالح،بل إنّ أحسن الناس عملا أكثرهم معرفه بربّه.

و يزداد الإنسان معرفه بربّه كلّما جال ببصره و بصيرته فی الآفاق من حوله، ففيها تتجلّی أسماء الخالق(قدرته و عظمته و تعاليه..)و بالذات إذا كرّ ببصره مع عقله المره بعد الأخری،فی مظهر الخلق و جوهره،و فی صله بعضه ببعض،حيث يتجلّی له ربه و جماله الذی عكس بعض آثاره فی الكون بمظهره و جوهره و نظامه المتقن الذی لا يعتوره تفاوت و لا فطور.الآيات(۵/۱).

۲-و لأنّ الكفر من الحجب التی تمنع المعرفه باللّه و من ثمّ خشيته بالغيب جاءت الآيات تذكّر الكافرين بعذاب الآخره،و تحذّرهم من التكذيب بالنذر، كوسيله لهزّ ضمائرهم و إخراجهم من غرور الكفر و غفلته،إذ تضعهم أمام صور من عذاب الخزی فی جهنم التی تكاد تتفجر من الغيظ،و بصوره تجعل ذلك الغيب المستقبلی شهودا لمن يسمع أو يعقل،مما يزرع خشيه اللّه فی النفس،فهنالك تحوط الكافرين الحسره،و يغمرهم الندم علی ما فرّطوا فی جنب اللّه و ما صاروا إليه من سوء العاقبه،و لا يملك أحدهم إلاّ الاعتراف بذنوبه دون أن يجد مبرّرا يتملّص به من المسؤوليه أو يستر به الفضيحه،و أنّی له ذلك و شهاده اللّه محيطه بكل شیء و هو عليم بذات الصدور؟!و كيف لا يعلم اللطيف الخبير بخلقه؟!الآيات(۱۴/۶).

۳-ثم يأتی السياق علی الأفكار الشركيه فينسفها نسفا، لأنّها تدعوا الإنسان الاعتماد علی الأنداد المزعومين،و الإعتقاد بأنّهم قادرون علی تأمينه و حمايته و رزقه من دون اللّه،باعتبارهم شركاء أو شفعاء أو أنصاف آلهه يؤثّرون علی مشيئته سبحانه،الأمر الذی يجعله لا يخشی ربه عزّ و جل.الآيات(۳۰/۱۵).

و بناء علی الحقائق الثلاث المتقدمه يمكن القول بأنّ قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ.. هى الآيه التى تفصح بجلاء عن المحور الأساسى فى هذه السوره المباركه.

ص:١٣٠

[سوره الملک (۶۷): الآيات ۱ الى ۱۴]

اشاره

بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . تَبٰارَكَ اَلَّذِي بِيَدِهِ اَلْمُلْكُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) اَلَّذِي خَلَقَ اَلْمَوْتَ وَ اَلْحَيٰاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْغَفُورُ (۲) اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً مٰا تَرىٰ فِي خَلْقِ اَلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ فَارْجِعِ اَلْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ (۳) ثُمَّ اِرْجِعِ اَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ اَلْبَصَرُ خٰاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (۴) وَ لَقَدْ زَيَّنَّا اَلسَّمٰاءَ اَلدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ جَعَلْنٰاهٰا رُجُوماً لِلشَّيٰاطِينِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابَ اَلسَّعِيرِ (۵) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (۶) إِذٰا أُلْقُوا فِيهٰا سَمِعُوا لَهٰا شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (۷) تَكٰادُ تَمَيَّزُ مِنَ اَلْغَيْظِ كُلَّمٰا أُلْقِيَ فِيهٰا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (۸) قٰالُوا بَلىٰ قَدْ جٰاءَنٰا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنٰا وَ قُلْنٰا مٰا نَزَّلَ اَللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ كَبِيرٍ (۹) وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ اَلسَّعِيرِ (۱۰) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحٰابِ اَلسَّعِيرِ (۱۱) إِنَّ اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۲) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اِجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۱۳) أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ (۱۴)

اللغه

۱[تبارك]:من برك أى دام فى خير،و منه البركه.

۳[طباقا]:أى واحده فوق الأخرى،و قيل المراد بالمطابقه المشابهه أى يشبه بعضها بعضا فى الإتقان و الإحكام و الاتساق و الانتظام.

[تفاوت]:اختلاف و تناقض.

[فطور]:شقوق و فتوق.

ص:۱۳۱

۴[خاسئا]:مطرودا مبعدا،أى أنّ البصر سوف يعود متعبا دون أن يعثر على عيب فى خلق اللّه.

[حسـير]:هـو العـارى مـن الحسّر و هـم الرّجـاله فى الحرب يحسـرون عـن وجـوههم و رؤوسـهم أو يكونـون لا ـ درع عليهـم، و يقال:أرض عاريه المحاسر،فالبصر يعود و هو عار من أىّ دلاله و نتيجه تثبت التفاوت أو الفطور فى خلق اللّه.

٧[شهيقا]:فى مفردات الراغب:الشهيق طول الزفير و هو ردّ النفس،و أصله من جبل شاهق-أى متناهى الطول.

٨[تميّز]:تتقطّع و تتفرّق.

ص:١٣٢

۱۱[فسحقا]:أی بعدا،و هو دعاء علیهم أی اسحقهم اللّه و أبعدهم عن النجاه.

هدی من الآیات:

لکی یزرع القرآن خشیه اللّه فی القلوب یـذکّرنا بآیـات اللّه و أسـمائه،لأنّ المعرفه أساس الخشیه،فهی التی تظهر للإنسان عظمه ربه و أنّه أهل التقوی،و تجعله یراه ببصائر قلبه عبر آیاته و أفعاله،فمن خلال سنّه الموت و الحیاه یتحسس خلقه الأشیاء،و ملکه لها،و قهره إیّاها،و من خلال النظر فی أنظمه الکائنات یتجلّی له قـدرته و حکمته،و إنّه لیکلّ بصـره فیعود خاسئا حسـیرا دون أن یری ثغره فی خلق اللّه و تدبیره،ممّا یعزّز لدیه الإیمان به عزّ و جلّ کلّما کرّ ببصره و بصیرته فی الکائنات.

و حیث یسمو البشر بنفسه و عقله إلی آفاق المعرفه یحضر ذلک الغیب أمامه حضورا یبعثه علی الخشیه.

ثم یذکّرنا اللّه بجهنم التی أعدّها للکافرین و کیف أنّها من شده حرارتها ذات شـهیق،بل تکاد تتفجر من الغیظ غضـبا علی أعداء اللّه،و أنّ الوسیله للخلاص منها

هو سماع النذر و الآيات و استثاره العقل على أثرهما فى الدنيا،لأنّ تقصير الإنسان فى ذلك هو أعظم الذنوب التى لا يجد مفرّا دون الاعتراف بها فى الآخره،و كيف لا يعترف و تحوطه شهاده اللّه النافذه؟!

بينات من الآيات:

[۱]فى أوّل كلمه من سوره الملك يطالعنا اسم من أعظم أسماء اللّه و هو تبارك، و الذى يقول عنه(و عن اسمين آخرين يماثلانه فى العظمه)

الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-: «إنّ اللّه تبارك و تعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت،و باللفظ غير منطق،و بالشخص غير متجسد،و بالتشبيه غير موصوف، و باللون غير مصبوغ،منفى عنه الأقطار،مبعد عنه الحدود،محجوب عنه حس كلّ متوهم،مستتر غير مستور،فجعله كلمه تامّه على أربعه أجزاء معا ليس منها واحدا قبل الآخر،فأظهر منها ثلاثه أسماء لفاقه الخلق إليها،و حجب واحدا منها،و هو الاسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثه التى أظهرت،فالظاهر هو:اللّه،و تبارك،و سبحان(و فى روايه:و تعالى)لكلّ اسم من هذه أربعه أركان،فذلك اثنى عشر ركنا،ثم خلق لكلّ ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوبا إليها» (۱).

و ربما بسبب عظمه الأسماء الثلاثه التى أظهرها اللّه لخلقه نجد أئمه الهدى ينعتون عاده ربهم بها،فما تكاد تقرأ حديثا عن اللّه إلاّ يقولون فيه:قال اللّه تبارك و تعالى..فما هو معنى«تبارك»؟ إنّ أهم و أظهر معانى هذا الاسم العظيم الخير الكثير المستمر الذى يتصل فى مقام الخالق بتواتر نعمه على الكائنات و تتابع آلائه،التى لولاها ما استمرت و لزالت

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۴-ص ۱۶۶.

و تلاشت السموات و الأرض و ما بينهما،كما يتصل فى مقام الخليقه بأنّها فى حاله نموّ و تكامل مستمر،لأنّ خالقها يعطيها بركه تلو أخرى،ممّا يدلّ على أنّ مسيره الخلق تصاعديه.و ما التوسعه التى يضيفها الخالق للسموات حينا بعد آخر و التى أشار إليها بقوله: وَ السَّمٰاءَ بَنَيْنٰاهٰا بِأَيْدٍ وَ إِنّٰا لَمُوسِعُونَ (۱)إلاّ مظهر لبركات اللّه،و فى القرآن إشارات إلى هذا المعنى إليك بعضها:قال تعالى و هو يتحدث عن الرساله، تَبٰارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً (۲)ذلك لأنّ الفرقان نعمه تتواصل و خير يستمر و عطاء لا ينقطع من الدنيا و إلى الآخره.إذا فهو تجعلّ لاسم ربّنا«تبارك»،و قال فى معرض حديثه عن إنشاء الإنسان من طور إلى آخر حتى سوّاه كاملا بنعمه العقل: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ (۳)،و قال فى سياق بيانه لنعمه التى فى السماء و بركاته: تَبٰارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (۴).

و هكذا يكون اسم«تبارك»الركن الأخير من أربعه أركان جعلها اللّه لاسمه الأعظم،و هو يشير إلى صفات فعله،الفعّال لما يريد،الجواد،الكريم،المنّان، المتفضّل،الوهّاب،الخالق،البارئ،المصوّر،و هو صانع كلّ مصنوع،و خالق كلّ مخلوق،و رازق كلّ مرزوق،و مالك كلّ مملوك،و راحم كلّ مرحوم،و..و..

أمّا الأركان الثلاثه فإنّ واحدا منها مخزون عند ربّ العزه،بينما الثانى هو:

(اللّه)الذى يشير إلى صفات الذات،و الثالث هو:(تعالى أو سبحان)الذى يشير إلى صفات الجلال.

۱- ۱) الذاريات۴۷/.

۲- ۲) الفرقان۱/.

۳- ۳) المؤمنون۱۴/.

۴- ۴) الفرقان۶۱/(و لقد مرّ فى مطلع سوره الفرقان تفصيل فى بيان هذا المعنى من تبارك فراجع).

تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکَ فالملک الحقیقی بیده وحده تعالی،لأنّه الباقی بعد فناء کلّ شیء،و لأنّه وحده القادر علی التصرف فی ملکه بصوره مطلقه،أمّا ما یملکه الخلق فمالکیتهم له محدوده بقدر ما منحهم اللّه،فمتی شاء زاده أو نقص منه أو سلبه و حوّله إلی غیرهم.

و هذه الآیه تفتح آفاقنا علی وجود أوسع من الأرقام الفرضیه التی یقدّرها العلماء و الفلکیون،بل أوسع ممّا للإنسان المقدره علی تخیّله مهما ذهب بعیدا، و أنّی له تصوّر ملک اللّه و هو بیّد قادره علی کلّ شیء و تمدّه بالبرکه بعد البرکه؟! وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ و کفی دلاله علی أنّ الملک بیده تعالی و أنّه صاحب القدره المطلقه أن ینظر الإنسان إلی الوجود من حوله و ما فیه من آیات القدره و العظمه،و کیف أنّه مسیّر وفق نظام دقیق وضعه اللّه له لا یخرج عنه،و لا تری فیه ثغره أو نقصا أو فطورا.

و

لقد وردت روایه عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب-علیه السلام- فی بیان جوانب من معانی أسماء اللّه الحسنی نذکر بعضها للفائده:و لمّا تسمّی بالملک أراد تصحیح معنی الاسم لمقتضی الحکمه،فخلق الخلق و أمرهم و نهاهم لیتحقق حقیقه الاسم و معنی الملک (و یظهر من هذه الکلمات أنّ الشرائع من مظاهر اسم الملک الإلهی)

و الملک له وجوه أربعه:القدره (علی التصرف فی الملک بمطلق التصرف)،

و الهیبه (و هی انعکاس لقدره المالک علی المملوک)،

و السطوه (بأخذ المملوکین بالقوه و البطش حین المخالفه.فسبحان من لا یعتدی علی أهل مملکته بسطوته)،

و الأمر و النهی (تشریعیّا و تکوینیّا) (۱).

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۹۳-ص(۴۱-۴۲).

[۲]و من أظهر آيات ملك اللّه،و أظهر آيات قدرته:الموت و الحياه،و قد اختلف فی معناهما هنا إلی رأيين:أحدهما:أنّهما ظاهرتا الموت و الحياه اللتان تطبعان آثارهما علی كلّ شیء،سواء الماديتين كموت الإنسان و حياه الأرض بالزرع،أو المعنويتين كالهدی و الصلاح فی مقابل الضلال و الفساد،و الآخر:أنّهما إشاره إلی تقسيم الكائنات إلی أشياء جامده و ذات حياه.

اَلَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیٰاهَ و

قد أشار الإمام الباقر-عليه السلام-إلی المعنيين فقال: «الحياه و الموت خلقان(من)خلق اللّه،فإذا جاء الموت فدخل فی الإنسان لم يدخل فی شیء إلاّ و خرجت منه الحياه» (۱)و الذی يظهر لی أنّ الموت هنا بمعنی انفصال الحياه من كائن حی كما تفيد الروايه،و بما أنّ معرفه الحياه بصوره أجلی تتحقّق بمعرفه الموت فإنّه قدّم الموت علی الحياه،و لا أعتقد أنّ ما قاله بعض المفسرين و الفلاسفه من أنّ الموت سابق للحياه صحيحا،لأنّ الإنسان قبل خلقه و وجوده لا يقال له ميت، و كيف يقال للعدم ميّت؟!من هنا

جاء فی الحديث المروی عن الإمام الباقر -عليه السلام-: «و انّ اللّه عزّ و جلّ خلق الحياه قبل الموت» (۲)و قد يكون تقديم الموت علی الحياه فی الآيه لحكمه أخری هی أنّ قدره اللّه تتجلّی بالموت حيث لا يجد سبيلا لتحدّيه و لا مفرّا من سطوته.

كذلك

جاء فی الدعاء المأثور: «و قهر عباده بالموت و الفناء» (۳).

و يضع اللّه الإنسان أمام سنّه الموت الحتميه،و فرصه الحياه،و يذكّره فی نفس

ص:۱۳۸

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۳۷۹.
۲- ۲) المصدر نقلا عن أصول الكافی.
۳- ۳) مفاتيح الجنان/دعاء الصباح.

الوقت بالهدف الذى خلق هو كما خلقا من أجله،ألا و هو الابتلاء لاستخراج معدن كلّ فرد و استظهار خبايا شخصيته،و مع أنّ الموت من مفردات الابتلاء الا أنّ الابتلاء أكثر و أعظم تجلّيا بالحياه..بل لا يكون إلاّ أثناء الحياه،و لذلك تأخّر ذكر الحياه على الموت لتكون هذه الكلمه لصيقه بكلمه الابتلاء.

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً- إذن يجب على الإنسان و هو يعيش فرصه الحياه أن لا- يضل عن هذا الهدف الكبير،بل يقاوم كلّ عوامل الانحراف و الغفله عنه،و يسخّر كلّ قدراته المعنويه و الماديه للفلاح و الفوز فيه،بأن يجعل عمره مزرعه لأحسن العمل.

فما هو أحسن العمل؟إنّه ما أخلص فيه الإنسان النيه،و أتقن الأداء،و تحدّى به هوى نفسه و أهواء القوى الشيطانيه فى مجتمعه،و كان العمل نفسه من أشرف الطاعات و أعظمها ثوابا عند اللّه،هكذا

روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال فى تفسير الآيه:«أيّكم أحسن عقلا،و أورع عن محارم اللّه،و أسرع فى طاعه اللّه» (1)، و

قال: «أتمّكم عقلا،و أشدّكم للّه خوفا،و أحسنكم فيما أمر اللّه و نهى عنه نظرا» (2)، و

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «ليس يعنى أكثركم عملا- و لكن أصوبكم عملا،و إنّما الإصابه خشيه اللّه،و النيّه الصادقه» (3).

و قوله:«ليبلوكم»لا- يعنى أنّه تعالى لا يعلم بخلقه،بل ليتحقّق ذلك العلم فى عالم التكوين و يطّلع الناس أنفسهم على معادنهم،و يعقلون جزاء اللّه أنّه بعدل لا بظلم،

قال الإمام على بن موسى الرضا-عليه السلام-: «خلق خلقه ليبلوهم

1- 1) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 380.

2- 2) المصدر

3- 3) تفسير البرهان عند الآيه.

بتكليف طاعته و عبادته لا على سبيل الامتحان و التجربه لأنّه لم يزل عليما بكلّ شيء» (۱).

و لعلّ أظهر تأويل لهـذه الآيه هم الأنبياء و الرسل و أئمه الهـدى من أهل بيت الرسول،حيث أنّهم جميعا كانوا الأحسن عملا بين خلق اللّه،فهم-على هـذا- أبرز الحكم الإلهيه للخلق.أليس قـد أظهرت البلايا أنّهم القمم المضـيئه،و الذرى المتساميه؟و انّ اللّه ما اختارهم و لا اصطفاهم إلّا بعلم و حكمه،و ما جعلهم سادات البشر و أمراء الصالحين من عباده إلّا لأنّهم السابقون فى طاعه اللّه.

و قـد قـدّر بعضـهم فى الآـيه كلمه فقـالوا:الأصـل هو:ليبلوكم فينظر أيكم، و لاـ أرى لهـذا الاـفتراض و أشباهه مـبرّرا فى كتـاب اللّه،فالآـيه أعمق بلاـغه بوضـعها ممّا لو أضـفنا إليها شـيئا،لأنّنا نفهم منها أنّه تعالى يصـنع الصالحين فى رحم الابتلاء،بل إنّ خلق الإنسان يكون ناقصا لو لم يأت إلى الدنيا و يبتلى فيها.

و هكـذا تكون الآيه مظهر من مظاهر اسم«تبارك»حيث تظهر بركه اللّه بأجلى صورها و شواهدها فى الصـفوه من عباده المؤمنين الصالحين،الذى يتجاوزون فى سبيله كلّ الجاذبيات السـلبيه و العقبات الكأداء،و يسمون بأنفسهم إلى آفاق الفضيله ببركه الإيمان به عزّ و جل و بنعمه العقل التى وهبها لهم،و لذلك

جاء فى الأخبار عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- فى قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً قال:

«أحسن عقلا» (۲).

و لأـنّ الإنسـان يفلـح تـاره و يخطئ أخرى و هو يواجه الابتلاـات، أو يتعنّت أحيانـا على الحق،جـاءت خـاتمه الآـيه لتسوقه نحو أهدافه فى مسيره العمل بمعادله متوازنه كفّتها الأولى الخوف و كفّتها الأخرى رجاء رحمه اللّه و غفرانه،و ذلك من

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) المصدر.

خلال تعریفه باسمین لربه من أهمّ ما ینبغی له التعرّف علیهما..فلا یسترسل مع الرجاء المفرط،و لا یصیر فریسه للقنوط.

وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفُورُ یأخذ بعزّته العاصین المذنبین،و یغفر لمن یتوب،فمن أحسن العمل غفر له، و من أساء عذّبه.ثم إنّنا نهتدی من هذه الخاتمه أنّ للابتلاء هدفا آخر غیر استظهار معدن الناس،و هو الجزاء.

[۴-۳]ثم تأخذ الآیات بأبصارنا و بصائرنا إلی بدیع خلقه الکائنات،فإنّنا إذا أمعنا النظر فیها و القینا نظره إلی السماء التی تمتد مدی أبعد من أدق النواظیر و أعظمها التی اخترعها الإنسان بما لا یقدر بشر علی تخیّله..و أعظم من حجم السماوات ذلک النظام المتناهی فی الدقه الذی یحکمها علی ما فیها من المنظومات و المجرات الهائله،فسنقرأ فی الآفاق أسماء ربنا الجلیل.إنّ التفکر فی خلق اللّه یوقف الإنسان أمام حقیقه بدیعه هی متانه الحق و التدبیر فی کلّ مفردات الکون و أجزائه،و النظره السلیمه التی ینبغی أن نسلکها لیست التی تقف بنا عند ظواهر الأشیاء،بل التی تحملنا من الظاهر المشهود إلی الباطن المحجوب،و من معرفه المخلوق إلی معرفه الخالق الذی أنشأه و أبدع له النظام الذی یسیر علیه.

اَلَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً قالوا:یعنی بعضها فوق بعض،کما قال اللّه: لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱)و یبدو أنّ التطابق هنا بمعنی الدقه فی التکامل و التناسق،من باب المطابقه و الموافقه ضد التناقض و التنافر،و إن دلّ ذلک علی شیء فإنّما یدلّ علی دقه

۱- ۱) الإنشقاق۱۹/.

النظام الحاكم فی الکون و مدی قدره خالقه و عظمته،فإنّک مهما بحث و أجهدت نفسک فلن تجد ثغره و لا عیبا فی خلق اللّه.

مٰا تَریٰ فِی خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ أی ثغرات و تناقضات،فإنّ التفاوت بمعنی الاختلاف،و الاختلاف یعنی التناقض،قال تعالی: أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلاٰفاً کَثِیراً (۱)و قد ذکر اسم«الرحمن»هنا عند الحدیث عن نظام الخلیقه لأنّ ذلک من أعظم تجلّیات رحمته عزّ و جلّ.أ تری لو کان النظام الکونی متناقضا هل کانت الحیاه ممکنه أو میسّره؟!کلاّ.و إنّنا مهما تفکرنا فی الخلائق فإنّنا نجدها محکومه بنظام التکامل المتقن،فالشمس تختلف عن القمر و لکنّ أحدهما یکمل مسیره الآخره،بل یقوم بدور محدّد بحیث لا تنتظم مسیرته إلاّ به،بلی.قد نزعم أنّهما متناقضان لأنّ أحدهما(الشمس)نار مشتعله و الآخر(القمر)نور هادئ و لکنّ أحدهما وجه للثانی.

و اللطیف فی التعبیر القرآنی عند هذه الآیه أنّه حدّثنا فی المطلع عن السماوات السبع،و لکنّه عند ما نفی وجود التناقض نفاه عن کلّ خلق اللّه،و ذلک أنّ الإنسان قد یسلّم بأنّ خلقا من خلقه تعالی کالسماوات محکم و متقن،و لکنّه یشک فی وجود هذه الحقیقه عند ما یتفکّر فی خلق آخر،فإذا به یتساءل:و لماذا خلق اللّه الذباب و المیکروبات المهلکه؟لماذا الزلازل التی یذهب ضحیتها الألوف من البشر؟ و لکنّ علیه أوّلا:أن یقیس ما یعرفه من خلق البشر بما لا یعرفه،و ثانیا:أن یعالج شکّه بالیقین،فلا یسترسل مع وساوس الشیطان،بل یظل باحثا عن الحقیقه حتی یکتشفها.لذلک یأتی الخطاب الإلهی الکریم یدعو کلّ فرد فرد من أبناء

۱- ۱) النساء۸۲/.

البشر للنظر و التفكر فی خلق اللّه،و دراسه الظواهر المختلفه،لأنّنا کلنا مسئولون عن معرفه الحقیقه و الوصول إلی درجه الیقین من الإیمان باللّه،و یقول:

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَریٰ مِنْ فُطُورٍ و إلی جانب البصر ینبغی أن یعمل الإنسان بصیرته أیضا،فإنّ العین نافذه القلب علی الحیاه.و لعلّ الفرق بین کلمتی«تفاوت و فطور»أنّ التفاوت یکون بین خلق و خلق آخر،و هو منفی لأنّ کلّ خلائق اللّه یکمل بعضها بعضا فهی منسجمه مع بعضها،أمّا الفطور فیکون فی ذات الخلق الواحد بین أجزائه،و لیس فی خلق من خلقه تعالی ثغره.

و إنّه لعجیب قول ذلک الدکتور الألمانی بخنر:«بما أنّنا لم نجد ظاهره واحده فی هذا الکون الرحیب من أبعد نقطه اکتشفناها فی الفضاء و إلی أقرب جرم إلینا، لم نجدها شاذّه عن النظام الکونی، فلیس لنا الحاجه إلی افتراض وجود اللّه» (۱).

سبحان اللّه کیف عمی قلبه و لم یعرف أنّ وجود النظام دلیل علی من نظّمه و هیمن علی إجرائه؟! نعم لو ثمّه تناقض أو تنافر فی نظام الکون لأمکن افتراض أنّ الصدفه هی التی أوجدته،أو أنّ هناک آلهه متعدده شرکاء فی الربوبیه یتناقض الکون بتناقض آرائهم و تدبیرهم،و لکنّنا لا نری شیئا من ذلک،فما هی إلاّ حقیقه التوحید الخالص إذن.و لیست مشکله الدکتور بخنر إلاّ واحدا من أمرین:فامّا أن یکون جاحدا معاندا لم یرد التسلیم للحق،و امّا أنّ یکون قد أخطأ فی منهج البحث و الدراسه لظواهر الکون،بحیث أنّه جعل المزایا العلمیه المجرده هدفا من بحثه فلمّا وجدها توقّف عندها،و هذا خلاف المنهج السلیم الذی یأمر به العقل و الدین

ص:۱۴۳

۱- ۱) الفکر الإسلامی مواجهه حضاریه-للمؤلّف/ص ۱۸۸.

و الذی یدعو إلی تجاوز ظواهر الأمور إلی بواطنها.

إنّ الإنسان لا یستطیع أن یصنع شیئا إلاّ و فیه ثغره،و لکنّک لا تجد و لا بعضا من فطور فی خلق اللّه،و أنّی یکون ذلک و هو الرحمن،الذی لا یرید لخلقه عناء و لا نصبا؟أ تری لو کانت الشمس تتغیر من موقعها هل نستطیع العیش علی هذا الکوکب؟!و هل یمکن لنا الحیاه علی الأرض لو انعدم الأوکسجین أو تلاشی قانون الجاذبیه؟!کلاّ..إذن فذلک من رحمه خالقنا و تلطّفه بنا سبحانه.

بلی.قد ینظر الإنسان إلی خلق اللّه و یتفکر فیه فیزعم أنّ وجود اللوزتین -مثلا-ثغره فی خلق الإنسان،الأمر الذی دعا بعضهم قبل سنین معدودات إلی اقتلاعهما بعید الولاده!أو یسمّی عضوا داخله بالزائده الدودیه،و تسود هذه الأفکار بین الناس بل فی الأوساط العلمیه أیضا ردحا من الزمن،و لکنّه بعد أن یتقدم العلم یکتشف خلاف تلک المزاعم،و یتبیّن له أنّ اعتقاداته السابقه کانت ظنونا سببها الجهل و التسرّع فی الحکم.لذلک یدعو القرآن للتفکر و النظر فی الأمور بإمعان مرّات عدیده:

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ کَرَّتَیْنِ و أکثر من ذلک،و ابحث بکلّ ما تستطیع عن تناقض و ثغرات فی خلق اللّه،بل افترضه ذلک ثم حاول أن تثبت وجوده،فهل ستجد إلی ذلک سبیلا؟کلاّ..

و إنّما ستصل إلی حقیقه واحده هی التی أشار إلیها القرآن: مٰا تَریٰ فِی خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰاوُتٍ عند تفکرک فی أیّ خلق من خلقه تعالی،حتی.

یَنْقَلِبْ إِلَیْکَ الْبَصَرُ خٰاسِئاً وَ هُوَ حَسِیرٌ و الخاسئ المطرود المبعد،و تقال هذه الکلمه للکلب و الخنزیر،قال صاحب

المنجد:الخاسئ من الخنازير و الكلاب المبعد المطرود،لا يترک أن يدنو من الناس (۱)و کانّ الإنسان حينما يجول ببصره يبحث عن عيب فی خلق اللّه يطرد بلسان حال الخلائق،و کأنّها تقول له:إخسأ إنّنا خلق الرحمن الحکيم العليم فلن تجد فينا نقصا،حيث يقال خسأ و خسوء البصر:کلّ و أعيا (۲)،و هذا المعنى قريب أيضا لأنّ الباحث سوف يتعب و يشقى دون العثور على عيب،و کيف يعثر على شیء ليس بموجود؟!و يؤيّد هذا القول قوله تعالى: يَنْقَلِبْ إِلَيْکَ الْبَصَرُ فهو يتعب و يکلّ من النظر إلى الخلائق فلا يعود إلى ذلک مرّه أخرى..بل يرجع صاحبه منهکا دون نتيجه.

أمّا الحسير فقيل:المحقّر،و قيل:من اشتدت حسرته و ندامته على أمر فاته (۳)، و هما محتملان الصحّه..و هناک معنى قريب جدا من الآيه هو العاری من الحسّر:

الرجّاله فی الحرب يحسرون عن وجوههم و رؤوسهم،أو يکونون لا درع عليهم، و يقال:أرض عاريه المحاسر أی لا نبات فيها (۴)و إنّ الإنسان ليعود ببصره و بصيرته من رحله البحث عن التفاوت أو الفطور فی خلق اللّه و هما مجرّدان عاريان من أیّ دلاله و نتيجه تثبت ذلک.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «فمن فرّغ قلبه،و أعمل فکره،ليعلم کيف أقمت عرشک،و کيف ذرأت خلقک،و کيف علّقت فی الهواء سماواتک،و کيف مددت على مور الماء أرضک،رجع طرفه حسيرا،و عقله مبهورا،و سمعه والها، و فکره حائرا». (۵).

۱- ۱) المنجد ماده خسا.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر-ماده حسر.

۴- ۴) المصدر.

۵- ۵) نهج البلاغه خ ۱۶۰ ص ۲۲۵.

و لنا فی الآیه الرابعه وقفه عند معنی«کرّتین»، فلما ذا قال اللّه:«ثم ارجع البصر کرّتین»؟و الإجابه:

۱-للتأکید علی ضروره أن یرکّز الإنسان فی بحثه و دراسته،فلا یحکم علی شیء من نظره واحده عابره،إنّما یجب أن یدرس أموره مرّات عدیده ثم یقول رأیه، فقد یکون فی مرّته الأولی غفل عن بعض الجوانب و المعطیات،أو لم یفکر تفکیرا کافیا.

۲-إنّ المعرفه السلیمه قد لا تتأتّی إلاّ بالمقارنه بین الأشیاء،فینبغی للدارس أن یراجع ببصره و فکره مرتین،مره یرجع إلی ما یرید معرفته و التحقیق فی شأنه، و أخری یرجع إلی ما یشابهه أو یناقضه للمقارنه.

۳-إنّ دراسه الشیء دراسه شامله تتم بدراسه جانبین فیه:الجانب المادی الظاهر،و الجانب المعنوی الباطن،و یحتاج الباحث أن یکرّ مرّه ببصره لملاحظه الجانب الأوّل،و کرّه أخری یرجع بها إلی الجانب الثانی منه.

۴-لکی یرقی الإنسان فی معارفه سلّم التکامل فهو بحاجه إلی إعاده النظر فی ما توصّل إلیه سابقا بهدف نقده أو تکمیله من خلال نظره تفکّر جدیده،لا حقه بعد السابقه و هکذا.

[۵]و ممّا یؤکّد حاجه الإنسان إلی إعاده النظر فی معارفه أنّ هناک جمله من الأفکار و الإعتقادات الخاطئه(الأساطیر)ینطوی علیها فکره لا تتصحح إلاّ بکرّات أخری جدیده یرجع فیها البصر و البصیره،و من بینها تصوّره المتصل بنظام السماء أنّه فیه ثغرات تنفذ منها الشیاطین إلی الملأ الأعلی فتطّلع علی أقدار اللّه،و زعمه بأنّ النجوم هی مراکز الأقدار و أنّ لکلّ فرد نجما یخصّه إذا مات سقط،و علی ذلک

فسّروا ظاهره الشهب و النيازك،و مضى القول:(نجمى لا يوافق نجمك).و القرآن يشير إلى تلك التصوّرات و يصححها حين يقول تبارك و تعالى:

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ و هى النجوم التى تعتبر لأهل الأرض قناديل الليل،إذ تهتدى بها السفن التى أضلّتها العواصف عن مسارها و تضىء درب الراعى السارى بغنيماته ليلا فى صحراء بعيده،كما تناغى المستلقى تحت السماء فى الليالى الصافيه.و لكنّ متانه الخلقه تربط بين تلك الزينه و الإضاءه و بين حراسه السماء فى تلك النجوم،فهى كما تزيّن السماء و تضىء لأهل الأرض كذلك تقصف الشياطين رجما فلا يستطيعون العبث بمقدّرات الكون،و لا حتى استراق السمع لمعرفه تلك المقدّرات.

وَ جَعَلْنٰاهٰا رُجُوماً لِلشَّيٰاطِينِ و هذه الآيه تنسف زعم الجاهلين بأنّ الشياطين قوى خارقه و عالمه بأقدار اللّه لأنّها تخترق السماوات و تصل إلى الأعلى،الأمر الذى جعل البعض يشرك بهم، و يتبعون الكهنه باعتبارهم وسائط بين الشياطين و بين الآدميين،فإنّ النجوم ليس كما يتصوّرون بل هى زينه و مصابيح و رجوم،و إنّ الشياطين ليسوا كذلك لأنّهم يرجمون.

و لعلّ هذه الآيه تؤكّد متانه النظام الكونى و هيمنه اللّه من زاويتين:

الأولى:أنّ ما نراه من الشهب و النيازك ليست مجرّد قطع تنفصل عن مدار بعض النجوم و الشموس فى الفضاء نتيجه عوامل و قوانين فيزيائيه بحته و من دون هدف،إنّما تنفلت من مواقعها بإراده اللّه و لأهداف محدّده من بينها رجم الشياطين.

الثانیه:أنّ النظام الکونی نظام متقن،و هو بالرغم من وجود العوامل المضاده التی تحاول خرقه کالشیاطین فإنّها لا تؤثّر فی مسیرته و نظمه،و أنّ مصیر کلّ محاوله لخرقه هو الفشل.و هذه الحقیقه تعطی الإنسان الاطمئنان و الأمن حیث یشعر أنّه یعیش فی کون منظّم و محروس.

و یؤکّد ربّنا فی خاتمه الآیه بأنّ ما هو أعظم من جزاء الرجم الدنیوی للشیاطین هو ذلک العذاب المعدّ لهم فی الآخره.

وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِیرِ و یدلّ هذا المقطع علی أنّ الشیاطین مخلوقات مکلّفه و مختاره و مسئوله حیث تجری علیهم سنّه الجزاء.

[۶]و بعد أن انتهی الفصل الأوّل الذی استهدف زرع الخشیه من اللّه بالغیب من خلال معرفته بالشهود و من خلال تعریفه نفسه بالآیات،یبدأ السیاق القرآنی فصلا آخر لا ینفکّ عن الأوّل،بل یلتقی معه فی ذات الهدف،حیث تذّکرنا الآیات التالیه بعذاب جهنّم و جزاء اللّه للکافرین.

وَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ إنّ الکفر باللّه من قبل الإنسان هو الآخر کعمل الشیاطین خرق لنظم اللّه ممّا یستوجب العذاب.و لهذه الآیه صله متینه بالآیه الثانیه فی السوره التی بیّنت بأنّ حکمه الخلق استظهار معدن الإنسان بالابتلاء،و الکفر و العذاب صوره لفشل الإنسان فی القیام بدوره و واجبه الذی خلق من أجله،فیتردّی فی الجحیم.

وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ

ص:۱۴۸

و المصیر من الصیروره أی ما یصیّر الإنسان نفسه إلیه.

و یلاحظ فی هذه السوره تأکید اللّه علی اسم الرحمن أربع مرّات(فی الآیه الثالثه،و التاسعه عشر،و العشرین،و التاسعه و العشرین)،و کأنّه تعالی یرید أن یؤکّد بأنّه إنّما خلقنا لیرحمنا لا لیعذّبنا و لکنّنا نحن الذین نختار العذاب لأنفسنا بإرادتنا حینما نکفر به،فانّ ما یصیر إلیه الإنسان من العقاب نتیجه کفره لا-لأنّ اللّه سبحانه یرید له بئس المصیر..و بماذا یکفر و یمارس الکفر؟إنّه یکفر بخالقه و رازقه و واهبه الحیاه و کلّ ما یملک،و یمارس عناده له بنعمه..بنعمه المال و القوه و الصحه و السمع و البصر و..و..!و لعلّ هذا ما توحی به کلمه«بربّهم»أی به و بوسیله نعمه.

[۷-۹]و یفصّل القرآن القول فی موضوع العذاب مبیّنا بعض صفات جهنّم و أحوال أصحابها حینما یلقون فیها،لعلّنا نتحسس ذلک الغیب،و نخشی سطوه اللّه..فما هی صفات جهنم؟ أوّل صفه لها أنّها-کما الحفره أو الوادی-ذات قعر سحیق،و قد یکون أوّل عذاب یواجهه أهل جهنم فیها هو الإلقاء من الأعلی إلی الأسفل،

فعن الإمام الصادق-علیه السلام-عن الرسول-صلّی اللّه علیه و آله-عن جبرئیل قال:

«و إنّ جهنّم إذا دخلوها هووا فیها مسیره سبعین عاما» (1)و یعلم اللّه کم هم یقاسون فی هویهم من ألوان العذاب؟! إِذٰا أُلْقُوا فِیهٰا و بناء الفعل هنا للمجهول یدلّ علی أنّهم یلقون مکرهین فی النار،و فی

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۳-ص ۴۷۷.

النصوص إشاره إلى ذلك،

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «و الذی نفسی بیده إنّهم یستکرهون فی النار کما یستکره الوتد فی الحائط» (1).

سَمِعُوا لَهٰا شَهِیقاً و من أنواع العذاب ما یسمعه الکافرون حین هو یهم فی جهنم من عظم شهیقها.و الشهیق هو أخذ الهواء إلی داخل الرئه،و کأنّ النار یومئذ تعطی قدره هائله علی الجذب فتسحبهم إلی جوفها بشهیق ذی صوت مرعب أعظم بملایین المرّات من الرعد القاصف.

و صفه ثالثه لجهنم أنّها تفور.

وَ هِیَ تَفُورُ و للفوران معنیان:أحدهما:الغلیان بارتفاع ما فی الإناء لشدّه الحراره،و فی المنجد:(فارت القدر:غلت و ارتفع ما فیها) (2)و جهنم یومئذ تتداخل ألسنتها و تتموّج بما یشبه فوران الماء فی القدر لشدّه حرارتها،و الثانی:الغضب،و یقال:

فار فائره أی ثار ثائره و هاج غضبه (3)و کلا المعنیین مجتمعان فی هذه الکلمه القرآنیه،فإنّ النار یومئذ تفور کالقدر غضبا.

تَکٰادُ تَمَیَّزُ مِنَ الْغَیْظِ إنّها أعظم من ملایین القنابل النوویه التی تنفجر مرّه واحده،حتی تکاد

ص:150

1- 1) نور الثقلین/ج 4-ص 8 نقلا عن مجمع البیان.
2- 2) المنجد ماده فور.
3- 3) المصدر.

تنفجر و یمتاز بعضها عن بعض لو لا- مشیئه اللّه!و الغیظ الذی یکاد یفجّرها هو انعکاس لغضب اللّه علی الکافرین فی واقع جهنم،و الآیه توحی بأنّ النار لها شعور یوم القیامه،و لیس من شیء یدعوها للغیظ أعظم من عصیان أصحابها لربّهم عزّ و جل! و یأبی اللّه سبحانه إلاّ- أن یظهر عدالته حتی لأولئک الذین تسیر بهم الأقدار إلی قعر جهنم فإذا بملائکته یسألونهم عن سبب وصولهم إلی هذا المصیر البئیس، لکی لا یدخل النار أحد و فی قلبه ذرّه من شک بأنّه سبحانه قد ظلمه،و لکی یصیر أهل النار إلی العذاب و هم فی أعظم ما تکون الملامه لأنفسهم علی ما فرّطوا فی جنب اللّه و فی الإعداد لتلک الدار الاخر.

کُلَّمٰا أُلْقِیَ فِیهٰا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهٰا أَ لَمْ یَأْتِکُمْ نَذِیرٌ یحذّرکم من معصیه اللّه و من هذه النار.

قٰالُوا بَلیٰ قَدْ جٰاءَنٰا نَذِیرٌ فالحجه إذن بالغه علیهم،و أسباب الهدایه إلی الحق و الوقایه من العذاب و أهمّها المنذر و الإنذار کانت متوافره.

فعن الإمام الصادق-علیه السلام- أنّه سأله رجل:لأیّ شیء بعث اللّه الأنبیاء و الرسل إلی الناس؟فقال:« لِئَلاّٰ یَکُونَ لِلنّٰاسِ عَلَی اللّٰهِ حُجَّهٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ،و لئلاّ یقولوا ما جاءنا من بشیر و نذیر،و لیکونوا حجه اللّه علیهم.ألا تسمع اللّه عزّ و جلّ یقول حکایه عن خزنه جهنم، و احتجاجهم علی أهل النار بالأنبیاء و الرسل:الآیتین» (1).

و حیث انتفی التقصیر عن اللّه المعذب ثبت علی الطرف الآخر و هم الکافرون

1- 1) نور الثقلین ج 5-ص 381.

المعذبون،فما هو خطؤهم الفظيع الذى أدّى بهم إلى بئس المصير؟إنّه التكذيب بالنذر.

فَكَذَّبْنٰا وَ قُلْنٰا مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ كَبِيرٍ و فى الآيه بيان لثلاثه ذنوب كبيره أقدم عليها الكفّار:

الأول:تكذيبهم الحق فى داخل أنفسهم و عدم استجابتهم له.

الثانى:أنّهم بادروا للهجوم المضاد ضد القيم الرساليه التى جاء بها المرسلون و أئمه الحق محاولين سحب الشرعيه(أنّها من عند اللّه)عنها،بتصنيفها فى خانه القيم البشريه للتحلّل من مسئوليه الالتزام بها،و ذلك أنّ الملزم للإنسان هو الحق الذى يتصل باللّه فقط.

الثالث:اتهام النذر المصلحين بألوان التهم فى محاوله لإسقاط شخصيتهم و ضرب قيادتهم فى المجتمع،و من أبرزها اتهامهم بالضلاله من خلال قيمهم الفاسده و ثقافتهم الخاطئه.

و كلمه«قلنا»تدل على أنّهم يحاربون الرسالات و القيادات الرساليه بالإعلام المضلل الذى يحكى ثقافتهم و مواقفهم الجاهليه،و الإنسان قادر على القول للآخرين و التعبير عمّا يريد بوسائل شتى،كاللسان و الفن و..

[١١-١٠]و غاب عن الكفّار أنّهم هم الضالون،و أنّ ورائهم يوما تنتصر فيه الحقيقه و تظهر رغم أنف أعدائها،يوما يفصل فيه القول،و يخسر هنالك المبطلون،يوما يشهد فيه الإنسان على نفسه و يعترف بذنبه.

وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ

ص:١٥٢

فالإنسان إذن يحدّد موقفه و مصيره فى الدنيا،فهو الذى يختار الحق أو الباطل، و ينتمى إلى حزب اللّه أو حزب الشيطان،و بالتالى يسلك طريق الجنه أو النار، و هذه الحقيقه تكون فى أجلى صورها يوم القيامه إذ يلاقى كلّ واحد مصيره الذى هو نتيجه مباشره لاختياره و عمله فى الدنيا،و كفى بهذا البيان الإلهى داعيا للناس إلى التفكر فى مستقبلهم الأبدى.

و فى هذه الآيه إشاره لطيفه تتصل بمعارف الإنسان،فهو إمّا يكون تابعا لعاقل فيسمع منه،و إمّا أن يكون بنفسه قادرا على الاهتداء إلى الحق و الاجتهاد فى المعرفه فيعقل، و إمّا أن يكون ضالا كهؤلاء الكفّار الذين ما كانوا يسمعون و لا يعقلون، بعلمهم بهذه الحقيقه فى الدنيا و باعترافهم بها فى الآخره.و إشاره أخرى تهدينا إلى أنّهم كانوا شيئيين يقيّمون الأمور بالمظاهر الماديه،فكأنّهم يعيشون فى الدنيا بأبصارهم فقط و بطونهم و..أمّا الأسماع و العقول فإنّها معطّله،و الحال أنّ قيمه الإنسان بعقله..و لو أنّهم كانوا يستفيدون من عقولهم لما ضلّوا،لأنّ العقل يوافق الحق(١٠٠٪)

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «من كان عاقلا كان له دين،و من كان له دين دخل الجنه» (١)و

قال-عليه السلام-: «العقل ما عبد به الرحمن،و اكتسب به الجنان» (٢)و

قال الإمام على-عليه السلام-:

«هبط جبرئيل على آدم-عليه السلام-فقال:يا آدم إنّى أمرت أن أخيرك واحده من ثلاث فاخترها ودع اثنتين،فقال له آدم:يا جبرئيل و ما الثلاث؟ فقال:العقل و الحياء و الدين،فقال آدم-عليه السلام-:إنى قد اخترت العقل،فقال جبرئيل للحياء و للدين:انصرفا و دعاه،فقالا:يا جبرئيل إنّا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان،قال:فشأنكما،و عرج» (٣)و

قال رسول اللّه

١- ١) نور الثقلين/ج ٥-ص ٣٨٢.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

-صلّى اللّه عليه و آله-: «إنّما يرتفع العباد غدا فى الدرجات و ينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم» (1)و ما كان الكفار يعقلون فهم لا ينالون شيئا،بل يتسافلون فى دركات العذاب.و إنّ إغفال الإنسان لدور العقل لهو أعظم الذنوب، لأنّه الذى تتفرّع عنه كل معصيه و خطيئه،و هذا ما يكتشفه أهل النار يوم القيامه.

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ و كيف لا يعترف البشر للّه بذنبه و له الحجّه البالغه عليه،و كلّ شيء يشهد عليه حتى جوارحه؟!و ربما نهتدى من كلمه«فاعترفوا»-بإضافه إيحاءات السياق- أنّ الكفّار يرفضون الحق و هم يعلمون فى قراره أنفسهم أنّهم يختارون الباطل إلاّ أنّهم لا يعترفون بذلك فى الدنيا.

فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ أى ليكن جزاؤهم أن يسحقوا بالعذاب و بالأقدام،و السحق:هو دق الشيء أشدّ الدق (2)حتى يصير جزئيات صغيره فى مثل الرمل و الطحين أو أنعم من ذلك، و قيل:هو الإبعاد عن رحمه اللّه (3)و المعنيان متحدان لأنّ السحق فى الآخره بالمعنى الأوّل نتيجه لطرد اللّه الكافر من رحمته.

[12-14]و يصل السياق إلى محور السوره حيث التأكيد على خشيه اللّه بالغيب،فإنّ الآيات التى عرّفتنا على جانب من عظمه ربنا فى مطلع السوره، و هكذا التى حدثتنا عن عذاب الكافرين و بعض أحوالهم يوم القيامه،و كذلك بقيه الآيات حتى خاتمه سوره الملك و التى تنسف أفكار الشرك باللّه و مزاعم المشركين..

1- 1) المصدر.

2- 2) المنجد/ماده سحق.

3- 3) المصدر.

إنّها كلّها تهدف رفعنا إلى مستوى خشيه ربنا بالغيب.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لما سبقت منهم من سيئات و خطيئات.

وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ و ذلك لأنّ خشيه اللّه بالغيب من الحسنات الكبيره التى تذهب السيئات و تضاعف الصالحات.فما هو معنى الخشيه بالغيب؟ الجواب إنّها خوف اللّه بالمعرفه الإيمانيه،و ليس نتيجه العوامل الماديه التى يعانيها الإنسان،و يلمس آثارها فى الدنيا..فتاره يلتزم الواحد منّا بأحكام اللّه و يطبّق رسالته لأنّ الحكم بيد أوليائه الذين يجرون حدوده و أحكامه،فهو لا يقدم على السرقه و لا الزنى لأنّ الحاكم سوف يقطع يده و يجلده أو يرجمه بالحجاره،و تاره يستجيب للّه لمعرفته و إيمانه بالآخره،و أنّه تعالى يعذّب العصاه بالنار،فإذا بذلك العامل الغيبى الذى لا يراه ببصره و لكنّه يعاينه ببصيرته يعكس الخوف من اللّه فى كلّ كيانه.

و من المعارف التى تبعث فى النفس روح الخشيه من اللّه هى معرفه الإنسان برقابته المطلقه تعالى على كلّ شىء و علمه به،لا فرق بالنسبه إليه بين السرّ و الجهر، لأنّ هذه المعرفه تجعل من الغيب حاضرا فى وعى البشر و سلوكه.

وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى مطّلع على النوايا الباطنيه التى تنطوى عليها نفوس الناس،و تصدر عنها الأقوال و الأفعال فى مرحله متأخّره عن تكوّنها.و هذا المستوى من المعرفه إذا سمى

إليه الإنسان فإنّه ليس لا يقترف الـذنب فى المجتمع و لا بعيـدا عن أعين الناس و حسب،بل لا ينجس صـدره بنيه سوء أبدا،لأنّها هى الأـخرى يعلمهـا اللّه.و هـذه أكبر ضـمانه للالتزام بالنظام،و قـد أثبتت الإحصاءات أنّ ثمانين بالمائه من حوادث الاجرام التى تقع فى العـالم ناشـئه من اعتقـاد المجرم بـأنّه قـادر على الفلت من الرقـابه و الجزاء،لأـنّ الحـاكم مهمـا بلغ فهو بشـر مثله محـدود القـدرات اطّلاعا و مجازاه، و لكن هل يصـدق ذلك بالنسـبه إلى اللّه سـبحانه؟كلاّ..و القرآن ينسف أدنى تصوّر بهذا الاتجاه إذ يقول متسائلا:

أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الذى ينفذ علمه إلى أدقّ الأشياء و أخفاها.

اَلْخَبِيرُ العـالم علمـا شاملاـ و كاملاـ بخلقه،و إذا كـان الخبير من البشـر يعلم بـدقائق ما يصـنعه من الأجهزه فكيف بالخالق المطلق العلم؟!إذن فلا تحاول أيّها الإنسان أن تخادع نفسك،و لا تسـمع لنداء الشـيطان الذى يحاول تغريرك و الإيحاء لك بأنّك بعيد عن الأنظار فتمارس الخطيئه.

و هناك روايه فى معنى«الخبير»

مأثوره عن الإمام على بن موسـى الرضا-عليه السـلام-: «و أمّا الخبير فالذى لا يعزب عنه شىء و لا يفوته،ليس للتجربه و للاعتبار بالأشـياء،فعنـد التجربه و الإعتبـار علمان لولاهما ما علم،لأنّ من كان كـذلك كان جاهلا(قبل العلم و محـدود المعرفه)،و اللّه لم يزل خبيرا بما يخلق، و الخبير من الناس المستخبر عن جهل المتعلّم،فقد جمعنا الاسم و اختلف

المعنی» (۱) فنقول:أنّ اللّه خبیر کما نقول أنّ فلانا من الناس خبیر،فالتسمیه واحده،و لکنّ معنی خبره اللّه یختلف عن معنی خبره الناس.

ص:۱۵۷

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵-ص ۳۸۳.

[سوره الملک (۶۷): الآيات ۱۵ الی ۳۰]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِی مَنٰاکِبِهٰا وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَیْهِ اَلنُّشُورُ (۱۵) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِی اَلسَّمٰاءِ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمُ اَلْأَرْضَ فَإِذٰا هِیَ تَمُورُ (۱۶) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِی اَلسَّمٰاءِ أَنْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حٰاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ کَیْفَ نَذِیرِ (۱۷) وَ لَقَدْ کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَکَیْفَ کٰانَ نَکِیرِ (۱۸) أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی اَلطَّیْرِ فَوْقَهُمْ صٰافّٰاتٍ وَ یَقْبِضْنَ مٰا یُمْسِکُهُنَّ إِلاَّ اَلرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ بَصِیرٌ (۱۹) أَمَّنْ هٰذَا اَلَّذِی هُوَ جُنْدٌ لَکُمْ یَنْصُرُکُمْ مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ إِنِ اَلْکٰافِرُونَ إِلاّٰ فِی غُرُورٍ (۲۰) أَمَّنْ هٰذَا اَلَّذِی یَرْزُقُکُمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (۲۱) أَ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلیٰ وَجْهِهِ أَهْدیٰ أَمَّنْ یَمْشِی سَوِیًّا عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۲) قُلْ هُوَ اَلَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَةَ قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ (۲۳) قُلْ هُوَ اَلَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۲۵) قُلْ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲۶) فَلَمّٰا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِیئَتْ وُجُوهُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ قِیلَ هٰذَا اَلَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (۲۷) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَهْلَکَنِیَ اَللّٰهُ وَ مَنْ مَعِیَ أَوْ رَحِمَنٰا فَمَنْ یُجِیرُ اَلْکٰافِرِینَ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ (۲۸) قُلْ هُوَ اَلرَّحْمٰنُ آمَنّٰا بِهِ وَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْنٰا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۲۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مٰاؤُکُمْ غَوْراً فَمَنْ یَأْتِیکُمْ بِمٰاءٍ مَعِینٍ (۳۰)

اللغه

۱۵[ذلولا]:سهله،مسخّره للبناء و الزرع و دفن الأموات و السیر و إجراء الأنهر و القنوات و غیرها..من ذلّ بمعنی خضع و لان.

[مناکبها]:أی ظهورها و طرقها،و منکب کلّ شیء أعلاه،و أصله الجانب،و منه منکب الرجل و الریح النکباء.

[النشور]:الحیاه بعد الموت،و أصله من النشر ضد الطّی.

۱۶[تمور]:تضطرب و تموج.

۱۷[حاصبا]:الحاصب الحجاره التی یرمی بها کالحصاء،و حصبه بالحصاء إذا رماه بها.

۱۸[نکیر]:أی إنکاری علیهم حیث عذّبوا بألوان العذاب من غرق و خسف و حصب و غیرها.

۲۱[لجّوا]:استمرّوا فی اللجاج و المخالفه.

[عتوّ]:تعدّ عن الحق.

۲۴[ذرأکم]:أی خلقکم بالتناسل و التوالد.

ص:۱۵۹

۲۷[زلفه]:قريبا.

[تدّعون]:تطلبون و تستعجلون،من الدعاء،و قالوا:

تدعون و تدّعون بمعنى واحد.

۳۰[غورا]:غائر فى أعماق الأرض لا يتمكّن الإنسان من إخراجه.

[معين]:ظاهر للعيون،أو بمعنى جار سهل التناول.

ص:۱۶۰

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاّ فِی غُرُورٍ

هدی من الآیات:

إنّ الفلسفات الشرکیه التی تربط ظواهر الکون و نظمه بالقوی المزعومه من دون اللّه هی المسؤوله عن مشی الإنسان مکبّا علی وجهه،ضالا-عن الحقیقه،و هی التی تحجب عنه نور الخشیه من ربّه،و تصنع فی نفسه هاله من الأمن و الاطمئنان الکاذب،الأمر الذی یسوقه نحو ممارسه المعصیه و مخالفه النظام الحق دون وازع أو ضابط،و یسقط من عنده قیم الشرائع و العهود.أو لیست الخشیه روح الالتزام بالنظام؟ بلی.إنّ الشرک و الإعتقاد بالأنداد هو الذی یترک الإنسان لا مسئولا،فإذا به لا یخشی من مخالفه الحق،و لا یری ضروره للشکر علی النعم،لأنّه یزعم أنّ اللّه خلق الوجود و قدّر نظامه ثم فوّض إلی الناس أمورهم،أو فوّضه إلی الأنداد ثم اعتزل،أو أنّ هناک قوی الشرکاء التی تنصرهم من دونه تعالی فتقاوم قدرته

و مشیئته سبحانه،فإذا منع رزقه عنهم رزقتهم،و إذا غار ماؤهم جاءتهم بماء معین غیره..و یعالج القرآن هذا الضلال(الغرور و العتو و النفور)ببصیرتین:

الأولی:بصیره التوحید،و أنّ اللّه وحده الذی بیده الأمر و القدره التامه، و یذکّر القرآن بهذه الحقیقه بصوره تکون فیها آیات الدرس الأخیر من سوره الملک تفسیرا لآیه محوریه فی السوره هی الآیه الأولی: «تَبٰارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

الثانیه:حقیقه البعث و الجزاء،ذلک أنّ جزء کبیرا من شرک الإنسان و عدم إحساسه بالمسؤولیه نتیجه لکفره بالآخره أو شکّه فیها،فلا بد أن یعلم بأنّه منشور محشور.و عند ما یذکّر القرآن بهذه الحقیقه یعیدنا إلی آیه محوریه أخری فی السوره هی الآیه الثانیه: لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

بینات من الآیات:

[۱۵]لم یکن الناس یعرفون فی عصر نزول القرآن أبعاد نعمه الحیاه علی الأرض کما یعرفون الیوم،و أنّ الأرض تختلف من جهات کثیره عن سائر الکواکب الأخری من حیث القوانین الطبیعیه التی تحکمها،فجاء القرآن لیفتح أفقهم علی معرفه هامه و هی:أنّ الکوکب الذی یعیش علی وجهه کسائر الکواکب الأخری یشبه کره تدور فی هذا الفضاء الرحب و لکنّه یختلف عنها فی کونه مهیّأ من جمیع الجوانب لحیاته علیه.و کان حریّ بالإنسان و هو ینشد غزو الفضاء و رکوب الکواکب الأخری أن ینطلق من هذه الآیه الکریمه.

أمّا هدف القرآن من بیان هذه المیزه للأرض التی نعیش فوقها فلیس أن یضیف إلی العلم معرفه و حسب،بل هنالک هدف أبعد من ذلک..و من دونه لا

تکون معارف البشـر ذات قیمه حقیقیه،ألا و هو تعریفه بربه،فإنّه لو تفکّر ملیّا لعرف أنّ توفیر الأرض لحیاه البشر آیه من آیاته عزّ و جل.بلی.ربمـا یفکّر البعض فی ذلک و لکنّک تجـدهم یضـلون بإجابات لا رصـید لها من الصـحه فإذا بهم یشـرکون باللّه،فأمّا القـدماء فکـانوا یتصوّرون أنّ الأصـنام أو الشـیاطین هی التی صـنعت ذلک،و أمّا المعاصـرون فقالوا أنّها الصـدفه!!و لکنّ القرآن یذکّر الإنسان بالحقیقه التی أرکزت فی فطرته،و یجد أصداءها حینما یستنیر عقله،فینقذه من ضلالات الجهل و الشرک،إذ یقول:

هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً أی مـذلّله میسّره لکم کالحصـان المستراض أو البقره المسـتألفه،حیث جعل نظامها و ما فیها لصالح الإنسان طعما و شرابا و هواء و زینه و ما أشبه ممّا یحتاجه و ینفعه کاللیل و النهار و الشمس و القمر..إلخ.

و تذلیل اللّه للأرض انعکاس لاسم«تبارک»حیث أنّ ذلک من برکته و رحمته.

فَامْشُوا فِی مَنٰاکِبِهٰا وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ و قوله تعالی:«فامشوا»لیس مجرد أمر تشریعی یوجب السعی،بل هو أمر تکوینی،إذ لو لم یقدّر اللّه المشی لما کان أحد یستطیع المشـی حتی فی مناکب الأرض.و المنکب مفرد مناکب و هو مجتمع رأس الکتف و العضد،و نـاحیه کـلّ شـیء و جـانبه،یقـال: سـرنا فی منکب من الأرض أو الجبـل أی فی نـاحیته،و المنکب من الأرض الطریق (1)و کأنّ القرآن حینما أمر بالمشی فی مناکب الأرض شبّهها

۱- ۱) المنجد/ماده نکب.

بالإنسان،رأسها الجبال و مناكبها السفوح و السهول و ما دون القمم العاليه الوعره التی يصعب المشی فيها.و حينما نمشی فإنّنا ليس فقط نحصل علی الرزق بل و نزداد معرفه أيضا.و هناک علاقه بين فعلی الأمر«امشوا»و«كلوا»ذلک أنّ رزقنا لا يمكن أن يمشی إلينا بل لا بد أن نسعی إليه بأنفسنا،و هذه هی القاعده السليمه التی يجب علينا أن نتبعها فی الحياه لنمارس مسئوليتنا فيها و نصل إلی اللقمه الحلال و المرضيه عند اللّه،إذن فليس فی الدين دعوه للخمول و الكسل و التّطفل علی الآخرين،كما يصوّره البعض،إنّما هو صوره لسنن الحياه الواقعيه التی لا يمكن لأحد الوصول إلی أهدافه و أغراضه إلاّ من خلالها و من أهمها سنّه السعی و الكدح.

ثم تنسف الآيه الكريمه فی خاتمتها كلّ القيم الماديه التی تفسر الحياه تفسيرا شيئيا،و تحصر مسئوليه الإنسان فی الوجود فی مساحه ضيقه و تافهه،فإذا بها تنزل به إلی واد سحيق و طموحات ضاله،و كأنّه يشبه الأنعام خلق ليأكل ليعيش بلا هدف!كلاّ..إنّ الإنسان له أن يتعلّم من الحياه و الطبيعه من حوله درسا أساسيا،فلينظر إلی ما حوله هل يجد شيئا خلق بلا هدف؟فما هو هدفه؟دعه يبحث عن هدفه فإنّه سيجد هدفه أعظم من مجرد الأكل و الشرب و التلذذ،كلاّ..

إنّ له تطلّعا أسمی و طموحات أكبر..مثلا يتطلع كلّ إنسان لملک الأرض و الخلود فی الحياه هل يتحقق له ذلک فی هذه الحياه؟كلاّ..و هكذا يهتدی الإنسان إلی الإيمان بالآخره،و بعباره موجزه:سيواجه الحقيقه التی تطرحها الآيه فی خاتمتها:

وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ و تنطوی هاتان الكلمتان علی مجمل حقائق الإيمان حيث الإيمان بالآخره، و التسليم للّه عزّ و جلّ نفسيا بالإيمان و عمليا باتباع رسله و مناهجه.و عند ما نتأمل فی

ترابط أجزاء الآيه الكريمه ببعضها نكتشف حقيقه هامه و هى أنّ على الإنسان أن يضع هدفه و يفكر فى مستقبله الأبدى و هو يمارس الحياه بكلّ صورها،أكلا و شربا و سعيا فى طلب الرزق.و من ضروره الأكل و الشرب الحياتيه يجب عليه أن يتحسس حاجاته و هو يمضى إلى مصيره،و من ارتكاز الحصول على الرزق على السعى(أو بتعبير الآيه المشى)يجب أن يعرف بأنّ وصوله إلى غاياته فى الآخره هو الآخر يرتكز على السعى،و إنّ خير الزاد فى ذلك السفر الطويل لهو التقوى.

الأكل و الرزق فى الآيه أعمّ من ظاهرها،فالأكل صوره من صور الاستهلاك، و الرزق هو عموم ما يحتاج الإنسان إليه،و الآيه بمجملها توحى بأنّ الأرض خلقت مذلّله فى بعض الجوانب و لكن اللّه يريد للإنسان أن يذلّلها كلّها بسعيه،و بالرغم من أنّه لا يقدر على تذليل كلّ شىء فيها لتصبح الأرض جنّه الفردوس لأنّه يتنافى مع حكمه خلق الإنسان فيها ألا و هى الابتلاء،فإنّه قادر على تطوير حياته إلى الأفضل أبدا.

[۱۷-۱۶]و كما ينبغى للإنسان أن ينتفع من تذليل الأرض له و يتحسس اسم«تبارك»من هذه الرحمه الإلهيه عليه،كذلك يجب عليه أن يستشعر قدره اللّه على كلّ شىء،و أنّه لو شاء لسلب تلك البركه منه فإذا بتلك الأرض المذلّله تصبح كالفرس الجامح تمور مورا،أو يحدث تغييرا فى النظام الكونى فإذا بالسماء التى تحميها تستحيل منطلقا لعذاب مصوب لاطاقه للأرض و سكانها به.و تذكّر هذه الحقيقه مهم لأمرين:

الأول:أنّها إلى جانب تنعّم الإنسان ببركات اللّه و رحماته التى فى الطبيعه تعطيه توازنا نفسيا و عقليا و عمليا يسوقه نحو المسيره الصحيحه فى الحياه،فلا تبطر به النعم و تضلله عن أهدافه.فإنّه متى وصل الإنسان إلى اليقين بقدره اللّه عليه سلّم له

أمره و اتصل به و خضع له،و هذه من أعظم أبعاد الخشيه منه تعالى.

الثانی:أنّها تجتث من نفس الإنسان جذور الشرک،لکی لا یأمن مکر اللّه ثم یعصیه اعتمادا علی الشرکاء المزعومین(کالشیاطین و الأصنام و الملائکه بأنّهم قادرون علی مقاومه قدره اللّه و منع مشیئته)أو استرسالا مع رحمته تعالی.

أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِی السَّمٰاءِ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمُ الْأَرْضَ فَإِذٰا هِیَ تَمُورُ أی تموج و تضطرب کما یمور البحر، و ذلک بإحداث انهیارات أرضیه و زلازل، أو بتغییر النظام الأرضی مرّه واحده مما یفقدها توازنها بصوره رهیبه،و فی الآیه إشاره إلی ذلک بکلمه الخسف التی تعنی التغییر و التبدیل باتجاه سلبی.

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِی السَّمٰاءِ أَنْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حٰاصِباً و فی التساؤل ب«أم»تلویح بالنهی عن أن یأمن أحد مکر اللّه لما فیه ذلک من دواعی المعصیه و الاسترسال،و الحاصب حجاره العذاب المتقده نارا،و قوله تعالی «مَنْ فِی السَّمٰاءِ »فی الآیتین محمول علی أحد وجوه ثلاثه:فإمّا هو کنایه عن تعالیه سبحانه،و إمّا لأنّ فی السماء عرشه الذی تصدر منه أوامره عزّ و جل،و إمّا یکون إشاره إلی الملائکه التی تنفّذ أمر اللّه و مشیئته فی الحیاه.

و نتساءل:ما هی العلاقه بین تحذیر اللّه للناس من الکفر به و تهدیده بتحطیم النظام الکونی لو کفروا؟و الجواب:لأنّه تعالی(کما بیّن فی الآیه الثانیه)إنّما خلق الوجود الحی و المیت لأجل الإنسان،فإذا أفسد البشر حکمه وجوده بطلت حکمه الوجود الذی حوله أیضا.

و ما تحمله آیات اللّه من الإنذار لا تستوعبه إلاّ قلوب المؤمنین فإذا هم یخشون

ربّهم بالغيب،أمّا الكافرون و المشركون فهم فى غفله عنه لأنهم محجوبون بالجهل و الشرك عنه،و ذلك لأنّهم ماديون لا يرون إلاّ الأمور الظاهره،ذلك لأنّ العقل هو الذى يهدى الإنسان إلى الباطن من خلال الظاهر،و إلى الغيب عبر الشهود،و هو معطّل لديهم، كما أنّهم لا يسمعون الموعظه من العقلاء،هكذا تراهم يعترفون فى الآخره،و إليهم يوجّه القرآن هذا التحذير المبطّن:

فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ حينما تخسف بهم الأرض و يحلّ عليهم العذاب فى الدنيا،أو فى الآخره حيث العذاب المقيم و الأليم،هنالك يعرفون حقيقه النذير.

[۱۸]و لكنّ القرآن لا يكتفى بالمستقبل الغائب دليلا على حقائقه بل و يستدل عليها بالشواهد الظاهره،لكى لا يبقى لبشر ما يبرّر له الكفر و الزيغ،و لتكون له الحجه البالغه،فما هو الدليل على عذاب اللّه و قدرته على صنع ما يشاء؟ لندرس التاريخ البشرى فهو خير معلّم للإنسان،حيث يهديه إلى سنن اللّه و آيات معرفته،و نحن حينما نتتبع حوادثه فسنجد الكثير من الأمم و المجتمعات التى ذهبت ضحيه كفرها و فسوقها عن أمر اللّه،فذاقت ألوانا من العذاب لا يستوعبها فكر بشر لهولها و فظاعتها.

وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فأين قرى لوط المؤتفكه؟و أين فرعون و قومه؟إنّك لن تجد غير إجابه واحده:

إنّهم دحروا و بادت حضاراتهم لأنّهم لم يخشوا ربهم و يتبعوا رسالاته و رسله.

فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ

فکیف کان العذاب المنکر الذی لم یکونوا یحتسبوه و الذی نزل بساحتهم من عند اللّه سبحانه؟!! و یحتمل هذا المقطع معنی آخر غیر المنکر الفظیع إذا تصوّرنا القرآن یتساءل:

کیف إذن تنکرون،و الشواهد ظاهره،و الآیات قائمه؟ [۱۹]و یلفت القرآن الأنظار و الأفکار إلی مشهد الطیور و هی تطیر فی الفضاء، لیثیر عقولنا نحو دراسه هذه الظاهره التی تحکی تذلیل اللّه السماء للطیور برحمته، و تکشف عن مئات القوانین العلمیه التی تفید الإنسان فی حیاته و حضارته.فلما ذا لا یتساءل ما هی القوانین الفیزیائیه التی یمکن فی ضوئها الطیران؟و لماذا لا یبحث عن الأسباب و العوامل التی تجعل الطائر یسبح فی الفضاء دون أن یقع علی الأرض؟و أهمّ من ذلک کلّه لماذا لا یحاول أن یتصل قلبه بروح هذا العالم لیراه آیه واضحه من آیات ربه العظیم؟ أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الطَّیْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَ یَقْبِضْنَ مَا یُمْسِکُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمٰنُ و الصف هو بسط الجناحین بینما القبض هو جمعهما إلی الجسم،و لعل فی الآیه إشاره بهاتین الکلمتین إلی نوعین من الطیور:أحدهما صفّه أکثر من قبضه،و الآخر العکس،و إلی أیّهما نظر الإنسان تجلّت آیات رحمه اللّه،و لکنّها أظهر عند رؤیه ما یصفّ منها،و ربما لذلک تقدّم ذکره علی الذی یقبض..و إنّما یکون طیران الطیور مظهر لرحمه اللّه لأنّه تعالی لو لم یذلّل لها الفضاء بالنظام الذی یسمح لها بالطیران لما کانت تجد سبیلا إلی ذلک فهو الذی یمسکها،و لأنّها بالطیران تستطیع الهرب من الأخطار.

و لعلّ کلمه«فوقهم»فی الآیه تثیر الإنسان نحو التحدی فیسعی لیکون قادرا

على الطيران،و ما كان الإنسان ليكتشف أسرار الطيران لو لم يكن يدرس هذه الظاهره الكونيه و يطّلع على قوانينها فإذا به يصنع مختلف وسائل الطيران.

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ فهو يعطى كلّ خلق من خلقه القدرات و الصفات ما يتناسب معه و مع دوره فى الحياه،حتى يكون كل شىء فى نفسه و حسب هدفه كاملا.قد منحه ربه كل ما يحتاج،و ذلك يؤكد الحقيقه التى تعلنها الآيه: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ يتبصر حقيقته و دوره و الهدف من خلقه و تناسب هذا الخلق مع سائر خلقه سبحانه.

و نحن يجب أن نهتدى إليها حينما نشاهد طائرا يطير و قد جعل كلّ شىء مناسبا لحركته فى الفضاء:حجمه،أجنحته،تركيبه بدنه،طعامه و شرابه،و توالده و تكاثره،هذا ما نعرفه و سائر البشر،أمّا العلماء و المتخصصون الذين يدرسون حياه مخلوقات اللّه جامده أو متحركه فهم كلّما ازدادوا معرفه بها ازدادوا إيمانا بدقه صنعه عزّ و جل.

تعالوا نستمع إلى

الإمام جعفر بن محمّد الصادق-عليه السلام-يحدّث رجلا من شيعته(المفضل بن عمر) عن الدقه فى خلقه الطير و الحكمه فى صنعه:

«تأمّل يا مفضّل الطائر و خلقته فإنه حين قدّر أن يكون طائرا فى الجوّ خفّف جسمه و ادمج خلقه،فاقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين،و من الأصابع الخمس على أربع،و من منفذين للزبل و البول على واحد يجمعهما،ثمّ خلق ذا جؤجؤ محدّد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه،كما جعل السفينه بهذه الهيئه لتشقّ الماء و تنفذ فيه،و جعل فى جناحيه و ذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران،و كسى كلّه الريش ليداخله الهواء فيقلّه،و لما قدّر أن يكون طعمه الحبّ و اللّحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان،و خلق له منقار

صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسحج من لقط الحب،و لا يتقصف من نهش اللّحم،و لّما عدم الأسنان و صار يزدرد الحب(أی يبتلعه و يسرع الطيران) صحيحا و اللّحم غريضا أعين بفضل حراره فی الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغنی به عن المضغ؛و اعتبر ذلک بأن عجم العنب و غيره يخرج من أجواف الإنس صحيحا،و يطحن فی أجواف الطير لا يری له أثر،ثمّ جعل مما يبيض بيضا و لا يلد ولاده لكيلا يثقل عن الطيران فانّه لو كانت الفراخ فی جوفه تمكث حتی تستحكم لأثقلته و عاقته عن النهوض و الطيران،فجعل كلّ شیء من خلقه مشاكلا للأمر الذی قدّر أن يكون عليه..» تأمل ريش الطير كيف هو؟فإنك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوک دقاق قد ألف بعضه إلی كتأليف الخيط إلی الخيط و الشعره إلی الشعره،ثمّ تری ذلک النسج إذا مددته ينفتح قليلا و لا ينشقّ لتداخله الريح فيقلّ الطائر إذا طار،و تری فی وسط الريشه عمودا غليظا متينا قد نسج عليه الذی هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته، و هو القصبه التی هو فی وسط الريشه،و هو مع ذلک أجوف ليخفّ علی الطائر و لا يعوقه عن الطيران (1) [20]و لا شک أنّ ذلک الجهل بواقع الحياه هو جهل بآيات اللّه سبحانه،ممّا يدعو الإنسان إلی التكذيب بالحق و الكفر بربه،و بالتالی أن يشرک به الأنداد المزعومين،ظنّا منه بأنّه قادر بواسطتهم علی الفرار من سلطان اللّه القاهر و علی التهرب من مسئوليه الحق،الأمر الذی يجعله يعيش فی الحياه من دون قيد أو ضابط،و لكنّ القرآن ينسف هذه الأفكار و المزاعم من جذورها مبيّنا بأنّها ليست سوی نشوه من الغرور الجامح.

أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ

1- 1) بحار الأنوار/توحيد المفضّل/ج 3 ص 103.

و«من دون الرحمن»تتسع إلى معنيين هما:

١-الضد..و عليه تنصرف الآيه إلى الشركاء الموهومين و القوى التى يغتر بها الكافرون كالمال و السلطه فإنّها كلّها لا تنصرهم ضد اللّه،و لو نصرتهم جدلا فهى لا تنفعهم شيئا.

٢-أو تكون الآيه منصرفه إلى الشفعاء فإنّهم كذلك لا يمكن أن يشفعوا لأحد من دون إذن اللّه و رحمته،فلما ذا يجعل الإنسان بينه و بين ربه حجبا و وسائط،و هو قادر على الاتصال بمصدر الرحمه و النصر؟! إنّ الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء و الأولياء ليسوا بدائل عن طاعه اللّه،و عن الدعاء إليه مباشره،بل هم وسائل و سبل إلى الرحمن سبحانه.

إِنِ الْكافِرُونَ إِلاّ فِی غُرُورٍ و الغرور هو الوهم.أ ترى كم هو مغرور ذلك الغبى الذى يزعم أنّه قادر على مقاومه الإنفجار النووى بيمينه؟!بلى.قد يزخرف القول و يخادع نفسه و لكنّه عند مواجهه الحقيقه يكتشف أنّه إنّما كان فى غرور محيط،و إنّنا نرى اليوم مدى الغرور الذى فيه قوى الاستكبار العالمى،لما تملك من ترسانات الأسلحه،و القدره الاقتصاديه،و لكن أين هذا كلّه من قدره اللّه المطلقه حتى يبارزونه عزّ و جل و يدّعون أنّهم سوف ينتصرون على الحق؟! و عاده لا يكتشف الغرور إلاّ بعد فوات الأوان عند ما يصطدم الإنسان بالحقيقه المره حيث لا ينفعه شيئا.

و نتسائل:ألم يكن من الأنسب أن يذكر هنا أسماء العزه و القوه بدل اسم

«الرحمن»حيث أنّ السياق سياق التحدى،و لكنّنا عند التدبر نهتدى إلى إشاره لطيفه فى ذكر اسم«الرحمن»فكأنّ القرآن يقول للإنسان بأنّ مصالحك الحقيقه تجدها عند صاحب الرحمه،فلما ذا تتخذ الشركاء من دونه؟! عند ما تضيق مذاهب الحياه أين نلجأ.أو ليس إلى رحاب رحمه اللّه؟و حينما تتوالى المصائب و النكبات إلى من نجأر.أو ليس إلى حصن الرحمن؟ [۲۱]و إنّه لثابت فطريّا و عمليا لذوى العقول أنّهم إنّما ينتصرون على المشاكل و التحديات بفضل اللّه،و لا يلمسون أثرا لقوى أخرى تنصرهم و يستعينون بها عند الشدائد سواه سبحانه، و عند ما تحبس السماء غيثها هل يقدر الشركاء المزعومون أن ينزلوه؟كلاّ..ألا ترى كيف يجار الإنسان عند ما يحبس رزقه إلى ربه،تبعه إلى ذك الفطره،و يحثّه العقل؟! أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی یَرْزُقُکُمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ و يبدو أنّ الرزق هو أرضيه الاكتساب،فلو لا أنّ الأرض خصبه و المياه متوفّره هل يمكن للزارع أن يكتسب منها شيئا؟!و لو لا أنّ البلد يكون فيه معادن و منابع هل يمكن للصناعى أن يطوّر صناعته أو يستخرج نفطا أو ذهبا أو حجرا كريما؟! و هكذا يتقلب البشر فى رزق اللّه يكتسب منه معاشه فإن انعدم الرزق لم يبق معاش،و لكن بالرغم من وضوح هذه الحقيقه ترى الكفّار يصرّون على الكفر و الغرور.

بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ لجّ و لجاجه:عند فى الخصومه،و تمادى فى العناد إلى الفعل المزجور عنه،و لجّ

فی الأمر:لازمه و أبی أن ینصرف عنه (۱)إصرارا،و العتو:الاستکبار الذی یجاوز الحد،و القلب یقسو فلا یلین،و الظالم یطغی و یتجبر (۲)،و النفور:یعنی التباعد و نفر الظبی و غیره شرد و ابتعد،و الإنسان أعرض عن الشیء و صدّ (۳)،و فی کلمه «نفور»تشبیه للکفّار بالحمیر و الدواب (۴)إذ تمادوا فی معانده الحق مع وضوحه، و أصروا علی لزوم الباطل مع زهوقه،و تجاوزوا الحد فی الاستکبار،و رکبوا التباعد عن الحق شرودا و إعراضا و صدودا.

[۲۲-۲۳]و کیف لنا أن نتصور مسیره من کان فی غرور و لجاجه من العتو و النفور عن الهدی و الحق،إلاّ کمن یمشی مرسلا نظره إلی الأرض لا یری أمامه،أو کمن علی بصره غشاوه یتخبط و لا یهتدی سبیلا أ فهل یستوی هو و من یبصر أمامه و ینتفع بجمیع حواسه و هو علی صراط مستقیم؟! أَ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلیٰ وَجْهِهِ أَهْدیٰ أَمَّنْ یَمْشِی سَوِیًّا عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ و للکبّ معنیان-حسبما قالوا-:أحدهما الذی ینظر إلی الأرض و هو یمشی، و الثانی من لف علی وجهه شیئا یقال تکبکب فی ثیابه إذا تلفف بها،و المکب علی وجهه الذی لفّ علیه شیئا،و السوی الذی یمشی بکامل حواسه و إمکاناته و وعیه فهو السویّ،قال تعالی: آیَتُکَ أَلاّٰ تُکَلِّمَ النّٰاسَ ثَلاٰثَ لَیٰالٍ سَوِیًّا (۵)أی کامله، و قال: فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحٰابُ الصِّرٰاطِ السَّوِیِّ وَ مَنِ اهْتَدیٰ (۶)أی الصراط

ص:۱۷۳

۱- ۱) المنجد ماده لج.

۲- ۲) المصدر ماده نفر بتصرف.

۳- ۳) المصدر بتصرف.

۴- ۴) قال تعالی: کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ المدثر ۵۰/۵۱.

۵- ۵) مریم ۱۰.

۶- ۶) طه ۱۳۵.

السـليم، و إنّ الکافرین لا یمشون فی الحیاه بکامل حواسـهم و وعیهم،و لیس أدل علی ذلک من أنّهم معطّله أسماعهم عن تلقّی المواعظ،و عقولهم عن وعی الحق و استیعابه کما وصـفوا أنفسـهم و کما وصـفهم ربهم فی قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لا یَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لا یُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا یَسْمَعُونَ بِها (۱)و یؤکد هذه الحقیقه قوله تعالی فی الآیه اللاحقه مفسرا معنی المکب:

قُلْ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ قَلِیلاً ما تَشْکُرُونَ قیل:إنکم لا تشـکرون إلاّ قلیلا،و قیل:إنّ المعنی لا یشکرون منکم إلاّ قلیل،و کلا المعنیین صحیح.و إنّ للشکر بالنعم جانبین:

الأول:أن لا یستخدم الإنسان نعم اللّه علیه فی معصیته،فیسـمع باذنه ما حرّمه علیه کالغیبه و الکـذب و الغناء،أو ینظر بعینه ما هو محضور کأعراض الناس و عوراتهم،أو یجعل فؤاده عشّا للشیطان فیملؤه بالظنون و النوایا السیئه و الأفکار الضاله..و هکذا.

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «شکر النعمه اجتناب المحارم» (۲)، و

قال الإمام علی-علیه السلام-: «شکر کل نعمه الورع عمّا حرّم اللّه» (۳).

الثانی:أن یسـخر ما أنعم اللّه به علیه فی طاعته و إعلاء کلمته،بأن یجعله وجوده و کیانه فی طاعته و خـدمه الحق و اهله،و محاربه الباطل و أعداء اللّه،فیستمع بإذنه علوم الحق و مواعظ الصدق،و یوظف بصره فی النظر إلی آیات ربه و کتابه،

۱- ۱) الأعراف ۱۷۹.

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۱ ص ۴۰.

۳- ۳) المصدر ص ۴۲.

و یصیّر فؤاده وسیله لمعرفه الحق و التفکر فیما ینفع به رسالته و نفسه و الناس،و هکذا سائر النعم و الهبات الإلهیه.

و إذا فعل الإنسان ذلک یکون شاکرا،و لا یتم الشکر إلاّ بمعرفه المنعم و التوجه إلیه به،فإنّ الإنسان عرضه للشرک فی الشکر أیضا،لذلک جاءت بدایه الآیه توجهنا إلی المنعم و أنه أهل الشکر،و علی هذه الحقیقه أکدت النصوص المستفیضه

عن أئمه الهدی،قال الإمام زین العابدین علی بن الحسین-علیه السلام-:

الحمد للّه الذی لو حبس عن عباده معرفه حمده علی ما أبلاهم من مننه المتتابعه، و أسبغ علیهم من نعمه المتظاهره،لتصرّفوا فی مننه فلم یحمدوه،و توسّعوا فی رزقه لم یشکروه،و لو کانوا کذلک لخرجوا من حدود الإنسانیه إلی حدّ البهیمه، فکانوا کما وصف فی کتابه: «إِنْ هُمْ إِلاّ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلاً » (۱)و

قال الإمام الحسن العسکری-علیه السلام-: «لا یعرف النعمه إلاّ الشاکر،و لا یشکر النعمه إلاّ العارف» (۲)و

أوحی اللّه تعالی إلی موسی-علیه السلام-:

«یا موسی اشکرنی حق شکری، فقال:یا ربّ کیف أشکرک حقّ شکرک و لیس من شکر أشکر به إلاّ و أنت أنعمت به علی؟!فقال یا موسی شکرتنی حق شکری حین علمت أنّ ذلک منی». (۳)

[۲۴-۲۷]و عند التفکیر فی الآیه(۲۳)و الآیه(۲۴)نجدهما تجیبان علی أهمّ الأسئله المصیریه التی تخطر علی بال کلّ إنسان:من الذی أوجدنی و وهبنی ما أنا فیه من النعم؟و من الذی ذرأنا فی الأرض؟ثم ماذا بعد الدنیا،و إلی أین تسیر بنا الأقدار؟هذه الأسئله و أمثالها تؤکّد أنّ معرفه الخالق مسأله فطریه ملحّه عند کلّ إنسان،و هی إن لم یجب علیها الإجابه السلیمه فسوف یظل الإنسان حائرا لأنها

۱- ۱) الصحیفه السجادیه الدعاء الأول.
۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار ج ۷۸ ص ۳۷۸.
۳- ۳) المصدر ج ۱۳ ص ۳۵۱.

أسئله مصيريه ترسم إجابه كلّ واحد عليها شخصيته(فكره و سلوكه و علاقاته) كما تحدّد مستقبله.

و حيث أنّ القرآن متنزل من ربّ الإنسان الذى خلقه و يعلم ما توسوس به نفسه و ذات صدره،فإنّ آياته جاءت واقعيه و شفاء لما فى صدره،و علاجا لكلّ قضاياه و مسائله،و إنّ هذه الآيات بحق تعبر عمّا فى ضمير كلّ بشر و حاشا للّه و هو الرحمن اللطيف بعباده أن يدعهم فى حيره من هذه الأسئله الخطيره فيضلون كفرا و شركا، و هكذا قال ربنا سبحانه:

قُلْ هُوَ الَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی الْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ و ليست الصدفه أو الطبيعه أو القوى المزعومه من دونه سبحانه،و الذرأ هنا بمعنى الخلق و النشر،فإنّه تعالى خلقنا فى الأرض و نشرنا فى أقطارها،قال اللّه: وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعٰامِ نَصِیباً (1)أى ممّا خلق و بث،و قال: وَ مٰا ذَرَأَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ (2)أى خلق و وزع،و ذرأ الحبوب فى الأرض فرقها و بذرها.و الحشر هو الجمع،و السؤال:هل خلق الإنسان فى الأرض ليعود إليها بعد الموت دون هدف و مسئوليه؟كلاّ..إنّما هى مرحله فى دورته الحياتيه التى لا تنتهى،فقبل أن يذرأ فى الأرض فى عالم الذر،و بعد هذه الدنيا يبدأ رحله إلى عالم البرزخ ثم عالم الحشر و الجزاء حيث يلاقى مصيره الأبدى،و ما دامت بدايه الإنسان من اللّه و نهايته إليه و مصيره بيده فما أحوجه أن يوظّف وجوده فى هذه الأرض و نعم اللّه عليه من أجل حشر سعيد فى الآخره.

و ما أعظم ذكر الآخره و الحشر فى قلوب الصالحين،و حسب ما

يقول الإمام على

۱- ۱) الانعام ۱۳۶.

۲- ۲) النحل ۱۳.

-علیه السلام-: «و لو لا الأجل الذی کتب اللّه علیهم لم تستقر أرواحهم فی أبدانهم طرفه عین أبدا» (۱)،و لکنک تری الضالین الذین حجبهم الکفر و الشرک عن رؤیه هذه الحقیقه یستهزءون بها فیذهبون فرصتهم الوحیده فی بحوث عقیمه تافهه، فیتساءلون-مثلا-عن موعد الساعه.

وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ و أسئله أخری تافهه کقولهم:کیف یحی اللّه الموتی؟و إنّک حین تدرس خلفیاتها و أهدافها فی نفوسهم تجد أنّهم لا یریدون بها معرفه الحقیقه،إنّما مجرد الجدل و العناد.أو لیسوا یبحثون عن تبریر للتملص من مسئولیه الالتزام بالحق، و اتباع القیاده الرسالیه فی الحیاه،و الهرب من و خز الضمیر و نداء الفطره؟إذن لا بد أن یکفروا بالآخره لأنّ الإیمان بها قمه الشعور بالمسؤولیه،و لکن هل یغیّر إنکارهم للحقیقه الواقعیه شیئا،فلا تقع الساعه و یصبح الداعیه إلیها کاذبا لو کفروا بها؟ کلاّ..فلینکر أحد حقیقه الموت،و لیکذّب من یذکّره بها،فهل یبقی خالدا إلی الأبد و یصیر المذکّر کاذبا؟و سؤال آخر:هل انّ عدم علم الإنسان بلحظه موته -مثلا-ینفی حقیقه الموت؟فلما ذا یعتبر الجاحدون عدم إخبار الرسول-صلّی اللّه علیه و آله-لهم بموعد الساعه دلیلا علی انتفائها و کذب المؤمنین بها؟ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ و هنا نتساءل:لماذا تأتی هذه الإجابه کلّما تحدّی الکفّار الرسول بالسؤال عن موعد الساعه،أو لیس الأفضل أن یطلعه اللّه علیها فیجیبهم و ینتصر علیهم فی الجدال؟

ص:۱۷۷

۱- ۱) هکذا وصفهم إمام المتقین علی بن أبی طالب فی الخطبه ۱۹۳ من نهج البلاغه.

و الجواب:هنا أسباب تكشف عن جانب من الحكمه الإلهيه،تبرّر عدم الإجابه على سؤالهم تبريرا موضوعيا واقعيا،هي:

أوّلا-لأنّ من عظمه الساعه(ساعه الموت و القيامه)و أثرها فى الإنسان يكمن فى أنّها مستوره،ممّا يدعوه لاجتناب الباطل و اتباع الحق فى كلّ لحظه من حياته خشيه أن تحلّ به الساعه فيها فيلقى ربه على معصيه.و إلاّ-لكان الناس يسترسلون فى الباطل و يزعمون أنّهم سوف يتوبون قبل موتهم بساعه! و

قد أشار الإمام الصادق-عليه السلام-إلى ذلك بقوله:«ثم(لو) عرف ذلك وثق بالبقاء و انهمك فى اللذات و المعاصى،و عمل على أنّه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب فى آخر عمره،و هذا مذهب لا يرضاه اللّه من عباده و لا يقبله» (1)ثانيا:أنّ الكافر الذى أركس فى الغرور و العتو و النفور عن الحق لا-يغيّر فيه إخبار أحد له بموعد الساعه،بل لا-يصدق أحدا لو أخبره و لو كان مصيبا،لأنّ مشكلته أنّه لا يؤمن بالأساس و هو الساعه.فهب أنّ الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-قال له أنّك تموت بعد خمسين يوما،أو أنّ الساعه تقع بعد ألف عام،فهل يصبح من المتقين؟كلا-.إذ أنّ سؤاله ليس بهدف معرفه الحق و التسليم له عند ظهوره،إنّما لمجرد الجدال و المعانده.

ثالثا:انّ الرسول و كل داعيه إلى الحق ليس مسئولا أن يجارى الناس و بالذات الملحدين منهم فى كل شىء،و يجيب على كل سؤال،فإنّ الأسئله لا تنتهى،و لو أنّه ينصب نفسه للرد و المجادله فسوف يضيع الكثير من وقته و جهوده فى أمور لا طائل منها و لا فائده دون أن يصل إلى ما يريد، و بالخصوص أنّ من بين

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج ۶ ص ٣٨.

الناس من هو بارع فی صناعه السؤال و الذی لا یهدف من ورائه إلّا الجدل الفارغ، إنّما مسئولیه المؤمن الرسالی إبلاغ رساله اللّه إلی الناس بأمانه و وضوح.

وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ و تهدینا خاتمه الآیه إلی حقیقتین فی منهجیه الدعوه السلیمه إلی اللّه:

الأولی:أنّ علی الفرد الرسالی التحرک وفق ما ترسمه له رسالته و توحی به أهدافه فی الحیاه،دون أن یلتفت کثیرا إلی ما یثیره الآخرون أعداء و منافسین و جاهلین من إشکالات و أسئله و ملاحظات تافهه،لأنّه لو التفت إلی ذلک فلن یصل إلی أهدافه.

الثانیه:أنّ التواضع للحق مسأله مهمه فی الدعوه،فإذا سئل عمّا لا یعلم یجب أن یقول لا أعلم..و إلّا أصیبت مقاتله کما یقول الإمام علی علیه السلام،فلیس العیب أن یعترف الإنسان بالجهل إنما العیب الکبیر أن یقول ما لا یعلم.فهذا سید البشر علی عظمته یجیب و قد سئل عن الساعه التی لا یعلم میعادها: إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ و إنّما للحصر،فلیس من أحد یعلم بمیقات وعد اللّه غیره،و لا یکتفی القرآن بهذه الإجابه بل یضع الکافرین أمام آثاره المریعه عند ما یحین أجله فتساء وجوههم،و یعلمون إلی حدّ الیقین حقّا بالآخره و صدق الرسول،و یشهدون وقوعه الرهیب،یوم لا ینفع نفس إیمانها لم تکن آمنت من قبل.

فَلَمّٰا رَأَوْهُ زُلْفَهً أی و قد اقترب منه الموت،أو عند ما تظهر للناس علامات الساعه و آیاتها کزلزله الأرض،هنالک یکتشفون فظاعه خطئهم،فیتحسرون و یندمون علی ما فرّطوا فی جنب اللّه فی أنفسهم،و لکنّ الأمر لا ینتهی عند هذا و الحد إنّما تعلوهم آثار الهوان و العذاب حتی تظهر علی وجوههم التی طالما صدّوا بها عن الحق.

سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أى أساءها شيء أو أحد كالملائكه الذين هم خزنه جهنم،و لا ريب أنّ تلك الآثار التى تظهر على وجوههم يومئذ و تسوؤهم هى بأعمالهم السيئه و عقائدهم الخاطئه.قال فى المنجد:ساء الأمر فلانا أحزنه،أو فعل به ما يكرهه (۱)و كذلك يصنع بالكافرين.

وَ قِيلَ هٰذَا الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ و لكلمه«تدّعون»فى هذه الآيه معنيان:

الأول:الادّعاء بمعنى الزعم و التكذيب،أى تتحدثون بشأنه مما لم يكن فى قلوبكم،قال ابن عبّاس:أى تدّعون الأباطيل به،و لا ريب أنّ الكافرون حينما كانوا يستعجلون وعد اللّه ما كان هدفهم البحث عن الحقيقه بل كان مجرد الإنكار و الجدال،و لعلّ فى الآيه إشاره إلى حقيقه واقعيه و هى أنّ كثيرا من عقائد الكفّار و مواقفهم الضاله و هكذا أعمالهم السيئه كانت متأسسه على جحود الآخره(وعد اللّه)،فكأنّ إنكارها وسيله مزاعمهم و ادعاءاتهم.

الثانى:الادّعاء بمعنى المبالغه فى الدعاء،حيث يقال لهم من قبل اللّه أنّ هذه الساعه هى الوعد الذى كنتم تكفرون به،و تطالبون مستعجلين وقوعه.ممّا يكشف عن مدى جحودهم و استبعادهم للساعه.

و هذا القيل و أمثاله عذاب نفسى إلى جانب العذاب المادى،و قد يكون أشد أثرا منه،لما ينطوى عليه من الاستهزاء و التبكيت و إثاره للحسره فى نفوسهم.

[۲۸]و بعد حديث الآخره بأمر اللّه رسوله أن يبيّن للكافرين خاصه و للناس

۱- ۱) المنجد ماده ساء.

عامه مجموعه من البصائر ذات الأثر المهم فی إیمان الإنسان و واقعه فی الحیاه.

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَهْلَکَنِیَ اللّٰهُ وَ مَنْ مَعِیَ أَوْ رَحِمَنٰا و للهلاک فی القرآن معنیان:أحدهما:الموت و الفناء،قال تعالی: وَ لَقَدْ جٰاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمّٰا جٰاءَکُمْ بِهِ حَتّٰی إِذٰا هَلَکَ قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً (۱)أی حتی إذا مات،و الآخر:الموت بالعذاب و الدمار،قال تعالی: وَ مٰا کُنّٰا مُهْلِکِی الْقُریٰ إِلاّٰ وَ أَهْلُهٰا ظٰالِمُونَ (۲)و تهدینا هذه الآیه إلی الحقائق التالیه:

۱-أنّ الکفار عاده،ما یتهربون من مسئولیه الحقائق الإلهیه بتحویل قضیه الرساله إلی صراع شخصی بینهم و بین الرسول،و کأنّ الرساله قضیه تهم النبی لذاته و أنّه یبحث عن مصلحته الذاتیه لذلک فهو یخوض الصراع مع الذین لا یؤمنون بها.و هذه الآیه تبیّن سفه هذا الرأی و تذکّر بأنّ الرساله فی البدء قضیه بین الإنسان و ربه و ما الرسول إلاّ واسطه بینهما،و عبد من عباد اللّه إن شاء أهلکه و إن شاء رحمه،و قد حذّر النبی شعیب-علیه السلام-قومه من الدخول فی هذا النفق فقال: وَ یٰا قَوْمِ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شِقٰاقِی أَنْ یُصِیبَکُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰالِحٍ وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْکُمْ بِبَعِیدٍ (۳).

۲-و تحذّر الآیه من الفهم الخاطئ للشفاعه سواء الأولیاء أو شفاعه الشرکاء المزعومین،بزعم أنّهم قادرون علی منع اللّه عمّا یشاء أو التأثیر علی قراره،الأمر الذی یدعو الإنسان إلی الاسترسال فی الانحراف و اللاّمسؤولیه.و ذلک ببیان أنّ للّه

۱- ۱) غافر ۳۴.

۲- ۲) القصص ۵۹.

۳- ۳) هود ۸۹.

وحده فيما يريد،فهو بيده أن يهلك الرسول و يعذّبه أو يرحمه لو شاء.و هكذا تنسف الآيه الأفكار الضاله فى الشفاعه،حيث يقول النبى محمد-صلّى اللّه عليه و آله-و هو أقرب الخلق إلى اللّه و أعظهم عنده و هو الموعود بالشفاعه أنّه لا يملك من اللّه شيئا،فكيف بمن هو دونه من الأولياء الصالحين؟و كيف بالشركاء الموهومين؟! فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ فالكافر إذن معذّب لا محاله لأنّ الشفاعه و الشركاء الموهومين لا يملكون له من اللّه شيئا.

قال البعض:إنّها تربط إجاره الكافرين من عذاب أليم ببقاء الرسول هاديا و مبشّرا و نذيرا (1)و يبدو أنّ ذلك مستوحى من قوله سبحانه: وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

[۲۹]و بعد التخويف و التحذير يفتح القرآن على القلوب باب الرجاء بذكر اسم الرحمن حتى لا تصاب باليأس و القنوط.

قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنّا بِهِ و يبدو أنّ فى الآيه إشاره لطيفه إلى أنّ اللّه لا يهلك الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-و من معه إنّما يرحمهم،لأنّه الرحمن و قد آمنوا به و أطاعوه بالتوكل عليه وحده.

وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا

۱- ۱) تفسير الفرقان ج ۲۹ ص ۵۳.

و لا يخيب من توكل على الرحمن،فإنّه سيكون حسبه،يفيض عليه من بركاته و رحماته،و يجيره من العذاب و الهلاك.أمّا الكفّار و المشركون فقد ضلّوا ضلالا مبينا حينما كفروا بربهم و بالآخره،و اعتقدوا بالأنداد المزعومين و اعتمدوا عليهم، و إذا كانوا يجهلون مدى ضلالتهم،أو استطاعوا أن يخفوها عن الآخرين،فإنّ الحقيقه ستظهر جليه فى المستقبل،و سيفتضحون أمام الناس عند الجزاء،بالرغم من أنّهم يتهمون المؤمنين و القياده الرساليه بالانحراف و يحاولون أن يقنعوا الرأى العام بذلك.

فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [۳۰]و يختم السياق سوره الملك مثيرا الخشيه من اللّه بما يؤكد أنّه وحده الذى بيده الملك و أنّه على كلّ شىء قدير و أنّه الرحمن،و يحذّر بأنّه قادر على الذهاب بمائهم الذى ترتكز عليه الحياه،فلا أحد حينئذ يقدر على أن يأتيهم بماء.أ ترى لو جعل اللّه الماء أجاجا من الأساس بحيث لا يصلح للشرب و الزراعه،أو لا يمكن تفكيك أجزائه و تحليته،أو قرّب موقع الشمس حتى تبخّرت المياه جميعا،هل استمرت الحياه عليها،و من أين كانوا يأتون بالماء؟ قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مٰاؤُكُمْ غَوْراً و الغور:القعر و العمق من كل شىء،و غار الماء:ذهب فى أعماق الأرض و اختفى فلا تصل إليه يد الناس.و إنّ وقع هذا الإنذار فى الوسط الذى تنزلت فيه يومئذ(شبه الجزيره العربيه)حيث يعزّ الماء،و فى تلك العهود حيث الإنسان لم يكتشف بعد وسائل التنقيب عن الماء و حفر الآبار العميقه،لا شك أنّه كان عظيما،و لا يزال و لن يزال كذلك عند أولى الألباب من المؤمنين الذين يعرفون ربهم و قدرته المطلقه،فهم يخشونه دائما و يخافون سطواته،و يدركون الإجابه على

قوله تعالی:

فَمَنْ یَأْتِیکُمْ بِمٰاءٍ مَعِینٍ أنّها النفی القاطع الشامل الأبدی:لا أحد یا ربّ العالمین لأنّ اللّه وحده هو الرحمن و المالک و القادر الذی لا یغلب.و قد قال المفسرون فی معنی«معین»أنّه الماء الذی من کثرته یظهر علی وجه الأرض و یری بالعین،فهو معین،خلافا للغائر الذی شحّ و اختفی،و قیل:هو الماء الجاری من العیون.

و قد أعطی أئمه الهدی-علیهم السلام-بعدا عمیقا للآیه بتأویلها فی إمام الحق،بأنّه الماء بما یحمله من رساله اللّه و الهدی للناس،أو لیس الماء عصب الحیاه و عمادها؟کذلک الإمام،لأنّه یحیی أتباعه ببصائر الوحی و بالهدی إلی الحق فی حیاتهم.أو لیس الکفر و الضلال موتا؟

قال الإمام الصادق-علیه السلام-:«هذه نزلت فی الإمام القائم،یقول:

إن أصبح إمامکم غائبا عنکم لا تدرون أین هو فمن یأتیکم بإمام ظاهر یأتیکم بأخبار السماوات و الأرض،و حلال اللّه و حرامه؟» (1)،و

قال الإمام موسی الکاظم-علیه السلام-:«إذا فقدتم إمامکم فلم تروه فما ذا تصنعون؟» (2).

ص:184

1- 1) نور الثقلین ج 5 ص 387.
2- 2) المصدر.

سوره القلم

اشاره

ص:۱۸۵

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام- قال: «من قرأ سوره ن و القلم فی فریضه أو نافله آمنه اللّه عزّ و جلّ من أن یصیبه فقر أبدا،و أعاذه اللّه إذا مات من ضمّه القبر» نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۸۷.

ص:۱۸۷

الإطار العام

يبلغ الصـراع بين الرسالات الإلهيه و الجاهليه أوجه فى القيـاده،و اسـتقامه النبى و أتبـاعه تحسم الموقف لصالـح الوحى.من هنا جـاءت فاتحه السوره فى عظمه الرساله و الرسول،و انعطفت سـريعا نحو رفض القيادات الجاهليه،و بالـذات تلك التى تقوم بقيمه الثروه،و تبيّن الآيـات الستـه عشـر الأولى مفارقـات القيادتين،فبينما الرسول مقام نعم اللّه،و له عنـده أجر لا ينقطع،و هو على خلق عظيم،و تتجلّى آيـات حكمته على كـلّ أفق،ترى القيـادات الجـاهليه تتشـكّل من كـلّ دجّال حلاّف مهين، يسـتهزأ بالناس يفرّق بينهم،و هو منّاع للخير معتـد أثيم..قـد أغلق منافـذ قلبه دون أىّ شـعاع من نور الحق،فـإذا تليت عليه آيـات اللّه قـال إنّهـا أساطير الأوّلين.

و لا بـد أن يبقى التمايز بين الفريقين قائما أبـدا،فلا يجوز أن يـداهن الرساليون مثل هـذه السـلطات الفاسـده التى تسـتعد لتقـديم بعض التنازل من أجل هذه المداهنه.

و يمضـى السياق فى قصه أصحاب الحقل الذين منعوا المساكين حقّهم فأهلك اللّه زرعهم،لعلّها تكون عبره لأصحاب الثروه فلا يطغون بها،و لكى يعلموا أنّ هذا

العذاب إشاره إلی العذاب الأکبر فی الآخره.

و فی الآیات ۴۱/۳۴ یبیّن السیاق عمق الفجوه بین المتقین و المجرمین،و ینسف أساس تفکیر المبطلین بأنّهم شرع سواء مع المتقین،لأنّ العقل یرفض ذلک، و لا حجّه لهم بذلک لا من کتاب مدروس و لا عهد من اللّه،و لا کفیل و لا شرکاء، و یحذّرهم اللّه من یوم القیامه الذی لا ینفع فیه عمل أو ندم،و یبیّن أنّ أموالهم قد تکون لعنه علیهم،لأنّ اللّه یستدرجهم بها،و یملی لهم بکیده المتین.

و إنّ بعضهم یخشی من أجر یعطیه إزاء الرساله،کلاّ..بل الرساله تنفعهم فی دنیاهم..و ینهی السیاق هذا الحدیث بأنّهم لا یعلمون الغیب فکیف یتشبّثون بأفکارهم؟و ینعطف نحو الرسول و کل رسالی یتبعه أن یصبر(حتی یحکم اللّه)، و لا یکون کصاحب الحوت الذی استعجل فی الدعاء علی قومه،فلو لا أنّ نعمه من اللّه تدارکته لکان ینبذ بالعراء(بعد التقام الحوت له)و هو مذموم،و لکنّ اللّه اجتباه بنعمته فجعله من الصالحین.

و تختم السوره بأنّ الذین کفروا یکادون یزلقون الرسول بأبصارهم التی یتطایر منها شرر البغض و الحسد و ذلک حینما یسمعون الذکر،و یتهمون الرسول بالجنون خشیه تأثّرهم به و من شده عداوتهم له،بینما هو ذکر للعالمین یذکّرهم باللّه و الیوم الآخر،و لو اتبعوه لکان شرفا لهم و مجدا.

و بهذا تنتهی سوره القلم التی فصلت بین خطّی العلم و الجهل علی صعید الفکر و فی صمیم الحیاه حقا.

[سوره القلم (۶۸): الآيات ۱ الى ۳۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . ن وَ اَلْقَلَمِ وَ مٰا يَسْطُرُونَ (۱) مٰا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (۳) وَ إِنَّكَ
لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (۴) فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (۵) بِأَيِّكُمُ اَلْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۷)
فَلاٰ تُطِعِ اَلْمُكَذِّبِينَ (۸) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (۹) وَ لاٰ تُطِعْ كُلَّ حَلاّٰفٍ مَهِينٍ (۱۰) هَمّٰازٍ مَشّٰاءٍ بِنَمِيمٍ (۱۱) مَنّٰاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ
(۱۲) عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ (۱۳) أَنْ كٰانَ ذٰا مٰالٍ وَ بَنِينَ (۱۴) إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (۱۵) سَنَسِمُهُ عَلَى اَلْخُرْطُومِ
(۱۶) إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ كَمٰا بَلَوْنٰا أَصْحٰابَ اَلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهٰا مُصْبِحِينَ (۱۷) وَ لاٰ يَسْتَثْنُونَ (۱۸) فَطٰافَ عَلَيْهٰا طٰائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ
هُمْ نٰائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (۲۰) فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِينَ (۲۱) أَنِ اُغْدُوا عَلىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ (۲۲) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ
يَتَخٰافَتُونَ (۲۳) أَنْ لاٰ يَدْخُلَنَّهَا اَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (۲۴) وَ غَدَوْا عَلىٰ حَرْدٍ قٰادِرِينَ (۲۵) فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضٰالُّونَ (۲۶) بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ (۲۷) قٰالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ (۲۸) قٰالُوا سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ (۲۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ
يَتَلاٰوَمُونَ (۳۰) قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا إِنّٰا كُنّٰا طٰاغِينَ (۳۱) عَسىٰ رَبُّنٰا أَنْ يُبْدِلَنٰا خَيْراً مِنْهٰا إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا رٰاغِبُونَ (۳۲) كَذٰلِكَ اَلْعَذٰابُ وَ لَعَذٰابُ
اَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (۳۳)

اللغه

۶[المفتون]:المبتلى بتخبيل الرأى،كالمجنون.

۹[تدهن]:أى تجامل الكفّار و تلين لهم،فكأنّ المجامل يستعمل الدهن ليتلائم مع الطرف المقابل كما يستعمل الدهن لتلائم الشيئين الخشنين حتى لا يصطدما و لا يصطكّا بعنف.

۱۱[همّاز]:أی كثیر الهمز للناس،و الهمز هو الطعن فی الغیر بشده،و فی مفردات الراغب:الهمز كالعصر یقال همزت الشیء فی كفّی،و همز الإنسان اغتیابه.

[مشّاء بنمیم]:كثیر المشی بین الناس بالنمیمه.

۱۳[عتل]:العتلّ الجافی الغلیظ.

[زنیم]:الزنیم الدعیّ الملصق بالقوم و لیس منهم،و أصله الزنمه و هی الهنّیه المتدلّیه تحت حلق الجدی.

۱۶[سنسمه]:سنعلمه بعلامه یعرف بها أنّه مجرم.

۱۷[أصحاب الجنه]:أصحاب البستان الذی كان قرب صنعاء.

[لیصر منّها]:أی یقطعون ثمرها من الصرم بمعنى القطع.

ص:۱۹۲

۲۰[كالصّريم]:أى كالمقطوع ثماره،أو كالليل المظلم.

۲۵[حرد]:بمعنى المنع،يقال:حاردت السنه،إذا منعت قطرها.

ص:۱۹۳

و لا تطع كلّ حلّاف مهين

هدى من الآيات:

بالأدله الـدامغه يفنّـد السـياق تهمه المكـذبين،ثم يحـذّر النبى -صـلّى اللّه عليه و آله-و من خلاله كلّ قائد مؤمن من التأثّر بقوى الضغط،سواء الظاهره منها التى تكذّبه جهرا أو المنافقه التى لا يهمّها سوى مصلحتها الشخصيه.

ثم يفضح القرآن فئه المنافقين ببيان صـفاتهم السـيئه،كالمبالغه فى الحلف، و المشى بالنميمه،و منع الخير عن الآخرين،و إذ يولى الـوحى هـذا الاهتمـام بفضـحها بـالتركيز على بيـان صـفاتهم تفصـيليّا فلأنّهـا الأبلغ أثرا على المـؤمنين بحكـم سـرّيتها، و تـؤكّد الآيه(١۴)على حقيقه أساسيه و هى أنّ جذر تلك الصـفات السـيئه يكمن فى الافتتان بالمال و الأتباع،محذّرا المسـلمين من مغبّه الفتنه بالثروه و الأولاد.

ثم ينعطف السـياق نحو قصه أصحاب الجنه مثلا سيئا لأولئك الذين افتتنوا بزينه الحياه الدنيا،إذ استكبروا على الحق،و تعالوا على المساكين،إلّا أنّهم

ص:١٩۴

اکتشفوا خطأهم فتابوا إلی ربهم قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا کُنَّا ظَالِمِینَ بل قالوا:

إنّنا تجاوزنا الحدّ فطغینا.و إنّنا نجد فی هذه القصه دعوه للمترفین إلی التوبه و الحذر من مغبّه الافتتان بزینه الدنیا لأنّ ذلک ینتهی إلی عذاب الدارین.

بینات من الآیات:

[۱]اختلفت أقوال المفسرین فی معنی«ن»فقائل أنّها الحوت لقوله تعالی فی هذه السوره: وَ لاٰ تَکُنْ کَصٰاحِبِ الْحُوتِ و قوله: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغٰاضِباً (۱)،و قائل أنّها اللوح المحفوظ الذی کتبت فیه الأقدار الإلهیه،و روی ذلک مرفوعا إلی النبی،حیث ذکر أنّه لوح من نور،و استدلوا من الآیه علی هذا الرأی بذکر القلم،و قیل:هی الدوات التی منها یأخذ القلم مداده،و فی الدّر المنثور و التفسیر الکبیر أنّها إشاره لاسم الرحمن باعتبارها من حروفه،و قیل:هی من أسماء رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-.

و

قد سئل الإمام الصادق-علیه السلام-عن«ن»ما هی؟فقال: ...

و أمّا«ن»فکان نهرا فی الجنه،أشد بیاضا من الثلج،و أحلی من العسل،قال اللّه تعالی عزّ و جلّ له:کن مدادا،فکان مدادا (۲)، و الذی أعتقده بالإضافه إلی ما سبق و أن بیّنا فی شأن الحروف القرآنیه المقطّعه أنّ تفسیر«ن»یتسع لبعض ما ذهب إلیه المفسرون،و لکن یبقی علمه عند اللّه و الراسخین فیه لما علّمهم إیّاه من المعانی و التأویلات.

و اختلف فی القلم ما هو؟فقالوا:إنّه القلم الذی یکتب أقدار اللّه فی اللوح المحفوظ،

قال الإمام الصادق-علیه السلام-(یعنی اللّه): ثم أخذ شجره

۱- ۱) الأنبیاء۸۷/.

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۸۸.

فغرسها بیده،ثم قال:و الید القوه و لیس بحیث تذهب إلیه المشبّهه،ثم قال لها:

کونی قلما،ثم قال له:اکتب،فقال له:یا ربّ و ما أکتب؟قال:ما هو کائن إلی یوم القیامه،ففعل ذلک (۱)،و

فی حدیث آخر قال لسفیان الثوری: «فنون ملک یؤدی إلی القلم و هو ملک،و القلم یؤدی إلی اللوح و هو ملک،و اللوح یؤدی إلی إسرافیل،و إسرافیل یؤدی إلی میکائیل،و میکائیل یؤدی إلی جبرئیل، و جبرئیل یؤدی إلی الأنبیاء و الرسل صلوات اللّه علیهم» (۲).

و یبدو لی أنّ معنی القلم یتسع لمصداقها المعروف عند الإنسان،باعتبار القلم وسیله لنقل العلم و تثبیته بالکتابه،و العلم قیمه اعتمدها الوحی،فیکون القسم بالقلم کوسیله للعلم کاشفا عن عظمته لأنّه یرفعه إلی مرتبه سائر الحقائق التی أقسم اللّه بها فی القرآن،و إذا کان الإنسان یستمد قوّه لحدیثه بالقسم و المقسم به فإنّ کلام ربنا یعطی ما یحلف به قیمه و شأنا،فنحن إذن نعرف عظمه القلم لأن ربنا أقسم به.

و هکذا نستوحی من هذا القسم دور القلم فی منح المؤمنین الکرامه و العزه و فتح آفاق العلم،و أنّ علینا أن نملک ناصیه القلم إذا أردنا امتلاک ناصیه الحیاه،و قد قال ربنا سبحانه: عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ یَعْلَمْ (۳)و یدل علی ذلک القسم بما یسطّر القلم(و هو العلم).

ن وَ الْقَلَمِ وَ مٰا یَسْطُرُونَ قالوا:یعنی الملائکه الذین یکتبون بالقلم أقدار اللّه فی اللوح،أی قسما بالیراع

ص:۱۹۶

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۸۸.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) العلق ۴/-۵.

و بما يكتبه سطرا بعد سطر،أو بما يسطّره من العلوم الحقّه،فإنّ العلم هو الآخر عظيم و حرىّ أن يقسم به،و هكذا يأتى قسم القرآن بالقلم و العلم تمهيدا لتفنيد تهمه الكهانه و السحر و الشعر من رساله اللّه.و ليعلم الناس أنّ العقل و الوحى صنوان، و أنّ الرساله و العلم كجناحى طائر تحلّق به الإنسانيه عاليا،و أنّ ما يتقوّله أدعياء الدين بأنّ العلم ليس منه هراء،و ما يزعمه أدعياء العلم بأنّه يتنافى مع الدّين ضلال بعيد..فها هو الكتاب يشيد بالعلم و بما يكتب به.

و نستوحى من كلّ ذلك أنّ موقع القلم هو خدمه الدين و العلم لا تضليل الناس أو استعبادهم،و لا يكون ذلك إلاّ إذا تسلّح به المؤمنون و بادروا للانتفاع به قبل الجبّارين و مرتزقتهم السفله.

[۲]و يربط الوحى بين حقيقه العلم الذى يسطّره القلم و حقيقه الرساله،و قد ظهرت هذه الصله مره أخرى فى سوره العلق عند قوله تعالى: اِقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ* الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسٰانَ مٰا لَمْ یَعْلَمْ (۱)فما هى العلاقه بين الأمرين؟ إنّ هذا الربط يكشف بصيره مهمه و هى علاقه العلم بالإيمان،و بتعبير آخر علاقه العقل بالوحى،ذلک أنّ العقل هو الذى يذكّرنا بالوحى و يهدينا إليه،كما أنّ الوحى هو الذى يستثير العقل و يستخرج كوامنه و يوجه مسيرته نحو الحق.و إنّ من يتعلّم و يقرأ تجارب العقل البشرى عبر التاريخ لا ريب يهتدى إلى أنّ الرساله الإلهيه ليست جنونا،و لا إلقاءات الشيطان،و لا أساطير الأوّلين،و أنّها لا يمكن أن تتنزل إلاّ من ربّ العالمين،لو أنصف الحق من نفسه و قصد سواء السبيل.إلاّ أنّ المكذبين يكيلون التهم الباطله التى يرفضها كل عاقل ليبرروا رفضهم للحقيقه، و تهربهم من المسؤوليه التى تفرضها.ثم هل اكتفوا بذلک؟كلاّ..لقد حاولوا

۱- ۱) العلق۳/-۵.

التأثیر علی الرسول لیداهنهم فی بعض قیم الرساله بما یحفظ مصالحهم و یحوّلها إلی طائفه من الطقوس الخفیفه الفارغه عن قیم الحق و التقوی و العدل و الاجتهاد،فقالوا له ما قاله الطغاه لکلّ مصلح و داعیه حق عبر التاریخ.قالوا:إنّک لمجنون.لماذا؟ لأنّ القیم التی تؤمن بها و تسعی لنشرها تتنافی و قیم النخبه المستکبره التی تتحکم بمصائر الناس،ثم جندوا لنشر هذه الدعایات إمکانیاتهم المادیه و المعنویه،و هکذا استهدفوا هزیمه المصلحین نفسیّا لعلهم یتنازلون عن بعض قیمهم.

و أمام الهجمه التی یشنّها أولئک المضللون ضد الرسول و الرساله یقف الوحی مسددا للرسول-صلّی اللّه علیه و آله-و لکل الرسالیین عبر التاریخ و مدافعا عن قیم الحق حیث یؤکد القرآن أنّ ما یزعمونه ما هو إلاّ کذب و افتراء،و ذلک بالتذکره بالبصائر التالیه:

أولا:إنّ الرساله التی یحملها الرسول و یدعو إلیها نعمه إلهیه لا یدانیها جنون، لأنّها حیث یدرسها الإنسان و یتدبر معانیها یجدها قمّه العقل،بل هی متقدمه بخطوات کثیره علی مسیره العقل البشری لأنّها من عند ربّ العقول.

مٰا أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ لأنّ المجنون هو الذی سلب اللّه عقله،بینما قد أنعم اللّه علی رسوله بالوحی الذی یکمل العقل،و کیف یکون من یحمل للبشریه نور الحکمه و العلم و البصیره مجنونا؟! إنّ الرساله التی تنظّم حیاه الإنسان الشخصیه و الاجتماعیه،و الاقتصادیه، و السیاسیه و..و..،و تنطوی علی أسرار الوجود،و تکشف للبشریه السنن الإلهیه، و الأقدار التی تسیّر الخلیقه،و ما أمر الخالق به من خیر و ما نهی عنه من ضر و سوء

و شر!بل و تتجاوز هذه الحياه إلى المستقبل الأبدی البعيد لتحدثنا عن العالم الآخر و ما فيه من حساب و جزاء، و تبيّن تفاصيل دقيقه متناسبه و عقل الإنسان و أحاسيسه،فهل يمكن أن تكون هذه الرساله طيشا و من يحملها إلى الناس مجنونا؟!!و هل يتسنّى لغير المجنون و المكابر أن يتجاهل حقيقه الرساله التی هی نعمه و نور و يزعم بأنّها جنون و نقمه و ظلام؟!و لعلّنا نستشف من قوله سبحانه «أنت»بأنّ الذی لا يكتشف الفرق بينهما لهو المجنون حقّا و ليس أنت يا رسول اللّه.

و عند التأمّل فی قوله اللّه: «بِنِعْمَهِ رَبِّکَ »نهتدی إلى فكرتين:الأولى:أنّ عظمه النبی-صلّی اللّه عليه و آله-ليست بذاته فهو بشر كسائر الناس،و إنما عظمته برساله ربه(نعمه اللّه عليه)،و قد قدّم ربنا السبب(نعمته)ربما لبيان أنّه ليس هناک سبب آخر غير الرساله استمد منه النبی عظمته و بلوغه كمال العقل، و الثانيه:أنّ إضافه النعمه إلى اللّه سبحانه ينفی نفيا شديدا مزاعم الكفّار بأنّه قد تلقّی الوحی من الجن فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۱).

[۳]ثانيا:إنّ النتائج و المعطيات العظيمه التی وصل إليها الرسول فی الدنيا و التی ستكون له فی الآخره أظهرت بجلاء أنّ الرساله وحی،و أنّ النبی أعظم الخليقه،و أنّ جهلهم هو الذی جعلهم لا يفرّقون بين العظمه و الجنون،و لا بين رساله الغيب و أساطير الأولين.كيف ذلک؟ إنّ الكفّار و المشركين كانوا يعدّون الرسول-صلّی اللّه عليه و آله-مجنونا لأنه ينشد التغيير الحضاری الجذری و الشامل ليس لمجتمع شبه الجزيره العربيه فقط بل للبشريه كلّها،فيوحّد المجتمع المتمزق بالتناحر،و المختلف بالأديان،و يرقی به

۱- ۱) الفرقان۴/.

إلى قمّه التقدم الحضارى السامقه،و ينتصر على أعدائه الأقوياء و الكثيرين و هو اليتيم العائل..و ما إلى ذلك من الأهداف العظيمه.كانوا يعدّونه مجنونا لأنّه يطلب المستحيل الذى لا يخطر ببال بشر و لا خياله،و لكنّ القرآن جاء و نسف هذه المزاعم مؤكّدا بأنّ النبى يبلغ ما يريد بإذن اللّه،كما قال فى سوره الضحى: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ (1)و كما يقول فى هذه السوره:

وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ أى غير مقطوع،فهو أجر متواصل يزداد مع الزمن،و ما توسّع الأمّه التى بناها -صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-إلاّ جزء من ذلك الأجر و دليلا عليه،فكيف و فى الآخره ما هو أعظم إذ يعطى من قبل اللّه الوسيله و الشفاعه و أعلى درجات الجنه و الثواب؟إنّ بلوغ الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-أهدافه التى تراءت لهم بأنّها مستحيله أوضح دليل على عقلانيته و سلامه رسالته التى حقّقت أهدافه باتباعها، لأنّ وصول الإنسان إلى أهدافه يحتاج إلى معرفه بسنن الحياه و قوانينها.

و كلمه أخيره نقولها فى الآيه هى:أنّ تأكيد اللّه للنبى و كلّ رسالى يتبعه بأنّ له أجرا غير ممنون يصنع فى الإنسان المؤمن روح التعالى على إغراءات الدنيا التى يقدّمها الأعداء و التى قد يثنى الافتتان بها الرساليين عن أهدافهم الربّانيه فيداهنون فيها.

[۴]ثالثا:و آيه أخرى لعظمه الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-أخلاقه العظيمه التى فاق بها عظماء البشريه و هم النبيون و الصديقون مما يكشف مدى كمال عقله و عظيم حلمه و واسع علمه و نفاذ بصيرته.

۱- ۱) الضحى/۵.

وَ إِنَّکَ لَعَلیٰ خُلُقٍ عَظِیمٍ و کفی بعظمه أخلاقه أن یصفه ربّ العالمین بالعظمه،و کیف لا یکون کذلک و قد أدّبه اللّه حتی

قال-صلّی اللّه علیه و آله-: «لقد أدّبنی اللّه فأحسن تأدیبی »و

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: إنّ اللّه عزّ و جلّ أدّب نبیه فأحسن أدبه،فلمّا أکمل له الأدب قال: «وَ إِنَّکَ لَعَلیٰ خُلُقٍ عَظِیمٍ » (1).

و من تأکید اللّه أنّ الرسول«علی»خلق عظیم یتبین أنّه -صلّی اللّه علیه و آله-ما کان یتکلّف الأخلاق،و لا کانت عرضیه تأتی و تزول، بل هی سجایا و ملکات اختلطت بکیانه فلا تفارقه و لا یفارقها،و ذلک من أفضل ما یصیر إلیه بشر فی الأخلاق.و إنّما بلغ النبی تلک العظمه و المکانه الرفیعه لأنّه جسّد الدین فی حیاته،

قال الإمام الباقر-علیه السلام- فی قول اللّه:«الآیه»:

«هو الإسلام» (2)،و قال:«علی دین عظیم» (3)، إذن فالطریق إلی العظمه موجود فی القرآن،و من أرادها فإنّها ثمره تطبیقه.

و حیث ندرس حیاه حبیب اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-فإنّنا نهتدی إلی أنّ من أعظم أخلاقه و ما یمکن لإنسان أن یبلغه هو سعه الصدر،التی کانت آلته للرئاسه بعد الإسلام،و وسیلته التی استوعب بها الناس فی الدین،و ملک قلوبهم..و فیهم العدو الحاقد،و الجلف الصلف،و الکافر الجاهل،و المشرک الضال و..و..،و إنّها لأهمّ ما یحتاجه المصلحون من الأخلاق،و لذلک مدحه ربّ العالمین بها و ثبّت ذکرها بالذات فی کتابه من دون سائر الأخلاق فقال:

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۸۹.

۲- ۲) المصدر/ص ۳۹۱.

۳- ۳) المصدر/ص ۳۹۲.

وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (۱)،و

روى البرقى عن أحد الأئمه-عليه السلام-:

إنّ اللّه تبارك و تعالى أدّب نبيه فأحسن تأديبه،فقال: «خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجٰاهِلِينَ »فلمّا كان ذلك أنزل اللّه «إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (۲)، و هذه بعض أخلاقه-صلّى اللّه عليه و آله-:

«كان رسول اللّه حييّا لا يسأل شيئا إلاّ أعطاه» (۳)،و

كان يقول لأصحابه: «لا يبلغنى أحد منكم عن أصحابى شيئا،فإنّى أحب أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر» (۴)، و

«كان أجود الناس كفّا،و أكرمهم عشره،من خالطه فعرفه أحبّه» (۵)،

«و كانت له إذا شرب الماء ثلاثون سنّه،و ليس من خلق حسن إلاّ و كان الأسوه فيه -صلّى اللّه عليه و آله-» (۶) «بحيث اعترف له بذلك العدو و الصديق،و المسلم و غيره» (۷).

[۵]رابعا:و يبقى المستقبل دليلا فصلا يكشف عن الحقيقه للجميع،و هنالك يتبيّن العاقل و المجنون،فهل هو أبو لهب و أعداء الرساله الذين خلّدوا باللعنه،أم الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-و أتباعه الصادقون؟ فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ باعتبار كل المقاييس الماديه و المعنويه عند ما يأتى المستقبل بالحقيقه.

ص:۲۰۲

۱- ۱) آل عمران۱۵۹/.

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵ ص ۳۸۹ نقلا عن بصائر الدرجات.

۳- ۳) موسوعه بحار الأنوار/ج ۱۶ ص ۱۳۰.

۴- ۴) المصدر.

۵- ۵) المصدر.

۶- ۶) راجع المصدر من/ص ۱۹۴ الى ص ۲۹۴.

۷- ۷) راجع كتاب المائه الأوائل للدكتور مايكل هارت.

[۶] بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ أی المجنون (۱)،لأنّ افتتان الإنسان بأیّ شیء دلیل اتباعه لغیر العقل،فإنّ العاقل لا ینهزم فی الابتلاءات و عند الفتن،إنّما یتجاوزها و ینتصر علیها.و هو المضلل المصدود عن الحق (۲).فالمعنی أنّکم ستبصرون فی المستقبل بمن هو مجنون و من هو عاقل،أو تکون الباء بمعنی فی فیکون المفهوم أنّکم سوف ترون فی أیّکم سکن الشیطان(المفتون عن الحق)فأعماه عن رؤیته،و فتنه مثله عنه.و بالتالی سیظهر الطرف المحق الذی یتلقّی الهدی من ربه و هو الرسول،و أنّ الرساله لیست من إلقاءات الشیطان کما یزعم الجاهلیون،بل مواقفهم المعادیه لها و للنبی و بهتانهم العظیم.و یبدو لی أنّ الباء هنا ضروریه و لیس کما قال بعض المفسرین أنّها زائده، و ذلک لأنّ الجنون حقیقه معنویه لا یمکن أن یبصرها الإنسان بذاتها، و إنّما یبصرها من خلال الدلالات و العلائم الموحیه بوجوده،فهو یبصر بالواسطه، و لعلّه لذلک جاءت الباء فی الکلمه«بأیکم»کما جاءت فی قوله تعالی: وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنٰاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (۳)لأنّ الشجره لا تثمر دهنا و انّما تثمر ثمره فیها الدهن.

و نستوحی من الآیه أنّ المنهج السلیم لتقییم الأمور معرفه عواقبها،لأن الإنسان فی بادئ الأمر و مع المتغیرات قد یدخله الریب و التردد فی استصدار حکمه الأخیر علی الأمور،و لکنّها حینما تستقر فی مستقبل الزمن یری بوضوح تام الموقف الواقعی الحق منها.

۱- ۱) المنجد ماده فتن.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المؤمنون ۲۰/.

إذ الإحباطات الآنيه التی یواجهها المؤمنون فی مسیرتهم و انطلاقا من هـذه البصیره لا ینبغی أن تبعث فیهم الیأس أو التشـکیک فی صـحه خطهم و سلامه قیادتهم،فإنّ المستقبل مهما طال الزمان و رغم الظواهر السلبیه فی صالحهم و فی صالح رسالتهم،لأنّهم یتبعون الحق.

[۷]و مع أنّ هـذه من القواعـد الأساسـیه التی یجب علی الرسـالیین اعتمادهـا فی تحرکهم،إلاّ أنّهم یسـتمدون منـاعتهم بـالحق،و إیمـانهم بسـلامه الخـط من الإیمـان باللّه،فلیس المهم عنـدهم أن یکونوا فی نظر الآخرین أصـحاب حق،أو أن یکشف لهم واقع الـدنیا عن هـذه القضـیه،إنّمـا الأهم أن یکونـوا عنـد اللّه من المهتـدین،ذلـک أنّهم لا ینفعهم ثنـاء أحـد إذا کـانوا عنـد اللّه من الضالین،کما لا یضـرهم شـیء لو کانوا عنـده من أهل الهدایه.و إنّ الرسالیین إذا ما تمسـکوا بهذا الأصل فلن یتأثروا بالضـغط أو الاعلام المضاد،و لن ینال أحد من قناعتهم قید شعره.

إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ و السؤال:کیف یکتشف الإنسـان واقع انتمـائه هـل هو إلی فریق الضالین أم إلی فریق المهتدین؟و بتعبیر آخر:کیف یصل المؤمنون إلی القناعه التامه و الراسخه بأنّهم أهل الحق؟ و الجواب علی ذلک:إنّ للّه فی هـذه الحیاه سبیلا واحـدا هو الصـراط المسـتقیم (الحق)الذی یتجسد فی رساله اللّه و فی القیاده الرسالیه و خطها السـلیم،فمن اتبع رسـالته و دینه،و سلّم لقیاده الحق(الرسل و أئمه الهـدی الـذین یمثلون امتـدادا حقیقیّا لهم عبر التاریخ)و انتمی لخطهم،فهو من المهتدین،و إلاّ فهو من الضالین.

و نهتدی من الآیه الکریمه إلی أنّ هناک علمین هما:علم الإنسان عبر عقله،

ص:۲۰۴

العقـل الـذی یتجلّی فی المسـتقبل،و علم اللّه الـذی یکشـفه الوحی،و أنّ الإنسـان قـد یعجز عن تمییز الأشـیاء بعقله،بینما علم اللّه یجلیه له تماما.

[۱۳-۸]و یمضـی بنا السیاق إلی محور أساسی فی السوره عند ما یبیّن الموقف السلیم الذی یجب علی القیاده الرسالیه اتخاذه من قوی الضـغط،التی تحاول التأثیر علی القائـد و تجییر قراراته و مواقفه فی صالحها،بتطویعه لخـدمه أغراضـها من حیث یدری أو لا یدری، و عاده ما تکون تلک القوی من المترفین أصحاب المال و القدره الاجتماعیه أو السیاسیه أو هما معا فی المجتمع.

و یتوجه الوحی بالنهی إلی القائد بالذات،لأنّ قوی المترفین المسـتکبره تسـعی لإفساد المجتمع و نظامه السیاسی،من خلال إفساد جهازه الدینی و السیطره علیه، لأنّ السیطره علیه تجعلهم أسرع نفاذا فی المجتمع،کما توفّر لفسادهم غطاء شرعیا.

و هم یتسـللون إلی الجهاز الـدینی و یؤثّرون علیه بسـلاح المال،حیث یجعلونه یعتمد علی أموالهم التی یقدمونها خمسا و زکاه و تبرّعا أو هـدیه و رشوه.و إنّ هـذه الحقیقه تظهر بوضوح حینما نـدرس مسـیره الجهاز الـدینی عبر التاریـخ و فی کلّ المـذاهب و الأدیان تقریبا،فالقوی المترفه هی التی حوّلت الأحبار إلی جماعه یکنزون الـذهب و الفضه و أداه طیّعه فی أیدی أصـحاب المال و السلطه.کما أنّ التحلیل المتأنّی لکثیر من الصراعات التی کانت تدور بین القیادات الدینیه و المترفین یؤکّد بأنّ سببها یکمن فی رفض القیادات الدینیه لهم و لسیطرتهم علی الناس،فهذا السامری و من حوله بعض أصحاب المال فی مجتمع بنی إسرائیل یبغون علی موسی-علیه السلام- لأنّه وقف ضد مطامعهم و محاولاتهم الخبیثه فی تطویع الدین لصالح شهواتهم و أهوائهم.

و موقف القرآن یبدو موقفا عنیفا و واضحا فی تحذیر الرسول

-صلّى اللّه عليه و آله-من المترفين،لأنّ خطرهم عظيم و عاده ما يكون متسلّلا، بعيدا عن التحديات و الضغوط المباشره الحادّه،فقد يظهر أحدهم لدى القوه الدينيه بمظهر التقوى و التأييد فإذا به يصارع الآخرين على الصفّ الأول من الجماعه، و يبذل الأموال التى تخدم الجهاز الدينى و مشاريعه فى المجتمع و لكن ليس لوجه اللّه و تقرّبا منه،و لا عن قناعه بالقاده الدينيين أبدا،بل لحاجه فى نفسه هى أن يستغلهم لمصالحه و أهوائه،اقتصاديه أو سياسيه أو اجتماعيه،بإعطائهم الخط السياسى و الاجتماعى الذى يناسبه من جهه،و باستخراج الفتاوى التى تخدم أغراضه من جهه ثانيه.

و تقسّم الآيات قوى الضغط المترفه إلى فريقين:

الفريق الأول:المكذّبون الذين لا يؤمنون بالرساله و لا بالرسول،كالطواغيت الذين يجاهرون بالتكذيب،و كالقوى المستكبره التى فى عصرنا هذا،فهم أشبه ما يكونون بالكفّار،و لا ريب أنّ لهؤلاء أطماعهم تجاه الأمه الإسلاميه،و بالتالى فهم يسعون للتأثير على قياده المجتمع الإسلامى الدينيه و تطويعها.

إنّهم-كما الفريق الثانى-لا يسعون فى البدء للقضاء على الجهاز الدينى إنّما يحاولون الإبقاء عليه ممسوخا و مفرغا من محتواه الرسالى،لكى يركبونه مطيّه إلى مصالحهم.

فَلاٰ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ و يفضح القرآن خبثهم المتمثل فى خطه المسخ و الإفراغ التى يتبعونها،مبيّنا أنّهم يسعون لتغيير بعض القيم و مواقف القياده لصالحهم بمقايضه الدين الحق بأموالهم،و كأنّ قضيه الحق كالتجاره تقبل البيع و الشراء.فيجب أن تكون القياده

الدینیه(لکی تفشل المترفین فی مرامهم)علی مستوی رفیع من تقوی اللّه فلا تخدعها زخارف الدنیا عن الحق،و أیضا فی مستوی عال من الوعی السیاسی و الحنکه الإداریه و الفطنه الاجتماعیه،و مستوی من الوعی یکشف مکرهم مهما کان خفیّا و محکما،و لذلک جاءت النصوص الدینیه مؤکّده علی هذین الأمرین.

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ یبدو أنّ أصل معنی المداهنه جاء من وضع الدهن علی الشیء لکی یلین جانبه و یکون مطواعا،و المعنی أنّهم یطمعون لو أنّک یا رسول اللّه تطیعهم فی التنازل عن بعض القیم الإلهیه و المواقف فیبادرون هم بالتنازل عن بعض مواقفهم منک و من الرساله،کما فعل من قبل بعض أحبار الیهود و النصاری.

و ما أکثر ما تتعرض القیادات الرسالیه لهذا اللون من الضغط الماکر،فما أحوجها لتقوی اللّه.و لا ریب أنّ أعظم مداهنه یسعی المترفون لإیقاع القیادات الدینیه فیها هی فصل الدین عن السیاسه لکی یتسنّی لهم التلاعب بمقدرات الشعوب بصوره أفضل،و لکی تبقی سلطتهم فی مأمن من ثوره المجتمع،باعتبار أنّ ربط الدین بالسیاسه یبعثه نحو الثوره للتحرر و التغییر.

و یتأثّر الإنسان بالمداهنه عبر أحد عاملین:الأول:الافتتان بحطام الدنیا الذی یقدّمه المترفون،و الثانی:تغییر قناعه القائد بالقیمه التی یداهن فیها فیتنازل عنها بحثا عمّا هو أفضل منها،و لذلک فإنّ المستکبرین یوظّفون جانبا کبیرا من إمکاناتهم الإعلامیه لتحقیق هذا الهدف،بمحاربه قناعات الرسالیین لیس فی المجتمع و حسب بل فی داخل أنفسهم أیضا،فمثلا تراهم یوحون عبر إعلامهم المضلل بأنّ المجاهدین الذین یسعون للإصلاح الشامل إرهابیون،و یضربون علی هذا الوتر طویلا لعلهم یجدون تجاوبا عند بعض المجاهدین فیغیّروا من خططهم بما

لا يتنافى و مصالح المستكبرين!كما كانوا أيّام رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- حيث كانوا يسمّونه مجنونا لأنّه أراد تغيير الواقع و الإنسان تغييرا جذريا،طمعا فى هزيمته نفسيّا ثم تنازله عن ذلك الهدف العظيم.

و من الجدير ذكره هنا أنّ من أسباب تحريف الديانه المسيحيه و اليهوديه فى التاريخ أنّ القياده الدينيه تأثرت بعاملين:أحدهما الخوف من المترفين الجبّارين، و الآخر الرغبه فى استقطاب المزيد من الجماهير فى ظلّ حمايه الدوله،ممّا دعاهم إلى المداهنه بحذف بعض القيم و الأحكام التى فى الإنجيل و التوراه،و إدخال بعض الأفكار و الأحكام التى تتوافق مع أهواء الناس،و نسوا أنّ ما بقى لم يعد دين اللّه، بل دين الجبّارين،و أنّهم بذلك أصبحوا خدما فى بلاط السلاطين و ليسوا منقذين لعباد اللّه المحرومين! الفريق الثانى:المنافقون فى المجتمع المسلم،الذين يتمسكون بقشور الدين، كالصلاه التى لا تنهى عن الفحشاء و المنكر،و الصوم الذى لا يورث تقوى و لا يعطى صاحبه إحساسا بألم الفقراء،و الإنفاق المحفوف بالرياء و حب السمعه،و هكذا الممارسات التى فرّغت من محتوياتها الإصلاحيه،و هؤلاء لا ريب يكذّبون بكثير من الحقائق الإلهيه كالجهاد،و حرمه الاستغلال،و يودّون لو تداهنهم القياده الرساليه،و لكنّهم لا يجهرون بذلك.و ما يبدو من الآيات التى تبيّن صفاتهم أنّ أهمّ هدف يسعون لتحقيقه من تزلّفهم للجهاز الدينى فى الأمه أن يجعلوه مقمعا فى أيديهم يضربون به الآخرين،كالمحرومين المستضعفين و المصلحين المغيّرين أفرادا و جماعات،و السبب أنّهم لا يريدون إلاّ مصلحتهم،كما أنّهم أول من يعارض الإصلاح و التغيير،ذلك أنّ وجود الأنظمه الفاسده و المنحرفه عن الحق عامل أساسى فى استغلالهم للطبقه المحرومه و وصولهم إلى مآربهم الماديه.فما هى صفات هذا الفريق؟

١-المبالغه فی الحلف إلی حدّ الاحتراف،من أجل إعطاء کلامهم قیمه شرعیه و من ثمّ التأثیر به علی موقف القیاده و رأیها،بالذات و أنّ للأیمان اعتبار عظیم عند المؤمنین،و لا یعنی ذلک أنّ المترفین من هذا الفریق یقتصرون علی مجرد الحلف،فهم یکذبون و ینمّقون الکلام بشتی الوسائل،و ما الحلف إلاّ واحدا منها،و علی القائد أن یحذرهم.

وَ لاٰ تُطِعْ کُلَّ حَلاّٰفٍ مَهِینٍ و یبدو أنّ کلمه«مهین»من الهوان و الضعه حیث أنّ الحلاّف إنّما یلجأ إلی ذلک لکونه حقیرا فی نفسه و عند الناس،و انطلاقا من ذلک یحس علی الدوام و یظنّ أنّ کلامه لن یعطی اعتبارا و قیمه عند الآخرین،الأمر الذی یلجؤه إلی المبالغه فی الأیمان لیصطنع قیمه لکلامه بها لعله یکون مقبولا.

و عاده ما یحاول الوضعاء الذین تمکّنت من أنفسهم عقده الحقاره أن یوصلوا أنفسهم بمراکز القوی فی المجتمع دینیه و سیاسیه و اقتصادیه و اجتماعیه لیغطّوا علی ضعتهم و یجبروا نقصهم،و إنّک لو فتشت فی أجهزه القمع و التجسس الطاغوتیه فلن تجد إلاّ أمثال هؤلاء.

٢-الهمز و المشی بالنمیمه فی المجتمع،و بالخصوص عند القیاده،و ذلک لأهداف ثلاثه:

الأول:لکی یبقوا هم فی المجتمع الشخصیه الأفضل،فتجدهم یسقطون شخصیات و یضعفونها بتقلیل قدرهم عند القیاده و تلصیق التهم ضدهم،و لقد ثبت فی علم النفس أنّ أصحاب عقده الهوان و الحقاره تنمو فیهم روح الانتقام من المجتمع،و یسعون لکی یکون مجتمعا ساقطا مثلهم فلا یحسبون شاذّین.

الثانی:فصل القیاده عن المجتمع حتی تظل أذنا صاغیه لهم وحدهم فتکون قراراتها و مواقفها لصالحهم فقط،بل لا یریدون أحدا سواهم یتصل بمرکز القوّه فی الأمه،لتکون لهم الید الطولی فیها.و لأنّهم عاده ما یکونون من الطبقه المستکبره المترفه فإنه یهمّهم أن یوجدوا فاصله بین الأمه و بین القیاده لکی یبقی الناس فریسه لسیاساتهم الاستغلالیه و المنحرفه دون علم من القیاده یدعوها للتدخل ضدهم.

الثالث:ضرب القوی الإصلاحیه و المنافسه،فأنّی ظهرت بوادر الإصلاح تصدوا لها،و سوّدوا الصفحات بالتقاریر المضلله التی لا تحوی سوی الطعن و الکذب علی الآخرین،و ملأوا بیت القیاده و أذنها بالشائعات المغرضه و بالتهمه و البهتان، و کلّ ذلک لیصیر القائد مقمعا فی یدهم یضربون به یمینا و شمالا هذا العالم و ذلک الثائر و تلک الحرکه الرسالیه.

هَمّٰازٍ قیل:الهمّاز هو المغتاب،و فی المنجد:الطعّان العیّاب النخّاس (۱)و قال صاحب البرهان:لکن فی الصحاح همزه أی دفعه،و قوس همز أی شدیده الدفع للسهم،و فی النهایه:کل شیء دفعته فقد همزته،و فی سوره المؤمنین: أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزٰاتِ الشَّیٰاطِینِ أی وساوسهم و نخساتهم و غمزاتهم (۲)و أضاف مجمع البیان قائلا:و الأصل فیه الدفع بشده اعتماد،و منه الهمزه حرف من الحروف المعجمه فهی نبره تخرج من الصدر بشده اعتماد (۳)،و یبدو لی أنّ الهمّاز هو الذی یثیر الناس و یستحثهم و یحرّکهم ضد الآخرین بالکلام أو الفعل،و آله الهمز حدیده

۱- ۱) المنجد ماده همزه.

۲- ۲) تفسیر البرهان/ج ۴ ص ۳۴۰.

۳- ۳) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۳۱.

فی مؤخّر خف الرائض،أو عصا فی رأسـها حدیـده تنخس بها الدابه (۱)فتسـتثار لتحث المشی.و ما أکثر ما جرّ المترفون بهمزهم القیـادات عبر التاریـخ إلی مواقف و آراء راح ضـحیتها الأبریـاء و الصالحون.و لعلّ من وسائل همزهـم النمیمه التی یبالغون فیها و فی المشی بها بین الناس کما تمشی جراثیم الأوبئه بالمرض.

مَشّاءٍ بِنَمِیمٍ فأنّی ما حلّ و ارتحل حمل معه داء التفرقه،و النمیمه هی نقل کلام الناس علی بعضـهم عنـد بعض ممّا یمیت الألفه و یحیی الفتنه، و هی بـذلک تعـدّ من أعظم الـذنوب و أخطرها لأنّه یهـدّد وحده الأمّه و صـفاء أجوائها،و إلی هذه الحقیقه وردت الأحادیث الإسلامیه:

قال رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-: «یا علی کفر باللّه العظیم من هذه الأمه عشره(منهم:)العیّاب و الساعی فی الفتنه» (۲)، و

قال -صلّی اللّه علیه و آله-: «ألا أخبرکم بشرارکم؟قالوا:بلی یا رسول اللّه،قال:

المشّاؤون بالنمیمه،المفرّقون بین الأحبه،الباغون للبراء العیب» (۳)، و

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «ثلاثه لا یدخلون الجنه:السفّاک للدم، و شارب الخمر،و مشّاء بنمیمه» (۴).

۳-منـع الخیر عـن الغیر و الاعتـداء علیهم و ممـارسه الإـثم،و هـذه کلّهـا من الصـفات اللصـیقه بالمنـافقین إذ أنّهم یریـدون الخیر لأنفسـهم فقـط،لـذلک یقفون أمـام أیّ محاوله من قبل القیاده للإصـلاح،و یمنعونها بالتعویق و التثبیط عملیّا و بالرأی، فلیس من صالحهم أن یعمّ الرفاه الاقتصادی کل أفراد المجتمع،و أن تزال

۱- ۱) المنجد ماده همز.

۲- ۲) کتاب المواعظ للشیخ الصدوق/ص ۱۱.

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۵ ص ۳۹۳.

۴- ۴) الخصال/ص ۱۸۰.

الطبقيه،لأنّ قوّتهم الاجتماعيه و الاقتصاديه قائمه على معادله الاستكبار و الاستضعاف،و الغنى و الفقر،و بعباره:على دماء الآخرين و حرمانهم.

مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ و تتسع الكلمه إلى مصاديق كثيره منها أنّ هؤلاء حينما يتحلّقون حول القياده يعملون على حصر اعتمادها فيهم،و سد الأبواب أمام أيّه كفاءه سياسيه أو إداريه أو اقتصاديه ناشئه.و أعظم خير يمنعونه أئمه الهدى أن يأخذوا مواقعهم الشرعيه فى المجتمع..و قد أشار القمّى فى تفسيره إلى ما ذكرنا مؤوّلا فقال:(الخير أمير المؤمنين) (1).

و لا يكتفى المنافقون بمنع الخير عن الآخرين،بل يتمادون فى غيّهم إلى حدّ الاعتداء على حدودهم و حقوقهم،ماديّا بضربهم إذا كانوا منافسين أو معارضين، و باستغلالهم إذا كانوا من المحرومين،و معنويّا بالتهم المغرضه و تشويه سمعتهم و..و..

مُعْتَدٍ أَثِيمٍ و لأثيم تفسيران:الأول:بالنظر للكلمه كشىء مستقل فيكون المعنى أنّهم فى حدود علاقتهم مع الغير يتّصفون بمنع الخير و الاعتداء،و فى حدود أنفسهم يتّصفون بمخالفه أحكام اللّه(الإثم)كشربهم الخمر و ظنهم السوء و الحقد و الحسد،و بصوره مبالغه كمّا و نوعا،لأنّ أثيم صيغه مبالغه من الآثم.

و الثانى:بالنظر إلى الكلمه متصله بما قبلها«معتد»و فى ذلك معان منها:أنّ اعتداءهم لا يقوم على الحق،فهناك تجاوز على الآخرين بالحق كالذى أمر اللّه به فى

1- 1) تفسير القمى/ج 2 عند الآيه.

قوله: فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكَمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكَمْ (۱)،و هناک تجاوز بالباطل و الإثم،و منها:أنّ اعتداءهم ليس عرضا بـل هو من طبيعتهم و متجـذّر فی نفوسـهم التی جبلت عليه، فما هو إلاّ مظهر يعکس ما انطوت عليه أنفسـهم من الإثم العريض،و منها:أنّهم حين يعتدون يوغلون فی الاعتداء بالمبالغه فی آثامه.

و إنّه لثابت علميّا و عمليّا أنّ المعتـدی لا يعتـدی فی الواقع الخارجی و يتجاوز الحـدود حتی يکون قـد تجاوز الحدود فی داخل نفسه،و أسـقط اعتبـار الحق و الآـخرين قبـل ذلک فی نفسه و تفکيره.فلاعتـداء هؤلاء فلسـفه تتأسـس عليها حياتهم حيث أنّهم لا يعترفون بوجود حق يجب الالتزام به و احترامه و بوجود حدود و قوانين تفصل بين الناس.

۴-و کما تتداعی صـفات الخير فی الصالحين تتداعی صفات الشر فی المفسدين،فهم يبدءون من الحلف و لکنّهم لا ينتهون عند الاعتداء و الإثم بل يتسافلون بعد ذلک إلی صفات سيئه أخری.

عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِکَ زَنِيمٍ فما العتل و ما الزنيم؟ ألف:العتل،قالوا:إنّه شخص عظيم الجثه،قبيح المنظر،ناقص الخلقه.

و لعلّ ما ذهب إليه المفسرون کان بسببين:أحدهما:بالنظر إلی تأويل الآيه فی (الوليد بن المغيره)و اتخاذه مقياسا لصفاته المعنويه و الماديه السيئه،و الآخر:

ص:۲۱۳

۱- ۱) البقره۱۹۴/.

استلهامهم هذا المعنى من الحديث المأثور

عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- لمّا سئل عن العتل الزنيم:«هو الشديد الخلق،الشحيح،الأكول الشروب، الواجد(شديد الحب)للطعام و الشراب،الظلوم للناس،الرحيب الجوف »بيد أنّ هذه الصفات-حسبما يبدو- ليست مقصوده بذاتها،بل هی فی حقيقتها كنايات عن صفات معنويه أو مقارنات معها تتصل بأخلاق الإنسان،و الشاهد على ذلك ما جاء فی اللغه من جذر هذه الكلمه حيث نقرأ فی اللغه:عتله:جذبه و جرّه،يقال عتله إلى السجن أی دفعه بعنف (۱)،و قال اللّه يأمر خزنه النار بعذاب الأثيم: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوٰاءِ الْجَحِيمِ (۲)أی ألقوه بدفع و عنف،و العتل:

الجافی الغليظ (۳)،و

فی بعض الروايات قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله : «رحب الجوف، سیء الخلق،أكول،شروب،غشوم،ظلوم (۴)،و عن ابن مسكان عن محمد بن مسلم قال:قلت لأبی عبد اللّه الصادق-عليه السلام-:ما معنى قول اللّه عزّ و جلّ:«الآيه»؟قال:«العتل العظيم الكفر» (۵)، و الذی يبدو لی أنّ الكلمه تتسع إلى الكثير من صفات الشر و الباطل،و لا يكون الإنسان عتلا حتى يعظم انحرافه كما قال الإمام الصادق عليه السلام ،و تتداعى فيه الصفات السيئه تسافلا نحو الحضيض،و ذلک ما يشير إليه السياق القرآنی حيث جعل(العتل)من آخر الصفات،و قال مبيّنا أنّها تأتی بعد اجتماع كثير من الصفات السيئه فی الإنسان «بعد ذلک»فهی غايه الشر،و مجمع الأخلاق الدنيئه.

باء:الزنيم..هو اللصيق و المزنّم اللاحق بقوم ليس منهم و لا هم يحتاجون إليه

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۳۹۴ عن المجمع.

۲- ۲) الدخان/۴۷.

۳- ۳) المنجد ماده عتل.

۴- ۴) مجمع البيان/ج ۱۰ عند الآيه.

۵- ۵) نور الثقلين/ج ۵-ص ۳۹۴ نقلا عن عيون الاخبار.

فكأنّه فيهم زنمه (۱)،و سـمّى الـدّعى زنيما لأنّه شاذ عن المجتمع و لا ينسـجم معه فكأنّه من غير جنسه،و لعلّ هذه الكلمه تتسع للعملاء الدخلاء على المجتمع الإسـلامى،و المتصلين بأعدائه العاملين لمصالحهم،و ما أقرب المنافقين من حقيقه الكلمه.أو ليسوا فى الأـمه و ليسوا منهـا و لا معها؟ و كلمه أخيره نقولها فى الآيات:أنّ نهى اللّه عن الطاعه للـذين مرّ ذكرهم هو نهى عن اتخاذهم بطـانه للقيـاده و أعضاء فى جهازها الـدينى و السياسـى لما فى ذلك من أخطار عظيمه على واقع الأمّه و مسـتقبلها،و على مسـيره القياده الفكريه و الإيمانيه و السياسيه،و مكانتها الجماهيريه فى المجتمع.

[۱۴]و يبيّن السياق جذور الصفات السيئه عند المنافقين و هما اثنان:

الأول:الافتتان بالـدنيا.و قـد ذكر الأموال و الأولاد من زينه الـدنيا لأنّهما غايه ما فيها،و المال لا يقصـد به الدينار و الدرهم بل هو كـل مـا يملكه الإنسـان من حطامهـا و المـال رمزه،كما أنّ الأولاد لا ينحصـرون فى الأبناء من الصـلب و حسب بل هم كل أتباع المترفين،و الأولاد أقرب المصاديق فى التبعيه و الطاعه،و هـذا ما أكّـده اللّه فى قوله: اَلْمٰالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا (۲)،و افتتان الإنسان بهما يعنى حبه للدنيا و

«رأس كل خطيئه حب الدنيا» (۳)، كما قال الإمام الصادق عليه السلام ، أو كما

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله : «حب الدنيا أصل كل معصيه و أول كل ذنب» (۴).

۱- ۱) المنجد/ماده زنم.

۲- ۲) الكهف۴۶/.

۳- ۳) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۳-ص ۷.

۴- ۴) تنبيه الخواطر/ص ۳۶۲.

أَنْ كٰانَ ذٰا مٰالٍ وَ بَنِينَ يعنى أنّ أصل صفات المنافقين و المترفين الذين نهى الرسول عن طاعتهم و التى ذكرها القرآن فى الآيات السابقه(الحلف و المهانه و الهمز و النميمه و منع الخير و الاعتداء و الإثم و العتاله و الزنامه)كلّها الافتتان بالدنيا(المال و البنين).إذن فطريق تكامل أخلاق الخير فى شخصيه الإنسان،و بالتالى التسامى إلى قمه الفضيله السامقه(أعنى التوحيد)لا يكون إلّا بتجاوز فتنه الدنيا بأموالها و بنيها.و ليس تجاوز الفتنه بنبذ المال و الأتباع،لأنّها حينما يحسن البشر التصرف فيهما يكونان خير معين له على الرقى فى سلّم الكمال الأخلاقى و الإيمانى،

ففى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه و آله : «نعم العون على تقوى اللّه الغنى» (۱)،و

عن الإمام الصادق عليه السلام :

«نعم العون الدنيا على الآخره» (۲)، أو ليس العوز سبب التبعيه،و الحاجه تؤدى إلى الذل؟ و نهتدى إلى فكره أخرى هامه حينما نربط هذه الآيه بنهى القياده عن طاعه المترفين،و هى:أنّ القائد قد ينخدع هو الآخر بما عندهم من حطام الدنيا(أموالا و أتباعا)فيطيعهم أو يداهنهم طمعا فيهما أو خشيه منهما،و يجب عليه أن يتجاوز هذه العقبه بالتوكل على ربه و الرغبه فيما عنده.

[۱۵]الثانى:نبذ رساله اللّه وراء ظهورهم.و ما هى رساله اللّه؟ إنّها الحق و الفضيله،و حيث رفضوها و اتبعوا أهواءهم و شهواتهم فقد اختاروا الباطل على الحق،و الرذيله على الفضيله.

إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

ص:۲۱۶

۱- ۱) فروع الكافى/ج ۵-ص ۷۱.
۲- ۲) المصدر/ص ۷۲.

أی؛انها قیم رجعیه لا تنسجم مع الواقع المعاصر فهی أساطیر تشبه ما یسطّره الأولون بخیالاتهم من القصص البعیده عن واقع الحیاه و حقائقها،و هذه من طبیعه الإنسان حینما یتکبر و یعاند لا یبحث عن صحه الفکره،و لا کونها حقّا أم باطلا،و إنّما یبحث قبل ذلک و بعده عن التبریر بغضّ النظر عن سلامته..فالمهم أن یقدّم عذرا مبرّرا،و لکن هل درس المترفون رساله اللّه دراسه موضوعیه عقلانیه أو صلتهم إلی هذا الحکم،أم أنّهم وجدوها لا تتفق مع أهوائهم،و وجدوا الرسول لا یداهنهم و لا یطیعهم فقالوا ذلک؟بلی.إنّهم ربطوا الرساله بمصدر بشری (الأولین)و لم یربطوها باللّه حتی یهربوا من مسئولیه الحق،و لکن هل یصیر الحق باطلا بمجرد أن یقول أحد أنّه أسطوره أو باطل؟کلاّ..و هکذا لا تغیّر أباطیل المترفین من حقیقه الرساله شیئا أبدا،و دلیل ذلک أنّهم لن یفلتوا من الجزاء.

[۱۶]بل سیتأکد لهم یوم الجزاء أنّ الرساله حقائق واقعیه عند ما یجازیهم اللّه و یعذّبهم،و هذا ما یوضّح لنا العلاقه بین قول المترفین أن الرساله أساطیر الأولین و بین قول اللّه مباشره:

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ و الوسم:العلامه التی یعرف بها الشیء،و یقال للکی وسما لأنّ العرب کانت تحمی حدیده تکوی بها الدواب لتکون فیها علامه ممیزه،و المیسم هو آله الوسم،و إنّ المترفین لیکوون یوم القیامه بمیاسم خزنه النار،التی تترک علیهم علامه یعرفهم بها الخلائق فیفتضحون و یعیبونهم علی أفعالهم و ذنوبهم الدنیئه.و قد نستوحی من هذه الآیه أنّ الإنسان و حتی المترف لا یعترف و هو یمارس الذنب کالهمز و النمیمه و منع الخیر أنّه علی الباطل،بل یخفی الحقیقه بشتی الوسائل و المبررات عن الآخرین،و لذلک کان من جزائه فی الآخره الفضیحه بالوسم علی

الخرطوم،فما هو الخرطوم؟ فی المنجد:خراطیم القوم ساداتهم و أبرزهم،یسمّی بذلک الأنف،و یستعمل خصوصا للفیل (۱)،و قیل للأنف خرطوما لأنّ الوجه أبرز ما فی الإنسان،و الأنف أبرز ما فی الوجه،و ربما وصف القرآن أنوف المترفین بالخراطیم(أنوف الأفیال الطویله)لأنّهم عاده ما یشمخون بها علی الناس استطاله و تکبرا،حتی لتکاد تطول لو أمکنها.و قد تمحورت کنایات العرب عن التکبر حول الأنف،یقولون:

شمخ بأنفه،و أرغم اللّه أنفه،و آتی برغم أنفه (۲)،و حیث یعذّبهم اللّه بالوسم علی أنوفهم فذلک إهانه لهم باعتبارها مقیاس العزه و التکبر، یقال:أعزّ اللّه أنوفهم إذا رفع القوم شأوا.و لعل الکلمه تتسع إلی اللسان الذی یحلفون به،و یهمزون به، و ینمّون،و یمنعون الخیر،و یحاربون به الرسول و الرساله،و ما إلی ذلک من سائر المعاصی التی یلعب اللسان فیها دورا رئیسیا،و إنّما یطیل اللّه أنوفهم أو ألسنتهم فی الآخره لتستوعب بمساحتها قدرا أکبر من العذاب.

قصه أصحاب الجنه:

[۱۷-۲۰]و یشبّه القرآن واقع المترفین مذکّرا بقصه أصحاب الجنه،لأنّهم کهؤلاء افتتنوا بزینه الحیاه الدنیا فاتبعوا الأهواء و خالفوا الحق و استکبروا علی المحرومین،لو لا أنّهم بعد طائف من اللّه علیها اکتشفوا خطأهم و بادروا إلی التوبه خشیه العذاب الأکبر فی الآخره.قال ابن عباس:(إنّه کان شیخ کانت له جنّه، و کان لا یدخل بیته ثمره منها و لا إلی منزله حتی یعطی کلّ ذی حقّ حقّه،فلمّا قبض الشیخ و ورثه بنوه-و کان له خمسه من البنین-فحملت جنتهم فی تلک

۱- ۱) المنجد/ماده خرط(۱۲)بتصرف.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰ عند الآیه.

السنه التی هلک فیها أبوهم حملا لم یکن حملته من قبل ذلک،فراحوا الفتیه إلی جنتهم بعد صلاه العصر،فأشرفوا علی ثمره و رزق فاضل لم یعاینوا مثله فی حیاه أبیهم،فلما نظروا إلی الفضل طغوا و بغوا،و قال بعضهم لبعض:إنّ أبانا کان شیخا کبیرا قد ذهب عقله و خرف فهلّموا نتعاهد و نتعاقد فیما بیننا أن لا نعطی أحدا من فقراء المسلمین فی عامنا هذا شیئا،حتی نستغنی و تکثر أموالنا،ثم نستأنف الصنعه فیما یستقبل من السنین المقبله،فرضی بذلک منهم أربعه و سخط الخامس،و هو الذی قال تعالی: قٰالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ .

فقال لهم أوسطهم:اتقوا اللّه و کونوا علی منهاج أبیکم تسلموا و تغنموا،فبطشوا به فضربوه ضربا مبرحا،فلمّا أیقن الأخ أنّهم یریدون قتله دخل معهم فی مشورتهم کارها لأمرهم،غیر طائع،فراحوا إلی منازلهم ثم حلفوا باللّه أن یصرموه إذا أصبحوا و لم یقولوا إن شاء اللّه،فابتلاهم اللّه بذلک الذنب،و حال بینهم و بین ذلک الرزق الذی کانوا أشرفوا علیه) (1).

و لعلّ فی القصه إشاره إلی أنّه تعالی أجری نفس السنّه علی المترفین أو طالهم منه شیء من العذاب فی الدنیا،و

فی روایه أبی الجارود عن الإمام الباقر علیه السلام تأکید لذلک،قال: «إنّ أهل مکه ابتلوا بالجوع کما ابتلی أصحاب الجنه» (2)، و إذا لم یکن أهل مکه بأجمعهم فلا أقل مصادیق الآیات السابقه کالمغیره و آخرین ممّن نزلت فی شأنهم یومذاک.قال تعالی:

إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ کَمٰا بَلَوْنٰا أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ أی اختبرناهم بالثروه بمثل ما اختبرنا أصحاب المزرعه و ما دامت السنن الإلهیه فی

1- 1) تفسیر القمی/ج 2-ص 381.

2- 2) المصدر/ص 382.

الحیاه واحده فیجب إذن أن یعتبر الإنسان بالآخرین سواء المعاصرین له أو الذین سبقوه،و أن یعیش فی الحیاه یتّلمذ فإنّها مدرسه و أحـداثها خیر معلّم لمن أراد و ألقی السمع و أعمل الفکر و هو شهید،و بهذه الهدفیه یجب أن نطالع القصص و نقرأ التاریخ،فهذه قصه أصحاب الجنه یعرضها الوحی لتکون أحداثها و دروسها موعظه و عبره للإنسانیه.

و القرآن فی عرضه لهذه القصه الواقعیه (۱)لا یحدثنا عن الموقع الجغرافی للجنه هل کانت فی الیمن أو فی الحبشه،و لا عن مساحتها،و نوع الثمره التی أقسم أصحابها علی صرمها،لأنّ هذه الأمور لیست بذات أهمیه فی منهج الوحی،إنّما المهم المواقف و المواعظ و الأحداث المعبّره سواء فصّل العرض أو اختصر و أوجز.

إِذْ أَقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّهٰا مُصْبِحِینَ أی أول الصباح،و خلافا لعاده الفلاّحین الذین یصرمون بعد طلوع الشمس، و ذلک لکی لا یعلم المساکین بالأمر فیحضرون طلبا للمعونه،و یظهر أنّهم تعاقدوا علی ذلک لیلا.و الصرم أصله القطع،یقال:تصارم القوم إذا تقاطعوا و هجر بعضهم بعضا،و سیف صارم یعنی شدید القطع،و الرجل الأصرم الذی قطع طرف أذنیه، و صرم النخل إذا قطع عروقها..و لعل فی الآیه إشاره إلی نوع شجر الجنه بأنّه مما یصرم کالنخل و العنب و لیس مما یحصد کالحنطه أو یجنی کالفاکهه.و القسم هو غایه العزم و الإصرار.و لعلهم إنّما تحالفوا و تعاقدوا لکی لا ینفرد بعضهم بإعطاء شیء للفقراء أو إفشاء سر مؤامرتهم حیث یبدو أنّ بعضهم کان مخالفا لمثل هذه العملیه و هو أوسطهم.

۱- ۱) أقول واقعیه لأنّ بعض المفسرین و الذین درسوا القصص القرآنیه حاولوا تصویرها بأنّها قصص خیالیه وهمیه وضعها اللّه لتکون وسیله لأفکار القرآن،و لیس فی ذلک مقدار من الصحه.

وَ لاٰ يَسْتَثْنُونَ و تنطوى هذه الآيه على معنيين:أحدهما:الاستثناء بمعنى أخذ مشيئه اللّه و المتغيرات بعين الإعتبار،فإنّه نهى سبحانه أن لا يعلّق أحد عزمه و قراره بمشيئته فقال: وَ لاٰ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فٰاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ (1)و هذه حقيقه علميه واقعيه أنّ الإنسان العاقل حينما يخطط لأمر ما يجب أن يضع فى فكره الاحتمالات الممكنه التى قد يواجهها فى المستقبل،و لقد أثبتت التجارب العلميه ما نعايشه يوميّا من احتمالات الخطأ و مخالفه ما نخططه عمّا يقع فعلا،مما يكشف أمرين:الأول:جهلنا بكلّ الحقائق التى قد تقع،و الثانى:أنّ هناك إراده فوق القوانين و الأنظمه الواقعيه يمكن أن تخرقها و تخرب الحسابات و الخطط فى أيّه لحظه بحيث لا يملك الإنسان إلاّ الاستسلام لها،أو يكون قد استعد للأمر سابقا و وضع الخطط المناسبه،و تعرّفنا البصائر الإسلاميه بتلك الإراده أنّها مشيئه اللّه عزّ و جلّ..

يقول الإمام على-عليه السلام-: «عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم،و حل العقود،و نقض الهمم» (2)، و ما أكثر البحوث الفلسفيه التى تفتح هذه الآيه آفاقها أمام المتدبر،و التى خاض فيها المفسرون و الفلاسفه.

الثانى:الاستثناء بمعنى الاقتطاع و العزل من الثمر للفقراء و المساكين.و لقد أغفل أصحاب الجنه قول «إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ »كما عقدوا العزم بالأيمان المغلّظه أن لا يعطوا و لا فقيرا واحدا شيئا مما يصرمون،و لكن هل أفلحوا فى أمرهم؟كلاّ..

فَطٰافَ عَلَيْهٰا طٰائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نٰائِمُونَ

١- ١) الكهف٢٣/-٢۴.

٢- ٢) نهج البلاغه/حكمه ٢۵٠.

قبل حلول موعدهم الذى تعاقدوا على أن يهبّوا فيه للصرم(أول الصباح)،و ما يدريك لعلهم ناموا أول الليل طمعا فى الجلوس مبكّرين.بلى.إنّ اللّه الذى لا تأخذه سنه و لا نوم ما كان ليغفل عن تدبير خلقه و إجراء سننه فى الحياه،فقد أراد أن يجعل آيه تهديهم إلى الإيمان به و التسليم لأوامره حيث أمر بالاستثناء(إنشاء اللّه)و بالإنفاق على المساكين،و أن يعلم الإنسان بأنّ الجزاء حقيقه واقعيه و أنّه نتيجه عمله.

و الطواف هو المرور بالشيء و حوله،و الطائف الذى يقوم بذلك الفعل،و لقد قال المفسرون أنّه العذاب،و قد يكون تأويله بالريح المدمّره،أو طوفان الرمل،أو الماء العاتى،أو الجراد تأكل الثمر و كأنّها تصرمه،و لعلّ الأخير أقرب الاحتمالات..يقال:طاف الجراد إذا ملأ الأرض كالطوفان (١).

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ و كأن أحدا سبقهم إلى صرمها،و هكذا يواجه مكر اللّه مكر الإنسان فيدعه هباء منثورا وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٢)،و إذا استطاعوا أن يخفوا مكرهم عن المساكين فهل استطاعوا أن يخفوه عن عالم الغيب و الشهاده؟كلاّ..

و أرسل اللّه طائفه ليثبت لهم هذه الحقيقه،و ربما جعله ليلا «وَ هُمْ نائِمُونَ »لتكون القضيه أعمق أثرا حيث يعلمون أنّ الجزاء من جنس العمل،فكما أنّهم أخفوا مكرهم عن أولئك كذلك أخفى اللّه مكره عنهم فما جعلهم يعاينونه.

[٢٣-٢١]و لأنّ من طبيعه الإنسان أنّه سريع الانتباه من الرقاد عند انتظار أمر هام،فإنّهم كانوا-فيما يبدو-أيقاظا قبيل الصبح.

١- ١) المنجد/ماده طاف.

٢- ٢) آل عمران٥۴/.

فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ نادى بعضهم بعضا،و أجمعوا بالفعل على ضروره التبكير فى الذهاب إلى الجنه و صرمها،و استحثّ بعضهم بعضا.

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ أى إذا كنتم تريدون الوقت الأنسب للصرم من دون استثناء فلا أنسب من الغدو،و هو السعى أول الصبح.و أصل الحرث من قلب الأرض بآله الحراثه، و حرثكم يعنون الذى أتعبتم أنفسكم حتى حرثتموه،و فى ذلك استثاره للذات، بأنّكم الذين أجهدتم أنفسكم و حرثتم الأرض و زرعتموها و ناضلتم منذ البدايه حتى أثمرت.. فأنتم وحدكم إذن الذين يجب أن يكون لكم النتاج لا يشارككم فيه أحد من الناس.

فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ فى سرعه متأنّيه محفوفه بالحيطه و الحذر من الفضيحه،لكى ينجزوا المهمه لو أمكنهم قبل استيقاظ المساكين و رواحهم إلى حوائجهم.و التخافت نقيض الجهر و الإعلان فهو التّسار،و يبدو أنّهم يدعون بعضهم إلى المزيد من الكتمان و التخفّى.

أو كانوا فى أثناء انطلاقهم إلى الصرم يتناجون الحديث و التآمر.و عملوا المستحيل من أجل همّهم الشاغل الذى تخافتوا به طيله الطريق إلى جنتهم،و هو إخفاء الأمر على المعوزين حتى لا يسألوهم شيئا ممّا يصرمون.

أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ و المسكين هو المعوز الذى لا يملك حتى قوت يومه،و الآيه تدل على مدى شحّهم

إذ لا یریدون أن یتعطفوا و لا علی واحد و لو کان من أحوج الناس!و أکّدوا علی ذلک الیوم بالذات لأنّه یوم الصرم و القسمه،فلا یضرهم أن یدخل المساکین بعده إذ لا ثمر و لا قسمه،و الآیه تعکس ظاهره کانت شائعه فی ذلک المجتمع و هی أنّ المساکین و المعوزین یدخلون المزارع و البساتین فی مواسم الجنی و الحصاد و الصرم، و لعلهم کانوا یحاولون التعرف علی الیوم الذی یبادر فیه الملاّک إلی ذلک فیطوفون علیهم فی حقولهم طمعا فی المساعده و الإعانه،و لعل والد الأخوه الخمسه (أصحاب الجنه)الذی توفّی و أورثهم إیّاها کان قد عوّد المساکین علی المعونه یوم الصرم من کلّ عام، و قد أخذ أصحاب الجنه ذلک بعین الإعتبار فی خطتهم و احتاطوا للأمر بحیث أنّهم من الناحیه الظاهریه ما أغفلوا شیئا.

وَ غَدَوْا عَلیٰ حَرْدٍ قٰادِرِینَ فی ظنّهم إذ أحکموا خططهم و کیدهم من کلّ الجوانب.و اختلف فی معنی الحرد فقیل:هو القصد (1)،فالمعنی غدوا علی قصدهم الذی قصدوا أی الصرم و المنع قادرین عند أنفسهم،و قیل:الغضب (2)،و قیل:المنع،و قیل:الجد (3)، و یبدو لی أنّه المنع المقصود الجاد و المشرب بالحقد و الغضب علی المساکین و النفور منهم.و إنّما تصوّروا أنفسهم قادرین علی ذلک لأنّهم أخذوا بکلّ الأسباب التی من شأنها إیصالهم إلی الهدف،و غاب عنهم-بسبب ترفهم و ضعف إیمانهم- أنّ قدره اللّه المطلقه فوق کلّ شیء،و أنّه وحده الذی لا یمنعه مانع.و مشوا نحو جنتهم و کلّهم ثقه بأنّ ما أرادوه سوف یتحقّق.

فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضَالُّونَ

1- 1) فی مجمع البیان و الکشاف و تفسیر البصائر عند الآیه.

2- 2) المنجد/ماده حرد.

3- 3) فی الدر المنثور عند الآیه.

عن الحق،و إن شيئا لا يصير إلاّ أن يشاء اللّه،و إنّه يعلم حتى السر،و إنّ فى الإنفاق فى سبيل اللّه خيرا عظيما و بركه،و قيل:ضالون أى أنّنا ضيّعنا الطريق و صرنا إلى غير جنتنا إذ لم يصدّقوا أنفسهم أنّ الأرض التى تركوها أمس بأفضل حاله قد تحوّلت إلى بلقع فزعموا أنّهم قد ضلوا الطريق إلى أرضهم إلى غيرها،و لكن كيف يضيّع الإنسان أرضه؟!كلاّ..إنّها أرضهم بعينها،و إنّهم ضالون عن الحقيقه و ليسوا ضالين عن جنتهم،و إنّهم حرمهم اللّه بمشيئته و حكمته.

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ و ثمّه علاقه بين ضلالهم و حرمانهم و هى أنّ بلوغ الإنسان تطلعاته و أهدافه المعنويه و الماديه متصل بالمنهج الذى يتبعه فى الحياه،فحينما يخطئ اختيار المنهج أو يضل عن المنهج الصحيح فإنّه بصوره طبيعيه مباشره سيحرم ليس من معطياته المعنويه بل حتى الماديه منها،و هذا ما وقع فيه أصحاب الجنه،و

فى الحديث قال الإمام الباقر-عليه السلام-: «إنّ الرجل ليذنب الذنب فيدرأ عنه الرزق» (١).

و نستوحى من الآيه بصيره أخرى و هى:أنّهم اهتدوا إلى أنّ الحرمان الحقيقى ليس قلّه المال و الجاه بالمسكنه،و إنّما الحرمان و المسكنه قلّه الإيمان و المعرفه باللّه بالضلال.

و هكذا أصبح الحادث المريع بمثابه صدمه قويّه أيقظتهم من نومه الضلال و الحرمان،و بدايه لرحله العروج فى آفاق التوبه و الإنابه،و التى أوّلها اكتشاف الإنسان لخطئه فى الحياه. و هكذا نهتدى إلى أنّ من أهمّ الحكم التى وراء أخذ اللّه

١- ١) نور الثقلين/ج ۵-ص ٣٩۵ نقلا عن الكافى.

للناس بالبأساء و الضراء و ألوان من العذاب فى الدنيا هى تصحيح مسيره البشر، بإحياء ضميره و استثاره عقله من خلال ذلك،كما قال تعالى: فَأَخَذْنٰاهُمْ بِالْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (1)..فما أحوجنا نحن المسلمين أن نتأمّل قصه هؤلاء الأخوه الذين اعتبروا بآيات اللّه و راجعوا أنفسهم بحثا عن الحقيقه لمّا رأوا جنتهم و قد أصبحت كالصريم،فنغيّر من أنفسنا ليغيّر اللّه ما نحن فيه،إذ ما أشبه تلك الجنه و قد طاف عليها طائف من اللّه بحضارتنا التى صرمتها عوامل الانحطاط و التخلف.

و لو أنّهم استمعوا إلى نداء المصلحين لما ابتلوا بتلك النهايه المريعه..و هكذا كل أمّه لا تفلح إلاّ إذا عرفت قيمه المصلحين الثائرين،فاستمعت إلى نصائحهم، و استجابت لبلاغهم و إنذارهم.و لهذا الدور تصدّى أوسط أصحاب الجنه، فعارضهم فى البدايه حينما أزمعوا و أجمعوا على الخطيئه،و ذكّرهم لمّا أصابهم عذاب اللّه بالحق،و حمّلهم كامل المسؤوليه،و استفاد من الصدمه التى أصابتهم فى إرشادهم إلى العلاج الناجح.

قٰالَ أَوْسَطُهُمْ و هو يذكّرهم و يلومهم،و يرشدهم فى آن واحد:

أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ أى أنّ التسبيح هو السبيل لعلاج الضلاله و الحرمان،فهو إذن ليس كما يتصوّر البعض مجرد قول الواحد سبحان اللّه،إنّما هو شريعه نظام و منهجيه حياه،تتسع لعلاج كلّ انحراف و مشكله لدى الإنسان،و هدايته إلى الحق و الصواب فى كلّ

1- 1) الأنعام42/.

میدان و جانب،حیث أنّه بالتسبیح یقدس المرء ربه فلا ینسب الذنب إلیه و إنّما إلی نفسه،و لهذا یأتی التسبیح عند الاعتراف بالذنب،مثل قوله سبحانه فی قصه ذی النون و علی لسانه: سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّالِمِینَ و الذی ذهب إلیه البعض من تفسیر للتسبیح هنا بأنّه الاستثناء(بالعطاء للمساکین،و قول إنشاء اللّه)أو التوبه بعد الذنب صحیح و لکنّه من المصادیق و المفردات التی إلی جانبها الکثیر مثیلاتها.

و تتساءل:من هو أوسطهم؟ قال أکثر المفسرین أنّه أوسطهم فی السن،و ذلک ممکن إلاّ أنّ الأقرب للمعنی أنّه أعدلهم و أرجحهم عقلا،ذلک أنّ السن فی مثل هذه القضیه لیس بذی أهمیه حتی یذکر،و إلی ذلک ذهب ابن عباس و قد سأله سائل:یا ابن عباس کان أوسطهم فی السن؟فقال:لا بل کان أصغر القوم سنّا و کان أکبرهم عقلا، و أوسط القوم خیر القوم،و الدلیل علیه فی القرآن أنّکم یا أمّه محمّد خیر الأمم،قال اللّه: «وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰاکُمْ أُمَّهً وَسَطاً » (1)،و إنّما یکتشف الإنسان الطریق السوی باعتداله فی العقل و البصیره لا بمقدار عمره،و حیث کان أخوهم هذا صاحب بصیره نافذه فقد سبقهم إلی معرفه الحق و نصحهم،و قرأ النتائج المستقبلیه قبل وقوعها، و کذلک یکون أولوا الألباب من القاده الصالحین.

و من موقف أوسط أصحاب الجنه نهتدی إلی بصیره هامه ینبغی لطلائع التغییر الحضاری و قادته أن یدرکوها و یأخذوا بها فی تحرکهم إلی ذلک الهدف العظیم، و هی:أنّ المجتمعات و الأمم حینما تضل عن الحق و تتبع النظم البشریه المنحرفه تصیر إلی الحرمان،و تحدث فی داخلها هزّه عنیفه(صحوه)ذات وجهین:أحدهما:

۱- ۱) تفسیر القمّی/ج ۲-ص ۳۸۱.

القناعه بخطإ المسيره السابقه،و الآخر:البحث عن المنهج الصالح،و هذه خير فرصه لهم يطرحوا فيها الرؤى و الأفكار الرساليه و يوجهوا الناس إليها.و إنّها لظروف أمتنا الإسلاميه التى جرّبت اليمين و اليسار و تعيش الآن مخاض العوده إلى الخيار الإلهى الأول بروح عطشه لتلقّى الرساله و الطاعه لحملتها و القاده إليها.

و كذلك وقف أصحاب الجنه من أوسطهم و دعوته للعوده إلى الحق:

قَالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ فالقيم الإلهيه إذن صحيحه لا خطأ فيها لأنّها تتنزل من عند اللّه صاحب الكمال المطلق،إنّما الخطأ و الداء فى الإنسان الذى يظلم نفسه بالانحراف عن الحق.و كذلك ينبغى للأمه الإسلاميه أن تقيّم واقعها و هى تبحث عمّن هو المسؤول عن تخلّفها،هل الإسلام أم المسلمين؟ و هكذا سبّحوا ربهم لكى لا يلقوا بمسؤوليه خطئهم على الأقدار،لأنّ ذلك كان يعيق انطلاقتهم نحو التغيير و الإصلاح.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ يلقى كلّ واحد المسؤوليه على غيره،و هذه من الطبائع البشريه أن يدّعى الإنسان المكاسب و يتهرّب من التبعات و النكسات،و على ذلك مضى المثل:

«الهزيمه يتيمه و للانتصار ألف أب»،و لكنّ أصحاب الجنه تجاوزوا هذه العقبه أيضا،و اعترفوا جميعهم بالمسؤوليه إيمانا منهم بأنّها الحقيقه الواقعيه،و السبيل النافع الوحيد للتغيير الجذرى الشامل.

قَالُوا يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا طاغِينَ

ص:٢٢٨

أی الویـل(العـذاب)لنا و بسـببنا إذ طغینا،و الطغیان أعظم من الظلم لأنّه تجاوز الحـد فیه،و هکـذا یجب أن یعترف الإنسان(فردا و أمه)بحجم الخطیئه الواقعی دون تصـغیر یدعو إلی التبریر،و لا تضخیم یبعث روح الیأس من الإصلاح، بل اعتراف الشجعان الذی ینفخ فی النفوس روح التوبه النصوح إلی اللّه،و رجاء المتطلعین إلی الإصلاح و الخیر.

عَسیٰ رَبُّنٰا أَنْ یُبْدِلَنٰا خَیْراً مِنْهٰا فی الدنیا و الآخره.

إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا رٰاغِبُونَ و بالرغبه إلی اللّه یتجاوز الإنسان فتنه الدنیا و أسرها الذی یقع فیه بالرغبه الطاغیه إلیها.

و فی نهـایه القصه یضع القرآن أمامنـا أعظم المواعـظ و العبر التی تهـدی إلیها و هی:ضـروره أن یتخـذ الإنسان حوادث الـدنیا و أحداثها علامه و آیه هادیه لما فی الآخره.

کَذٰلِکَ الْعَذٰابُ وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ قیل:یعنی لو کانوا یعلمون عذاب الآخره،و هو صـحیح،و الأقرب منه أنّ صاحب البصیره و العلم یعرف و هو فی الدنیا بإیمانه و بصـیرته أنّ ما فی الآخره أعظم حینما یری العذاب فی الدنیا.و هنا یتضح الفرق بین صاحب البصـیره الـذی یری الحقائق بعقله(کأوسط أصـحاب الجنه)و بین أصـحاب الجنه الـذین اهتـدوا لعظمه عذاب الآخره بما وقعوا فیه من الویل الدنیوی،أو یکون ضالا فلا یهتدی

رغم الآيات و المواعظ.

و لعلّنا نستوحی من عموم القصه أنّ بعضا من المکذّبین و المترفین الذین کانوا فی محیط الرسول آنذاک ترجی لهم التوبه و الهدایه کأصحاب الجنه،بالذات و أنّ اللّه فی الآیات القادمه یدعو النبی-صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-أن لا یتعجّل کصاحب الحوت فی الحکم علی قومه بل یصبر لحکم اللّه الذی سیظهر فی المستقبل فقد یتوبون کما تاب قوم یونس-علیه السلام-و من هذه الفکره یجب علی الدعاه أن یستمدوا سعه الصدر و کظم الغیظ إذ یواجهون الرفض و العناد فی طریق نشر الرساله بین الناس.

ص:۲۳۰

[سوره القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الی ۵۲]

اشاره

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتِ اَلنَّعِيمِ (۳۴) أَ فَنَجْعَلُ اَلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ
تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (۳۸) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ
بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴۱) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى اَلسُّجُودِ فَلا
يَسْتَطِيعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى اَلسُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (۴۳) فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا
اَلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۴۵) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ
عِنْدَهُمُ اَلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ اَلْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸) لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ
نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ اَلصّالِحِينَ (۵۰) وَ إِنْ يَكادُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ
لَمّا سَمِعُوا اَلذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ ما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۵۲)

اللغه

۴۳[ترهقهم]:الرهق لحاق الأمر،و منه:راهق الغلام إذا لحق بالرجال،و قال البعض:الرهق اسم من الإرهاق و هو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه،و منه:«سأرهقه صعودا».

۴۶[مغرم]:ما يلزم من الدين الذى يلح فى اقتضائه، و أصله من اللزوم بالإلحاح،و منه قوله: إِنَّ عَذٰابَهٰا كٰانَ غَرٰاماً أى لازما ملحّا.

۴۸[مكظوم]:المكظوم هو المحبوس عن التصرّف فى الأمور،و منه:كظمت رأس القربه إذا شددته،و كظم غيظه إذا حبسه بقطعه عمّا يدعو إليه،و كظم خصمه إذا أجابه بالمسكت.

ص:۲۳۲

فاصبر لحكم ربّک

هدی من الآیات:

فی هذا الدرس تعالج الآیات أسباب التکذیب بالرساله و التهرب من مسئولیاتها،و هی:

أولا:الأمنیات الباطله التی تحلم بتساوی الناس فی الجزاء،الأمر الـذی یبرر للمترفین عـدم التصـدیق بالرساله و العمل بمضامینها و تحمل المسؤولیه فی الحیاه،و لماذا یکلّف الإنسان نفسه ما دام الجزاء واحـدا؟ و القرآن بعد أن یؤکّد علی عظیم ثواب المتقین و شدیـد عـذاب المجرمین،یسفّه الحکم الباطل لدی البعض بتساوی الفریقین عند اللّه،و ذلک بأدله وجدانیه لا بد للإنسان السویّ من التسلیم لها.

ثم تبیّن الآیات بأنّ جزاء الآخره لیس إلاّ تجسدات واقعیه لأعمال الإنسان

ص:۲۳۳

التی اختارها بتمام وعیه و إرادته فی الـدنیا،لذلک لا یسـتطیع أحد سـجودا یوم یکشف عن ساق الجد رغم الدعوه الإلهیه له إلی ذلک،و تغطّی وجهه الذله.

لماذا؟لأنّه أعرض عن السـجود و قـد کان فی سـلامه مادیه و معنویه فی الدنیا،و إنّ هذه الحقیقه تبعث فی وجدان المؤمنین روح المسؤولیه التی یعمّقها الوحی بتحذیر الإنسان من أنّه لو کذّب بهذا الحدیث فسوف یستدرجه من حیث لا یعلم،الأمر الذی یصیر به إلی سوء العذاب،و لا یکون له فی الآخره من خلاق،و ذلک من متین کیده عزّ و جلّ الذی یحسبه المترفون خیرا.

ثانیـا:الموقف الخـاطئ من الرسـاله و الإعتقـاد بأنّها مغرم،لما فیها من مسـئولیه و بالـذات واجب الإنفاق المفروض علی أصـحاب الثروه،و إنّها لکبیره علی المترفین الذین أسرتهم الأموال و یتضاعف حرصهم کلّما فتح اللّه لهم أبوابا من الدنیا و أملی لهم.

ثالثا:البطر الذی یجعل الإنسان لا یشعر بالحاجه إلی الرسول و الرساله،بل قد تراه یزعم أنّه قد أعطی الغیب بیده!الآیه(۴۷).

و هذه الأسـباب الثلاثه ذاتها تجعل الحرکه التغییریه فی أوساط المترفین و فی ظلّ هیمنتهم حرکه بطیئه و صـعبه مما یوجب علی کـلّ مصـلح رسـالی أخـذها بعین الإعتبـار،فیصبر لحکم ربه،مسـتقیما علی رسـالته لا یتراجع عنها،و لا یصاب بردّه فعل سـلبیّه قد تقوده إلی تکفیر مجتمعه أو هجرته،کمـا فعـل النبی یونس بن متی -علیه السـلام-الـذی یئس من التغییر فـدعی علی قومه فابتلی بالسـجن فی بطن الحوت،فـإنّه یجب علی کلّ رسالی الصبر فی طریق الرساله و إن کان المکـذّبون یکادون من الحقـد و البغض یزلقونه بأبصارهم،و یمارسون ضده حربا إعلامیه شعواء سلاحها الشائعات و التهم و الدعایات المغرضه،الآیات(۵۱/۴۸).

و كما يجب أن يستقيم الداعيه على أهدافه الربانيه دون يئس من إصلاح الناس،كذلك يجب أن لا يفقد ثقته برسالته فيشكك نفسه فى قيمها لعدم تجاوب الناس معه أو لإعلام المترفين و المتسلطين ضدها.

بينات من الآيات:

[۳۸-۳۴]بعد التحذير من العذاب فى الدنيا و من العذاب الأكبر فى الآخره يرغّبنا السياق فى الجزاء الحسن الذى أعدّ للمتقين دون سواهم،و ذلك بالتأكيد على أنّه لا يشمل كلّ من هبّ و دبّ،لأنّ للجزاء الإلهى مقاييس دقيقه حيث يتناسب بنوعه و قدره و درجات الناس الإيمانيه و أعمالهم الصالحه.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتِ النَّعِيمِ و لم يقل(جنات نعيم)لأنّ الألف و اللام يجعلان الكلمه أوسع معنى،فبينما يدل قولنا:(نعيم)على جزء منه يتسع النعيم لتمام المعنى مما يتناسب و معالجه السياق لموضوع الترف حيث يسمو بالمؤمنين عن فتن الدنيا و يفتح أمامهم أفقا من النعيم الذى لا ينتهى عند حدّ و لا زمان فتتصاغر عنده الدنيا،فلا يجدون ضيرا لأنّها زويت عنهم،لأنّ الآخره خالصه لهم،كما قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّيِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا خٰالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ (۱)،و بهذا تتعادل الصوره فى أذهان المتقين بأنّهم إن لم يملكوا فى الدنيا من متاعها فالآخره خالصه لهم.

و ببيان هذه الحقيقه أنّ الجنات للمتقين يمهّد القرآن لإبطال أمانى المجرمين بتساويهم مع المؤمنين فى الجزاء،و تلك الأمانى عامل من عوامل تكذيب المترفين

۱- ۱) الأعراف ۳۲.

الرساله یعالجها القرآن الکریم فی هذا السیاق،و هی التالیه:

أولا:الأمنیات الباطله بالتساوی فی الجزاء مع المؤمنین.

هل یتساوی الصالح و الطالح؟کلاّ..إنّه مرفوض عند کل عاقل.

أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِینَ کَالْمُجْرِمِینَ و المسلم هو الذی سلّم نفسه للّه بتطویعها وفق أوامره.و السؤال:لماذا قدّم المسلمین علی المجرمین بینما یفترض العکس باعتبار السیاق ینفی مزاعم المجرمین بأنّهم متساوون مع المتقین فی الثواب؟و لکنّ المتدبر حینما یمعن النظر یهتدی إلی لطائف بلاغیه لترتیب الکلمات فی الآیه:

۱-أنّه تعالی فی نهایه قصه أصحاب الجنه أکّد حقیقه العذاب و أنّه فی الآخره أکبر،ممّا یرجّح کفّه الرهبه فی النفس،فجاءت الآیتان(۳۵/۳۴)لتحقیق المعادله عند المؤمنین بالتأکید علی أن لهم جنات النعیم،و أنّهم لا یعذّبون کالمجرمین،و یرفع اللّه رجاء المتقین إلی أقصاه حینما ینفی تساوی المجرمین مع المسلمین الذین هم أقل شأنا من المؤمنین فکیف بالمتقین الأرفع درجه حتی من المؤمنین؟و من جانب آخر یزید من یأس المجرمین من الثواب حینما لا یفسح مجالا حتی لمجرد الاحتمال بأنّهم یمکن أن یتساووا مع المسلمین بتقدیمهم فی الآیه (المجرمین کالمسلمین)و جعل مدارها حول الثواب بدل العقاب،فإنّ الآیه علی حالها تجعل العذاب مسلّما به للمجرمین و یبقی التساؤل عن مصیر المسلمین هل یتبعونهم فیه أم لا؟ ۲-إنّ الجزاء فی واقعه ذات العمل الذی یقوم به کل إنسان خیرا أو شرا،و لو أنّه سبحانه أعطی للمجرمین جنات النعیم کما یعطی المسلّمین له لکان الأمر من

أحـد جهـاته جعلاـ لهم كـالمجرمين،و كـأنّهم لم يعملوا مـا يتميّزون به عنهم،بـل و كـأنّهم عملوا أعمـالهم الإجراميه التى ساوت المصير و الجزاء بين الفريقين،و هذا ما ينكره كلّ عاقل سليم، و يستنكره السياق:

مٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ يعنى على أيّ أسـاس و منهـج؟و لاـ يملـك المـترفون المجرمون أمـام هـذا المنطق إلاّـ التسـليم له و نبذ الأمنيـات البـاطله بـالعوده إلى الحق و تحمـل المسؤوليه فى الحيـاه كضـروره وجـدانيه و عقليـه.و إنّه ليضـعهم أمـام واحـده من إجـابتين:فإمـا أن يحكموا بالتسـاوى،و هـذا مـا يرفضه كـل عاقـل،و إمّـا أن يحكموا بالاختلاـف و أنّ الثواب للمسـلم و العـذاب للمجرم(كما يحكم العقلاء)فلا بـد إذن أن يضـربوا بظنونهم عرض الحائط،ثم كيف يتمنون على ربهم ذلك الحكم الجائر و هو المنزّه عن الظلم و الجهـل؟و مـا أظهر تسـفيه هـاتين الآيتين لبعض الفلسـفات الصوفيه المفرطه فى الرجاء،التى يسـتبعد دعاتها أن يعـذّب اللّه أحدا من الناس و هو الرؤوف الرحيم، بل و يفسـرون آيات العذاب القرآنيه على أنّها لمجرد التخويف و سوق الناس نحو العمل بالحق ليس إلاّ!! إنّ أمانى المترفين بالتساوى مع المؤمنين عنـد ربهم من العوامل الخطره التى تـدعوهم إلى التكـذيب بالحق و الحياه اللامسؤوله،و التى تعيق فيهم أيّ سـعى جاد، بل و تبعث فيهم أسـباب الاجرام.و أيّ قيمه تبقى للأحكام و الحدود الإـلهيه إذا كفر الإنسـان بحقيقه الجزاء و بـأنّه من جنس العمـل؟!و أيّ حـافز للاـلتزام بـأوامر اللّه، و الارتـداع عن نواهيه يظلّ إذا كفرنا بالآخره أو فصلنا بينهما و بين الدنيا؟!و لذلك يتصدى السياق حتى الآيه(۴۵)للرد على تلك الأمانى و الظنون..و هكذا بعد أن أوضح بأنّها لا تستند إلى أيّ دليل وجدانى و لا عقلى ينفى استنادها إلى الوحى

المصدر الثانی للعلم الحق،بل حتی إلی کتاب معتبر لدی العقلاء.

أَمْ لَکُمْ کِتٰابٌ فِیهِ تَدْرُسُونَ* إِنَّ لَکُمْ فِیهِ لَمٰا تَخَیَّرُونَ و الکتاب الـذی یـدرسه الإنسان هو العلم الثابت الـذی یعتمـده منهجا فی الحیاه فیعکف علی دراسته بالبحث لفهمه و تطبیق ما فیه،و لیس ثمّه کتاب إلهی و لا حتی بشری معتبر لـدی الناس یساوی فی قوانینه و قیمه بین البریء و المجرم مهمـا اختلفت الکتب البشـریه و القوانین الوضـعیه فی تحدیـد مصـادیق المجرم،لأنّ الکتاب الـذی یخالف کلّ قیم العرف لن یکون مقبولا عنـد الناس،و إذا یحکم المترفون بالتساوی عنـد اللّه بین المجرم و المسلم فإنّما ینطقون من الأهواء و الأمانی التی لا اعتبار لها عند العرف العام.

و هـذه الآیه تسـتثیر فطره الإنسـان و وجـدانه و تستشـهد بمـا تعـارف علیه الناس علی اختلاف مـذاهبهم و قومیاتهم،کما الآیات القرآنیه الأخری التی تفرّق بین المسلمین و المجرمین کالآیه(۳۵)،و بین الجاهـل و العالم (۱)،و بین الأعمی و البصیر (۲)،و بین أصحاب الجنه و أصحاب النار (۳).

و الآیه(۳۸)تکشف عن حقیقه یمکن لکلّ إنسان أن یلمسـها فی واقع المترفین المسـتکبرین السیاسی و الاجتماعی،و هی أنّهم لا یریدون أن تحکم شریعه أو نظام قانون أنّی کان نوعها،فحتی الدستور الذی یضعونه بأنفسهم،و حسب القیاسات التی یختارونها لحکمهم تراهم یتهربون منه،و لا یرضون به حکما بینهم و بین الناس.لماذا؟لأنّ ذلک الدستور مهما کان ظالما و منحرفا لا بد أن ینطوی علی نسبه

۱- ۱) الزمر ۹ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ .
۲- ۲) فاطر ۱۹ وَ مٰا یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ .
۳- ۳) الحشر ۲۰ لاٰ یَسْتَوِی أَصْحٰابُ النّٰارِ وَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ هُمُ الْفٰائِزُونَ .

من القیم حتی یکون مقبولا عند العرف العام،و تلک النسبه تدین طائفه من تصرفاتهم فلا یریدونها،و هکذا کانت مخالفه حکم العقل و القانون من أظهر سمات المجرمین،کما أنّ تحکیم الهوی و الشهوات من أعظم بواعث الجریمه.

و لعلنا نهتدی من ذلک إلی أنّ من عظمه الإسلام أنّ فیه قیما أساسیه ثابته لا یمکن تبدیلها و تحویلها،بل أن تبقی هی المیزان فی المجتمع،و هذه القیم لا یعطی اللّه لأحد(من رسول و إمام أو حاکم شرعی أو دوله)الحقّ فی خرقها تحت أیّ عنوان،و لأیّ سبب بالغ ما بلغ،و الحکمه فی ذلک أنّها فوقهم جمیعا،و أنّ دورهم هو التنفیذ و لیس التشریع،کما أنّ الرساله تفقد مصداقیتها و قیمتها لو بدّلت فیها هذه القیم،بلی.إنّ المصلحه العامه قد تقتضی تغییر بعض القوانین و لکن ضمن إطار قانونی معیّن.

[۳۹-۴۳]و بعد أن نفی السیاق أیّ شاهد من عقل أو نقل(کتاب)یؤید مساواه المسلمین و المجرمین،ینفی أن تکون للمجرمین أیمان علی اللّه تقتضی براءتهم من النار و تحللهم عن أیّه مسئولیه تجاه أعمالهم.

أَمْ لَکُمْ أَیْمٰانٌ عَلَیْنٰا بٰالِغَهٌ و الأیمان البالغه إمّا بمعنی التامه من جمیع جهاتها و شروطها،نقول:بلغ الصبی إذا تمّت رجولته و استوی،أو بمعنی الأیمان التی لا تنقض و التی تتصل..

إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ و تقضی أن یکون الأمر کما یقولون بضرس قاطع أنّ لهم براءه من العذاب.

إِنَّ لَکُمْ لَمٰا تَحْکُمُونَ

فأنتم مفوّضون من قبل اللّه؟!و هذا لا دليل عليه،فلو كانت ثمّه يمين حلف بها اللّه فإنّها ستكون فی رسالته و الحال أنّ فيها أيمان مناقضه بأن يملأ جهنم من المجرمين،و لعل قوله تعالی إِلیٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ يهدينا إلی أنّهم فی الظاهر يحكمون رقاب الناس فی الدنيا و لكنّ الوضع يختلف تماما فی الآخره إذ لا تبقی لهم أيّه سلطه،فهنالك الولايه للّه الحق و له الحكم،بل فی الدنيا أيضا ليس بالضروره أن يكون لهم ما يتمنون و يحكمون،لأنّهم لا يقدرون علی شیء إلاّ بإذن اللّه القاهر فوق عباده.

بلی.هناك وعد عند اللّه للمؤمنين بالمغفره و الجزاء الحسن إذا ماتوا مؤمنين، و ليس إلی يوم القيامه دون شرط أو قيد.و ما يتوهّمه بعضهم من أنّ السلطان ظل اللّه فی الأرض،أو أنّه يعفی عن مسئوليات أفعاله،لا يعدو مجرد تمنيات تفرزها الأهواء،و هی تتبخر عند الحجه العقليه.من هنا يتحدی السياق أن يملك أحد الشجاعه علی تبنّی ذلك القول و الدفاع عنه و المجادله بشأنه.

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذٰلِكَ زَعِيمٌ و الزعيم:الكفيل الذی يقوم بالأمر و يتصدی له،و منه زعيم القوم،و لا أحد يتكفّل هذا الأمر لأنّه لا يعتمد علی دليل منطقی،إنّما ينطلق من الخيال و الظن، و هذه الآيه تتشابه و قوله تعالی: فَمَنْ يُجٰادِلُ اللّٰهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (1).

و يمضی السياق قدما فی تسفيه الزعم الواهی بتساوی المجرمين مع المسلمين، حيث تری كثيرا من المجرمين و المذنبين يتّكلون علی الشركاء و الأنداد،و يزعمون بأنّهم ينقذونهم من جزاء أفعالهم المنكره،و يزعمون بأنّهم يستطيعون التأثير علی

۱- ۱) النساء ۱۰۹.

حکم اللّه بحکم الشراکه معه فی الملک و التدبیر،سبحانه،و هکذا تراهم یعتقدون بالشفاعه الحتمیه التی تقتضی نجاتهم من العذاب یقینا بفعل تأثیر الآلهه الصغار کالأصنام و الملائکه و الجن و الأولیاء الذین یتوهم البعض أنّهم یتقاسمون اللّه الربوبیه سبحانه و تعالی.

أَمْ لَهُمْ شُرَکاءُ فَلْیَأْتُوا بِشُرَکائِهِمْ إِنْ کانُوا صادِقِینَ و المشرکون حینما یعودون إلی وجدانهم،أو عند المواجهه العلمیه بالجدال أو الواقعیه حیث یجازی اللّه الناس،یعرفون أن لا حول للشرکاء،و أنّهم إنّما یخدعون أنفسهم و یخادعون الآخرین إذ یتظاهرون بعقیده الشرک،و لقد رأینا کیف أفحم نبیّ اللّه إبراهیم-علیه السلام-المشرکین فی عصره عند المجادله، قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هٰذا بِآلِهَتِنا یا إِبْراهِیمُ* قالَ بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هٰذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ کانُوا یَنْطِقُونَ* فَرَجَعُوا إِلیٰ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّکُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ* ثُمَّ نُکِسُوا عَلیٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هٰؤُلاءِ یَنْطِقُونَ* قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا یَنْفَعُکُمْ شَیْئاً وَ لا یَضُرُّکُمْ أُفٍّ لَکُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱).

و فی هذه النهایه القویه یتضح لنا أنّه تعالی فی الآیه(۴۱)من سوره القلم إنّما طالبهم بأن یأتوا بشرکائهم استثاره لوجدانهم و عقولهم للتحقیق فی زعم الشرکاء، باعتبار أنّ بطلانه لا یحتاج إلی أکثر من ذلک،فهناک مزاعم کثیره یسترسل معها الإنسان و یعتبرها مسلّمات بل مقدّسات و لکن بمجرد عرضها علی عقله و وجدانه و التفکیر فیها بجدّ یتبین له مدی سخفها،و إنّما کانت هذه المسلّمات تستمد قوّتها من التمنیات و من الغفله و الجهل.

و إذا کان الإنسان قادرا علی فضح باطل الشرکاء بالوجدان و العقل فی الدنیا

ص:۲۴۱

۱- ۱) النساء ۶۲/۶۷.

فإنّ كذب كل مزاعمهم و ظنونهم الباطله يتبين بأجلى صوره فى الآخره.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سٰاقٍ و للكشف عن الساق تفاسير أهمّها:

ألف:قيل أنّه ساق العرش يكشف اللّه عنه يوم القيامه،و

قال الإمام الرضا -عليه السلام-: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّدا» (۱).

باء:و أوغل البعض فى الوهم إذ قالوا أنّه ساق اللّه سبحانه عمّا يصفون، و

رووا عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-أنّه قال: (يكشف اللّه عزّ و جلّ عن ساقه) و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن منده عن ابن مسعود..

قال:عن ساقيه تبارك و تعالى..و ضعّفه البيهقى (۲)،و يبدو أنّ ذلك من أفكار المجسّمه التى تسرّبت إلى الثقافات الدينيه لدى بعض المسلمين،كما اختلطت مع الأفكار المسيحيه من قبل.و قد ردّ الفخر الرازى ردّا مفصّلا على هذه الخرافه فى التفسير الكبير (۳).

جيم:و قد يكون الكشف عن الساق كنايه عن أنّه يوم الجد و الشده،و فى المجمع عن القتيبى:أصل هذا أنّ الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه يشمّر عن ساقه،فاستعير الكشف عن الساق فى موضع الشده..تقول العرب:

قامت الحرب على ساق،و كشفت عن ساق يريدون شدّتها..قال الشاعر:

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا و القوس فيها وتر

۱- ۱) نور الثقلين ج ۵ ص ۳۹۵.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۵۴.

۳- ۳) التفسير الكبير عند الآيه فى المجلد ۳۰.

عردّ (۱).

دال:و يمكن القول أنّه كنايه عن تجلّى أصول الحقائق،و إنما استخدم القرآن الكشف عن الساق لأنّ ساق الشىء أصله،و على هذا قيل ساق الشجره.و يوم القيامه هو يوم الكشف عن أصل الحقائق فهنالك يكشف للناس الحق الأصل و أعمالهم،قال على ابن إبراهيم:يوم يكشف عن الأمور التى خفيت (۲)،و لعلّنا نلمس تلويحا إلى هذا المعنى فى قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَهٍ مِنْ هٰذا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (۳).إذن فيوم القيامه هو يوم سقوط الحجب عن الحقيقه ليراها الناس كما هى، و هل ترى الساق إلاّ حينما يكشف عنها ما يمنع الرؤيه عنها؟ و كذلك يتضح للمجرمين بطلان حكمهم بالتساوى مع المسلمين،و أنّه ليس من كتاب يؤيّد ذلك،و لا يمين بالغه قطعها اللّه على نفسه لصالحهم،و لا شريك موجود فينفعهم يوم القيامه إن لم يكتشفوا ذلك بأنفسهم فى الدنيا،فيهتدوا للحق، و يسلّمون للّه بدل ممارسه الجريمه حيث الفرصه قائمه لا تزال،و إلاّ فإن شيئا من ذلك لا ينفعهم قيد شعره فى الآخره لأنّها دار جزاء لا عمل فيها.

وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ دعوه تشريعيه يوجّهها منادى الحق يومئذ،و تكوينيه يفرضها هول الموقف و عظمه تجليات الحقيقه،و هنالك يستجيب المؤمنون لربّهم بطبيعه التسليم التى كانوا عليها فى الدنيا،و بفعل الخشيه من مقام اللّه،بل لا يملك أحد من أهل المحشر

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۳۹.
۲- ۲) تفسير القمى ج ۲ ص ۳۸۳.
۳- ۳) ق ۲۲.

إلّا الاستجابه لدعوه الحق لو لا أنّه تعالى بحكمته يمنع المجرمين من ذلك.

فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ

جاء فى الحديث المأثور عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-: «تبقى أصلابهم طبقا واحدا» (۱)أى فقاره واحده،و

فى نور الثقلين عن الإمام الرضا-عليه السلام- «تدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» (۲)، و بالاضافه إلى هذا المعنى الظاهرى تتسع الآيه لمعنى أعم و هو أنّ المجرمين لا يملكون يوم القيامه أيّه حريه،ليعلموا أن ليس لهم ما يتخيّرون و لا ما يحكمون كما كانوا يظنون،و ليسوا كوضعهم فى الدنيا حيث أطلقوا العنان لأهوائهم فلم يراعوا حلال اللّه و حرامه و لا حقّا و باطلا،و بالذات أولئك الذين تسلّطوا على رقاب الناس فتمادوا فى الجريمه طغيانا و ظلما.

و يصوّر لنا القرآن حالهم حيث الهوان الظاهر على جوارحهم و وجوههم،و الذله الباطنه التى تكاد تقتلهم إرهاقا فى المحشر.و قد شمخوا بأنوفهم حتى كادت تستطيل مثل الخرطوم،و استكبروا و بالغوا فى التظاهر بالعزه فى الدنيا لأنّهم فى أيديهم المال و السلطه و حولهم الأتباع.

خٰاشِعَهً أَبْصٰارُهُمْ مرسله إلى الأسفل لا يرفعونها بين الناس لما هم فيه من ذلّ الموقف الذى لا يستطيعون معه حتى النظر إلى الآخرين.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّهٌ

۱- ۱) الكشّاف ج ۴ ص ۵۹۵.

۲- ۲) نور الثقلين ج ۵ ص ۳۹۵.

أی تغشاهم و تعلو وجوههم ذله،و یحتمل أن یکون المعنی أی تحمّلهم الذله مالا یطیقون من الأذی المعنوی،و تتعبهم کما تتعب الکلاب الصید،یقال:أرهقه أی حمله علی ما لا یطیق،و حکمه اللّه فی منع المجرمین عن السجود بعد أمرهم به فضیحتهم فی المحشر حیث یمتاز بامتحان السجود المسلم عن المجرم،

قال قتاده ذکر لنا أنّ النبیّ-صلّی اللّه علیه و آله-کان یقول: «یؤذن للمؤمنین یوم القیامه فی السجود فیسجد المؤمنون،و بین کل مؤمن منافق فیتعسّر ظهر المنافق عن السجود» (۱)، و بذلک یعرف الناس حقیقته، حیث أنّ الآخره فی حقیقتها انعکاس لأعمال الإنسان فی الدنیا،و بالتالی فإنّ التمایز فی الجزاء هناک هو صوره للتمایز فی الأعمال و الصفات هنا فی الدنیا،و هذا یعمّق المسؤولیه فی النفوس، و یدفعها باتجاه التسلیم لربها و استغلال فرصه الدنیا لمستقبل الآخره.

وَ قَدْ کٰانُوا یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ وَ هُمْ سٰالِمُونَ معنویّا و مادیّا بحیث لم یکن عندهم عذر یبرر عدم تسلیمهم لدعوه اللّه سوی اتخاذهم الهوی إلها من دونه عزّ و جلّ،و لعلنا نستوحی من الآیتین(۴۲-۴۳) فکره هامه تتصل بسلوک الإنسان فی الدنیا،و هی:أنّه حینما لا یستغل نعم اللّه علیه کالصحه و الغنی فإنّها قد تسلب منه فیفوته الانتفاع بها،أو یسلبه اللّه توفیق الطاعه بسبب تمادیه فی المعصیه و الجریمه حتی یصل به الأمر أنّه قد یفکّر فی التوبه و الاستجابه لدعوه ربه و لکنّه لا یوفّق لذلک لأنّه قد طبع علی قلبه.

[۴۴-۴۵]و لأنّ المترفین یعتبرون تتالی النعم علیهم دلیلا علی رضاه تعالی عنهم،فیتمادون فی التکذیب بالرساله و محاربه الرسول اعتمادا علی ذلک،جاءت الآیات تؤکّد بأنّ الحقیقه عکس ذلک تماما لأنّ اللّه یکید لهم عبر خطه حکیمه،

۱- ۱) الدر المنثور ج ۶ عند الآیه.

و أیّ کید أعظم من ذلک الذی یحسبه الإنسان خیرا و هو شر و بیل،و ینطوی علی حرب مباشره بین الخالق العظیم الجبّار شدید العقاب و بین المخلوق الحقیر الضعیف المسکین یمشی إلیها برجله و یقع فی فخاخها بغته؟!! فَذَرْنِی وَ مَنْ یُکَذِّبُ بِهٰذَا الْحَدِیثِ یعنی الرساله التی هی حدیث اللّه إلی الإنسان،و من الرساله حدیث الآخره و العذاب،و ما أخوف هذه الآیه للمکذبین أن یبارزهم ربّ العزه مباشره،و ما أسوء مصیر من لا تبقی بینه و بین ربه رحمه! و ما أرجی هذه الآیه فی نفس الوقت للرسالیین الذین یواجهون تحدیات المترفین فی مسیرتهم الجهادیه،فإنّها تثلج صدورهم و تزرع فیها الاطمئنان و السکینه بأنّهم منتصرون و محمیّون لأنّ اللّه یدافع عنهم،و أنّ اللّه سیدمّر المکذبین بدعوتهم الصادقه و المعارضین لها،إنّ خطه الحرب الإلهیه ضدهم تمرّ خلال کید متین(قوی لا یستطیع أحد تحدّیه و الإنتصار علیه،و محکم لا یجد الطرف الآخر ثغره ینفذ فیها حینما یواجهه)بحیث یدخل هو کعنصر فعّال ضد نفسه دون أن یعلم و من حیث لا یتوقع.

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَعْلَمُونَ فی المنجد:تدرّج إلی کذا تقدم إلیه شیئا فشیئا،و استدرجه صار به من درجه إلی درجه و خدعه (1)،و فی هذه الآیه إشاره واضحه إلی أنّه تعالی یجعلهم یتقدمون للوقوع فی المکیده من خلال نقاط ضعف عندهم،هم قاصرون عن وعیها، بحیث یصیّرها اللّه عاملا یستحثّهم للوقوع فی عذابه.و من أهمّ نقاط ضعفهم ما أترفوا فیه

ص:۲۴۶

۱- ۱) المنجد ماده درج بتصرف.

من الأحوال و الأتباع الذی یزید لهم فیه لیطغوا فی الدنیا و یأتوا یوم القیامه لا خلاق لهم.

وَ أُمْلِی لَهُمْ إِنَّ کَیْدِی مَتِینٌ و کلّما أترفهم اللّه ظنوا ذلک دلیلا علی رضاه عنهم،و أنّ مسیرتهم سلیمه، فیتمادون فی الانحراف و لا یعلمون أنّ الإملاء کید متین ضدهم، فَذَرْهُمْ فِی غَمْرَتِهِمْ حَتّی حِینٍ* أَ یَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِینَ* نُسارِعُ لَهُمْ فِی الْخَیْراتِ بَلْ لا یَشْعُرُونَ (۱)، وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّما نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ (۲)،و الإملاء هو الزیاده فی النعم و الإمهال فی الأخذ،و لماذا یستعجل اللّه و هو لا یفوته أحد و له الأولی و الآخره؟ و فی النصوص تحذیر من حاله الاستدراج الذی یأتی نتیجه لاسترسال الإنسان،

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: «إذا أحدث العبد ذنبا جدّد اللّه له نعمه فیدع الاستغفار فذلک الاستدراج» (۳)و

قال-علیه السلام-: إذا أراد اللّه عزّ و جلّ بعبد خیرا فأذنب ذنبا تبعه بنقمه و یذکّره الاستغفار،و إذا أراد اللّه عزّ و جل بعبد شرّا فأذنب ذنبا تبعه بنعمه لینسیه الاستغفار و یتمادی به،و هو قول اللّه عزّ و جلّ:«سنستدرجهم من حیث لا یعلمون»بالنعم عند المعاصی (۴)، و

فی روایه: «أنّ رجلا من بنی إسرائیل قال:یا ربّ کم أعصیک و أنت لا تعاقبنی؟!فأوحی اللّه إلی نبیّ زمانهم أن قل له:کم من عقوبه لی علیک و أنت لا تشعر،إنّ جمود عینیک و قساوه قلبک استدراج منی و عقوبه لو عقلت»، و فی

۱- ۱) المؤمنون ۵۴-۵۶.

۲- ۲) آل عمران ۱۷۸.

۳- ۳) مجمع البیان ج ۱۰ عند الآیه.

۴- ۴) نور الثقلین ج ۵ ص ۳۹۷.

الکشّاف قال الزمخشری:قیل:«کم من مستدرج بالإحسان إلیه،و کم من مفتون بالثناء علیه،و کم من مغرور بالستر علیه» (۱).

ثانیا:الاعتقاد بأنّ الرساله مغرم.

[۴۶]و ثمّه مرض عضال یستولی علی قلوب المترفین یدعوهم للتکذیب بالرساله و الرسول و کل حرکه إصلاحیه فی المجتمع و هو شعورهم الخاطئ بأنّ الاستجابه لها و اتباع المصلحین مغرم یخالف مصالحهم و من طبیعه رؤوس الأموال و أصحابها الجبن.و لکن هل الرساله جاءت لتأخذ منّا شیئا أم جاءت لتعطینا الکثیر و فی مختلف جوانب الحیاه الفردیه و الاجتماعیه و الحضاریه؟ بلی.قد یتصوّر الإنسان حینما یلاحظ برامج الإنفاق التی تفرضها رساله اللّه و تدعوا القیادات الرسالیه إلیها أنّ الاستجابه لذلک مغرم،و لکنّ البصیره النافذه تناقض ذلک تماما،فإنّ المجتمع حینما تحکمه القوانین الإلهیه سوف ینمو اقتصادیّا و حضاریّا لصالح الناس و حتی لصالح أصحاب الثروه،لما فی الرساله من برامج لتنمیتها و تدویرها.و لیس أدلّ علی ذلک من دراسه تجربه مجتمع الجاهلیه المتخلف فی شبه الجزیره العربیه و مقارنتها بواقع الإسلام حینما آمنوا بمناهجه و کیف تطوّرت حیاتهم،فلما ذا إذن یکذّب المترفون؟! أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ و المغرم فی التجاره الخساره أو ما یعطی من المال علی کره(ه)،و التجاره التی یدل الرسول الناس علیها لا خساره فیها،بل هی مشتمله علی أرباح الدنیا و الآخره، کما أنّه صلی الله علیه و آله لا یسأل أحدا أجرا علی تبلیغ الرساله لأنّه صلی الله علیه و آله (و کذلک کل قیاده رسالیه)إنّما یبلّغ لوجه اللّه لا یرید جزاء و لا شکورا،و لا یطالب بمال و لا منصب،

۱- ۱) المنجد ماده غرم.

إنّما لأجر اللّه عزّ و جلّ الذی وعده و کل مصلح مخلص فقال: وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَیْرَ مَمْنُونٍ کما مرّ فی مطلع السوره.

نعم.إنّ دعوه الرسول صلی الله علیه و آله خالصه من أیّ تطلّع نحو حطام الدنیا،فلا مبرّر یدعو المترفین للتکذیب به أو التشکیک فی سلامه رسالته،و حیث یتثاقلون عن اتباعه فلمرض فی صدورهم.

ثالثا:البطر.

[۴۷]إنّ المترفین ینظرون إلی الحیاه و یقیّمون کلّ شیء فیها من خلال الماده (المال و الثروه)و کأنّها کل شیء،و ما دامت فی أیدیهم فإنّهم لا یحسّون بالحاجه إلی العلم أو القائد العالم الذی یهدیهم إلی الحق،و یرشدهم فی جوانب الحیاه المعنویه،و القرآن ینفی ذلک فیتساءل مستنکرا:

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَیْبُ فَهُمْ یَکْتُبُونَ کلاّ.إنّ علم الغیب یختص باللّه،و إذا أخرجه اللّه فهو إمّا فی رسالاته و إمّا عند رسله الذین یرتضی،لأنّهم وحدهم الذین یتصلون به عبر الوحی.و الذی یرید اتصالا بالغیب فلا طریق له إلیه إلاّ بالتصدیق بالرساله و الرسول وَ ما کانَ اللّهُ لِیُطْلِعَکُمْ عَلَی الْغَیْبِ وَ لکِنَّ اللّهَ یَجْتَبِی مِنْ رُسُلِهِ مَنْ یَشاءُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ (۱)، و المترفون یکذبون بهما فکیف یدّعون علم الغیب؟! إن علم الغیب عند اللّه و هو وحده الذی یستطیع أن یکتبه بالقلم علی لوح الأقدار،لأنّه لا یتبع الظن أو التخمین.أمّا البشر فإنّهم و لو ادّعوا ذلک

۱- ۱) آل عمران ۱۷۹ و لقد جاءت هذه الآیه الکریمه فی سیاق مفصل للترف و المترفین.

(کالمنجّمین و الکهنه)فهم لا یثبتونه بمثل الکتابه باعتباره لا قطع به.و إنّ المترفین لیدّعون علم الغیب حیث یظنّون فی أنفسهم بأنّ أموالهم باقیه و سوف تزداد فی المستقبل،و لا یدرون لعلّها فی علم اللّه تزول،قال تعالی: أَ فَرَأَیْتَ الَّذِی کَفَرَ بِآیاتِنا وَ قالَ لَأُوتَیَنَّ مالاً وَ وَلَداً* أَطَّلَعَ الْغَیْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً* کَلاّ سَنَکْتُبُ ما یَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (۱).

و ما داموا لا یملکون ناصیه العلم فهم بحاجه ماسه إلی مصادره(الرساله)و ما تکذیبهم بهما إلاّ دلیل علی ما هم فیه من العتو و الجحود.

[۴۸-۵۰]و الأسباب الثلاثه التی مرّ ذکرها تجعل الحرکه التغییریه فی أوساط المترفین تواجه تحدّیات صعبه من شأنها أن توحی للبعض بأنّ التغییر مستحیل البته،و فی ذلک خطران علی المصلحین:

الأول:خطر التراجع عن المسیره،کنتیجه طبیعیه للیأس من الوصول إلی الأهداف المنشوده من الحرکه التغییریه،أولا أقل التنازل عن بعض القیم و التطلعات،و الاستسلام للتحدیات المضاده،و من ثمّ المداهنه فیها،و إلی ذلک أشار اللّه فی قوله: فَلَعَلَّکَ تارِکٌ بَعْضَ ما یُوحی إِلَیْکَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ یَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَکٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِیرٌ وَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۲).

الثانی:خطر الیأس من الناس،ممّا یؤدی إلی اعتزالهم و الانطواء علی الذات،و من ثمّ إصدار حکم الکفر علیهم ممّا یفقد المصلحین الفاعلیه التغییریه.

و هکذا یحتاج الرسالیّون إلی مزید من الصبر فی مواجهه تکذیب المترفین.الصبر

۱- ۱) مریم ۷۷/۷۹.

۲- ۲) هود ۱۲.

کصفه نفسیه تعطیهم روح الاستمرار و الاستقامه علی طریق الرساله.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أی أنّ ذلک لیس أمرا شاذا،بل هو من القوانین و السنن الطبیعیه التی حکم اللّه بها أن تکون فی المجتمعات،و معرفه هذه الحقیقه من شأنه أن ینفخ روح الصبر و الاستقامه فی نفوس المصلحین فلا یستعجلون النتائج أو یکفّرون المجتمع،و لا حتی یکونون کیونس بن متی-علیه السلام-الّذی زرعت تحدیات قومه فی نفسه الغیظ و الغضب لرساله ربه فدعا علیهم بالهلاک.

وَ لاٰ تَكُنْ كَصٰاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نٰادىٰ وَ هُوَ مَكْظُومٌ

قال الإمام الباقر-علیه السلام- «أی مغموم» (1)، و فی تضاعیف الآیتین (48-49)تحذیر للمؤمنین من أنّ عدم الصبر لحکم اللّه لیس لا یخدم الرساله فقط،بل و یضرّ بهم أنفسهم،کما أضرّ بیونس-علیه السلام-.

لَوْ لاٰ أَنْ تَدٰارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ فسبّحه و اعترف أنّ النقص کان فیه إذ تعجّل بالدعاء علی قومه،و لم یصبر لحکم ربه فظلم نفسه،و لیس فی تدبیر اللّه و لا فی حکمه.

لَنُبِذَ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ من قبل ربه أو عند قومه و عبر التاریخ بسبب موقفه،و نبذ اللّه له بالعراء یدل علی عدم رضاه عنه،و لکنّه تعالی تدارکه بنعمه منه معنویه حیث تاب إلیه،و مادیه حیث أخرجه من بطن الحوت و أنبت علیه شجره من یقطین تظلّه عن ذلک العراء.

1- 1) نور الثقلین ج 5 ص 399.

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ و الاجتباء هو الإختيار و الاصطفاء،و قد بيّن اللّه ذلك حتى لا تصير قصه يونس -عليه السلام- مع قومه سببا للطعن فيه،و النيل من شخصيته.و الآيه تهدينا إلى أنّ الإنسان بعد الخطيئه و التوبه يمكن أن يسمو بنفسه إلى مقام يجتبيه ربه، فيصيّره فى عداد أئمه الصلاح و التقوى،كما تهدينا عموم قصه يونس إلى أنّ اللّه يمتحن الرساليين بعناد أقوامهم ليرى هل يصبروا لحكمه أم لا.

و هذا جانب من القصه نقلها العيّاشى فى تفسيره بالتفصيل:

عن الإمام الباقر -عليه السلام-قال: «كتب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب-عليه السلام-قال:حدّثنى رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-أنّ جبرئيل حدّثه أنّ يونس بن متى بعثه اللّه إلى قومه و هو ابن ثلاثين سنه،و كان رجلا تعتريه الحدّه،و كان قليل الصبر على قومه و المداراه لهم،و أنّه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان باللّه و التصديق به و اتباعه ثلاثا و ثلاثين سنه،فلم يؤمن به و لم يتبعه من قومه إلاّ رجلان:اسم أحدهما روبيل و الآخر تنوخا،و كان روبيل من أهل بيت العلم و النبوّه و الحكمه،و كان قديم الصحبه ليونس بن متى من قبل أن يبعثه اللّه بالنبوه،و كان تنوخا رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا فى العباده و ليس له علم و لا حكم،و كان روبيل صاحب غنم يرعاها و يتقوّت منها،و كان تنوخا رجلا حطّابا يحتطب على رأسه و يأكل من كسبه،و كان لروبيل منزله من يونس غير منزله تنوخا لعلم روبيل و حكمته و قديم صحبته،فلمّا رأى أنّ قومه لا يجيبونه و لا يؤمنون ضجر،و عرف من نفسه قلّه الصبر،فشكا ذلك إلى ربه،و كان فيما شكا أن قال:يا ربّ إنّك بعثتنى إلى قومى ولى ثلاثون سنه فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك و التصديق برسالتى و أخوّفهم عذابك و نقمتك ثلاثا و ثلاثين سنه فكذّبونى،و لم يؤمنوا بى و جحدوا نبوتى و استخفّوا برسالتى،و قد توعّدونى

ص:۲۵۲

و خفت أن يقتلونی،فأنزل علیهم عـذابک فإنّهم قوم لا یؤمنون،فأوحی اللّه إلی یونس:إنّ فیهم الحمّل و الجنین و الطفل و الشیخ الکبیر و المرأه الضـعیفه و المستضـعف المهین و أنـا الحکم العـدل،سـبقت رحمتی غضبی،لا أعـذّب الصـغار بـذنوب الکبار من قومـک،و هم یا یونس عبادی و خلقی و بریّتی فی بلادی و فی عیلتی،أحبّ أن أتأنّاهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم،و إنّما بعثتک إلی قومـک لتکون حیطـا علیهم،تعطف علیهم سـخاء الرحمه المـاسّه منهم،و تتأنّـاهم برأفه النبوّه،فـاصبر معهم بأحلاـم الرسـاله،و تکـون لهـم کهیئـه الطـبیب المـداوی العـالم بمـداواه الـدواء،فخرجت بهم و لم تسـتعمل قلـوبهم بـالرفق،و لم تمسسـهم بسیاسـه المرسلین،ثم سألتنی مع سوء نظرک العذاب لهم عند قله الصبر منک،و عبدی نوح کان أصبر منک علی قومه،و أحسن صحبه،و أشد تأنّیا فی الصبر عندی،و أبلغ فی العذر،فغضبت له حین غضب لی،و أجبته حین دعانی،فقال یونس:یا ربّ إنّما غضبت علیهم فیـک،و إنّمـا دعوت علیهم حین عصوک،فوعزّتـک لاـ أنعطف علیهم برأفه أبـدا،و لا أنظر إلیهم بنصـیحه شـفیق بعـد کفرهم و تکـذیبهم إیّای،و جحـدهم نبوّتی،فـأنزل علیهم عـذابک فإنّهم لا یؤمنون أبـدا،فقال اللّه:یا یونس إنّهم مائه ألف أو یزیـدون من خلقی،یعمرون بلادی،و یلدون عبادی،و محبتی أن أتأنّاهم للذی سـبق من علمی فیهم و فیک،و تقدیری و تدبیری غیر علمک و تقـدیرک،و أنت المرسل و أنا الربّ الحکیم،و علمی فیهم یا یونس باطن فی الغیب عنـدی لا تعلم ما منتهاه،و علمک فیهم ظاهر لا باطن له،یا یونس قد أجبتک إلی ما سألت،أنزل العذاب علیهم،و ما ذلک یا یونس بأوفر لحظّک عندی،و لا أحمد لشأنک، و سیأتیهم العـذاب فی شوّال فی یوم الأربعاء وسط الشـهر بعـد طلوع الشـمس، فأعلمهم ذلک،فسرّ یونس و لم یسؤه و لم یـدر ما عاقبته» (۱).

[۵۱-۵۲]و بعد أن یأمر اللّه نبیّه(و عبره کلّ داعیه رسالی)بالصبر لحکم

۱- ۱) تفسیر العیاشی ج ۲ ص(۱۲۹/۱۳۰).

اللّه،مشيرا إلى قصه صاحب الحوت النبى يونس و تجربته مع قومه،و محذّرا له من الوقوف كموقفه فى هذا الجانب،يوصل الكلام بذلك الأمر،مؤكدا على الصبر فى طريق الرساله،مهما كانت التحديات المضاده و الضغوط مدعاه للتخلّى عن الرساله أو ردّات الفعل العشواء ضد المكذبين و الكافرين.

وَ إِنْ يَكٰادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصٰارِهِمْ لَمّٰا سَمِعُوا الذِّكْرَ أى اصبر لحكم ربك بالرغم من ذلك،و الزلق من الانحراف،قال صاحب المنجد:أزلقه:أزلّه و أبعده عن مكانه و نحّاه،و زلقت القدم:لم تثبت،و الفرس:

أجهضت و ألقت ولدها قبل تمامه،و الأرض الزلقه:الملساء التى لا شىء فيها (١)، و لا تثبت عليها قدم..فيزلقوك إذن بمعنى يزلّون قدمك عن مسيره الحق،سواء بالمداهنه التى يودّها المكذّبون أو بالمواجهه و التحدى.

و لقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ معنى الإزلاق بالإبصار هو الحسد الّذى يؤثّر فى الإنسان بصوره غيبيه،و نقلوا عن الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-:

«إنّ العين تدخل الرجل إلى القبر،و الجمل إلى القدر »و

قوله يعوّذ الحسنين:«أعيذ كما بكلمات اللّه التامه،و أسمائه الحسنى كلّها عامه،من شرّ السامّه و الهامّه،و من شرّ كلّ عين لامّه،و من شرّ حاسد إذا حسد» (٢)، و قد يكتشف البشر أسرار ظاهره الحسد إذا تقدموا فى العلم و دراسه الحالات النفسيه،و لكنّ الأقرب من هذا المعنى أنّها كنايه عن المواقف الحاقده التى تعبّر عنها نظراتهم الحاده كالسهم النافذ و كحدّ الحسام المرهف.و نحن من هذه الظاهره البصريّه يجب أن ننطلق لمعرفه ما وراءها و ما تعبّر عنه من الضغوط،و المواقف النفسيه و الاجتماعيه و السياسيه للكفّار ضد

١- ١) المنجد ماده زلق.

٢- ٢) نور الثقلين ج ۵ ص ۴٠٠.

كلّ قياده رساليه تنشد التغيير،و بالذات إعلامهم الموبوء بمختلف الدعايات و التهم الباطله.

وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ و قولهم هذا يعبّر عن ذلك الفيض الّذى امتلأ به قلوبهم و الموقف الّذى أظهرته أبصارهم،و هكذا كلمات القرآن يفسّر بعضها بعضا،فقوله سبحانه لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ يفسّر قوله سبحانه: وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ،فعبر أبصارهم الحاده و كلماتهم النابيه يريدون ابعادك عن الصراط المستقيم.

و اليوم و مع تطور الوسائل الإعلاميه ينبغى أن يتوقّع كلّ مصلح رسالى أن يواجه المزيد من الضغوط فى مسيرته،و بالتالى عليه أن يصبر فى نفسه،و يستقيم فى حركته و عمله لوجه اللّه و تسليما بقضائه و حكمه،فأنّى كانت الضغوط و التهم لا يمكنها أن تغير من الواقع شيئا،فهل يصبح العاقل مجنونا و الذكر أساطير الأولين بمجرد أن يقول الكافرون ذلك؟كلاّ..لأنّ الحقائق لا تتغيّر بقول المكذبين المنكرين،و إنّ الدارس للقرآن لا يمكنه إلاّ التسليم بأنّه رساله من اللّه إلى الناس.

وَ ما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ و الذكر فى مقابل الغفله و النسيان،و قد سمّى القرآن بذلك لأنّه يذكّر البشر بربّهم و بالحق فى جوانب الحياه المختلفه،بل و يكشف لهم من أسرار الوجود و قوانينه،و يذكّرهم بعقولهم التى تستثيرها آياته،فهو الّذى يحافظ على مسيره الإنسان مستقيمه على الفطره و الحق و نحو الهدف السليم دون غفله أو انحراف، إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ* لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (1).

١- ١) التكوير ٢٨/٢٧.

و حينما يكون القرآن ذكرا للعالمين(و ليس لقوم النبى وحده)يتبيّن أنّه يتجاوز البيئه الجاهليه الضيّقه و الموبوءه بتلك الدعايات التافهه،و يتسامى فوق تلك الحواجز التى وضعها الجاهليّون حول أنفسهم،و مجرّد هذا التجاوز يدل على أنّ القرآن ليس وليد تلك البيئه،و أنّ النبى ليس مجرّد حكيم عظيم أفرزه ذلك المحيط، بل هو رسول اللّه ربّ العالمين.ترى كم هى المسافه شاسعه بين قولهم أنّه مجنون و بين الحقيقه؟

ص:۲۵۶

سوره الحاقه

اشاره

ص:۲۵۷

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبی عبد اللّه علیه السلام قال: «أکثر من قراءه«الحاقه»فإن قراءتها فی الفرائض و النوافل من الایمان باللّه و رسوله،لأنها إنّما نزلت فی أمیر المؤمنین -علیه السلام-و معاویه،و لم یسلب قارئها دینه حتی یلقی اللّه عزّ و جل» تفسیر نور الثقلین-ج ۵ ص ۴۰۱ و

فی مجمع البیان،بإسناده عن جابر الجعفی،عن أبی عبد اللّه علیه السلام قال:

«أکثروا من قراءه الحاقّه فی الفرائض و النوافل،فإنّ قراءتها فی الفرائض و النوافل من الإیمان باللّه و رسوله،و لم یسلب قارئها دینه حتی یلقی اللّه» مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۴۲

ص:۲۵۹

الإطار العام

ثلاث آيات غرر فی هذه السوره ترسم معالمها،و تحدّد-فيما يبدو لی- إطارها:فاتحتها:«الحاقه»،و عند الخاتمه:« وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ »،و أوسطها «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ »،و حين ينفتح القلب على أشعه السوره يلامس الحقيقه -كلّ حقيقه و كلّ الحقيقه-بلا حجاب،و كذلك سور القرآن جميعا هی الجسر بين الإنسان و الحقيقه،يتجاوز المتدبرون فيها كلّ الحواجز،و لكن كل سوره تسقط عنّا حاجزا.

و سوره الحاقه-كما آيات أخرى مبثوثه فی كتاب ربنا العزيز-تسقط حاجز التهاون،ذلك أنّ الإنسان بطبعه يعيش الغفله عن الحق،و التهاون فيه، و عدم الجدّيّه فی التعامل معه،و اتخاذ أمره بسذاجه بل و بسفاهه.كلّا..إنّه حق و للحقّ ثقله،و للحق اقتداره،و للحق حقيقته و طاقته التی تثبته و تجعل مخالفيه فی حرج عظيم.ألم تسمع بقصه عاد و ثمود و فرعون و قوم نوح

و المؤتفكات ماذا حدث بهم حينما اتخذوا موقف اللاهی عن الحق فصارعوه كيف نزلت بهم القوارع فتركتهم صرعی؟! أو تدری ما الحكمه فی ذلك العذاب العريض؟لكی يذكّرنا(فلا نبقی سادرين فی غياهب الغفله)و لكی تعيه أذن واعيه..

و تتجلّی الحقيقه بكلّ جلالها و عظمتها فی يوم القيامه،و حين نتصور أهوالها نزداد وعيا بها فی الدنيا أيضا.

و أصعب المواقف و أشدها جديه و هولا عند استلام الكتاب المصيری،فمن أوتی كتابه بيمينه فطوبی له،و من أوتی بشماله فيقول من فرط حسرته:يا ليتنی لم أوت كتابيه،و يقول:يا ليتها كانت القاضيه.

إنّها عاقبه المتهاونين الذين لم يكونوا جدّيّين فی وعی الحقيقه،و فی الإيمان باللّه و الحض علی طعام المساكين.

و يقسم القرآن بكلّ حقيقه نبصرها و كلّ حقيقه قائمه و لكن لا نبصرها بأنّ القرآن حق،و هو قول رسول كريم.

و إنّه بالتالی ليس خيالات باطله و لا ظنون كاهن.

و تتجلّی حقّانيه الرساله فی شدّه اللّه الجبّار مع من يخالفها،بل و مع المرسل بها لو افترض التقوّل عليه ببعض الأقاويل،فإنّه ليأخذ منه باليمين ثم ليقطع منه الوتين.

و يبدو أنّ من يتهاون فی شأن الحق أو يكذّب به أولا يعيه أولا يوقن به حقّ اليقين..يبدو أنّه لم يعرف ربه الّذی يضمن الحق و يجريه بقوّته الشديده و قدرته

الواسعه،لـذلک فنحن بحـاجه إلی تقـدیس اللّه و تنزیهه حـتی نقترب من معرفته و معرفه الحقّ به،و لعله لـذلک اختتمت السوره المبارکه بقوله سبحانه: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ .

ص:۲۶۲

[سوره الحاقه (۶۹): الآيات ۱ الى ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . اَلْحَاقَّةُ (۱) مَا اَلْحَاقَّةُ (۲) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مَا اَلْحَاقَّةُ (۳) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عٰادٌ بِالْقٰارِعَةِ (۴) فَأَمّٰا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطّٰاغِيَةِ (۵) وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِيَةٍ (۶) سَخَّرَهٰا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيٰالٍ وَ ثَمٰانِيَةَ أَيّٰامٍ حُسُوماً فَتَرَى اَلْقَوْمَ فِيهٰا صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِيَةٍ (۷) فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِيَةٍ (۸) وَ جٰاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ اَلْمُؤْتَفِكٰاتُ بِالْخٰاطِئَةِ (۹) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رٰابِيَةً (۱۰) إِنّٰا لَمّٰا طَغَى اَلْمٰاءُ حَمَلْنٰاكُمْ فِي اَلْجٰارِيَةِ (۱۱) لِنَجْعَلَهٰا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَهٰا أُذُنٌ وٰاعِيَةٌ (۱۲) فَإِذٰا نُفِخَ فِي اَلصُّورِ نَفْخَةٌ وٰاحِدَةٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ اَلْأَرْضُ وَ اَلْجِبٰالُ فَدُكَّتٰا دَكَّةً وٰاحِدَةً (۱۴) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ اَلْوٰاقِعَةُ (۱۵) وَ اِنْشَقَّتِ اَلسَّمٰاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وٰاهِيَةٌ (۱۶) وَ اَلْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجٰائِهٰا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمٰانِيَةٌ (۱۷) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاٰ تَخْفىٰ مِنْكُمْ خٰافِيَةٌ (۱۸)

اللغه

۶[صرصر]:أى ذات صوت،و بارده،لفظه من الصّرّ أى الشدّ،فالصرصر يرجع إلى الشدّ لما فى البروده من التعقّد،و قال البعض فى الريح الصرصر:كأنّه تصطكّ الأسنان بما يسمع من صوتها لشدّه بردها.

۹[و المؤتفكات]:المنقلبات بأهلها،جاء فی مفردات الراغب:

الإفک کلّ مصروف عن وجهه الّذی یحقّ أن یکون علیه،و قیل للریاح العادله عن المهابّ مؤتفکه.

۱۰[رابیه]:زائده فی الشدّه،و قیل:زائده علی عذاب الأمم.

۱۶[واهیه]:شدیده الضعف،و قال الراغب فی مفرداته:کلّ شیء استرخی رباطه فقد و هی،و قیل:إنّ السماء تنشقّ بعد صلابتها فتصیر بمنزله الصوف فی الوهی و الضعف.

و تعیها أذن واعیه

هدی من الآیات:

الحق و الجزاء تومأن لا ینفصل أحدهما عن الآخر،فإنّما تحکم الحیاه مجموعه من القوانین و السنن التی وضعها و أجراها اللّه فیها فهی مخلوقه بالحق،و لأنّها کذلک فإنّ الجزاء واقع لأنّه حق،و إیمان الإنسان بالحق مرهون بمدی إیمانه بالحساب و الجزاء،إذ لا تعنی الدعوه للإیمان به شیئا و لا تعکس استجابه فی النفس لو لا ذلک، و هکذا جاء التعبیر القرآنی عن کفر ثمود و عاد ببیان کفرهم بالجزاء(القارعه)مع أنّهم کذّبوا أیضا بالرسل،لأنّ الکفر بالجزاء یساوی الکفر بالحق.

و فی هذا المحور تنتظم آیات الفصل الأول من سوره الحاقه فی سیاق التأکید علی حقیقه الجزاء فی الحیاه،کقضیه تشریعیه و تکوینیه،تتصل بالحق اتصالا متینا، ففی مطلعها و حتی الآیه الثانیه عشره یبیّن لنا صورا من الجزاء الّذی حلّ بالأقوام السالفه نتیجه تکذیبهم بالحق و اتباعهم الباطل،کدلالات واقعیه علی هذه السنّه الإلهیه،و کآیات هادیه إلی الجزاء الأکبر فی الآخره.

و لكن تبقى(الواقعه)أجلى آيات الجزاء و الحق معا بالنسبه للإنسان،حيث ينفخ فى الصور،و تحدث التحولات الكونيه الهائله و المفزعه،و تتجلّى الملائكه المقرّبون يحملون عرش اللّه،و يعرض يومئذ الناس بكيانهم و أعمالهم لا تخفى منهم خافيه،و لعله لذلك جاءت تسميه القيامه فى هذه السوره بالحاقه..باعتبارها ذات وجهين:يتصل الأول بالجزاء التى هى عرصته و أعظم آياته،و يتصل الثانى بالحق،إذ هى جزء لا ينفك من أعظم حقائق الوجود،و لقد سمّاها ربنا فى نهايه الدرس بالواقعه للمبالغه فى التأكيد على أنّها حقيقه واقعيه لا بد أن تقع،و من ثم فإنّ التكذيب بها لا ينفيها و لا يمنع وقوعها أو حتى يغيّر أجلها.

و تبقى الآيه لِنَجْعَلَهٰا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَهٰا أُذُنٌ وٰاعِيَةٌ محورا فى هذا السياق بل فى سياق السوره كلها،إذ لا تدرك غور الآيات بما تتضمنه الحقائق إلاّ تلك القلوب الزاكيه التى صيّرها الإيمان و العلم أذنا لوحى اللّه و آياته.

بينات من الآيات:

[۳-۱]إنّ الايمان بالآخره-و كما أكّدنا مرارا-حجر الأساس فى الإيمان بسائر القيم و المبادئ،و لذلك لا تكاد تخلو سوره قرآنيه من التأكيد عليها،بل و إنّ الحديث بشأنها ترهيبا و ترغيبا أصبح السمه الأساسيه للجزئين الأخيرين(تبارك و عمّ) المكيين فى الأغلب عدا سوره(الإنسان الزلزله و النصر)،و إذ يوليها الربّ هذا الاهتمام فلعلمه بموقعها فى بناء شخصيه الإنسان.

و الّذى يتتبع حديث القرآن عن الآخره يجد أنه عبّر عنها بعده أسماء تختلف فى ظاهرها و بعض مضامينها،كأن يكون كلّ اسم يعبّر عن جانب أو مرحله زمنيه منها،إلاّ أنّ هدفها واحد لا يتجزأ،و هو زرع الإيمان بالآخره و تعميقه فى النفوس لتتبصر من خلالها بسائر الحقائق.و هنا تطالعنا أولى الآيات باسم من أسماء القيامه

و عبر بلاغه فائقه،تهتز لها القلوب،و تقشعرّ منها جلود المؤمنين.

[الحاقّه] و للمفسرين أقوال كثيره فى معنى هذه الكلمه،و لماذا سميت القيامه بها؟ و أبرزها التفسيرات التاليه أولا:اللازمه الواجبه الوقوع،قال تعالى: وَ لٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ (۱)أی وقع فأوجبته،و قال: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَهُ الْعَذٰابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِی النّٰارِ (۲)أی وجب و لزم،ثانیا:المحیطه،جاء فی المنجد:حاق بهم العذاب:نزل و أحاط،و الحیق:ما یشتمل علی الإنسان و یلزمه من مکروه فعله،قال تعالی وَ لاٰ یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ (۳)أی لا یقع و یحیط إلاّ بهم،و قال: أَلاٰ یَوْمَ یَأْتِیهِمْ لَیْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۴)یعنی وقع و أحاط.

و الّذی یبدو لی من معنی الکلمه بالإضافه إلی ما تقدم:أنّها الحق الّذی یقع فیکشف عن الحقائق و یظهرها،کما قال اللّه: وَ یُرِیدُ اللّٰهُ أَنْ یُحِقَّ الْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ (۵)یعنی یثبته و یظهره و یجعل الغلبه له علی الباطل.و نحن إذا عرفنا بأنّ أکثر الناس محجوبون بألوان الأغطیه عن معاینه الحق فسنهتدی بسهوله إلی معنی «الحاقّه»إذ هی التی تکشف عن الإنسان غطاءه،و تجعل بصره حدیدا یری الحقائق،حقیقه ما جاءت به الأنبیاء و الکتب الإلهیه،و حقیقه نفسه و أعماله، هل هو من أصحاب الحق«الیمین»أم من أصحاب الباطل«الشمال»؟و حقیقه

۱- ۱) السجده۱۳/

۲- ۲) الزمر۱۹/

۳- ۳) فاطر۴۳/

۴- ۴) هود۸/

۵- ۵) الأنفال۷/

مصيره..و القيامه ليست تجعل الحق حقّا فهى المحقّه،لأنّ الحق و الباطل شيئان واقعيان لا تصنعهما الأحداث،إنّما دورها الكشف عنه،و سوق النفوس إلى التسليم له،حيث تنسف بأحداثها المريعه كل الحجب عن قلبه و عينه ليرى الحق، كما قلنا فى معنى يوم التغابن،فإنّه ليس بيوم يتغابن فيه الناس،و إنّما يكشف عنه،و يؤكد ربّنا عظمه القيامه و هذه الصفه منها إذ يقول:

مَا الْحَاقَّةُ إنّها أمر عظيم ماديّا،حيث الوقائع الكونيه المهوله،و معنويا بآثارها فى النفوس-كل النفوس -و كيف لا ترهب الإنسان الضعيف تلك الأحداث الفظيعه التى أشفقت منها السموات و الأرض،و كيف لا يخشى و هو يلاقى ربه، و يرى عمله،و يمضى إلى مصيره الأبدى؟! إنّ الحاقه ليست كلمه تقال،فهذه الحروف عنوان لأمر عظيم،تزلزل به الأرض،و تمور السماء،و تسجّر البحار،و تتلاشى الجبال،و تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللّهِ شَدِيدٌ .و تساؤل القرآن ب«ما»يأتى فى سياق التعظيم و التذكير و التحذير و الإلفات،و لا يقف عند ذلك بل يضيف:

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ و هذه الآيه تفيد التعظيم،كما تبيّن أنّ أحدا لا يدرك حقيقه القيامه،و قد يعلم بعض المجملات عنها:بأنّها حق،و أنّ من أحداثها زلزله الأرض،و حشر الناس، و دكّ الجبال،و لكنّه لا يعلم ميقاتها،كما لا يملك أدوات يتمكّن بها وعى أحداثها العظيمه.

ص:۲۶۸

[۸-۴]إذن فكيف نؤمن بالحاقه؟ إنّنا لسنا مطالبين بمعرفه دقائق القيامه و تفصيلات وقائعها،فإذا عجزنا عن ذلك كفرنا بها.كلاّ..إنّما يكفى لكى يأخذ الإيمان بها دوره فى حياتنا أن نسلّم بأصل وجودها،و كونها حقّا لازما مفروضا من قبل اللّه عزّ و جلّ..و انّ نظره معتبره إلى التاريخ تهدينا إلى ذلك،حيث أنّ كلّ ما حلّ بالأقوام الأولين صوره مصغّره عن سنّه الجزاء التى تتجلّى بكامل حجمها و معناها يوم القيامه،و الدراسه الموضوعيه لحضاراتهم و بالذات عند منعطف النهايه و الدمار تكشف بوضوح أنّ حركه التاريخ ليست عفويه تدور فى الفراغ،بل هى محكومه بقوانين و سنن و من أبرزها-على صعيد الأمم-سنّه الجزاء و يضرب القرآن أمثله على ذلك رابطا بين دمار الأقوام بالعذاب و تكذيبهم بالحق.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عٰادٌ بِالْقٰارِعَةِ و ثمود قوم صالح عليه السلام بينما عاد قوم هود عليه السلام ،و القارعه التى تقرع الناس، و أساس القرع فى اللغه هو الضرب،يقال:قرعت الباب إذا دقّت و ضربها ضارب،و قرعته بالعصا:أى ضربته،و سواء كانت القارعه هى الواقعه التى قرعت حياتهم فى الدنيا،أو الآخره التى سوف تقرع الدنيا عند الساعه،فأصلها واحد و هو الجزاء،و حيث ندرس حياه عاد و ثمود نجد أنّهما كذّبوا ليس بالجزاء و حسب،بل كذّبوا بالرسل و الرسالات و سائر آيات اللّه،و لكنّهم فى الحقيقه إنّما انطلقوا إلى كلّ ذلك التكذيب العريض و الشامل من خلال التكذيب بالجزاء و بالذات الآخره،الأمر الذى دعاهم بالإضافه إلى التكذيب بالحقائق الأخرى إلى الطغيان فى الانحراف،و ممارسه الذنوب،و هذه نتيجه طبيعيه للتكذيب بالجزاء أن يتحلّل البشر من قيود المسؤوليه و حدودها.

و لكن هل بقيت ثمود و عاد على التكذيب بلا رادع؟كلا..

فَأَمّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطّاغِيَهِ و فى الطاغيه قولان قريبان من المعنى:

الأول:أنّها الصيحه التى أرسلها اللّه عليهم،فجعلتهم غثاء خامدين،و سوّى بها بيوتهم،و سمّيت بالطاغيه مبالغه فى وصف عظمتها، و إشاره إلى أنّها جاءت خارج السياق المعتاد للظواهر،و زائده عن حدّ القوانين الطبيعيه،فإنّا نقول:طغى الماء:إذا تجاوز الحد،و فاض به النهر.

الثانى:و لعلّها اسم لحاله الطغيان،قال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها* إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها* فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّهِ ناقَهَ اللّهِ وَ سُقْياها* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّاها* وَ لا يَخافُ عُقْباها (1)،و الذى يبدو أنّ الكلمه تعبّر عن المعنيين فى آن واحد،و نهتدى منها أنّ الجزاء الإلهى حكيم للغايه،فهو من جنس العمل و بحجمه.

وَ أَمّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَهٍ أى ريح بارده و ذات صوت،جاء فى المنجد:الصرصر من الرياح:الشديده الهبوب أو البرد،و صرصر الرجل:صاح شديدا،و سمّى الصرصور بذلك لأنّه يصيح صياحا رقيقا فى الليل (2).

و أمّا العاتيه ففيها أقوال:أحدها أنّها التى خرجت عن أمر الملائكه الموكّلين

1- 1) الضحى 11/15/.

2- 2) المنجد ماده صر.

بالریح(الخزنه)بأن أوحی اللّه لها مباشره أن تهلکهم بلا واسطه،و الآخر:أنّها التی لا قبل لأحد بمواجهتها و مقاومتها،فهی تعتو علی کلّ أحد و کلّ وسیله،قال الزمخشری:شدیده العصف و العتو،أو عتت علی عاد فما قدروا علی ردّها بحیله، من استتار ببناء،أو التجاء بجبل،أو اختفاء فی حفره (1).و المعنی الأصیل:

أنّها التی بلغت من الشده ما تجاوزت به القوانین و المقاییس الطبیعیه،و بکیفیه لا یمکن البشر تصورها،لأنّ أصل العتو هو الخروج عن الحد،قال تعالی: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ (2)،و قال: فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَهُ (3)،و إنّما جعل اللّه الریح عاتیه علی عاد لکی یعکس عتوّهم عن أمره عزّ و جل،فإنّه لو أراد أحد تصوّره فی عالم التکوین فسیجده تماما کالریح الصرصر حینما تتجاوز الحد المتعارف،بل هی أعظم من ذلک لأنّ ریاح الشهوات العاتیه فی الحقیقه هی التی دمّرتهم،و لم تکن الریح الظاهره إلاّ تجسیدا و عاقبه لها.

سَخَّرَها عَلَیْهِمْ سَبْعَ لَیالٍ وَ ثَمانِیَهَ أَیّامٍ حُسُوماً فهی لم تأتهم صدفه بسبب نحس أو تغیّر کونی خارج عن الحساب و السنن، إنّما جاءت الریح بإراده إلهیه سخّرتها،و کذلک ینظر المؤمنون إلی الأحداث و یحلّلونها،أمّا غیرهم فإنّهم لا تفیدهم عبره،لأنّهم یفسرونها بالصدفه أو بتغیّرات مبتوره تعکس جهلهم أو تجاهلهم،و لا یفکّرون بعقولهم التی لو استثاروها لهدتهم إلی ید التدبیر التی تهیمن علی الخلیقه! قال الفخر الرازی:و ذلک لأنّ من الناس من قال:إنّ تلک الریاح إنّما اشتدت لأنّ اتصالا فلکیا نجومیّا اقتضی ذلک،فقوله:«سخّرها»فیه إشاره إلی

1- 1) الکشّاف/ج 4 ص 599

2- 2) الطلاق8/

3- 3) الذاریات44/

نفی ذلک المـذهب،و بیان أنّ ذلک إنّما حصل بتقـدیر اللّه و قـدرته،فإنّه لو لا هـذه الـدقیقه لما حصل التخویف و التحـذیر عن العقاب (۱)،و الکلمه نفسـها تنفی الوهم بأن العاتیه هی التی خرجت عن التقـدیر و التدبیر،کذلک تجاوز الخطر عن النبی هود و الذین آمنوا معه(حیث کانت تمرّ علیهم کالنسیم)دلیل علی أنّها کانت مسخّره مدبّره.

و نتساءل:لماذا لم یجعل اللّه الریـح لحظه واحـده و هو قادر علی إهلاکهم بها؟ ربما صـیّرها اللّه سبع لیال و ثمانیه أیام(قالوا:من صبـاح الأربعاء إلی مساء مثله من قابل) (۲)لأنّه أبلغ أثرا فی نفوس المعـذّبین حیث المـده أطول،کما أنّه أفضل موعظه فی قلوب المؤمنین و المعاصـرین لهم،و أشـد تحذیرا للاّحقین،و لعل فی ذلک إشاره عبر التاریخ إلی مدی تحصّـنهم و أسـباب البقاء التی کـانت فی حضارتهم،قال الطبرسـی فی مجمع البیان:الحسوم:المتوالیه،مأخوذه من حسم الـداء بمتابعه الکی علیه،فکأنّه تتابع الشـر علیهم حتی استأصـلهم،و قیـل:هو من القطع،فکأنّهـا حسـمتهم حسومـا،أی أذهبتهم و أفنتهم،و قطعت دابرهم (۳)،و سمّی السیف حاسما لأنه یحسم الأمر و یقطعه(و یقطع المضروب به) (۴).

فَتَرَی الْقَوْمَ فِیهٰا صَرْعیٰ کَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِیَهٍ أی فی تلک الأیام و اللیالی،أو فی قراهم،و حیث وقعوا صـرعی فهم أشـبه ما یکون بجذوع النخل المنتشره علی الأرض و الخالیه بالنخر من داخلها فهی لا تنفع

ص:۲۷۲

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ ص ۱۰۴.

۲- ۲) کذلک فی النصوص.

۳- ۳) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۴۴

۴- ۴) التحقیق فی کلمات القرآن/ماده حسم.

لبناء و لا لغيره (۱) و المنظر صوره

للحديث الشريف: «من أبدى صفحته للحق هلك» (۲)، و الآخر

«من صارع الحقّ صرع» (۳)، و إنّها لعاقبه كل من يكذّب بالحق و يتنكّب عن طريقه.

و اللطيف فى تعبير القرآن مخاطبته المباشره«فترى»للرسول صلى الله عليه و آله و من خلاله كل تال للآيات،و ذلك أنّ اللّه لا يريد من نقل القصص مجرد المعرفه أو التسليه، بل يريد من سامعها الاتعاظ و الإعتبار،و الذى يتم بتخيّل القصص و مشاهدها و الحضور فى أحداثها و خلفيّاتها،و بعباره أخرى:أن يكون نفسه شاهدا عليها، و لا شك أنّ القلب و العقل أعظم شهاده و حضورا،و الإنسان قادر على الحضور بهما، و رؤيه حتى الماضى و المستقبل،فالخطاب هنا موجّه للأذن الواعيه،ثم يؤكّد ربنا بالتساؤل:أن قوم عاد أهلكوا جميعا،فلم يبق منهم أحد.

فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِيَةٍ قيل:لم يبق لهم أثر من نفس و غيرها،و قيل:بل المعنى لا ترى من نفس باقيه فقط (۴)و هكذا حصروا الهلاك فى النفوس لقوله تعالى عن قوم عاد:

فَأَصْبَحُوا لاٰ يُرىٰ إِلاّٰ مَسٰاكِنُهُمْ (۵)،و هذا هو الأقرب.

إذن فتكذيبهم بالقارعه لم يغيّر من الحقائق الواقعيه شيئا،بل قرعتهم فى الدنيا قبل الآخره،و نحن الذين نقف على أخبار الأقدمين يجب أن نتخذها حاقّه تكشف لنا عن سنّه الجزاء،و من ثم حقيقه الساعه و القيامه و البعث(الآخره).

۱- ۱) مرّ بيان مفصل فى معنى أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِيَةٍ فى الآيه ۲۰ من سوره القمر فراجع.

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۰ ص ۱۰۷ عن الإمام على عليه السلام

۳- ۳) المصدر/ج ۷۷ ص ۴۲۰.

۴- ۴) الدر المنثور و الكشاف و الرازى.

۵- ۵) الأحقاف/۲۵

[۱۰-۹]و يضع السياق صورا أخرى تكشف عن ذات الحقائق:هيمنه اللّه على الحياه،و سنّه الجزاء،و الآخره..و إنّما يكثر القرآن الأمثال لكى لا تبقى عندنا ذرّه شك أو شبهه أنّ تلك الحوادث كانت صدفه،و بالتالى لكى يتعمّق فى نفوسنا الإيمان باللّه و الجزاء.

وَ جٰاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكٰاتُ بِالْخٰاطِئَهِ أى بالقيم و الأعمال البعيده عن الحق و الصواب،كالظلم و العلو و الشرك و ادّعاء الربوبيه،و قد اختلف فى الذين قبل فرعون إلى قولين:أحدهما:أنّهم الأمم و القرون التى سبقته و أهلكها اللّه،و الآخر-و هو صحيح أيضا-:أنّ فرعون كان حلقه من نظام سياسى كان يحكم مصر،و الذين قبله يعنى الحلقات الأخرى منه،

قال الإمام الباقر عليه السلام فى قوله: وَ جٰاءَ فِرْعَوْنُ :«يعنى الثالث و من قبله الأولين» (۱)، و إلى ذلك تشير الآثار و الدراسات العلميه للتاريخ السياسى لمصر (۲)،و ربما الأولى الجمع بين الرأيين،و القول بأنّ«من قبله»تشمل كلّ من كان قبل فرعون من ملوك مصر و غيرهم.

و أمّا«المؤتفكات»فهى قرى لوط التى جعل اللّه عاليها سافلها جزاء شذوذهم الجنسى،و مشيتهم المقلوبه فى الحياه،حيث كانوا يأتون الرجال شهوه من دون النساء،و إنّما خصّ اللّه قوم لوط بالذكر مع شمول«من قبله»لهم لأنّهم من أظهر شواهد الانحراف،و لعلّ أعظم الخطيئات التى جاءت بها تلك الأقوام هى اتباع المناهج و القيادات المنحرفه،و من ثمّ التكذيب برسالات اللّه و رسله.

۱- ۱) البرهان/ج ۴ ص ۳۷۵.
۲- ۲) راجع كتاب(مدخل فى علم السياسه)لمؤلفه بطرس غالى وزير داخليه مصر الأسبق،و مدرس العلوم السياسيه فى جامعه القاهره.

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ كنتيجه مباشره لذلك.و ماذا يعنى عصيان الرسول؟إنّه الانحراف عن الحق و السنن الطبيعيه فى الحياه،و محاربه اللّه..و هل ينتهى ذلك إلاّ إلى الانحطاط و الهلاك؟! فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً و أصل الرابيه:الزياده،و يسمّى ما ارتفع من الأرض رابيه لأنّه فى حقيقته زياده فيها بالارتفاع،و أمّا الأخذه الرابيه فهى:إمّا التى زادت على غيرها من عذاب اللّه و أخذه،أو التى نمت و تعاظمت بسبب تراكم الخطيئات،و هذا قريب، و فيه دلاله على أنّه تعالى أملى لهم و أمهلهم ليزدادوا إثما،فيزيدوا بأنفسهم غضب اللّه عليهم فى الدنيا و الآخره.

[١١]و يذكّرنا القرآن بأعظم ما شهده تاريخ البشريه من الجزاء الإلهى،و هو ذلك الطوفان الذى تفجّرت به ينابيع الأرض،و انفتحت أبواب السماء بماء منهمر،فابتلع اليابسه كلّها فى عصر نوح عليه السلام ،و لكنّه فى نفس الوقت يوجّهنا إلى لطف اللّه بالبشريه كلّها حين حفظ وجودها بحملها فى السفينه،هذه الآيه التى يهدينا التفكير فيها و بصوره مسلّمه إلى أنّ سنه الجزاء ليست صدفه،إنّما هى تحت هيمنه اللّه الحكيم فى تدبيره.

إِنّا لَمّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ أى السفينه التى تجرى على الماء،و طغيان الماء:زيادته عن المعتاد و عن حاجه الناس و النبات إليه،و يقال للبحر:طغى:إذا تجاوز على اليابسه،و فى الدر المنثور عن ابن عباس،و سعيد بن جبير،قال:طغى على خزّانه فنزل،و لم ينزل من

السماء ماء إلّا بمكيال أو ميزان إلّا زمن نوح عليه السلام فإنّه طغى على خزّانه،فنزل من غير كيل و لا وزن (۱)،و

أخرج بن جرير عن الإمام على عليه السلام قال: «لم تنزل قطره من ماء إلّا بمكيال على يدى ملك،إلّا يوم نوح فإنّه أذن للماء دون الخزّان فطغى على الخزّان فخرج» (۲)، و لا يعنى ذلك أنّه لا مكيال و لا وزن معلوم له عند اللّه، كلا..و إنّما المعنى أنّ اللّه لا ـ ينزل الأمطار إلاّ ـ عبر حسابات دقيقه،تتناسب مع حاجات الخلق،أمّا في الطوفان فقد أمر السماء و الأرض أن تتفجّر ماء مّا تستطيعان.

و لم يقل اللّه:(حملناهم)يعنى الذين ركبوا السفينه مع نوح،بل قال:

«حملناكم»موجّها الخطاب للبشريه جمعاء،لأنّها يوم الطوفان كانت منحصره فيهم،و ليس الناس بعدها إلّا نسل أولئك،فنحن معنيّون بالحمل أيضا،إذ لو لا السفينه لما كنّا الآن موجودين.

[۱۲]و بعد العرض الموجز لقصه الطوفان فى آيه واحده يوجّهنا القرآن إلى العبره الهامّه منها،و التى يقتضى الإشاره إليها،و هى:أنّ بقاء السفينه و نجاه ركّابها فى ذلك الطوفان المروّع آيه إلهيه عظيمه،تذكّرنا بكثير من الحقائق الإيمانيه،إذا كانت ثمّه أذن واعيه تستوعب ما تذكّر به.

لِنَجْعَلَهٰا لَكُمْ تَذْكِرَةً و إنّ مرورا سريعا بآيه(الجاريه)يذكّرنا بهيمنه اللّه على الوجود،و سنّه الجزاء، و لطف ربّنا،و دور الإيمان به،و اتباع رسله و رسالاته فى نجاه الإنسان،و فضل الأنبياء على البشريه..و هكذا الكثير من الحقائق التى من شأنها زراعه تقوى اللّه

ص:۲۷۶

۱- ۱) الدر المنثور/ج ۶ ص ۲۶۰

۲- ۲) المصدر/ص ۲۵۹

و تعميقها فى النفس،و ما أحوج البشريه أن تدرس هذه الآيه لتتذكّر بها لتتجنّب الأخطاء،و تبنى الحياه السعيده،إلاّ أنّنا لا نعيرها اهتماما و لا جزء من تفكيرنا، بل نمرّ عليها مرور الغافلين اللاّأباليين،و كأنّها مجرد قصه خياليّه أو قصه تروى للتسليه.

بلى.إنّ الآيات و الحقائق كما الماء و الكائنات الأخرى تحتاج إلى وعاء يستوعبها،و لكن من جنس آخر.إنّه القلب المزكّى بالإيمان و العرفان هو وحده وعاؤها،و إنّ فى قصه الإعدام الجماعى للبشريه بالطوفان لدرسا يجب أن يبقى نصب أعين الناجين،يعمّق فيهم الخشيه من ربهم،و يحيى ضمائرهم،و يستثير عقولهم باتجاه الحق أبد الدهر.

وَ تَعِيَهٰا أُذُنٌ وٰاعِيَةٌ أى تعى التذكره.و من وصل هذه النهايه بالشطر السابق للآيه نهتدى إلى أنّ المسيره الطبيعيه للبشريه هى مسيره التقدم،حيث تتراكم خبراتها و تجاربها عبر الزمن،ممّا يزيد وعيها و معارفها و إيمانها،هذا إذا كانت من الناحيه المعنويه سليمه و ذات أذن واعيه،أمّا إذا لم تصل بنفسها إلى مستوى القدره على عقل الحقائق و استيعابها فإنّها لن تتقدم إلى الامام،بل ستهوى فى ذات المزالق التى دفع فيها السابقون،و ستواجه ذات المصير.بلى.إنّ تلك القصص نداءات موجّهه إلينا لا يسمعها الصمّ،و قال تعالى«أذن»لأن السمع هو نافذه المعرفه الإنسانيه على التاريخ،و وصفها ب«واعيه»لكى يهدينا بأنّ منهج القرآن فى بيان الحق و التذكير به منهج كامل لا نقص فيه،فإذا لم يستوعبه الإنسان أو لم يقبله فإن الإشكال فيه،لأنّ أذنه غير واعيه،و ليس فى رساله اللّه،و لا شك أنّ المقصود هو ما وراء الأذن و ليست الأذن بذاتها،لأنّها ليست وعاء للعلم بل وسيله موصله إلى وعائه و هو

القلب،و من أهم شروط استيعاب الحق:

أ-جعله هدفا و محورا،مقدّما على كلّ اعتبار آخر،فمتى وجده سلّم له.

ب-الطهاره من الحجب التى تمنع اتصال القلب به كالغفله و الجحود،و من أبرزها الأفكار و المواقف المسبقه،و ذلک أنّ القلب لا يمكن أن يستوعب الحق و الباطل معا،فهو إمّا يكون وعاء للحق و إمّا يكون وعاء للباطل، و لا بد أن يطرد الباطل من القلب حتى يستوعب الحق.

د-أن تكون قدره الإستيعاب كبيره،و ذلک أنّ بعض الحقائق عظيمه لا يستوعبها كلّ قلب،بل تختلف درجات المعرفه بالحقائق باختلاف القدرات العلميه و الإيمانيه عند الإنسان..و

جاء فى الحديث الشريف عن الإمام على عليه السلام :

«اعلموا أنّ اللّه سبحانه لم يمدح من القلوب إلاّ أوعاها للحكمه،و من الناس إلاّ أسرعهم إلى الحق» (۱)، و

قال عليه السلام : «إنّ هذه القلوب أوعيه فخيرها أوعاها» (۲)و لقد اجتمعت هذه الشروط و غيرها فى شخص أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فاستوعب رساله اللّه،و أصبح أعرف الناس بعد النبىّ بها،و لذلک أجمع الرواه و المفسرون على تأويلها فيه عليه السلام كأعظم مصداق للأذن الواعيه..

قال الإمام على عليه السلام يخاطب أصحابه و خاصته:«ألا و إنى مخصوص فى القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلّوا فى دينكم-الى أن قال-:و أنا الأذن الواعيه» (۳)، و

قال النبى صلى الله عليه و آله يخاطب عليّا عليه السلام :«دعوت اللّه-عزّ و جلّ-

---

۱- ۱) غرر الحكم.

۲- ۲) نهج حكمه۱۴۷/.

۳- ۳) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۰۲ نقلا عن معانى الاخبار.

أن يجعلها أذنک یا علی» (۱)و

فی تفسیر القرطبی روی مکحول:أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال عند نزول هذه الآیه:«سألت ربّی أن یجعلها أذن علی»قال مکحول:فکان علی(رض)یقول: «ما سمعت من رسول اللّه صلی الله علیه و آله شیئا قطّ فنسیته إلاّ و حفظته» (۲)أی ما کنت أنساه و ما کنت إلاّ أحفظه.و عن الحسن نحوه ذکره الثعلبی،قال:لمّا نزلت«الآیه»قال النبی صلی الله علیه و آله :«سألت ربی أن یجعلها أذنک یا علی»قال علی:«فما نسیت شیئا بعد و ما کان لی أن أنسی» (۳)، و إنّما طلب النبی ذلک من اللّه لأنّه یعلم بأنّ علیّا هو الامتداد الحقیقی له و لحظه،فلا بد أن یستوعب رسالته..و تتسع الآیه لمصادیق أخری و بدرجات متفاوته،إذ أنّ کلّ أذن واعیه هی مصداق لها.

إنّ التاریخ معلّم للبشریه،و یجب أن تتلمذ فی مدرسته،لأنّ ذلک هو السبیل للتقدم و السعاده فی الدارین،فهی لو درست تاریخها و تفکرت فی حوادثه و منعطفاته فسوف تهتدی إلی الحق فی کلّ صعید و جانب من الحیاه..تهتدی إلی ربها لأنّ التاریخ کله آیات موصله إلی الإیمان به،و تهتدی إلی الکثیر من السنن و القوانین و الحقائق الحضاریه التی من شأنها لو وعتها أن تتجنب الأخطاء و الأخطار،و تجد طریقها إلی المجد و الفلاح.

[۱۴-۱۳]ثم ینعطف السیاق للحدیث عن الآخره لأنّها الحاقه العظمی، و أجلی صوره لسنّه الجزاء فی الوجود..و إنّ الأذن الواعیه لیتذکر صاحبها بحوادث التاریخ،و ما لقیته الأقوام فی الدنیا عن الجزاء الإلهی فیعی بذلک حقیقه الآخره،

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) القرطبی/ج ۱۸ ص ۲۶۴.

۳ - ۳) المصدر ذکر ذلک و ذکره الکشاف،الرازی،فتح القدیر،الدر المنثور،شواهد التنزیل للحسکانی،أسباب النزول للنیسابوری/عند تفسیر الآیه فراجع.

و إنّها حقّا لأذن واعيه تلك التى تعاين الغيب من خلال الشهود،و تتسع آفاقها لرؤيه المستقبل عبر الحاضر، فلا تفاجأ بالواقعه،إنّما تأتى مستعده لتجاوز عقبتها بزاد التقوى و ذخيره العمل الصالح.بلى.إنّ الواعين يعيشون فى الدنيا و لكنّ أرواحهم فى الآخره،بل إنّ حضورها فى قلوبهم أعظم من حضور الدنيا،فتراهم لا يغفلون عنها لحظه واحده،و حيث ينقل لهم القرآن مشاهد منها فكأنّها قائمه بين أعينهم و قلوبهم،كما وصفهم صاحب الأذن الواعيه

الإمام على عليه السلام بقوله:

فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعا،و تطلّعت نفوسهم إليها شوقا،و ظنوا أنّها نصب أعينهم،و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم،و ظنّوا أنّ زفير جهنم و شهيقها فى أصول آذانهم،فهم حانون على أوساطهم،مفترشون لجباههم و أكفّهم و ركبهم،و أطراف أقدامهم،يطلبون إلى اللّه تعالى فى فكاك رقابهم (۱)، و كل ذلك ينعكس على سلوكهم فى الحياه.

و لقد جاءت الآيه(۱۲)مؤكّده على دور الآذان الواعيه بين الحديث عن تاريخ الأقوام السالفه(الآيات۴/۱۱)،و الحديث عن الآخره(الآيات ۱۳/۱۸)فى هذا الدرس و امتدادها حتى الآيه(۳۷)فى الدرس اللاحق،لأنّها وحدها القادره على استيعاب مواعظ التاريخ و آياته،و الإيمان بحديث الوحى عن الآخره و وعيه، فحقائق الغيب-سواء غيب التاريخ أو غيب الآخره-حقائق كبيره،بحاجه إلى أذن مرهفه تنفذ بسمعها من الآيات إلى ما تهدى إليه،و قلب واسع كبير يحتمل أن يكون وعاء لها.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ و يبدو أنّها النفخه الثانيه لأنّها التى يقوم فيها الناس للحساب و الجزاء،قال

۱- ۱) نهج البلاغه/ج ۱۹۳ ص ۳۰۴

تعالی: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْریٰ فَإِذا هُمْ قِیامٌ یَنْظُرُونَ (۱)،و ما یؤکد أنّها الثانیه أنّ السیاق هو سیاق الحدیث عن الجزاء،مما یستلزم الکلام عن النفخه الثانیه التی یکون الجزاء بعدها،و نقرأ هنا بعض الأخبار عن أئمه الهدی فی شأن النفخ فی الصور،

قال الإمام علی علیه السلام : «و ینفخ فی الصور فتزهق کل مهجه،و تبکم کل لهجه،و تذل الشمّ الشوامخ،و الصمّ الرواسخ،فیصیر صلدها سرابا رقراقا،و معهدها قاعا سملقا(مستویا)فلا شفیع یشفع،و لا حمیم ینفع،و لا معذره تدفع» (۲)، و فی صلاته علی حمله العرش

قال الإمام زین العابدین: «و إسرافیل صاحب الصور الشاخص الذی ینتظر منک الإذن،و حلول الأمر،فینبّه بالنفخه صرعی رهائن القبور» (۳)،و

عن وهب بن منبه عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «خلق اللّه الصور من لؤلؤه فی صفاء الزجاجه،ثم قال للعرش:خذ الصور،فتعلق به،ثم قال:

کن،فکان إسرافیل،فأمره أن یأخذ الصور فأخذه،و به ثقب بعدد کلّ روح مخلوقه،و نفس منفوسه،لا تخرج روحان من ثقب واحد،و فی وسط الصور کوّه (فتحه)کاستداره السماء و الأرض،و إسرافیل واضع فمه علی ذلک الکوّه،ثم قال له الرب تعالی:قد وکّلتک بالصور فأنت للنفخه و للصیحه،فدخل إسرافیل فی مقدم العرش،فأدخل رجله الیمنی تحت العرش،و قدّم الیسری،و لم یطرف منذ خلقه اللّه ینظر متی یؤمر به» (۴)، و

فی روایه: «مخافه أن یؤمر بالصیحه قبل أن یرتد إلیه طرفه،کأنّ عیناه کوکبان درّیان» (۵)

ص:۲۸۱

۱- ۱) سوره الزمر/۶۸

۲- ۲) نهج البلاغه/ج ۱۹۵ ص ۳۱۰.

۳- ۳) موسوعه بحار الأنوار/ج ۵۹ ص ۲۱۷

۴- ۴) المصدر/ص ۲۶۱.

۵- ۵) المصدر/۳۶۲.

و هو لا يحتاج حتى يهلك الأحياء بالنفخه الأولى و يبعثهم قياما بالثانيه إلى أكثر من مجرد نفخه واحده،لما أعطاه اللّه من القدره العظيمه.قال العلامه الطباطبائى:و فى توصيف النفخه بالواحده إشاره إلى مضى الأمر،و نفوذ القدره، فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخه (1).

و يا لها من نفخه صاعقه مخيفه،لا تذهب بالأنفس و حسب بل تزلزل الكائنات و كأنّها ترليونات الترليونات من القنابل النوويه التى تنفجر فى دفعه واحده،فتدمّر الكون و نظامه،بحيث تخرج الأرض عن مدارها،و تستأصل الجبال الراسيه من فوقها،ثم يدكّها اللّه ببعضها.

وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبٰالُ فَدُكَّتٰا دَكَّةً وٰاحِدَةً و أصل الدك هو الهدم،يقال:دك الجدار إذا هدمه و سوّاه مع الأرض، و لا ندرى هل يضرب اللّه أجزاء الأرض و الجبال ببعضها بتركيز الجاذبيه تركيزا هائلا بين أجزائهما،أو برفعها تماما مما يسبب تلاشيها،أم يضرب الجبال بالأرض و العكس،أم يرطمهما معا بكوكب آخر؟المهمّ أنّهما يتداكّان..و فى الآيه إشاره إلى حقيقه علميّه جيولوجيه:إذ لم يقل اللّه:«و حملت الأرض»فقط،باعتبار أنّ الجبال جزء منها،و ذلك لأنّها فى الواقع كيانات شبه مستقلّه،جعلها اللّه فيها، فنصبها و أرساها أوتادا للأرض (2)،فهى كما الشجره لها هيكلها و جذورها الضاربه فى التخوم..كما نهتدى إلى أنّ الأرض تكون مستويه بالدكّ يوم القيامه،و لذلك خص القرآن الجبال بالذكر لأنها الزوائد المرتفعه على سطحها.

و يتزامن بعث الناس للحساب مع تلك الأحداث الكونيه الرهيبه لكى تتجلى

ص:282

1- 1) الميزان/ج 19 ص 397.

2- 2) راجع الآيات:الغاشيه 19،النازعات 32،النبأ 7

لهم قدره اللّه،و تتساقط عندهم كل الحجب و التبريرات هنالك،بل فی الدنيا أيضا لمن يؤمن بالآخره و يعی آياتها.

[۱۷-۱۵]و بعد أن يصوّر لنا القرآن مشهدا من القيامه يؤكّد بأنّها أعظم الوقائع التی تمر بالإنسان،لأنّها تدمّر الكائنات،و تسوق الإنسان إلی مصيره الأبدی.

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ و التعريف بالألف و اللام يعظّمها فی ذهن السامع،و يؤكد بأنّ للإنسان معها عهدا أودعه اللّه فی فطرته،فهی ليست نكره للبشر السوی..و إنّ فی تسميتها (القيامه)بالواقعه يأتی للتأكيد باللفظ علی كونها حقيقه لا بد من حصولها،فكون الشیء الواقعی فی الغيب،و يفصل الإنسان عنه الزمن المستقبل لا ينفی أصل وجوده، و هذه مسلّمه فطريه و عقليه،و كأنّ الآيه تقول:بأنّ تكذيبكم أيها البشر بالآخره لن يغير شيئا فيها،و لا فی ما يتصل بها من الاحداث،فهل يمنع تكذيبنا -مثلا-من تأثير نفخه إسرافيل فی الأرض و الجبال؟كلا..

و يوصلنا كتاب اللّه بالغيب،إذ يضع أمامنا مشهدا آخر من مشاهد الواقعه و هو انشقاق السماء المحبوكه و المتينه الخلق إلی حدّ تكون فيه واهيه كالخرقه الباليه التی تصير رمادا أو هباء.

وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ المحبوكه التی لا فروج فيها و لا ضعف.

فَهِیَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ

ص:۲۸۳

أی شدیده الضعف و قلیله التماسک،لیس فی هیکلها و حسب بل فی جزئیّات کیانها،مما یجعلها تتبدل شیئا آخر کالمهل أو الدهان کما قال اللّه: یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمٰاوٰاتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (1)،و هکذا لا تبقی السماء سقفا محفوظا یمنع عن الأرض النیازک و الأخطار.

و مشهدا آخر عظیم هو منظر الملائکه علی الأرجاء و الملائکه الثمانیه العظام الذین یحملون عرش اللّه فوقهم.

وَ الْمَلَکُ عَلیٰ أَرْجٰائِهٰا أی أطرافها و نواحیها،قالوا:بأن الضمیر عائد إلی السماء التی تشقق و تصیر قطعا و أجزاء علی کل واحده منها ملائکه کثیرون.

وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمٰانِیَهٌ من أعظم ملائکه اللّه،و ربما أعظمهم علی الإطلاق،و لفوقهم تفسیران:

أحدهما:فوقهم بالمسافه،و الآخر:فوقهم بالمرتبه،فالثمانیه یحملون العرش من أرکانه و معهم من الملائکه من یحملونه من أطرافه الأخری،أو أنّ الثمانیه لهم الرئاسه علی بقیه الملائکه فهم فوقهم مرتبه،و بهذا نجمع بین الروایات القائله:

بأنهم ثمانیه،و القائله:بأنهم أکثر من ذلک.

قال الإمام علی بن الحسین علیه السلام فی صفه خلق العرش:«له ثمانیه أرکان،علی کلّ رکن منها من الملائکه ما لا یحصی عددهم إلاّ اللّه-عزّ و جلّ-یسبّحون اللیل و النهار لا یفترون» (2)، و

قال الإمام الصادق علیه السلام : «إنّ حمله العرش

1- 1) إبراهیم48/

2- 2) نور الثقلین/ج 5 ص 404.

أربعه:أحدهم على صوره ابن آدم يسترزق اللّه لبنى آدم،و الثانى:على صوره الديک يسترزق اللّه للطير،و الثالث:على صوره الأسد يسترزق اللّه للسباع، و الرابع:على صوره الثور يسترزق اللّه للبهائم،و نكس الثور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل،فإذا كان يوم القيامه صاروا ثمانيه» (۱)و لقد خاض بعض المفسرين فى مواضيع لا داعى لها،و اختلفوا مع بعضهم فى عدد الملائکه و أشكالهم،و هى بحوث لم نكلّف بها،بينما توجّه أئمه الهدى -عليهم السلام-للرد على الأفكار الماديه التى حاول أصحابها إثبات معتقداتهم التجسيديه و التشبيهيه من خلال الفهم الخاطئ لهذه الآيه الكريمه،حيث شبهوا عرش اللّه بعروش السلاطين التى يتربعون عليها.تعالى اللّه عما يصفون علوّا كبيرا.

قال سلمان المحمدى: سأل بعض النصارى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام قال له:أخبرنى عن ربك أ يحمل؟فقال عليه السلام :«ربنا جل جلاله يحمّل و لا يحمل»،قال النصرانى:و كيف ذلک و نحن نجد فى الإنجيل:

« وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَهٌ »؟فقال على عليه السلام :«إنّ الملائكه تحمل العرش،و ليس العرش كما تظن كهيئه السرير،و لكنّه شيء محدود مخلوق مدبّر، و ربک-عزّ و جلّ-مالكه،لا أنّه عليه ككون الشيء على الشيء،و أمر الملائكه بحمله يحملون العرش بما أقدرهم عليه»قال:النصرانى صدقت رحمک اللّه (۲)و

قال الإمام الرضا عليه السلام : «و المحمول ما سوى اللّه،و لم يسمع أحد آمن باللّه و عظمته قط قال فى دعائه:يا محمول»فقال له أبو قرّه:فإنّه قال:« وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَهٌ »؟و قال:« اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ »؟!فقال أبو

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) المصدر نقلا عن كتاب التوحيد.

الحسن علیه السلام :«العرش لیس هو اللّه،و العرش اسم علم و قدره،و عرش فیه کل شیء،ثم أضاف:الحمل إلی غیره،خلق من خلقه لأنّه استعبد خلقه بحمل عرشه و هم حمله العلم» (۱)و العرش هو رمز الهیمنه و السلطان و العلم،و الموضع الذی یتجلّی فیه علم اللّه و قدره و قضاؤه و أمره للملائکه،الذین هم بدورهم یمضون ما یؤمرون به،و لعل أهم حکمه لخلق العرش أنّه تعالی قد أوکل إلی الملائکه إنفاذ مقادیره و تدبیره للخلق ،و هو الذی لا یحدّه مکان ما کان لهم أن یتصلوا به،و کیف یتّصل المخلوق المحدود بالخالق لو لا خلق الأسماء و الأشیاء کالبیت الذی یکون مرکز عبادته، و العرش الذی یکون مرکز إدارته للکائنات و هیمنته.

و قد أوّلت بعض النصوص الحمله فی خیر خلق اللّه

قال الإمام الصادق علیه السلام :

«حمله العرش ثمانیه أربعه منّا و أربعه ممن شاء اللّه» (۲)، و

فی حدیث آخر: «حمله العرش ثمانیه:أربعه من الأولین و أربعه من الآخرین،فأما الأربعه من الأولین:فنوح و إبراهیم و موسی و عیسی،و أمّا الآخرون:فمحمد و علی و الحسن و الحسین-علیهم السلام-و معنی«یحملون»یعنی العلم» (۳)و إذا کان الظاهر أنّ الملائکه هم الذین یحملون العرش فإنّ الباطن هو أولئک الذین خلقت الملائکه لأجلهم و هم الصفوه من عباد اللّه.ألیس قد خلق الأشیاء لأجل الإنسان،و أیّ إنسان أعظم من الأنبیاء و الأوصیاء؟ [۱۸]و أعظم مشهد فی القیامه هو عرض الناس للحساب و الجزاء،لأنه أشدّ

۱- ۱) المصدر/ص ۴۰۵

۲- ۲) المصدر/ص ۴۰۶.

۳- ۳) المصدر

رهبه،حيث يلقى الإنسان حسابه و مصيره الأبدى،و لأنه الهدف الأساسى من وراء كلّ أحداثها و مشاهدها المرعبه..

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاٰ تَخْفىٰ مِنْكُمْ خٰافِيَهٌ و إذا كـانت لاـ تخفى عنـد الحسـاب و الجزاء و لا حتى واحـده من الأعمال التى أخفاها الإنسان و قام بها فى السر،فكيف بالظاهر منها؟فالحساب اذن دقيق، لأنه يتأسس على علم اللّه المحيط بكلّ شيء،و بالحساب يوم القيامه يتجلّى عدل اللّه و لطفه و غضبه و علمه،

قـال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله : «لاـ تزول قـدما عبـد يوم القيامه من بين يـدى اللّه حتى يسأله عن أربع خصال:عمرك فيما أفنيته؟و جسـدك فيمـا أبليته؟و مالك من أين اكتسـبته و أين وضـعته؟و عن حبّنا أهل البيت» (1)، و يعرض أعمـال العباد ليظهر الحق جليّا،كما تتأكد القارعه و الواقعه بوقوعها،و لذلك سمّيت القيامه بالحاقه.

و كلمه أخيره:

إنّنـا نلاحظ فى القرآن أنّه لا يكاد يتحـدث عن التاريخ و مصـير الأقوام السالفه إلاّ و يوصل ذلك بالحـديث عن الآخره،فما هو السر فى ذلـك و مـا هى العلاقه بينهما؟ ١-لأـنّ الإسـلام لا يريـد للإنسان أن يعيش لحظته الراهنه فقط،إنّما يعيش الحاضـر على ضوء الماضـى و المستقبل معـا،فيتحرك من حيث انتهى الآـخرون، و يتعـظ بتجـاربهم لبناء حياه سـعيده فى الحاضـر،و فى نفس الوقت يخطط و يعمل لكى يربح المستقبل.

٢-و لأنّ الآخره كما التاريخ غيب لا سبيل للإنسان إلى معرفته إلاّ بالآيات

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج ٧ ص ٢٥٩.

و الآثار الـدالّه عليه، و الـذى يكفر بالآخره لأنّه لا يعاينها بـذاتها كالـذى يكفر بالتاريخ لأنه لم يعاصـر أحداثه،مع أنّ الأدله قائمه تهدى إليه.

۳-و يتشـابه التاريـخ مع الآ-خره فى كون الإ-ثنين عرصه تكشف عن سـنه الجزاء الحـاكمه فى الحيـاه،و هيمنه اللّه عليهـا،و تمـايز المؤمنين عن سواهم،و هكذا الكثير من الحقائق،بل أنّ التاريخ هو الآيه الماديه العظمى التى تهدى إلى الإيمان بالآخره و الجزاء.

[سوره الحاقه (۶۹): الآیات ۱۹ الی ۵۲]

اشاره

فَأَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَیَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا کِتابِیَهْ (۱۹) إِنِّی ظَنَنْتُ أَنِّی مُلاقٍ حِسابِیَهْ (۲۰) فَهُوَ فِی عِیشَهٍ راضِیَهٍ (۲۱) فِی جَنَّهٍ
عالِیَهٍ (۲۲) قُطُوفُها دانِیَهٌ (۲۳) کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِی الْأَیّامِ الْخالِیَهِ (۲۴) وَ أَمّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ
أُوتَ کِتابِیَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ (۲۶) یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَهَ (۲۷) ما أَغْنی عَنِّی مالِیَهْ (۲۸) هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ (۲۹) خُذُوهُ
فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِی سِلْسِلَهٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُکُوهُ (۳۲) إِنَّهُ کانَ لا یُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِیمِ (۳۳) وَ لا
یَحُضُّ عَلی طَعامِ الْمِسْکِینِ (۳۴) فَلَیْسَ لَهُ الْیَوْمَ هاهُنا حَمِیمٌ (۳۵) وَ لا طَعامٌ إِلاّ مِنْ غِسْلِینٍ (۳۶) لا یَأْکُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (۳۷) فَلا
أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (۳۸) وَ ما لا تُبْصِرُونَ (۳۹) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ (۴۰) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِیلاً ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ
کاهِنٍ قَلِیلاً ما تَذَکَّرُونَ (۴۲) تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۴۳) وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنا بَعْضَ الْأَقاوِیلِ (۴۴) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْیَمِینِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنا
مِنْهُ الْوَتِینَ (۴۶) فَما مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِینَ (۴۷) وَ إِنَّهُ لَتَذْکِرَهٌ لِلْمُتَّقِینَ (۴۸) وَ إِنّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْکُمْ مُکَذِّبِینَ (۴۹) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَهٌ
عَلَی الْکافِرِینَ (۵۰) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْیَقِینِ (۵۱) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ (۵۲)

اللغه

۳۶[غسلین]:الصدید الذی ینغسل بسیلانه من أبدان أهل النار،و وزنه فعلین من الغسل.

و إنّه لحقّ اليقين

هدى من الآيات:

يأتى كلّ إنسان إلى الدنيا و أمامه طريقان و فرصه واحده:طريق الحق الذى ينتهى به إلى الجنه و النعيم،و طريق الباطل الذى ينتهى به إلى النار و العذاب،و أمّا الفرصه فهى عمره الذى يفنيه فى أحد الطريقين،فإمّا يختار الجنه و يسعى لها سعيها أو العكس،فالدنيا وحدها هى دار الابتلاء و العمل و حيث تقع الواقعه و يعرض للحساب فإنّه لا يملك تبديلا و لا تحويلا،لأنّ الآخره دار الحساب و الجزاء فقط.

و فى الدرس الأخير من سوره الحاقه يضعنا القرآن وجها لوجه أمام هذه الحقيقه مؤكّدا بأنّ هناك عاقبتين و فريقين، فإمّا العيشه الراضيه فى الجنه التى هى نصيب أصحاب اليمين،و إمّا تصليه الجحيم جزاء لأصحاب الشمال.و بعد أن يبين فى الأثناء بأنّ المصير فى الآخره متأسس على موقف الإنسان و عمله فى الدنيا يوجّهنا ربنا إلى رسالته الحقه الصادقه باعتبارها الصراط المستقيم و النهج الذى يقود إلى الفوز و الفلاح يوم القيامه،مدافعا عنها ضد ضلالات أعدائه و أعداء رسوله الذين

قـالوا بأنّهـا شـعر تـاره و كهـانه تـاره أخرى جحودا و اسـتكبارا،و إنّهـا لتـذكره للمتقيـن و حسـره على الكـافرين،و إنّـه لحق اليقين،فسبحان اللّه عمّا يصفون و يشركون.

بينات من الآيات:

[۱۹]بعد عرض الناس للحساب تظهر حقيقتهم،و تتعين مصائرهم على أساسـها فی ظل الهيمنه المطلقه للحق،و لعله لذلك سمّيت القيامه بالحاقّه،فإمّا أن يكون الحق مع الإنسان فيقوده إلی الفوز بالجنه،و إمّا أن يكون ضده فيسوقه إلی بئس المصـير فی جهنم.و يكشف لنـا القرآن عن غيب الآخره ليضـعنا أمام مصـيرين لا ثالث لهما بعـد أن وضـعنا فی أجواء القيامه و أحضـر مشاهـدها فی قلوبنا لكی نختار أحد الإثنين،و بالطبع نری السياق القرآنی يرجّح لنا بعرضه الحكيم خيار أصحاب اليمين.

فَأَمّٰا مَنْ أُوتِیَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ ممّا يعنی فوزه بالجنه و الرضوان،لأنّ اليمين رمز ذلك،و كنايه عن اليمن و البركه و الخير.

فَيَقُولُ هٰاؤُمُ اقْرَؤُا كِتٰابِيَهْ قال العلامه الطبرسی«هاؤم»أمر للجماعه بمنزله هاكم(و أضاف:)بمنزله خـذوا،و إنّما يقول ذلك سـرورا لعلمه بأنّه ليس فيه إلاّ الطاعات،فلا يستحی أن ينظر فيه غيره (۱)،و قال الرازی:دلّ ذلك على أنّه بلغ الغايه فی السرور فأحبّ أن يظهره لغيره حتی يفرحوا بما ناله (۲)،و لعل خطابه موجّه لإخوانه من أصحاب

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰ عند الآيه.

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۳۰ عند الآيه.

الجنه،و بالخصوص أئمه الحق الذین ینصبهم اللّه موازین للأمم عند الحساب، کما قال تعالی: یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ فَمَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولٰئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتٰابَهُمْ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ فَتِیلاً (1).

قال الإمام الصادق علیه السلام : کل أمّه یحاسبها إمام زمانها،و یعرف الأئمه أولیاءهم و أعداءهم بسیماهم،و هو قوله تعالی: «وَ عَلَی الْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ یَعْرِفُونَ » و هم الأئمه«کلاّ بسیماهم»فیعطوا أولیاءهم کتابهم بیمینهم،فیمرّوا إلی الجنه بلا حساب،و یعطوا أعداءهم کتابهم بشمالهم فیمروا إلی النار بلا حساب،فإذا نظر أولیاؤهم فی کتابهم یقولون لإخوانهم:الآیتان ۲۰/۱۹ (2) و کتاب المؤمنین الذی سجّلت فیه صالحاتهم هو جوازهم علی الصراط إلی الجنه،و شهادتهم فی الانتماء إلی الصالحین و الأبرار،و تسجیل اللّه لهذه اللقطه «اقْرَؤُا کِتٰابِیَهْ »یأتی للتأکید علی أنّ أحدا لا یدخل الجنه من دون ثمن،بل إنّ اللّه خلق کلّ واحد و أعطاه الإراده و الإختیار بأن یکتب بنفسه حیاته و مستقبله المصیری،و صفحات الإنسان التی یتألّف منها کتابه هی ساعات عمره التی یکتب فیها ما یشاء من الأعمال التی تحدّد مصیره فی الآخره،و

فی الخبر النبوی أنّه:«یفتح للعبد یوم القیامه علی کلّ یوم من أیّام عمره أربعه و عشرون خزانه (عدد ساعات اللیل و النهار)فخزانه یجدها مملوءه نورا و سرورا،فیناله عند مشاهدتها من الفرح و السرور ما لو وزّع علی أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار،و هی الساعه التی أطاع فیها ربه،ثم یفتح له خزانه أخری فیراها مظلمه منتنه مفزعه،فیناله عند مشاهدتها من الفزع و الجزع ما لو قسم علی أهل الجنه لنغّص علیهم نعیمها،و هی الساعه التی عصی فیها ربه،ثم یفتح له خزانه

۱- ۱) الإسراء ۷۱/.

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۰۷.

أخرى فيراها فارغه ليس فيها ما يسره و لا ما يسوؤه،و هى التى نام فيها،أو اشتغل فيها بشىء من مباحات الدنيا،فيناله من الغبن و الأسف على فواتها حيث كان متمكّنا من أن يملأها حسنات ما لا يوصف» (1)،أمّا المتقون الذين لا يفترون عن طاعه اللّه و يذكرونه دائما و على كل حال قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ فإنّ أكثر صفحات كتبهم تتألق بنور الأعمال الصالحه التى يستبشرون بها، و يدعون الآخرين لقراءتها يوم القيامه.

[20]و يؤكّد اللّه أنّ الإيمان بالجزاء(الآخره)أصل كلّ خير،و أساس كلّ عمل صالح فى حياه المؤمنين،فهو الدافع الذى يقف وراء الصالحات،و الجامع المشترك بينها كلها،و هذه الحقيقه تتضح لو قمنا بعمليه استقراء دقيقه لحياه واحد من أصحاب اليمين،الذين يعلن الواحد منهم هذه الحقيقه فى صفوف المحشر يومئذ.

إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاٰقٍ حِسٰابِيَهْ و لا يقول:سأعرف أو سأعلم حسابيه،لأنّ الإنسان على نفسه بصيره فهو الذى يكتب كتابه بنفسه..إذن فهو يعلم بحسابه و لو بصوره مجمله،فكيف و المؤمنون يحاسبون أنفسهم؟إنّما يريد سألاقى من يحاسبنى و هو اللّه و سأجازى، لأنّ ما بعد الحساب هو المقصود لذاته.و المعنى أنّ كلّ ما تقرؤونه فى الكتاب من الصالحات هو ثمره لشجره الإيمان بالآخره،و نبته جذرها يعود إلى ذلك.

و فى معنى الظن اختلفت تعابير المفسرين،فقال الزمخشرى و تابعه الفخر الرازى:أى علمت،و إنّما أجرى الظن مجرى العلم لأنّ الظن الغالب يقوم مقام العلم فى العادات و الأحكام،و يقال:«أظن ظنّا كاليقين أنّ الأمر كيت

1- 1) موسوعه بحار الأنوار/ج 7 ص 262

و كيت» (۱)،و هو ضعيف،لأنّ فيه تضعيف لكون الظن هنا بمعنى العلم و اليقين الذى ذهب إليه أغلب المفسرين و هو الأقرب و دلّت عليه النصوص،

قال الإمام على عليه السلام و قد سأله رجل عما اشتبه عليه فى القرآن:«و أمّا قوله: «إِنِّی ظَنَنْتُ أَنِّی مُلاٰقٍ حِسٰابِيَهْ »،و قوله: «وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا »فإنّ قوله: «إِنِّی ظَنَنْتُ أَنِّی مُلاٰقٍ حِسٰابِيَهْ »يقول:إنّى ظننت أنّى أبعث فأجاب،و قوله للمنافقين:

« وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا »فهذا الظن ظن شك،و ليس الظن ظن يقين،و الظن ظنان:ظن شك و ظن يقين،فما كان من أمر معاد من الظن فهو ظن يقين،و ما كان من أمر الدنيا فهو ظن شك» (۲).

و يبدو لى أنّ الظن فى هذه الآيه مرحله متقدمه من العلم و اليقين،لأنّه بمعنى الاستحضار و التصور،فإنّ المؤمنين المتقين ليركزون الفكر فى أمر الآخره و يتخيّلون مشاهدها الغيبيه قائمه فى الشهود أمام أعينهم،فتاره يتصورون الجنه و ما فيها من النعيم،و أخرى يتصورون النار و ما فيها من شديد العذاب،ممّا يزرع فيهم الخوف و الرجاء،بل و يرون الجنه و النار بكلّ وضوح فى الأعمال الدنيويه.

و إنّ يقين المؤمنين بوجوب الحساب يجعلهم يتحركون فى الحياه على أساس ذلك،فإذا بهم يحاسبون أنفسهم و يسعون جهدهم أن تكون صحائفهم منوّره بالصالحات،فلغتهم فى الحياه لغه رياضيه ذات حسابات دقيقه فى علاقاتهم، و أوقاتهم،و جهودهم،و إنفاقهم و..و..

[۲۱-۲۳]و يبيّن الوحى جانبا من نعيم كل صاحب يمين فيقول:

فَهُوَ فِی عِيشَهٍ رٰاضِيَهٍ

ص:۲۹۵

۱- ۱) الكشاف/ج ۴ ص ۶۰۳.

۲- ۲) التوحيد للصدوق/ص ۲۶۷.

أی کـامله لاـ یعتریهـا نقص و لاـ عیب،فإنّ الرضـی لا یحصل إلاّ إذا وجـد الإحساس بالکمال و عـدم النقص،و کون المؤمن فی عیشه راضیه دلیل علی بلوغه قمه الرضی لأنّ رضی المحیط و العیشه جزء من رضاه و یعزّزه،فلیس ثمّه فی محیطه شیء و لا أحد غیر راض یبعث فی نفسه عدم الرضی و الراحه النفسیه،فنعیم الجنه و حورها و کل شیء فیها لیفرح بالمؤمن و یرضی به.

و فی الآیه فکره عمیقه و هی:أنّ المؤمن أین ما حلّ یحبّه المحیط،و تستأنس به الحیاه،لأنّه مبارک أین ما کان،یرضی عنه الناس و الحیـوان و النبـات و حـتی الأـرض و الجمـادات الـتی تربطـه بهـا رابطـه،فهـو یخـدم النـاس و یتعـب نفسـه مـن أجلهم، و یرفق بـالحیوان،و یرعی النبـات،و یصـلح الأـرض،و یسـتخدم کـلّ شـیء فی طـاعه ربه و لأهـدافه المحـدّده،ممّـا یسـبب شـعورا داخله بالرضـی،و یضـفی جوّ الرضـا علی ما حوله،بینما الکافر العکس من ذلک تماما،نفسه ساخطه،و کل شـیء ساخط منه،لأنّ علاقته لیست سلیمه بما حوله.

قال الرسول صـلی الله علیه و آله : «الناس اثنان:واحـد أراح،و آخر استراح،فأمّا الذی استراح فالمؤمن إذا مات استراح من الدنیا و بلائهـا،و أمّـا الـذی أراح فالکـافر إذا مـات أراح الشـجر و الـدواب و کـثیرا من النـاس» (۱)، فهم غیر راضـین به،و لاـ مستأنسـین لوجوده،بعکس المؤمن الذی ترضی به عیشته حتی إذا مات تأثّر له و حزن علیه کل شیء،حتی

جـاء فی الأخبار أنّه:«ما من مؤمن یموت فی غربه من الأرض فیغیب عنه بواکیه،إلاّ بکته بقاع الأرض التی کان یعبـد اللّه علیها، و بکته أثوابه،و بکته أبواب السـماء التی یصعد بها عمله،و بکاه الملکان الموکّلان به» (۲)، هذا فی الدنیا،أمّا فی الآخره فالنصوص کثیره و مستفیضه تحدثنا عن

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۶ ص ۱۵۱.

۲- ۲) المصدر/ج ۶۷ ص ۶۶.

رضـی الجنه و نعیمها حتی الفاکهه و الطیر و القصور بسکّانها من المؤمنین،فقد جاء فی الروایات أنّ الفاکهه تخاطب ولی اللّه أن کلنی قبل هـذه و تلک،و أنّ الطیر بعـد أن یأکله یعود سویّا فیطیر فی الجنه فرحا یفتخر علی سائر الطیور قائلا:من مثلی و قد أکل منی ولیّ اللّه؟ (1).

و فکره أخری نفهمها من الآیه و هی:أنّ المؤمن لفی عیشه راضـیه حتی فی الدنیا بسـبب تسـلیمه لما یقسـمه ربه له فیها،و بسـبب تطلعه إلی الآخره و نعیمها،فلا یسأم من فقر،و لا تعکّر صفو عیشه مصیبه،

قـال الإمـام الصـادق علیه السـلام : «مـا من مؤمن إلاّ و قـد جعل اللّه له من إیمانه أنسا یسـکن إلیه،حتی لو کان علی قمه جبل» و لرضاه فی الدنیا للّه فإنّه یجعله فی کمال الرضی معنویا و مادیا فی الآخره.

فِی جَنَّهٍ عٰالِیَهٍ فی درجتهـا و مقامهـا المعنوی،و فی ارتفاعهـا فـإنّ خیر الجنان منظرا و ثمرا ما نبت علی الروابی و ما کان شـجرها عالیا رفیعا ممّا یزیـدها روعه و ظلالا،و لکنّ علوّ الجنه لیس بالـذی یجعل ثمارها لا تطالها الأیـدی،کلاّ..إنّما هی أقرب ما تکون ثمره من قاطفها و جانیها.

قُطُوفُهٰا دٰانِیَهٌ بحیث لاـ یحتـاج المؤمنـون لبـذل جهـد و عنـاء من أجـل جنیهـا و أکلهـا،و للـدانیه بالإضـافه إلی معنی القرب(من الدنو)معنی النضج و البلوغ،فهی مقتربه من حین قطافها و قطعها من شجرتها.

ص:297

1- 1) المصدر راجع المجلد الثامن عن الجنه و نعیمها.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله : «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذى يشتهيه من الثمار بفيه و هو متكئ،و إنّ الأنواع من الفاكهه ليقلن لولى اللّه:يا وليّ اللّه كلنى قبل أن تأكل هذا قبلى» (۱).

[۲۴]و هنالك يدعى المؤمنون إلى مأدبه اللّه،و المشتمله على ما لذّ و طاب من أنواع الأكل و الشراب التى لا يعلمها إلاّ هو عزّ و جلّ.

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً لا ينغّصه عيب فيه و لا سبب خارجه،و إنّما يبعث الهناء بمنظره(هو و آنيته و مائدته)و بطعمه اللذيذ و فوائده الجمّه.و فى الدعوه بفعل الأمر «كُلُوا وَ اشْرَبُوا » إشاره إلى فكرتين:الأولى:الإباحه،فكلّ شىء هناك مأكول و مشروب حلال مباح للمؤمنين لا حرام فيه،و الثانيه: أنّ اللّه يعطى أصحاب الجنه القدره الواسعه على الاستلذاذ بنعيمها فهم يستطيعون الأكل و الشرب كلّما شاؤوا لا يمنعهم مانع،

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله : «و الذى نفسى بيده إنّ الرجل منهم ليؤتى قوه مائه رجل فى الأكل و الشرب و الجماع» (۲).

و لأنّ منهج الرساله يهدف إصلاح الإنسان فهو لا يذكر قصص التاريخ و لا مشاهد القيامه إلاّ و يوجد رابطا بينه و بينها،ليحدّد لنا الموقف السليم تجاه ما يذكره،كما سبق و أن قلنا:بأنّ القرآن يريدنا أن لا نعيش اللحظه الراهنه فقط،إنّما نعيش الحاضر على ضوء الماضى و المستقبل..كذلك يبيّن الوحى أنّ نعيم الجنه نتيجه للعمل الصالح فى الدنيا.

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۲۱۶.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۳۴۶.

بِمٰا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيّٰامِ الْخٰالِيَةِ و بهذا ينسف الأماني و الظنون الكاذبه،و يضع الإنسان أمام المسؤوليه.و قد ذهب أكثر المفسرين إلى القول بأنّ«أسلفتم»تعنى الصيام،و استشهد

الدر المنثور بقول اللّه فى حديث قدسى:«يا أوليائى!طالما نظرت إليكم فى الدنيا و قد قلصت شفاهكم عن الأشربه،و غارت أعينكم،و جفّت بطونكم،كونوا اليوم فى نعيمكم،و كلوا و اشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيّام الخاليه» (۱)، و التفت الفخر الرازى إلى معنى لطيف للكلمه فقال:و الاسلاف فى اللغه تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض،و منه يقال:أسلف فى كذا إذا قدّم فيه ماله (۲).

و الذى أراه أنّ الصيام أحد مفردات الاسلاف،أمّا الكلمه فهى عامه تتسع لكل الصالحات كالإنفاق و الجهاد و الصلاه و..التى هى ثمن الجنه بعد فضل اللّه و:

«شتّان ما بين عملين:عمل تذهب لذته و تبقى تبعته،و عمل تذهب مؤونته و يبقى أجره» (۳)، و ذلك هو الفرق بين أصحاب النار و أصحاب الجنه.

[۲۵-۲۷]و يمضى السياق قدما فى تصوير جزاء الكفار الذين تعطى كتبهم فى شمالهم دلاله على الشؤم و سوء المصير،و ذلك لتتوازن معادله الخوف و الرجاء فى ذهن الإنسان و يسمو بنفسه فى آفاق القرب من اللّه،يدفعه الرجاء للمزيد من العمل الصالح،و يردعه الخوف عن محارم اللّه و اقتراف السيئات.

وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ

۱- ۱) الدر المنثور/ج ۶ ص ۲۶۲

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۳۰ عند الآيه.

۳- ۳) نهج البلاغه/حكمه ۱۲۱.

الذی اختطّه و ألّف ما فیه بنفسه.

بِشِمالِهِ فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ و تعکس هـذه الآیه مـدی الفارق بین الإثنین:الأول الـذی یکاد یطیر فرحا بکتابه،و یـدعو الآخرین لقراءته حتی یشارکوه السرور،و الآخر الـذی لیس لا یـدعو الآخرین لقراءه کتابه بل یتعـذّب هو خجلا و حسره ممّا فیه،إلی حدّ یتمنّی لو ذهب به إلی العذاب دون أن یقرأ کتابه.

قال الفخر الرازی:و اعلم أنّه لمّا نظر فی کتابه یـذکر قبائح أفعاله خجل منها، و صار العذاب الحاصل من تلک الخجاله أزید من عـذاب النار،فقال:یا لیتهم عـذّبونی بالنار و ما عرضوا هـذا الکتاب الـذی ذکّرنی قبائح أفعالی،حتی لا أدفع هـذه الخجاله،و هـذا ینبهک علی أنّ العذاب الروحانی أشد من العذاب الجسمانی (۱)،و إلی مثل هذا ذهب أکثر المفسرین.ثم یضیف القرآن بلسان حال أصحاب الشمال قائلا:

وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ ممّا یـدل علی وجود ثلاثه أنواع من العـذاب:عذاب الفضیحه بین الناس و الذی یحلّ بأصحاب الجحیم فور إعطائهم کتبهم بشمالهم ممّا یعرفهم لأهل المحشر بأنّهم من الخاسرین المعذّبین،و العذاب النفسی(بالخجل و الندم)الذی یحلّ بالنظر فی صحائفهم المسودّه بالقبائح و السیئات التی اکتتبوها لأنفسهم،و العذاب الذی یتلقّونه عند ورودهم النار،و لذلک فإنّهم یتمنّون لو أنّ موتتهم الدنیویه کانت النهایه،فلا بعث و لا حساب و لا جزاء بعدها.

ص:۳۰۰

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ عند الآیه

يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ و القاضيه التى ينتهى بها كلّ شىء.و حينما تدقّق النظر فى الآيات قد تهتدى إلى حقيقه لطيفه و ذلك من تكرار صيغه التمنّى على لسان أصحاب النار(الآيات ۲۷/۲۵)و هى: أنّ من أهم أسباب الخسران هو التمنّى الذى يعتمد عليه الكافر بدلا عن العمل و السعى،و الذى لا يغيّر فى الواقع شيئا،لا فى الدنيا و لا فى الآخره..و إنّه قادر على النجاه من سوء العاقبه و الجزاء و الانتقال من أصحاب الشمال إلى أصحاب اليمين و لكن عبر السعى و العمل،و ليس بالتمنيات الخادعه التى يلوكها بلسانه حتى فى عرصه القيامه.

[۳۰/۲۸]و حيث أنّ القيامه-كما سبق و بيّنا-سمّيت بالحاقه لكونها تحقّ الحق(تظهره و تغلّبه)فإنّ أصحاب الشمال الذين حجبهم ضلالهم عن معرفه الحقائق و التسليم لها فى الدنيا تزيل حوادث الآخره و أهوالها الغشاوه التى على قلوبهم فيرون الحق بكلّ وضوح و جلاء،و يكتشفون أخطاءهم الفادحه التى طالما أصرّوا عليها و حسبوا أنّهم يحسنون بها صنعا.و تبرز هنا المفارقه الرئيسيه بين المؤمن الذى لا يفاجئه البعث و الجزاء،باعتباره كان حاضرا عند هذا الغيب و هو فى الدنيا «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ »،و بين الآخر الذى كذّب بالآخره،و وجد نفسه أمام حقيقتها يومئذ فاكتشف أخطاءه فى وقت لا تنفع المعرفه و لا ينجى الإيمان.

و من أفدح الأخطاء التى يقع فيها الإنسان،و بالتالى يدخل بسببها أكثر الناس نار جهنم،هو الاعتماد على المال،و الحال أنّه لا ينفع أحدا فى الآخره،لأنّ العمل الصالح وحده زاد النجاه و الفلاح فيها.

إنّ المال بذاته لا يغنى،و إنّما ينفع إذا عمل به أعمال خير و صلاح بالإنفاق فى سبيل اللّه..و لم يفعل ذلك أصحاب الشمال لأنّهم كفروا بالحساب و الجزاء.

و الآیه توجّهنا إلی معنی لطیف للغنی فهو لا یتحقق بوجود المال و کثرته،إنّما بأدائه دوره،و هدفه فی الحیاه،فأصل الغنی من ارتفاع الحاجه،و مع أنّ المال یقضی للمترفین و المخدوعین بعض الحاجات الظاهریه،و تستطیل به أیدیهم إلی کثیر من بهارج الدنیا و زخارفها،إلاّ أنّ ذلک لا یعدّ غنی إنّما الغنی حقّا یکون بانقضاء الحاجات الحقیقیه للبشر،و أهمّها رضی اللّه و الزحزحه عن النار التی لم یوظّف أصحاب الشمال و بالذات المترفون منهم أموالهم من أجل قضائها.

مٰا أَغْنیٰ عَنِّی مٰالِیَهْ و لقد بیّنت أحادیث أئمه الهدی المعنی الأصیل للغنی،

قال الإمام علی علیه السلام :

«الغنی و الفقر بعد العرض علی اللّه» (1)، و

جاء رجل إلی الإمام الصادق علیه السلام فشکا إلیه الفقر،فقال:«لیس الأمر کما ذکرت،و ما أعرفک فقیرا»،فقال:

و اللّه یا سیدی ما اسبنت(ما عرفت)،و ذکر من الفقر قطعه و الصادق علیه السلام یکذّبه، إلی أن قال علیه السلام :«خبّرنی لو أعطیت بالبراءه منا مائه دینار کنت تأخذ؟»قال:

لا،إلی أن ذکر ألوف الدنانیر،و الرجل یحلف أنّه لا یفعل،فقال له:«من معه سلعه یعطی هذا المال لا یبیعها هو فقیر؟» (2)، و العمل الصالح و الولایه هما اللذان یبقیان مع الإنسان و یغنیانه یوم القیامه،و لیست الأموال التی تفنی أو یرتحل عنها خالی الیدین.

و یضیف القرآن علی لسان من یؤتی کتابه بشماله قوله:

هَلَکَ عَنِّی سُلْطٰانِیَهْ

ص:302

1- 1) نهج البلاغه/حکمه 452.

2- 2) موسوعه بحار الأنوار/ج 67 ص 147.

و لعل من أسباب تقديم الحديث عن المال على الحديث عن السلطان أنّ المال هو طريق الإنسان للسلطه و الحكم و الهيمنه فی أغلب الأحيان.و فی معنی السلطان ذهب أكثر المفسرين القدماء و الجدد إلی أنّه الحجّه،باعتبارها تعطی صاحبها الحق و الهيمنه،و تجعل الآخرين يسلّمون له،قال القمی:«سلطانيه»أی حجته، و مثله الدر المنثور و الكشّاف و التبيان،و زاد الرازی بقوله:ضلّت عنی حجتی حين شهدت علیّ الجوارح بالشرك (۱)،و ما أرجحه أن تصرف الكلمه إلی عموم السلطان،بينما(الحجه)من مصاديقه،و هناك مصداقان أساسيان آخران نجد الإشاره إليهما:

الأول:السلطان بمعنی الهيمنه الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه التی عاده ما ترافق المال و الثروه عند المترفين،فتزيدهم بعدا عن الحق و غرورا ببقائها،فإنّها تسلب بالموت و فی الآخره بصوره أشمل،و قد أشار إلی هذا المصداق العلاّمه الطبرسی بقوله:«سلطانيه»أی ملكی و تسلّطی علی الناس (۲)،و ما أحوج الحكّام و المترفين إلی استحضار ذلك المشهد فی أذهانهم لعلّه يدعوهم إلی العدل و توجيه السلطه فی مرضاه اللّه عزّ و جلّ..و إنّ الآيتين« مَا أَغْنیٰ عَنِّی مٰالِيَهْ هَلَكَ عَنِّی سُلْطٰانِيَهْ »لهما أيضا لسان حال كلّ طاغيه و حاكم قرعته يد القدره و الجزاء فی الدنيا قبل الآخره.

الثانی:السلطان بمعنی الإراده،إذ أنّ الوجه البارز من الكلمه هو الهيمنه التی تجعل إراده المتسلّط ماضيه و نافذه،و هذه هی الأخری تسلب بكلّ ما تؤدی إليه الكلمه من معنی،لأنّ السلطه هنالك للحق و لمن تمسك به.

۱- ۱) راجع التفاسير المذكوره عند الآيه.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۳۴۸.

و تؤكّد الآيه اللاحقه هذا المعنى حيث يأتى أمر اللّه لملائكه العذاب بوضع الأغلال على أعدائه كرمز لسلبهم الحريه،فلا يستطيعون حتى حراكا و هم يعذّبون.

و إنّه ليقطع عليهم تمنياتهم و ملامتهم لأنفسهم بنقلهم إلى عذاب النار.

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ «فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته،و لا تنفعه قبيلته»،

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«ثم تجيء صحيفته تطير من خلف ظهره فتقع فى شماله،ثم يأتيه ملك يثقب صدره إلى ظهره،ثم يفتل شماله،ثم يقال له:اقرأ كتابك،قال:فيقول:أيها الملك !كيف أقرأ و جهنم أمامي؟قال:فيقول اللّه:دقّ عنقه،و اكسر صلبه،و شدّ ناصيته إلى قدميه،ثم يقول خذوه فغلّوه فيبتدره لتعظيم قول اللّه سبعون ألف ملك غلاظ شداد،فمنهم من ينتف لحيته،و منهم من يحطّم عظامه،قال:فيقول:أما ترحموني؟قال:فيقولون:يا شقى كيف نرحمك و لا يرحمك أرحم الرّاحمين؟أ فيؤذيك هذا؟فيقول:نعم أشدّ الأذى،قال:فيقولون:يا شقى و كيف لو قد طرحناك فى النار؟قال:فيدفعه الملك فى صدره دفعه فيهوى سبعين ألف سنه» (۱)، و

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «و أمّا أهل المعصيه فخذلهم فى النار،و أوثق منهم الأقدام،و غلّ منهم الأيدى إلى الأعناق،و ألبس أجسادهم سرابيل القطران،و قطّعت لهم منها مقطّعات من النار» (۲)، و لعمرى إنّ أمر اللّه بالأخذ ليخصّ بالذات الطغاه من الحكّام الذين تسلّطوا على رقاب الناس فراح ضحيه لأوامرهم بالسجن و التعذيب و القتل الكثير من الأبرياء و الصالحين..و قد ذكر صاحب الكشّاف(أنّها نزلت فى أبى جهل)لأنّه كان سلطانا يتعظّم على الناس (۳).

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۸ ص ۳۲۰.

۲- ۲) المصدر/ص ۲۹۲.

۳- ۳) الكشّاف/ج ۴ ص ۶۰۴.

[۳۷-۳۱]و بعد أن يغلّ المجرمون تؤمر الملائكه بواحدهم أن تصليه بالنار.

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ و من طبيعه الإنسان أنّه يهبّ للدفاع عن نفسه أو الهرب عند مواجهه الخطر،أمّا المجرمون الذين تغلّ أيديهم و أرجلهم فإنّهم يقاسون عذاب جهنم و عذاب الأغلال فی نفس الوقت،و ذلک من أشدّ ألوان العذاب أن يصطلی الواحد بالنار و لا يجد سبيلا للخلاص و المقاومه.

قال الرازی عن المبرّد:أصليته النار إذا أوردته إيّاها (۱)، و قال القمّی:

(أی)أسکنوه (۲)،و يبدو لی أنّ أصل الاصطلاء من الصله و الوصول، و«صلّوه»،أی اجعلوا النار واصله إليه کأکثر ما يکون وصولها لأحد و اتصالها به کيفا و زمنا،و قيل صله الرحم لأنّ المراد العلاقه الحميمه المتصله فلا انقطاع فيها.

ثُمَّ فِی سِلْسِلَهٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُکُوهُ أی طولها سبعون ذراعا،و الذراع ما يساوی ۱۸ بوصه ۱۲۶۰ X۷۰ بوصه، و هذا الطول کاف لتلتف السلسله علی جميع أجزاء البدن،فکيف و بعض المفسرين يعتبر السبعين للمبالغه،کقول اللّه: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (۳)؟! و قد ذهب البعض إلی أنّها سبعون ذراعا و لکن من أذرع الملائکه الطويله التی لا نعلم قياسها،و قيل بأن الحلقه الواحده منها ما بين الرحبه فی الکوفه و مکّه،و نحن

۱- ۱) التفسير الکبير/ج ۳۰ عند الآيه.

۲- ۲) القمّی/ج ۲ عند الآيه.

۳- ۳) راجع الکشاف و التفسير الکبير/ج ۳۰ عند الآيه.

لا نخوض فی هذا الأمر بل نورد

حدیثا عن السلسله مرویّا عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «لو أنّ حلقه واحده من السلسله التی طولها سبعون ذراعا وضعت علی الدنیا لذابت الدنیا من حرّها» (۱)، و یحتمل أنّها سلسله عظیمه تمتد فی کلّ جهنم إلاّ أنّ لها أذرعا طول الواحد منها سبعون ذراعا یسلک کل مجرم فی أحدها(و اللّه العالم).

أمّا کیف یسلکون فیها؟فهناک احتمالان:

الأول:أنّها تخترق أبدانهم،کأن تدخل من أفواههم و تخرج من أدبارهم و تخرق بها أبدانهم من کل ناحیه،فأصل السلک من إدخال الشیء فی الشیء، کإدخال الإبره فی الخیط،و کذلک ینظم فیه الخرز و نحوه،و یقال دخل السلک العسکری أی انسلک فی الجندیه (۲).

الثانی:أنّه یطوّق بالسلسله و تلفّ علیه فکأنّه یسلک فیها،قال الزمخشری فی الکشّاف:أی تلوی علیه حتی تلتف علیه أثناؤها (۳).

و قبل أن ننطلق مع الآیات فی بیانها للذنوب الأساسیه التی صارت بهم إلی ذلک العذاب المقیم نقف عند اللهجه القرآنیه المتفرده بها هذه السوره،أعنی إضافه الهاء فی الکلمات:(کتابیه،حسابیه،مالیه،سلطانیه)و ما هو وزنها من الناحیه اللغویه؟ لقد اختلف المفسرون و القرّاء أمام هذه الظاهره القرآنیه فقیل:

۱-أنّ الهاء للسکت و الاستراحه و من ثمّ یجب الوقف عندها بین الآیات

ص:۳۰۶

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۰۹.

۲- ۲) المنجد ماده سلک.

۳- ۳) الکشاف/ج ۴ عند الآیه.

لتصح القراءه و لتثبت الهاء،ثم ترى البعض قد أوجب الوقف معتبرا الهاء جزء من القرآن لا يجوز حذفه بالوصل عند القراءه و لا بغير ذلك.

۲-و قال البعض:أنّها جعلت لنظم رؤوس الآى،و ذلك ممّا لا يليق نسبته لكلام اللّه عز و جل،لأنّه كما تؤكّد الآيه(۴۱) «وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شٰاعِرٍ »،لأنّ الشاعر يعتبر القافيه أصلا فإذا عجز من نظمها تخبّط فى النحو و الصرف،و المعنى من أجل حفظها واحده،و حاشا للّه أن لو أراد النظم أن تعجزه القوافى،ثم من قال أنّ القرآن يلتزم بالقافيه فى سوره و آياته؟فهذا قوله تعالى: لِلْكٰافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دٰافِعٌ* مِنَ اللّٰهِ ذِى الْمَعٰارِجِ* تَعْرُجُ الْمَلاٰئِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ* فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً* إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَ نَرٰاهُ قَرِيباً* يَوْمَ تَكُونُ السَّمٰاءُ كَالْمُهْلِ* وَ تَكُونُ الْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ* وَ لاٰ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱).

۳-و الذى يبدو لى أنّ الهاء ليست زائده حتى تحذف بالوصل فى القراءه، و أنّها لم توضع لنظم نهايات الآى،و ليست إضافتها خارجه عن لغه القرآن (العربيه)التى أنزل بها،و لقد أخطأ أولئك الذين حاولوا تقييم كلام اللّه بشعر العرب و كلامهم،و يجب أن لا يدعونا عجزنا عن إدراك بعض المعانى القرآنيه إلى افتراضات بعيده،على أنّ للصيغه(كتابيه،حسابيه)إيحاء نفسيّا قد يبلغه الباحثون فى يوم من الأيّام.و ما يهمنى التأكيد عليه أنّنا لم نؤت من العلم إلاّ قليلا، فالموقف السليم عند العجز عن فهم الآيات هو الاعتراف بالجهل و التواضع للحق لا الخوض فيما لا نعلم أو الطعن فى كلام اللّه.

و نعود إلى الآيات الكريمه،و نستمع إلى صفات أصحاب الشمال،فما هى؟ الأولى:عدم الإيمان باللّه.

ص:۳۰۷

۱- ۱) المعارج۲/-۱۰.

إِنَّهُ كٰانَ لاٰ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ و عنـد ما كفروا باللّه العظيم استحقّوا جزاء الضعف من العذاب.لماذا؟ أولا:لأنّ اللّه عظيم انتشرت آيات قدرته و جلاله فى كلّ شىء،فكيف جاز لهم الكفر به مع ذلك؟! ثانيا:إنّ الذنب يزداد قبحا حينما يكون عصيانا لربّ عظيم.

و لقد عبّر أئمه الهدى عن هذه الحقيقه

بقول الإمام السجاد-عليه السلام-:

«لا تنظر إلى الذنب،و لكن أنظر إلى من عصيت» (1)، فكيف و أنّ عدم الإيمان باللّه أصل كلّ خطيئه و ذنب؟! إنّ عدم الإيمان جذر كلّ فساد و ضلال و فاحشه و زيغ،فمن كفر باللّه أشرك به،لأنّ من لا يؤمن باللّه سيتبع غيره و يتألّه إليه بشرا أو حجرا أو هوى نفس،و من لم يؤمن باللّه ضلّ ضلالا بعيدا،لأنّه لم يتبع رسالته فتراه يتخبّط فى ظلمات الباطل،و من كفر باللّه أوغل فى الفواحش بغير حساب حيث أنّ الإيمان هو الذى يحجز البشر عن الزيغ و يردعه عن المعاصى.

و قد وصف القرآن ربنا بالعظمه هنا لأمرين:أحدهما:لكى لا يظن أحدا بأنّه تعالى حينما يعذّب المجرمين بذلك العذاب الغليظ الذى وصف آنفا فى الآيات (30-32)أو ما سيأتى بيانه فى الآيات(35-36)فإنّه يظلمهم،كلاّ.إنّ الجزاء يبقى أبدا أقل من الذنب،الثانى:ربما لكى نهتدى إلى أنّ مشكله الكثير من أصحاب الشمال و ربما كلهم ليس محض الكفر باللّه،و لكنّ مشكلتهم عدم الإيمان بأسمائه الحسنى و صفاته المثلى،كما قال تعالى:

1- 1) موسوعه بحار الأنوار/ج 73 ص 154.

مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۱)،فأشركوا باللّه أو آمنوا بصفات تعالى ربنا عنها:جسّدوه أو زعموا انه مغلول اليدين أو أنّه-سبحانه-ظالم للعبيد أو هازل فى الوعيد أو ما أشبه و كان ذلك مساوقا لعدم الإيمان به رأسا،و هذه كلّها جرّتهم إلى واد سحيق من الانحراف و الضلال فى الدنيا و العذاب فى الآخره.

من هنا نستطيع القول بأنّ حقيقه التسليم و العبوديه للّه عزّ و جلّ تتأسس بصورتها السليمه على المعرفه بعظمته من خلال آياته و أسمائه الحسنى و من ثمّ استشعار عظمته فى القلب.

الثانيه:و ثمّه صفه سيئه أخرى عند أصحاب الشمال تتصل بعلاقتهم مع عباد اللّه،و هى عدم قضاء حوائجهم بل عدم الحث على قضائها.

وَ لاٰ يَحُضُّ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ فهو يرتكب ذنبين عظيمين:أحدهما:الامتناع عن الإنفاق على المحتاجين الذين فرض اللّه لهم حقّا فى أموال الناس،و الآخر:تركه لواجب الأمر بالمعروف، و الأخير نتيجه طبيعيه للأوّل،ذلك أنّ الذين يبخلون بأموالهم على الناس يتمنّون أن يكون المجتمع مثلهم حتى يبرّروا موقفهم.

و للمتدبّر أن يتصور مدى صلافه من لا يحض على طعام المسكين و انعدام العاطفه و الوجدان عنده،حيث يرى مسّ الجوع و الحاجه عند أضعف طبقه اجتماعيه ثم لا يبالى بالأمر،و لا يتحمّل المسؤوليه،مع وجود أمر اللّه بالإنفاق،و كون ما عنده من نعمه و فضله الذى يأتمن عليه خلقه.

و لقد ربط الإسلام بين الإيمان باللّه و النفع لعباده و كأنّهما صنوان لا ينفكّان،

۱- ۱) الحج/۷۴.

قال رسول اللّه صلى الله علیه و آله : «أحب عباد اللّه إلی اللّه جلّ جلاله أنفعهم لعباده، و أقومهم بحقّه» (۱)،

جاء فی حدیث قدسی أنّ اللّه عزّ و جلّ قال:«الخلق عیالی، فأحبّهم إلیّ ألطفهم بهم،و أسعاهم فی حوائجهم» (۲)، و حیث ننعم الفکر فی العلاقه بین الکفر باللّه و عدم الحض علی طعام المسکین نهتدی إلی أنّ المعتیّین بالآیتین لا خلاق لهم فی الآخره،و لذلک یعذّبون دون رحمه،لأنّهم لا إیمان لهم باللّه یدعوهم إلی العمل الصالح من الزاویه الدینیه،و لا إنسانیه تدعوهم إلی الإحسان، فقد یکون الإنسان کافرا باللّه أو مشرکا و لکن تبقی فیه بقیّه من الإنسانیه تحثّه علی بعض الخیر،فهو إن لم یخفّف عنه العذاب لإیمانه فسوف یخفّف عنه لإنسانیته، حیث لا یضیع اللّه أجر المحسنین.

و إذا آمنّا بهذه الفکره فی ضوء الإیمان بأنّ الجزاء الأخروی صوره لعمل الإنسان و اختیاره فی الدنیا فإنّ تعامل أصحاب الشمال الصلف مع عیال اللّه المساکین فیها هو الذی یحدّد نوع تعامل اللّه معهم یوم الجزاء.قال الزمخشری:دلیلان قویّان علی عظم الجرم فی حرمان المسکین:أحدهما:عطفه علی الکفر و جعله قرینه له، و الثانی:ذکر الحض دون الفعل،لیعلم أنّ تارک الحض بهذه المنزله فکیف بتارک الفعل؟ (۳).

فَلَیْسَ لَهُ الْیَوْمَ هٰاهُنٰا حَمِیمٌ و هو القریب الذی یهتم بالإنسان و یحامی عنه،فأمثاله من المجرمین مشغولون بأنفسهم عن غیرهم،و أمّا المؤمنون فإنّه عدوّهم و هم أعداؤه لکفره باللّه،و من یجرأ

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۷ ص ۱۵۲.

۲- ۲) أصول الکافی/ج ۲ ص ۱۹۹.

۳- ۳) الکشّاف/ج ۴ ص ۶۰۵.

على الشـفاعه لمن غضب اللّه العظيم عليه؟و لعلّ للآيه ظلالا يتصل بعلاقات الإنسان الاجتماعيه،و أنّه ينبغى أن يبحث عمّا يـدوم منها و ينفعه فى الدّارين، فإنّ لأصحاب الشمال أخلّاء كثيرين و أصدقاء بالخصوص المترفين و أصحاب السلطه منهم و لكنّهم لا يحمونهم و لا حتى يسألون عنهم يوم القيامه، اَلْأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (١).

أمّا طعامهم فإنّ المجرمين يكادون يموتون جوعا لأنّهم لا يجدون طعاما،و حيث يمضّ بهم الجوع و يطلبون ما يأكلونه يؤتى لهم بطعام هو لون من أشدّ العذاب.

وَ لاـ طَعامٌ إِلاّ مِنْ غِسْـلِينٍ قال القميّ:عرق الكفار (٢)لأنّه غساله أبـدانهم،و فى الـدر المنثور عن ابن عباس:أظنّه الزقوم،و فى خبر آخر:(هو)الدم و الماء الذى يسيل من لحومهم (٣)إثر التعذيب،و فى التبيان:و قال قطرب يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين،فعبّر عنه بعبارتين (۴) ،و لعل أقرب المعانى ما يخرج من أبـدانهم من جراحه أو أنّه يتصف بمجموعه الصـفات السيئه التى يمكن أن يحويها الطعام الردىء لونا و رائحه و مـذاقا، و لعل النفى ب«لا»يوحى بأنّ أصـحاب الشـمال لا يجـدون الطعام بسـهوله،بل يبقون مـده طويله يتضوّرون جوعـا،و إذا جىء لهم بطعـام فـإنّه لاـ يكون إلاّـ من «غسـلين»،و هـذا يتناسب مع موقفهم من المساكين فى الـدنيا،حيث كانوا لا يشـعرون بجوعهم و عوزهم،فهم بـذلك يـذاقون عـذاب الجوع مما يكشف لهم مدى قبحهم إذ لم يطعموا المساكين و لم يحضّوا على إطعامهم.

١- ١) الزخرف/۶٧.

٢- ٢) تفسير القمّى/ج ٢ عند الآيه.

٣- ٣) الدر المنثور/ج ۶ ص ٢۶٣.

۴- ۴) التبيان/ج ١٠ ص ١٠۶.

إنّ الجزاء فی الآخره هو الصوره الحقیقیه لعمل کلّ إنسان فی الدنیا،فهو فی الواقع الذی یطعم نفسه هناک ما یقدّمه هنا،فالمؤمنون یأکلون من قطوف الجنات العالیه بما أسلفوه من الصالحات،و المجرمون یأکلون طعام الغسلین بما قدّموا من الخطیئات و المعاصی.

لاٰ یَأْکُلُهُ إِلاَّ الْخٰاطِؤُنَ فهم إذن کما وصف اللّه: إِنَّمٰا یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ نٰاراً (۱)حیث یمارسون الخطیئات،و لکنّهم-و قد عمیت بصائرهم عن الحق-لا یرون ذلک إلاّ فی الآخره حین تقع الحاقّه و تکشف الحجب عن کلّ حق کشفا معنویّا و مادیّا.

[۴۱-۳۸]و فی الفصل الأخیر من هذه السوره التی سمّیت بالحاقه یوجّهنا اللّه إلی کتابه العظیم الذی یذکّر بها و یسبقها فی الهدایه إلی الحق و إحقاقه،و کأنّ السیاق یقول لنا بأنّ القرآن حاق لأنّه کالحاقه یجلّی کلّ الحقائق.کما أنّه تعالی أخّر الحدیث عن أصحاب الشمال علی الحدیث عن أصحاب الیمین لیکون لصیقا بکلامه عن کتابه،و ذلک لأنّ الحدیث عن أصحاب النار سوف یستثیر فی السامع السؤال عن النهج الذی فیه الخلاص من غضب اللّه و عذابه،و الفوز بأجر أهل الیمین و عیشتهم الراضیه.

فَلاٰ أُقْسِمُ بِمٰا تُبْصِرُونَ وَ مٰا لاٰ تُبْصِرُونَ و التمهید لأیّ حدیث بالقسم أو بالإشاره للقسم یؤکّد أهمیته و عظم شأنه، و إذ لا یقسم اللّه فذلک یدلّ علی أنّ ما یرید قوله و بیانه غایه فی الوضوح،بحیث لا یحتاج لإقناع الآخرین به إلی القسم،و لکنّه فی الأثناء یلفتنا إلی حقیقه عملیه

۱- ۱) النساء ۱۰/.

واقعیه،و هی:أنّ الحیاه لا تتلخّص فی ما یراه الإنسان ببصره،بل لها جانبان:

جانب ظاهر یحضر عنده بحواسه المادیه،و آخر خفی مغیّب یحتاج إلی العلم و البصیره النافذه لکی یشاهده،و کأنّه بذلک یستحثّنا نحو توسیع معارفنا و التطلّع إلی الوجه الآخر من الحیاه،فهل نکفر بوجود المیکروبات و الفیروسات لأنّنا لا نراها بأعیننا؟کلّا..لأنّ ذلک لا یغیّر من الواقع شیئا،فهی موجوده رغم ذلک..

و هکذا فإنّ من یکفر بالآخره لأنّه لا یراها بعینه فإنّه من الخاطئین (۱).

و من هذه الزاویه یوصل القرآن الآیتین الآنفتین بتأکیده علی أنّ الرساله لیست من بنات أفکار النبی صلی الله علیه و آله ،إنّما هی متصله بالغیب حیث جبریل الأمین یتنزّل بمفرداتها کلمه کلمه و بحروفها حرفا حرفا،بل و بحرکاتها دون نقیصه أو تغییر، فإنّ للرساله جانبین:ظاهرا یتمثّل فی القرآن الذی یبصره الناس بأعینهم و تدرکه حواسهم،و غیبا لا یبصرونه و لا یدرکونه و لا ینبغی لهم ذلک و هو جبرئیل الواسطه بین المرسل و الرسول و رب العالمین الذی یتنزّل من عنده القرآن،و عدم إبصارنا بالجانب الغیبی منها لا یبرّر الکفر بها،و ذلک لسببین:

الأول:أنّ قصور الإنسان عن الإحاطه علما بغیب الحیاه من المسلّمات البدیهیه التی یقبلها کلّ عاقل،و هکذا لا یمکن للبشر الإحاطه بالوحی الالهی، و بذلک ینسف القرآن الشیئیه المادیه عند البعض،کالذین کفروا بالرساله لأنّهم لم یروا جبرئیل وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ مَلَکٌ (۲)أَوْ جٰاءَ مَعَهُ مَلَکٌ (۳).

الثانی:أنّ الجانب الظاهر(القرآن)دلیل قاطع یهدی کلّ ذی عقل إلی

۱- ۱) تقدّم الحدیث حول القسم فی الآیه ۷۵ من سوره الواقعه فراجع.

۲- ۲) الأنعام/۸.

۳- ۳) هود/۱۲.

الإیمان بالجانب الآخر(الوحی)،فإنّ المتـدبر فی الآیات القرآنیه لا بـد و أن یسـلّم بأنّها من عند اللّه،لأنّه یجدها معجزات لا تتأتّی إلاّ للخالق العظیم ببلاغتها و نظمها و معانیها الهادیه للحق،کما قال اللّه:

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ أی رفیع المنزله عنـد اللّه،منزّه،و غـایه فی الأمـانه و الأخلاق فهو لا یقصّـر فی التبلیغ و لا یحرّف،ممّا یؤکّد بأنّ الرساله وصلت سالمه و تامّه کما أرادها اللّه و أنزلها،و هذا الأمر یعطینا الثقه و الاطمئنان بها،و الاعتماد علیها بضرس قاطع.

و فی الآیه تأکیـدان لهـذه الحقیقه:«إنّ»و اللاّم فی«لقول»،و بالإضافه إلی هـذین التأکیـدین اللفظیین هناک ثلاثه تأکیدات معنویه علی أنّ الرساله هی من عند اللّه:

ألف:کلمه«قول»،فالرسول دوره لا یتعدّی نقل الرساله إلی الناس،فهو یقولها و لیس یؤلّفها أو یخلقها.

بـاء:إنّه تعالی لم یقل فلانا(جبرئیل أو محمـد)بل لم یقل نبی و لا ملک..إنّما اختار کلمه«رسول»لأنّها أدلّ علی المعنی المراد من سواها..فالرسول هو الذی یحمل الرساله من عند غیره.

جیم:و إذ امتـدح اللّه رسوله بأنّه«کریم»دلّ ذلک علی أمانته و وصول الرساله کما أراد المرسل،و إذا کان نکران الـذات من أبرز صفات الکریم فإنّنا نفهم من وصف اللّه لرسوله بذلک أنّه تنازل عن ذاته فی قضـیه الرساله للّه،و بالتالی لیس فیها شـیء من عند نفسه.

و لقد اختلفت الأقوال فی المقصود بالرسول،فقال فریق:أنّه جبرئیل الذی یتنزل بالوحی من عند اللّه إلی النبی صلی الله علیه و آله فهو رسول اللّه إلی نبیه،و قال آخرون:

أنّه النبی محمد صلی الله علیه و آله ،و ما أذهب إلیه أنّ الکلمه منصرفه إلی الإثنین،لأنّهما رسولان من عند اللّه و فیهما ذات الصفات الرسالیه،و لأنّ المقصود هنا إثبات أنّ القرآن من عند اللّه و لیس من عند أحد کالنبی أو جبرئیل،ممّا یستوجب التأکید علی الصفات المذکوره فی الإثنین.

وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شٰاعِرٍ لأنّه لا یشبه أقوال الشعراء لا فی أوزانه و قوافیه و لا فی بلاغته،إذ المسافه بین بلاغته و أدبه الرفیع و بین بلاغه الشعراء و أدبهم مسافه لا یعلمها إلاّ اللّه،فهی کما

وصفها الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله بقوله:«فضل القرآن علی سائر الکلام کفضل اللّه علی خلقه» (۱)، و لا فی معانیه لأنّ الشاعر قد یهمّه ظاهر الکلام فقط فیتخبّط فی المعنی،و لو کان الرسول کالشعراء لکان یضخّم الأمور حتی إذا نقل رساله اللّه، فتلک طبیعه الشعراء.

و أعظم مفارقه بین رساله اللّه و الشعر أنّها تنطوی علی الحق و تهدی إلیه،بینما ینطوی أغلب الشعر علی الباطل،و أنّها تعبّر عن الحقائق الواقعیه،بینما یطلق الشعراء لعواطفهم و ظنونهم العنان دون حساب،فهم یعتمدون علی المشاعر و الأحاسیس بینما تعتمد رساله اللّه علی علمه الواسع،من هنا نستطیع القول بأنّ کلمه الشاعر لا تنحصر فی الذی ینظّم الأبیات و القصائد،و إن کان من مصادیقها الجلیه،إنّما تتسع لکل من یتبع الثقافه البشریه المنطلقه من الظنون و المشاعر البشریه لا من العلم الإلهی کأصحاب النظریات و الفلسفات،و لعل هذه المفارقه هی السر فی فشل النظریات البشریه و تزلزلها، و ثبات القیم الإلهیه و نجاحها،و إلاّ

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۹۳ ص ۱۹..و لا یعنی ذلک أنّ القرآن فی منزله الخالق لأنّه مخلوق له عزّ و جلّ و إنّما یعنی أنّ کل فضل فی الکلام من قبل القرآن فهو کفضل من اللّه لأنّه کلامه.

لماذا تتبع الملايين جيلا بعد جيل رسول اللّه و رسالته بينما لا تتبع الشعراء و لا تعتدّ بكلامهم؟ نعم.إنّ إقبال الناس منذ بعث النبی صلی الله علیه و آله إلی الیوم و حتی المستقبل-الذی هو لرسالات اللّه-علی الإسلام و إیمانهم به لآیه بالغه علی أنّها من عند ربّ العالمین.

قَلِیلاً مٰا تُؤْمِنُونَ قالوا:إنّ«ما»هنا بمعنی العدم،أی أنّکم لا تؤمنون البته،و أضافوا:العرب تقول:قلّما یأتینا یریدون لا یأتینا (1)،و لکن یبدو أنّ القله هنا بمعناها حیث ینسجم ذلک مع سائر الآیات التی تنفی الإیمان عن الکثره إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ بینما تثبته للقله وَ قَلِیلٌ مِنْ عِبٰادِیَ الشَّکُورُ .

و کلمه أخیره:إنّ الفرق بین الرسول و بین الشاعر هو الفرق بین الکریم الذی یتنازل عن ذاته و بین من تکون ذاته هی المحور فی کلامه و تحرّکه،فالشاعر یسأل الأجر و الرسول یعطی و لا یسأل،و الرسول یقول الحق و لو علی نفسه بینما الشاعر لا یملک هذه الشجاعه و الإخلاص.کما أنّ قلّه إیمان الناس لن یکون فی یوم من الأیّام مقیاسا للحق،لأنّ الرساله ذاتها حق،و بالتالی فإنّ الداء فی من لا یؤمن و لیس فیها،لأنّها قمّه سامقه قلّ أن یصل ذروتها أحد.

[42]و ینفی القرآن أن تکون الرساله من أقوال الکهنه.

وَ لاٰ بِقَوْلِ کٰاهِنٍ

ص:316

* * *

1- 1) الرازی/ج 30 ص 117.

فمـا هى العلاـقه بين نفى الشـعر و الكهانه؟ أولا:لأنّ الشـعر و الكهانه من الظواهر التى كانت شائعه فى المجتمع الـذى تنزّلت فيه الرسـاله يومئـذ،و كـان الشـعراء و الكهّان يمثّلون طبقه المثقفين و الواعين بين الناس،و إذ ينفى اللّه كون القرآن من أفكار أوعى أفراد المجتمع فإنّه ينفى كونها من عند أىّ أحد من الناس،لأنّ ما يعجز عنه الأقدر لا يستطيع الإتيان به غيره.

ثانيـا:لأـنّ أىّ ثقـافه يـأتى بهـا الإنسـان فإنّمـا يحصل عليها عن أحـد طريقين أو عنهما معا:فإمّا تكون ذاتيه يتفتّق بها عقله و خياله كالشـعر،و إمّـا تأتيه عبر الآخرين كالكهانه التى يتلقّى الكهّان أفكارها من القوى التى يتصـلون بها أمثال الشـياطين و الجن،بغضّ النظر عن الصـحه و الخطأ.و حيث ينفى القرآن الإثنين فإنّما يؤكّد بأنّ الرساله ليست من عند نفس الرسول صـلى الله عليه و آله و لا مصدر آخر يتصل به سوى وحى اللّه عزّ و جلّ.

إنّ الرساله هى الحق المرتكز فى فطره الإنسان و عقله،و آياتها تترى و تتواصل الحجج الداله عليها حتى يقتنع الإنسان بها،ثم أنّها تقوم بدور تذكره البشر و تنميه عقله و إرادته.

قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ و القليل هنا حسبما يبدو لى بمعناه المعروف.

و لعل الترتيب فى النفى بتقـديم نفى الشـعر ثم نفى الكهانه ب«و لا»يهـدينا إلى أنّ الكهانه فى عرف المجتمع أرفع و أعجب من الشعر،كما فى قول اللّه: «قُلْ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجٰارَهِ » (١).

١- ١) راجع تفسير هذه الآيه فى سوره الجمعه.

و الكهانه من حيث المعنى هى التحدّث بالغيب،و الكهّان هم الذين يدّعون العلم به،أمّا من حيث اشتقاقها اللفظى فيبدو أنّها من الأسماء الدخيله لأنّ أصلها دخيل على المجتمع العربى من الثقافات الجاهليه التى تسرّبت إلى الديانات السماويه كاليهوديه و النصرانيه و من خلالهما انتقلت إلى العرب،و يشير إلى أنّ الكلمه مستعربه صاحب المنجد إذ يقول:و اللفظه إمّا من كهن بالعبرانيه،أو من كهنا بالسريانيه (۱)،و الأقرب أنّها قدمت اسما و حرفه من الشعب العبرى، لأنّ اليهود كانوا يسكنون شبه الجزيره،و كانت لهم محاولات لنشر مبادئهم و أفكارهم فيها.

و ثابت تاريخيّا أغلب روّاد الكهانه من اليهود و النصارى و قد اتخذوها سبيلا للوصول إلى الزعامه الروحيه.

أمّا كيف يقضى الكهّان بما يحسبه الناس غيبا؟الجواب للأسباب التاليه:

أولا:الذكاء المتميّز الذى يساعدهم على التقاط إشارات الحقائق و إرهاصات الظواهر كبعض الجواسيس المتفوّقين اليوم.

ثانيا:القدره على استشفاف المستقبل و التنبّأ به،و هذه القدره يمتلكها أغلب الناس إلّا أنّ الكهنه ينمّون هذه القدره فى أنفسهم شأنهم شأن السياسيين الكبار أو لاعبى الشطرنج و من أشبه.

ثالثا:الاتصال بالجن و الأرواح الشيطانيه عبر رياضيات روحيه معينه شأنهم شأن المرتاضين اليوم.

رابعا:معرفتهم بالثقافات و العلوم الغريبه عن ذلك المجتمع الجاهلى، و هذه العوامل كانت تساعد الكهنه على التعرّف على بعض الحقائق المجهوله عند الناس و التى كانوا يخلطونها بكثير من الأكاذيب و الأساطير.

۱- ۱) راجع المنجد ماده كهن.

و حول أصل الكهانه

جاء فی الخبر المأثور فی كتاب الإحتجاج: إنّ الزنديق سأل الإمام الصادق عليه السلام فمن أين أصل الكهانه و من أين يخبر الناس بما يحدث؟ قال عليه السلام :«إنّ الكهانه كانت فی الجاهليه،فی كلّ حين فتره من الرسل،كان الكاهن بمنزله الحاكم يحتكمون إليه يشتبه عليهم من الأمور بينهم فيخبرهم عن أشياء تحدث،و ذلك من وجوه شتّی:فراسه العين،و ذكاء القلب،و وسوسه النفس،و فتنه الروح،مع قذف فی قلبه،لأنّ ما يحدث فی الأرض من الحوادث الظاهره فذلك يعلم الشيطان و يؤديه إلی الكاهن،و يخبره بما يحدث فی المنازل و الأطراف» (۱)، و تهدينا هذه النهايه إلی أنّ نسبه الصدق لدی الكهّان فيما يتصل بأسرار الناس تكون أكبر من نسبتها فی الحديث عن الغيب،لأنّ الأسرار قد وقعت و اطّلع عليها الجن الذين يتصلون بهم و يخبرونهم،و ليس الغيب كذلك،و لا سيما فيما يتصل بوضع برنامج حياتی متكامل فی بصائر العقل و تزكيه القلب و تنميه الإراده و نظام الحياه،فإنّه لم يبلغه أیّ كاهن عبر التاريخ.إنّه فقط معاجز الرسل! [۴۳]إنّ التمايز بين خط الرساله و الثقافات البشريه واضح لا غموض فيه، و لذلك فإنّ نظره فاحصه للقرآن تهدينا إلی أنّه ليس شعرا و لا كهانه إنّما رساله اللّه إلی خلقه.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ أولا:أنّ القرآن معجزه اللّه الخالده،لفظا بأدبه و بلاغته و نظمه و..و..، و معنی بهداه و معانيه،و الذی يدر القرآن من جانبيه(الظاهر و الباطن)يتيقّن بلا أدنی شك أنّه فوق قدرات العالمين إنسا و جنّا،و هذا ما توحی به كلمه«تنزيل»إذ لا ينزل الشیء إلاّ من المكان العلی،و بتعبير آخر:إنّه تعالی لو لم ينزل الرساله

۱- ۱) الاحتجاج/ج ۲ ص ۳۳۹.

بلطفه لما كان العالمون-مهما تفتّقت عبقريّاتهم و بلغت قدراتهم-قادرين على السموّ إلى مقام الإتيان بمثل آيات القرآن..لا بالشعر و لا بالكهانه،و لو بلغ الأمر أن تظافرت القوى و التقت الحضارتان،حضاره الإنس و الجن قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۱).

ثانيا:أنّ اللّه تعالى يتجلّى فى كتابه بصفاته و أسمائه الحسنى،و كتابه يهدى الله من بدايته حتى نهايته،و إنّ القارئ آياته و المتدبّر كلماته ليرى ربه ببصيره الإيمان و اليقين،

قال الإمام الصادق عليه السلام : «لقد تجلّى اللّه لخلقه فى كلامه و لكنّهم لا يبصرون» (۲)، و

قال الإمام على عليه السلام : «فبعث اللّه محمّدا..بقرآن قد بيّنه و أحكمه،ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه،و ليقرّوا به بعد إذ جحدوه،و ليثبتوه بعد إذ أنكروه،فتجلّى لهم سبحانه فى كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته،و خوّفهم من سطوته،و كيف محق من محق بالمثلات،و احتصد من احتصد بالنقمات» (۳) إنّ المسافه بين كلام اللّه و كلام المخلوقين ليست بالتى تخفى على ذى لبّ و فطره حتى يجهل أحد التمييز بين الرساله و أفكار المخلوقين.

و لنا وقفه هنا على العلاقه بين الحديث عن الرساله و أنّها من ربّ العالمين بالذات،فلم يقل اللّه:تنزيل من اللّه..أو ما إلى ذلك من أسمائه الحسنى الأخرى.

إنّ أصل كلمه«ربّ»من التربيه بما تعنى الكلمه من نماء و تزكيه و لطف،

۱- ۱) الإسراء/۸۸.
۲- ۲) بحار الأنوار/ج ۹۲ ص ۱۰۷.
۳- ۳) نهج البلاغه/ج ۱۴۷ ص ۲۰۴.

و رساله اللّه هی أظهر آیه علی علاقه الرب الخالق بالمخلوق المربوب،لأنّها وسیله اللّه فی تأدیب خلقه و تربیتهم،و طریقهم لکلّ خیر و نماء و برکه إذا عملوا بها،کما أنّها علامه حنانه و تلطّفه بهم.

و ننقل هنا بعض الأخبار التی وردت فی شأن الآیات الأربع(۴۳/۴۰)فیما یتصل بشأن نزولها عند المفسرین،من ذلک ما رواه ابن إسحاق عن الولید ابن المغیره،و عن النضر ابن الحارث،و عن عتبه ابن ربیعه،و قد جاء فی روایته عن الأول:

«ثم إنّ الولید ابن المغیره اجتمع إلیه نفر من قریش،و کان ذا سن فیهم،و قد حضر الموسم،فقال لهم:یا معشر قریش!إنّه قد حضر هذا الموسم،و إنّ وفود العرب ستقدم علیکم فیه،و قد سمعوا بأمر صاحبکم هذا،فأجمعوا فیه رأیا واحدا، و لا تختلفوا فیکذّب بعضکم بعضا،و یردّ قولکم بعضه بعضا،فقالوا:فأنت یا أبا عبد شمس فقل،و أقم لنا رأیا نقل به،قال:بل أنتم فقولوا أسمع،قالوا:

نقول:کاهن،قال:لا و اللّه،ما هو بکاهن،لقد رأینا الکهّان فما هو بزمزمه الکاهن و لا سجعه،قالوا:فنقول:مجنون،قال: ما هو بمجنون،لقد رأینا الجنون و عرفناه،فما هو بخنقه و لا تخالجه و لا وسوسته،قالوا:فنقول:شاعر،قال:ما هو بشاعر،لقد عرفنا الشعر کلّه رجزه و هزجه و قریضه و مقبوضه و مبسوطه فما هو بالشعر،قالوا:فنقول:ساحر،قال:ما هو بساحر،لقد رأینا السحار و سحرهم،فما هو بنفثهم و لا عقدهم،قالوا:فما نقول یا أبا عبد شمس؟قال:و اللّه إنّ لقوله لحلاوه،و إنّ أصله لعذق،و إن فرعه لجناه،و ما أنتم بقائلین من هذا شیئا إلاّ عرف أنّه باطل،و إنّ أقرب القول فیه لأن تقولوا:هو ساحر،جاء بقول هو سحر یفرّق بین المرء و أبیه،و بین المرء و أخیه،و بین المرء و زوجه،و بین المرء و عشیرته، فتفرّقوا عنه بذلک،فجعلوا یجلسون بسبل الناس-حین قدموا الموسم-لا یمرّ

بهم أحد إلاّ حذّروه إيّاه،و ذكروا لهم أمره...» (۱)و حكى عن الثانى(النضر ابن الحارث)قال:

«فقال:يا معشر قريش!إنّه و اللّه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيله بعد.قد كان محمد فيكم غلاما حدثا،أرضاكم فيكم،و أصدقكم حديثا،و أعظمكم أمانه،حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب،و جاءكم بما جاءكم به قلتم:ساحر! لا و اللّه،ما هو بساحر،لقد رأينا السحره و نفثهم و عقدهم،و قلتم كاهن!لا و اللّه ما هو بكاهن،قد رأينا الكهنه و تخالجهم،و سمعنا سجعهم،و قلتم:شاعر!لا و اللّه ما هو بشاعر،قد رأينا الشعر،و سمعنا أصنافه كلّها هزجه و رجزه،و قلتم:مجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه و لا وسوسته و لا تخليطه.يا معشر قريش!فانظروا فى شأنكم،فإنّه و اللّه قد نزل بكم أمر عظيم..» (۲)[۴۴-۴۷]و نعود للآيات الكريمه حيث تؤكّد أمانه الرسول و صحّه الرساله، بنفى أىّ إضافه منه صلى الله عليه و آله إليها نفيا قاطعا،ممّا يهدينا إلى حقّانيّه الحق،و أنّ اللّه يفرضه على الإنسان فرضا دون أن يتساهل حتى مع حبيبه و أقرب خلقه إليه النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله .

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنٰا بَعْضَ الْأَقٰاوِيلِ قال الزمخشرى:التقوّل افتعال القول كأنّ فيه تكلّفا،من المفتعل،و سمّيت الأقوال المتقوّله أقاويل تصغيرا بها و تحقيرا،كقولك الأعاجيب و الأضاحيك،

۱- ۱) فى ظلال القرآن/ج ۸ ص ۲۱۶.

۲- ۲) المصدر.

كأنّها جمع أفعوله من القول (۱)،و المعنى و لو نسب إلينا قولا لم نقله (۲)، و الافتراض هنا افتراض جدلى يفيد أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يتقوّل-حاشاه-إذ لم نر الوعيد الإلهى تحقّق فى هذا الشأن.و الآيه تزكيه للرسول ليس فيما يتصل بالقرآن و حسب بل فى كلّ نطقه و كلامه.و هذه الشهاده الإلهيه البيّنه آيه على عصمه نبينا صلى الله عليه و آله ،و أنّ سنته كالقرآن ليست من أهوائه إنّما هى بعلم اللّه و حكمته أجراها على لسانه.

لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ معنويّا بسلب سمه النبوه منه،و ماديّا بمجازاته أشد الجزاء،لأنّ خطأ الإنسان يكون أفظع و أسوأ كلّما كان فى موقع أهم،و هذا ما يجعل ثواب نساء النبى و عقابهنّ مضاعفا عند اللّه.و لعمرى إنّه إنذار و وعيد لكلّ من يخون أمانه اللّه،و بالذات أولئك الذين حمّلهم مسئوليه الرساله..أعنى العلماء،فيا ويل الذين يفترون منهم الكذب،و يحرّفون الكلم عن مواضعه.

و قد اختلف فى الأخذ باليمين،فقال جماعه:أنّه كنايه عن الأخذ الشديد باعتبار اليمين رمز القدره،و قال آخرون:أنّه أخذ القوه منه أى سلبنا منه القوه (۳)، لأنّ القوه فى اليمين،فإذا أخذت انتفت،و فى المجمع:لأخذنا بيده التى هى اليمين على وجه الإذلال،كما يقول السلطان:يا غلام خذ بيده،فأخذها إهانه،و قيل:معناه لقطعنا يده اليمنى (۴)،و يبدو لى أنّه الأخذ الشديد،و أخذ اللّه دائما يكون شديدا.أمّا كيف يأخذ اللّه؟فذلك من شأنه.

ص:۳۲۳

۱- ۱) الكشّاف/ج ۴ ص ۶۰۷.

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۳۰ عند الآيه.

۳- ۳) التفسير الكبير/ج ۳۰ عند الآيه.

۴- ۴) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۳۵۰.

ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ فی الـدر المنثور:عرق القلب(عن ابن عباس)و عن عکرمه قال:نیاط القلب (۱)،و فی المنجد:عرق فی القلب یجری منه الـدم إلی العروق کلّها (۲)،و المهم أنّه العرق الـذی لو قطع لما بقی الإنسان حیّا..و لو أخـذ اللّه أحـدا بیمینه فقطع منه الوتین فمن یستطیع أن یمنع عنه إراده اللّه؟ فَما مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِینَ أی ما نعین یمنعون نفاذ أمر اللّه فی شأنه.و الآیه قمّه فی البلاغه إذ تتحدی البشـر فرادی«من أحد»و مجتمعین«حاجزین»فی آن واحد،و ذلک لکی یمس التحدی أفرادها واحدا واحدا دون استثناء تأکیدا للمراد.و ربما یقرأ المتدبر فی تضاعیفها أنّ هناک قوی تسعی للضغط علی القیاده الرسالیه للتغییر من نهجها و التقوّل علی اللّه، فیجب أن لا ـ تستجیب لهـا أو تنخـدع بما عنـدها،لأنّها لا تنفع شـیئا و لا تحجز إراده الربّ عزّ و جلّ.و حیث أنّ الرسول صلی الله علیه و آله مطمئن لهذه الحقیقه فإنّه لا یتوکل إلاّ علی اللّه،و لا ینتمی إلاّ الی الحق،و لا یقول إلاّ الوحی.

و کفی بقول الرسول صـلی الله علیه و آله هـذه الآیـات و إعلانهـا للنـاس مع ما فیها من شدیـد اللهجه دلیلا علی نقله بأمانه،إذ لو کان یتقوّل علی اللّه لکان یحذفها أو یعزّز نفسه بصوره مطلقه دون حدّ و لا شـرط،کما یعزّز الکثیر من الدعاه و الحکّام أنفسـهم حتی علی الحق،و ما أحوج القاده و کل رسالی إلی هذه الشجاعه تأسیا بسیره حبیب اللّه صلی الله علیه و آله .

۱- ۱) الدر المنثور/ج ۶ ص ۲۶۳.

۲- ۲) المنجد ماده وتن.

[۴۸-۵۲]و بعد أن أثبت القرآن بأنّه قول رسول كريم بالمعالجه الموضوعيه الدقيقه،و بالتالى كونه كلام اللّه عزّ و جلّ،ينثنى لبيان صفه أخرى لنفسه.

وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَهٌ لِلْمُتَّقِينَ أو كما قال تعالى فى سوره البقره: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۱)،لأنّ المتقى وحده الذى يرتفع بنفسه و عقله إلى مستوى فهم آياته،و هو وحده الذى يخشى ربه فيلزم نفسه ما فى كتابه من الحدود و الأحكام و القيم لكى لا يتعرض لغضبه و عذابه،و هم وحدهم الذين يملكون الاستعداد للتسليم له،لأنّهم يحافظون على فطرتهم سليمه كما أودعها اللّه فيهم،فإذا بهم يجدون آياته تلتقى بتطلعاتهم الساميه فى الحياه.

و يتأكد لنا بأنّ القرآن تذكره للمتقين إذا عرفنا أنّ التقوى ليست مجرد الخشيه و الخوف..إنّما هى مجموعه من الصفات النفسيه و العقليه و الاجتماعيه التى تجعل الإنسان فى مستوى التذكر بالآيات و فهمها..فالمتقون كما وصفهم ربهم:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ* وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَهِ هُمْ يُوقِنُونَ » (۲)،فالذى لا يؤمن بالغيب كيف يؤمن بالرساله التى مصدرها غيب السموات و الأرض؟و الذى لا يؤمن بالجزاء كيف يلتزم بها؟ إنّ هذه الآيه تهدينا إلى إحدى خصائص الوحى الإلهى المتميّز بها عن الأفكار الأخرى و الفلسفات،و هى أنّه لا يستطيع التفاعل معه و فهمه إلاّ المتقون فقط،فإذا به شِفٰاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً (۳)،

ص:۳۲۵

۱- ۱) البقره۳/.

۲- ۲) المصدر۳/-۴.

۳- ۳) الإسراء۸۲/.

وَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (۱)،و لذلک خاطب اللّه رسوله فقال: وَ إِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَکَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجٰاباً مَسْتُوراً* وَ جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْراً (۲)،و لقد اعترف بهذه الحقيقه الکافرون و المشرکون منذ قبل: وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ وَ فِي آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِکَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ (۳)،و هذه الخصيصه فی الرساله تفسر ظاهره التکذيب بها من قبل بعض الإنس و الجن،لأنّ الرساله فی مرتبه عاليه قلّ أن يسموا إليها البشر،و اللّه يعلم بأنّ جبلا کثيرا منهم سوف يکذّبون بها.

وَ إِنّٰا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ بتأکيدات لفظيه ثلاثه«إنّ»و اللام فی«لنعلم»و«أنّ»،و إذ يکذّبون فلأنّهم لم يسموا إلی درجه المتقين الذين يتذکرون بالوحی و يسلمون لآياته و يستوعبون حقائقه الکبيره،و ليس لعيب فی القرآن.

وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰافِرِينَ و الحسره بنت الخساره،و الأثر المعنوی المترتب عليها،و بذلک يکون القرآن قد أشار إلی الأمرين معا،و إنّما يکون کذلک لأنّه الحق الذی يدمغ باطلهم فإذا هو زاهق فی الدنيا،کما أنّه ميزان لأعمال الخلق فی الآخره،و الشافع المشفّع و الماحل المصدّق،و حيث کذّبوا به يريهم أعمالهم حسرات عليهم يوم القيامه،و لا يشفع لهم، بل يمحلهم بالشهاده عند اللّه ضدهم.

ص:۳۲۶

۱- ۱) فصّلت۴۴/.

۲- ۲) الإسراء۴۶/.

۳- ۳) فصّلت۵/.

و من هنا نكتشف خلفيه تأويل الإمام الصادق-عليه السلام-للآيه فى الإمام على بن أبى طالب أنّه الذى يكون حسره على الكافرين

بقوله: «يعنى عليّا» (۱)، فإنّ إمام الحق فى كلّ أمّه جنبا إلى جنب القيم الإلهيه حجّه اللّه على خلقه عند الحساب و الجزاء حين يحشر كل أناس بإمامهم،ممّا يجعله هو الآخر حسره على الكافرين إذ يكون شاهدا و حجّه عليهم.

وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ أى حق يفرض نفسه على الإنسان فيصبح موقنا به،فهو حق فى عالم الواقع و يقين فى عالم النفس.قال صاحب الكشّاف:إنّ القرآن اليقين حق اليقين، كقولك هو العالم حق العالم،و حدّ العالم،و المعنى لعين اليقين و محض اليقين (۲)، و قال الرازى:أى حق لا بطلان فيه،و يقين لا ريب فيه (۳)،و يأتى التأكيد على هذه الصفه القرآنيه فى سياق نفى الشعر و الكهانه عن آياته كتعريض من طرف خفىّ بالإثنين الأخيرين اللذين ملؤهما الخيال و الكذب و الرجم بالغيب،و هذه من المفارقات الأساسيه بين رساله اللّه و ثقافه الشعراء و الكهنه،أنّها تحتوى على الحق و العلم بأعلى درجاته(اليقين)من دونهما حيث ينطويان على التناقض و الباطل و حيث يعتريهما الخواء الفكرى و العلمى.

و نهتدى من نعت القرآن بأنّه «لَحَقُّ الْيَقِينِ »أنّ انتهاج القرآن هو الشرط الأساسى فى مسيره الإنسان نحو اليقين إيمانا و علما، و أنّه الواجب الذى يفرض نفسه على العقل حينما يتطلع إلى الكمال المعنوى و المادى باليقين،أى أنّ الإنسان يبقى فى حيره و شك لا يصل إلى الإيمان التام ليس بالحقائق العلميه و الحياتيه و حسب،

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۱۰.

۲- ۲) الكشّاف/ج ۴ ص ۶۰۷.

۳- ۳) التفسير الكبير/ج ۳۰ ص ۱۲۰.

بـل بأصـل الوجود،وجود نفسه و الكون من حوله بكـلّ مفرداته،حتى يكتمـل نور عقله بنور وحى اللّه،لأـنّه الـذى يعرّفه بالخـالق الموجـد،و يرتقى به إلى آفـاق اليقين به، فتنكشف عن بصـره و بصـيرته الحجب و الأـغطيه،و تنزاح الغشاوه..إذ لا معنى للإيمان بالمخلوق(ماديّا كالإنسان و الطبيعه،أو معنويّا كالحقائق و القوانين)إلاّ بعد الإيمان بالخالق،و ذلك ما يحقّقه اتّباع القرآن.

و نقف قليلاـ ننعم الفكر فى حكمه الحـديث عن القرآن بهـذا التعـبير: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فى سـياق سوره الحـاقه التى تحـدّثنا عن الجزاء.

إنّ نقطـه التلاـقى بيـن الحـاقه و القرآن تكمن فى أنّ كلاّـ منهمـا يحـقّ الحـقّ و يظهره، و يهـدى الإنسـان إليه،و يرفعه إلى أعلى درجـات الإيمان و التسـليم(حقّ اليقين)، و لكن يبقى القرآن هو الوسـيله العظمى و الأقوم للهـدايه،أعظم حتى من الحاقه نفسـها، لأنّه يهدينا فى الدنيا و الآخره حيث تنفع الهدايه،بل هو طريقنا للإيمان بالساعه و القيامه(الحاقه).

و لكى نفهم القرآن فهما صـحيحا،فنؤمن به،و يكون لنا تـذكره و سبيلا إلى اليقين الخالص،يجب أن نتطهر من الشـرك باللّه عبر تسبيحه،لأـنّ كـلّ انحراف فى حيـاه الإنسان مظهر من مظاهر الشـرك و ظلال له،و كلّما سبّح ربه أكثر فأكثر تسبيحا سـليما كلّما تميّزت فى نفسه و فكره حقائق الوحى عن وساوس النفس، و إلقاءات الشيطان،ثم أنّ التسبيح هو الوسيله لاجتناب القوارع الإلهيه فى الدنيا و الابتعاد عن أصحاب الشمال فى الآخره.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ و قال «بِاسْمِ رَبِّكَ »لأنّه السبيل لتسبيحه تعالى،إذ لا يجـد الإنسان وسـيله للاتصال بربه لو لا أسـماؤه.و قال:«العظيم»بالذات لأسباب منها:

١-أنّه رمز التسبيح الصحيح،حيث معرفه عظمه اللّه شرط رئيسى فى تقديره حقّ قدره.أ و ليست مشكله كلّ صاحب شمال «إِنَّهُ كٰانَ لاٰ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ »؟بلى.و لو أنّنا فتّشنا فى أى إنسان لما وجدناه خاليا من الإيمان بربه، و لكن أصحاب الشمال(مشركين و كافرين)لا يؤمنون باللّه كما هو عظيما منزّها عن كلّ ما لا يليق بمقامه،مما يدعوهم لاتخاذ الأنداد له من خلقه الذين يجدون فيهم بعض العظمه أو يظنونهم عظماء..و هذا هو مكمن الداء الذى انطلقت منه الفلسفات البشريه الضاله..تجسيديه تشبيهيه و شركيه و ما إلى ذلك..و لعلّه من هنا أصبح تسبيح اللّه بذكر عظمته فى الركوع و علوّه فى السجود(سبحان ربى العظيم و بحمده،سبحان ربى الأعلى و بحمده)فرضا واجبا فى الصلوات،بل أصبحت الصلاه من بدايتها حتى نهايتها تسبيحا للّه عزّ و جلّ.

٢-لأنّ السياق يدور حول القرآن و هو أظهر آيات عظمه اللّه على الإطلاق، ففيه تتجلّى عظمته تعالى..أوضح و أوسع و أعظم من تجلّيها فى الطبيعه و فى النفس و فى كلّ شىء آخر.

ص:٣٢٩

سوره المعارج

اشاره

ص:۳۳۱

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-قال:

«أکثروا من قراءه«سأل سائل»فإنّ من أکثر قراءتها لم یسأل اللّه تعالی یوم القیامه عن ذنب عمله،و أسکنه الجنّه مع محمّد إنشاء اللّه» نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۱۱

ص:۳۳۳

الإطار العام

كما هو سياق غالب السور المكيه تعالج سوره المعارج الأمراض القلبيه التى تمنع الإيمان،كما ترسم منهاجا لبناء الشخصيه الربّانيه،ففى الثلث الأول حتى الآيه (١٨)يحدّثنا السياق عن مشاهد من الآخره حيث الأحداث الكونيه المريعه،و ما تخلّفه من الآثار على نفوس المجرمين،فإذا بواحدهم يتمنّى النجاه و لو يفتدى بأعزّ الناس و أقربهم إليه،بل بهم جميعا.

و من خلال الحديث تعالج مرض التسويف بتصحيح رؤيه الإنسان إلى الزمن عبر وعى الزمن الأبدى الذى لا بد أن يعايشه البشر.

و انطلاقا من ذلك يشير القرآن إلى صفه الهلع لدى الإنسان،و التى تبعثه على الجزع حين الشر و المنع عند الخير،فتجعله متقلّب الشخصيه،متغيّرا حسب المحيط و الظروف،مؤكّدا بأنّها ليست فى المصلّين بحق،لأنّهم تساموا إلى أفق الخلود فلم يعيشوا لحظتهم الراهنه فقط،و لم يتأثّروا بعواملها فحسب.

ص:٣٣٤

ثم تعالج الآيات حاله التمنّى التى يعيشـها الإنسان فيطمع أن يدخل الجنه بلا إيمان أو سعى،كلّا..إنّ النجاه من العذاب لا تحصل بـالتمنّى و الودّ،إنّما بالعمل الصالـح و السعى،و إنّ الصـلاه لهى سـفينه نجاه المؤمنين،و هى مفتاح شخصـيتهم الإلهيه التى تتسـم بالإنفـاق و الصـدقه و خشـيه العـذاب و رعـايه الأمـانه و العهـد و حفـظ الفروج إلاّ من حلال و القيام بالشـهاده و المحافظه على الصلوات،و هذا فى الواقع البرنامج المستوحى من الصلاه لبناء شخصيه الإنسان الربّانيه.

و فى الخاتمه(الآيات ۳۶-۴۴)ينسف الوحى مركب الأحلام و التمنّيات الـذى يركبه الهلكى من المجرمين و الكافرين،فلا يرسـو بهـم إلاّ فى بحر لجّىّ مـن عـذاب اللّه و غضـبه،و خسـران الـدنيا و الآخره..لأنّ التمنّيـات تـدخل أصـحابها فى نفـق الخـوض و اللعب،فإذا بهم و قد حان اليوم الذى يوعدون،و لم يستعدوا للقاء اللّه،و لم يمهّدوا للمسـتقبل عملا و زادا.و إنّها لعاقبه كلّ منهج يعتمد التمنّيات بديلا عن السعى و العمل.

ص:۳۳۵

[سوره المعارج (۷۰): الآيات ۱ الی ۱۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ (۱) لِلْكٰافِرينَ لَيْسَ لَهُ دٰافِعٌ (۲) مِنَ اَللّٰهِ ذِی اَلْمَعٰارِجِ (۳) تَعْرُجُ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ
اَلرُّوحُ إِلَيْهِ فِی يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَرٰاهُ قَرِيباً (۷) يَوْمَ تَكُونُ
اَلسَّمٰاءُ كَالْمُهْلِ (۸) وَ تَكُونُ اَلْجِبٰالُ كَالْعِهْنِ (۹) وَ لاٰ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱۰) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ اَلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِی مِنْ عَذٰابِ يَوْمِئِذٍ
بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صٰاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ اَلَّتِی تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴) كَلاّٰ إِنَّهٰا لَظىٰ (۱۵) نَزّٰاعَةً
لِلشَّوىٰ (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّٰى (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعىٰ (۱۸)

اللغه

۸[كالمهل]:قيل:هو الزيت المغلی،و جاء فی مفردات الراغب:درديّ الزيت.

۹[كالعهن]:هو الصوف المنفوش،و قال الراغب فی مفرداته:العهن الصوف المصبوغ،قال: كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ، و تخصيص العهن لما فيه من اللون،كما ذكر فی قوله: فَكٰانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهٰانِ .

ص:۳۳۷

فاصبر صبرا جميلا

هدى من الآيات:

يعايش الكافرون لحظتهم الزمنيه الراهنه معايشه حادّه،لأنّهم لا يعون الماضى بتجاربه و لا المستقبل بتطلعاته،و لا يؤمنون بالآخره.أمّا المؤمن الذى يعيها حيث الزمن هناك طويل طويل لا ينتهى،و يعى حقيقه الخلود،فإنّه يعيش فى عقله و نفسه و عمليّا توازنا زمنيّا..فلا ينهزم أمام التحديات و المشاكل إنّما يصبر صبرا جميلا،لأنّها و إن استوعبت كلّ عمره الدنيوى فهى أقل من ساعه من ساعات الآخره،التى مقدار يوم واحد منها خمسون ألف سنه،و لأنّه لا يدع لحظه تمرّ عليه إلاّ و يملأها بالعمل الصالح،و يستغلّها فى سبيل مستقبل سعيد،ليوازن بين فرصه السعى و العمل القصيره(أعنى الدنيا)،و بين مستقبل الجزاء و الحصاد الخالد(أعنى الآخره)،فإنّك حيث تراه و تدرس حياته تجده شعله من النشاط و السعى المتواصل، و مهما فتّشت فى سنىّ حياته فلن تجد إلاّ شذرا تلك الساعات الضائعه التى تملأ

ص:۳۳۹

عاده حیاه سائر الناس.و کیف یسمحون لأنفسهم بالخوض و اللعب و کل لحظه من عمرهم هی خطوه إلی اللقاء مع اللّه؟!إنّهم لا یحتملون غضب اللّه علیهم، و لا أن ترهقهم ذله عنـد لقائه،و لذلک ترکوا التمنّیات و الأحلام إلی السعی الدؤوب،لأنّه لیس فی أنفسهم ذرّه من شک فی حقیقه الآخره و عذابها الواقع حتی یطلقوا لشهواتهم العنان،أو یعیشوا عیشه الهازل!!

بینات من الآیات:

[۱-۴]

قال الإمام الصادق-علیه السلام-: لمّا نصب رسول اللّه صلی الله علیه و آله علیّا یوم غدیر خم قال:«من کنت مولاه فعلی مولاه»طار ذلک فی البلاد، فقدم علی النبی صلی الله علیه و آله النعمان بن الحارث الزهری فقال:أمرتنا عن اللّه أن نشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّک رسول اللّه،و أمرتنا بالجهاد و الحج و الصوم و الصلاه و الزکاه فقبلناها،ثم لم ترض حتی نصبت هذا الغلام فقلت:من کنت مولاه فعلی مولاه؟!فهذا شیء منک أو أمر من عند اللّه؟!فقال:لا و اللّه الذی لا إله إلاّ هو إنّ هذا من اللّه،فولّی النعمان بن الحارث و هو یقول: اَللّٰهُمَّ إِنْ کٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنٰا حِجٰارَهً مِنَ السَّمٰاءِ ،فرماه اللّه بحجر فی رأسه فقتله (۱)، و

فی روایه أخری قال أبو بصیر عن الصادق علیه السلام : بینما رسول اللّه صلی الله علیه و آله جالسا إذ أقبل أمیر المؤمنین علیه السلام فقال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله :إنّ فیک شبها من عیسی بن مریم..قال:فغضب الحارث بن عمرو الفهدی فقال:« اَللّٰهُمَّ إِنْ کٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ أنّ بنی هاشم یتوارثون هرقلا بعد هرقل(اسم ملک الروم أراد بنی هاشم یتوارثون ملکا بعد ملک)فأرسل علینا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب ألیم»فأنزل اللّه علیه مقاله الحارث و نزلت هذه الآیه: «وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ »ثم قال له:یا عمرو إمّا

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۱۱.

تبت و إمّا رحلت،فقال:یا محمّد بل تجعل لسایر قریش شیئا ممّا فی یدیک فقد ذهبت بنو هاشم بمکرمه العرب و العجم،فقال النبی:لیس ذلک إلی،ذلک إلی اللّه تبارک و تعالی،فقال:یا محمد قلبی ما یتابعنی علی التوبه و لکن أرحل عنک،فدعا براحلته فرکبها فلمّا صار بظهر المدینه أتته جندله(أی حجره)فرضّت هامته ثم أتی الوحی إلی النبی صلی الله علیه و آله فقال:الآیات الاولی من سوره المعارج (۱).

سَأَلَ سٰائِلٌ بِعَذٰابٍ وٰاقِعٍ و سؤال السائل یکشف لیس عن شک فی وعد اللّه عزّ و جلّ و حسب،بل یکشف أیضا حاله من الاستهزاء و التحدی دعته إلیهما الثقافه الجاهلیه التی جاءت الرساله لتحریر الإنسان منها،کما دعته إلیهما الضغائن الدفینه علی الرسول و الرساله.

و الآیه الکریمه-کسائر آیات القرآن-أوسع من حادثه تاریخیه،أو مصداق واحد بذاته،بل هی شامله لکلّ موقف استهزاء بالحق،و تکذیب به. و لا یصف ربّ العزه عظمه العذاب و مدی هوله،بل یؤکّد واقعیته فیقول:«واقع»،و ذلک یهدینا إلی حقیقه فطریه و عقلیه لا یتردّد فی قبولها أحد و هی أنّ جهل الإنسان بالحقائق القائمه فی الواقع،أو تجاهله بها(تکذیبه)لا یغیّر من أمرها شیئا.أ تری أنّ عقیده الوجودیین الذین زعموا بأنّ الوجود خیال یتراءی للإنسان کالسراب أعدمت الوجود أو غیّرت من الواقع شیئا؟هل ینفی عدم رؤیه الأعمی لما حوله وجوده؟ کلاّ..و إذا قلنا أنّ کلمه«واقع»تدل علی الماضی فإنّها تأتی هنا للتأکید من حیث أنّه حتمی لا شک فیه و لا تردّد فی وقوعه،لأنّ اللّه قد قدّره و قضاه تقدیرا حتما و قضاء مبرما.

۱- ۱) المصدر/ص ۴۱۲ ذکره أبو عبیده و الثعلبی و النقاش و سفیان بن عیینه،و أشار إلیه الرازی و النیسابوری،و نقل القرطبی نص الروایه فی تفسیره و الحسکانی فی شواهد التنزیل.

و يبدو أنّ السؤال لم يكن سؤال مستفهم،بل سؤال مكذّب مستهزء،و لهذا عدّى الفعل بالباء فأعطى معنى التكذيب،فكأنه قال:سأل سائل مكذّب بعذاب واقع.و هكذا أوحى النص بأنّ الدافع إلى السؤال لم يكن المعرفه و إنّما التشكيك به.

و إذ يقع عذاب اللّه فإنّه-و إن كان-يبدّل وجه الكون و علاقات أجزائه ببعضها فتكون السماء كالمهل و الجبال كالعهن و لا يسأل حميم حميما،إلاّ أنّه لا يخرج عن إطار حكمه اللّه و إرادته إلى حاله الفوضى،و إنّما يكون بقدر،و لا يصيب إلاّ من يشاء اللّه،فإذا بك تراه و قد حان حينه لا يقع إلاّ على الكافرين،الذين لا يجدون ما يدفعونه به عن أنفسهم.

لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ يحجزه عنهم و يدفعه عن ساحتهم،و ما عسى أن تبلغ قدره أحد حتى يكون قادرا على دفع عذاب يصيّر السماء كالمهل و الجبال كالعهن،و يقطع الروابط الحميمه بين الأخلاّء و الأنساب لهوله و شدّته!و الإنسان هناك لا يفكّر إلاّ فى خلاص نفسه،فلا يسأل عن غيره،فكيف السعى لدفع العذاب عنه؟!بلى.يستطيع الإنسان دفع العذاب عن نفسه يومئذ بفضل اللّه و رحمته،و بعمله الصالح،و لم يترك الكافرون بينهم و بين اللّه صله كى يرحمهم،بل سدّوا عن أنفسهم كلّ أبواب الرحمه بكفرهم و عتوّهم عن الحق و الرسل،و لم يقدّموا لآخرتهم و مستقبلهم عملا صالحا.

و على ضوء هذه الآيه الكريمه ينبغى للإنسان أن يكشف عن نفسه و عقله حجب الضلال و الشرك المتمثله فى العقائد السفيهه التى تجنح به نحو الموبقات و الشهوات و مخالفه الحق،ظنّا بأنّ أحدا من الجن أو الإنس أو الأصنام يخلّصه من عذاب اللّه و سطوته،أو العقيده الباطله بأنّ اللّه لن يعذّب عباده لأنّه رحيم ودود،فإذا به يودّ و يطمع أن يدخل الجنه على جناح التمنيات بلا أىّ سعى و عمل!

و نفهم من قوله«للكافرين»أنّهم ليس لهم يوم يقع العذاب دافع يدفعه عنهم لا من عند أنفسهم أو من أشركوا بهم و لا من عند اللّه.و أىّ قوّه يمكن أن تتحدى إراده اللّه العظيم حتى يتشبّث بها الكفّار؟إنّ العذاب ليس من بشر مثلهم حتى يقدروا على دفعه،و لا من مخلوق. إنّه من ربّ العزه المتعال الجبّار.

مِنَ اللّٰهِ ذِی الْمَعٰارِجِ قال البعض:إنّ كلمه«ذى المعارج»ليست اسما للّه سبحانه،و جاء فى الدر المنثور:أخرج أحمد و ابن خزيمه عن سعد بن أبى وقّاص أنّه سمع رجلا يقول:لبيك ذى المعارج،فقال:إنّه لذو المعارج،و لكنّا كنّا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا يقول ذلك (١)،و لكنّ الأظهر أنّه اسم للّه لوروده فى أدعيه الحج حيث قالوا:يستحب أن يقول فى التلبيه:«لبّيك ذا المعارج لبّيك»،على أنّ نص القرآن ظاهر فى ذلك و هو المقياس.

و فى معنى المعارج أقوال منها:الفواضل،و عليه جلّ المفسرين،و زاد صاحب المجمع:و الدرجات التى يعطيها للأنبياء و الأولياء فى الجنه،لأنّه يعطيهم المنازل الرفيعه،و الدرجات الطيبه (٢)،و فى التبيان قال العلاّمه الطوسى:هى معارج أو مراقى السماء (٣)،و قال صاحب الميزان:و هى مقامات الملكوت،و قال:الدرجات التى يصعد فيها الإعتقاد الحق و العمل الصالح،قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ » (۴)،و قيل:هى مصاعد الملائكه..و يمكن أن تكون الأقوال كلها صحيحه،و يجمعها الأصل اللغوى للكلمه..فالمعارج مواضع العروج

١- ١) الدر المنثور/ج ۶ ص ٢۶۴.

٢- ٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣۵٣.

٣- ٣) التبيان/ج ١٠ ص ١١۴.

۴- ۴) الميزان/ج ٢٠ ص ٧.

و هی مرتبه بعد مرتبه.و یبدو أنّ تأویلها هنا ذات العروج المتواصل،و ذلک یظهر من الآیه التالیه.

و لکی ینسف السیاق أسس التفکیر الخاطئ عند أولئک السفهاء الذین استعجلوا عذاب ربهم العظیم،تلک الأسس القائمه علی حسابات قصیره،یهدینا القرآن إلی حقائق الزمن اللاّمتناهی الذی سوف یعیشه الإنسان،لکی یمتد وعی الزمن لدینا من مقاییس اللحظات الحاضره إلی آفاق الآباد المطلقه و المستقبل الذی لا ینتهی،و هناک نعیش حقیقه أنفسنا و حقیقه الظواهر المحیطه بنا.

إنّ من یتخذ المقاییس الدنیویه معیارا فی معادله الزمن یظنّ أنّ مائه سنه شیئا کثیرا،و لکنّه حین یطلع علی الأفق الواسع للزمن عند اللّه حیث الحساب بملیارات السنین و حیث الخلود فإنّ المعادله تختلف بالنسبه إلیه لحتی یکاد یری وعد اللّه بالآخره واقعا أمام عینیه..فهؤلاء الملائکه یسبقهم الروح یعرجون خمسین ألف سنه إلی اللّه فی الآفاق الواسعه،و لأنّها حسب فهمنا الأرواح النورانیه ذات القدرات الهائله فإنّ عروجها لیس بحسابنا نحن فی السرعه،بل بحساب لا یستوعبه عقل البشر..و مع ذلک فإنّ خمسین ألف سنه یعرجون فیها لیست عنده تعالی إلاّ کیوم واحد لا أکثر! تَعْرُجُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَهٍ و العروج عروجان:عروج مادی فی آفاق الوجود،و عروج معنوی فی آفاق القرب من اللّه،و لیس للّه مکان،تعالی أن یخلو منه مکان أو یحویه مکان،و من هنا فإنّ عروج الملائکه و الروح إلیه عروج فی القرب منه،قرب الفضیله،و لا ینفی ذلک حقیقه عروجهم مادیّا فی منازل السموات و إلی العرش،بل هذا العروج بذاته رمز للقرب المعنوی منه سبحانه،و من هنا اختلفت الملائکه فمنهم من یعرج إلی السماء

الرابعه،و منهم من يعرج إلى العرش باختلاف فضلهم عند ربّ العالمين.

أما الروح فهو أعظم من الملائكه،و لعلّه الخلق الذى يؤيّد به اللّه ملائكته الكرام و أنبياءه و أولياءه الأبرار،و لعلّه سمّى جبريل ب«الروح الأمين»لكونه مؤيّدا-عليه السلام-بالروح.

[۸-۵]و من فتح آفاق المتدبر على الزمن بالحديث عن العروج يعالج القرآن مسألتين:

الأولى:تتصل بالداعيه إلى اللّه،و هو يواجه تحديات الكفّار بالرساله، و بالضبط يواجه تحدى الزمن فى الاستقامه على الحق،و الاستمرار فى الطريق حتى يفتح اللّه.فإنّ أكثر الناس قادرون على اتخاذ قرار الجهاد فى سبيل اللّه،و لكنّ القليل منهم يقدرون على الاستقامه مع طول الأمد و تراكم التحديات المضاده.

و إنّما يفتح القرآن آفاق المؤمنين على المعادله الحقيقيه للزمن،و يؤكّد على أنّ الزمن الدنيوى ليس المقياس،و إنّما معادله الزمن تقاس باليوم الواحد خمسين ألف سنه،كل ذلك ليسهّل الاستقامه فى أنفسهم،فلا يعدّ واحدهم حتى الصبر سنىّ عمره مجاهدا فى سبيل اللّه شيئا كثيرا،بل يعتبر عنده-أنّى طال به الزمن و امتد- أيّاما قصيره يصبر فيها على الأذى لتعقبه راحه طويله،و هكذا جاء الحديث بعد بيان الزمن عن الصبر فقال ربّنا:

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً و هو الصبر الذى يكون لوجه اللّه،و البعيد عن أىّ ضعف أو هزيمه،و الذى لا خروج معه عن الحكمه و الصواب.قال أكثر المفسرين:هو الصبر الذى لا شكوى فيه على ما يقاسيه الرسول من أذى قومه،و تكذيبهم إيّاه فيما يخبر به من الآخره.

و ما أعظم ما تعطيه هذه الآيه بسياقها من روح الصبر و الاستقامه و المقاومه للمؤمنين و المجاهدين فی سبيل اللّه.

الثانيه تتصل بالكافرين الذين يستبعدون عذاب اللّه و وعده،و ربما إلی حدّ التكذيب البتّه.و لو بحثنا عن السبب وراء هذا الموقف من وعد اللّه فسنجده اعتمادهم علی مقاييس الزمن الدنيويه فی التقييم و النظر إلی المستقبل.و يعالج القرآن هذه العقده بأمرين:

أحدهما:السعی لتوعيتهم بالمقياس الحقيقی للزمان،حيث مقدار يوم واحد خمسين ألف سنه،ممّا يغيّر رؤيتهم المحدوده برؤيه ربّانيه واسعه لو أنّهم آمنوا و اتبعوا الآيات.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً لمحدوديه أفكارهم التی تتصور الزمان محدودا.أ رأيت الطفل كيف يستبعد وعدا مدته ساعات؟كذلك الكفّار يرون وعد اللّه بعيدا لأنّ منهجيه الرؤيه و وسيلتها عندهم محدوده.أمّا المنهجيه الربّانيه التی تتلاشی فيها الأرقام الزمنيه لسعتها فإنّ ملايين السنين ليست بذات شأن حتی يكون أمدها بعيدا..و كيف يكون ذلك و المؤمنون يطّلعون بها علی عالم الخلود؟! وَ نَرٰاهُ قَرِيباً لا فرق بين أجل الموت،أو النصر للمؤمنين،أو عذاب الكافرين فی الدنيا،أو قيام الساعه و وقوع الآخره.

الثانی:التذكير بالوقائع و المشاهد العظيمه التی ترافق وقوع وعد اللّه،الأمر

الذی یهزّ النفس،و یلقی عنها حجبها و عقدها،و یجعلها ماثله فی وعیهم.

یَوْمَ تَکُونُ السَّمٰاءُ کَالْمُهْلِ قال القمّی:الرصاص الذائب و النحاس (۱)،و قیل:الزیت المغلی،و فی المنجد:ما کان ذائبا من المعدنیّات (۲).

وَ تَکُونُ الْجِبٰالُ کَالْعِهْنِ أی الصوف المتفرّق،قال فی التبیان:فالعهن الصوف المنفوش،و ذلک أنّ الجبال تقطع حتی تصیر بهذه الصفه (۳)،و زاد صاحب المجمع:و قیل:کالصوف الأحمر،و قیل:إنّها تلین بعد الشده،و تتفرق بعد الاجتماع (۴).و علّق العلاّمه الطباطبائی بقوله:فی هذه الآیه و ما قبلها تعلیل للصبر،فإنّ تحمّل الأذی و الصبر علی المکاره یهوّن علی الإنسان إذا استیقن أنّ الفرج قریب (۵).

و لا یحدّثنا القرآن عن صفه الأرض یومئذ،لأنّ دمار السماء و هی السقف المحفوظ الذی یؤمّن للأرض و لأهلها الحمایه،و کذلک تدمیر الجبال التی تحفظ توازنها أن تمید بنا،هذین الأمرین یهدیاننا إلی ما تکون فیه أرضنا یومئذ من الزلزال و الخطر العظیم.

و ما هو حال الإنسان الضعیف و موقفه حینما یعاصر هذه المشاهد الرهیبه؟فهذه السماء علی عظمتها أصبحت کالمهل ذائبه،و تلک هی الجبال الراسیات صارت عهنا

۱- ۱) تفسیر القمی/ج ۲ ص ۳۸۶.

۲- ۲) المنجد/ماده مهل بتصرف.

۳- ۳) التبیان/ج ۱۰ ص ۱۱۶.

۴- ۴) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۵۳.

۵- ۵) المیزان/ج ۲۰ ص ۹.

يحرّكها النسيم!إنّه حينئذ يعرف صدق وعد اللّه،و تقع من على بصيرته كلّ الحجب..فيترك الهزل و الاستهزاء الذی قاد الكافرين إلی السؤال عن العذاب و استعجاله..و هل يستعجل عاقل أمرا إرهاصاته تصنع هذا الصنيع بالطبيعه و الوجود من حوله؟! إن العذاب الإلهی إذا وقع يذهل الإنسان عن كلّ شیء،و تتقطّع به الأسباب و الروابط،فينسی أقرب المقرّبين إليه بحثا عن الخلاص،فلا يجد فرصه حتی للسؤال عنهم.

وَ لاٰ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً و الحميم هو الأقرب للإنسان،و عدم سؤاله عنه دليل علی شدّه الموقف،و ذلك أنّ نفس الإنسان أقرب إليه من كلّ أحد..و حيث يهتم بها يغفل عن سواها و لو كان أقرب المقربين كالولد و الصاحبه.و فی الروايات أنّ الأم يوم القيامه توزن أعمالها فتنقصها الحسنه الواحده حتی تدخل الجنه أو تصير إلی النار،فتذهب إلی ولدها تستعطفه و تطلب منه التنازل لها عن حسنه من حسناته فلا يقبل.و

قد جاء فی الدعاء(بعد صلاه الليل): «يا من لم أزل أتعرّف منه الحسنی،يا من يغذّينی بالنعم صباحا و مساء،ارحمنی يوم آتيك فردا شاخصا إليك بصری،مقلّدا عملی،قد تبرأ جميع الخلق منی،نعم.و أبی و أمی و من كان له كدّی و سعيی» (1).

و من أهمّ ما يقع يومئذ هو رفع الحجب عن المجرمين حتی يروا الحقائق التی عميت عنها أبصارهم و قلوبهم فی الدنيا،كما يرون أيضا أقرباءهم الذين يتهرّبون منهم.

۱- ۱) مفاتيح الجنان/دعاء صلاه الليل.

يُبَصَّرُونَهُمْ قيل:يرون الملائكه و الروح الذين يعرجون إلى اللّه،و قيل:أئمه الهدى و الحق، و قيل:الأحماء،لبيان أنّ عدم سؤالهم عنهم يومئذ ليس لعدم رؤيتهم إيّاهم،و إنما لانشغال نفوسهم و أفكارهم،و إلى ذلك ذهب الزمخشرى و الرازى و صاحب الميزان، و هذا أقرب إلى السياق.و بنى الفعل للمجهول لأنّ المجرمين يحشرون عميانا أعينهم و قلوبهم كما كانوا فى الدنيا عميانا لا يرون الحقائق،و إنّما يبصرهم اللّه أو ملائكته بأمره..و هناك تبلغ ندامتهم ذروتها لما يرون من واقع العذاب الذى كذّبوا و استهزءوا به فى الدنيا إلى درجه العتوّ و التحدى.

يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذٰابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ و هم أقرب الناس إليه،و أعزّهم لديه.

وَ صٰاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ فى الدرجه الثانيه.

وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ قيل:هى العشيره و القبيله،و قيل:هى المنقطعه عن جمله القبيله برجوعها إلى أبوّه خاصه،فى التبيان و المجمع و الميزان،و زاد المجمع و الكشّاف:أي عشيرته التى تؤويه فى الشدائد و تضمّه،و يأوى إليها فى النسب.

وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ أمّا المؤمنون فإنّهم على العكس يسألون عن بعضهم،و يسعون فى خلاص

بعضـهم البعض بالشفاعه و السؤال من اللّه،و قلوبهم مطمئنه إلى ربّ الأرباب لأنّهم لم يتورّطوا فى الجرائم حتى يهولهم الأمر..إلاّ خشيه الإيمان.

بلى.إنّهم آمنـوا بوعـد اللّه،فسـعوا لخلاـص أنفسـهم،أمّـا المجرمون الـذين كفروا، و تمـادوا فى الجريمه بسـبب الكفر بالآـخره و الجزاء،فإنّهم يجدون أنفسهم بين يدى عذاب شديد.

كَلاّ إِنَّها لَظى و«لظى»اسم من أسماء جهنم،و هى النار شديده التوقد،و قال فى المجمع:

هى الدركه الثانيه من النار،و قال الرازى:اللهب الخالص،يقال:لظّت النار، و تلظّت تلظّيا،و المعنى أنّه لا مصير للمجرمين إلاّ جهنم و العذاب،و لا مفرّ لهم..

تشويهم حرقا،و تنزع ما ينشوى منهم نزعا.

نَزّاعَةً لِلشَّوى قيـل:الشوى فروه الرأس،و قيـل:محـاسن الوجه و عموم الجلـد.و قـال صاحب التبيان:و معنى«نزّاعه»كثيره النزع،و هو اقتلاع عن شده،و الاقتلاع أخذ بشدّه اعتماد (١)، و فى المجمع:تنزع الأطراف فلا تترك لحما و لا جلدا إلاّ أحرقته،و قيل:

تنزع الجلـد و اللحـم عن العظم (٢).و لعلّ الشـوى هـو عموم مـا يعـدّ للشواء بالنـار، فيكون المعنى أنّ لظى تجـذب المجرمين و تنزعهم نزعا(و هم شواؤها)فتحرقهم.

تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّى

١- ١) التبيان/ج ١٠ ص ١١٨.

٢- ٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٥٦.

أدبر عن الحقّ إلى الباطل،و تولّى عن طاعه القياده الربّانيه إلى طاعه غيرها، و إنّ النار لتتطاول على المجرمين و تجرّهم إلى قعرها و حريقها مكرهين،لأنّهم قد رفضوا دعوه الرسول إلى الإيمان فأدبروا و تولّوا.

وَ جَمَعَ حطام الدنيا و أموالها حلالا و حراما.

فَأَوْعىٰ و قد قال المفسرون أنّ المعنى:جمع المال و لم يخرج حقّ اللّه،فكأنّه جعله في وعاء على منع للحقوق منه،و قال العلاّمه الطبرسي:جمعه من باطل،و منعه عن الحق (1).

ص:351

1- 1) المصدر/ص 356.

[سوره المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الی ۴۴]

اشاره

إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذٰا مَسَّهُ اَلشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَ إِذٰا مَسَّهُ اَلْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلاَّ اَلْمُصَلِّينَ (٢٢) اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ (٢٣) وَ اَلَّذِينَ فِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢۴) لِلسّٰائِلِ وَ اَلْمَحْرُومِ (٢۵) وَ اَلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ اَلدِّينِ (٢۶) وَ اَلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذٰابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذٰابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ (٢٩) إِلاّٰ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ اِبْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْعٰادُونَ (٣١) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ (٣٢) وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ (٣٣) وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ (٣۴) أُولٰئِكَ فِي جَنّٰاتٍ مُكْرَمُونَ (٣۵) فَمٰا لِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣۶) عَنِ اَلْيَمِينِ وَ عَنِ اَلشِّمٰالِ عِزِينَ (٣٧) أَ يَطْمَعُ كُلُّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاّٰ إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِمّٰا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلاٰ أُقْسِمُ بِرَبِّ اَلْمَشٰارِقِ وَ اَلْمَغٰارِبِ إِنّٰا لَقٰادِرُونَ (۴٠) عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۴١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذِي يُوعَدُونَ (۴٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً كَأَنَّهُمْ إِلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (۴٣) خٰاشِعَةً أَبْصٰارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذٰلِكَ اَلْيَوْمُ اَلَّذِي كٰانُوا يُوعَدُونَ (۴۴)

اللغه

١٩[هلوعا]:شديد الحرص،شديد الجزع..و قيل:الهلع هو الخوف و قلق القلب.

ص:٣۵٢

۳۶[مهطعین]:المهطع:المقبل ببصره علی الشیء لا یزایله،و قیل:الإهطاع الإسراع.

۳۷[عزین]:أی جماعات متفرّقین،عصبه عصبه و جماعه جماعه.و جاء فی المفردات:أصله من عزوته فاعتزی أی نسبته فانتسب فکأنّهم الجماعه المنتسب بعضهم إلی بعض إمّا فی الولاده أو فی المظاهره،و قیل:عزین من عزا عزاء فهو عز إذا تصبّر و تعزّی أی تصبّر و تأسّی فکأنّها اسم للجماعه التی یتأسّی بعضهم ببعض.

۴۳[الأجداث]:القبور.

اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ

هدی من الآیات:

نستوحی من القرآن أنّ الشخصیه البشریه نوعان:

الأول:الشخصیه المتقلّبه التی تتأثّر بالظروف المحیطه،و تنعکس علیها کلّ الظواهر،لا فرق بین ما یسرّو ما یحزن،أو بین الخیر و الشر.و هذه طبیعه السواد الأعظم من الناس.

الثانیه:الشخصیه المستقره التی تصوغها الصلاه(و الصله الوثیقه بربّ الکائنات)و یستمدّ أصحابها استقامتهم فی الحیاه من الإیمان بربّ العالمین،الأمر الذی یجعلهم یتسامون علی المؤثرات السلبیه، ذلک لأنّ الصلاه فی بصائر القرآن لیست الرکوع و السجود فقط،بل هی منهج شامل یستوعب کلّ بعد من حیاه الإنسان،و هکذا تری المصلّی هو المنفق فی سبیل اللّه،و المصدّق بالآخره،و الخائف من عذاب ربه،و الحافظ لفرجه،و الراعی لعهده و أماناته،و القائم بالشهاده

الحقّ على نفسه و فى المجتمع،و بالتالى المحافظ على صلاته(أوقاتها و مظاهرها و جوهرها)،و بهذه الصوره ينبغى أن نعى الصلاه،و نعرف المصلّين،و نسعى لكى نكون منهم.

إنّ الصلاه الحقيقيه ثمن الجنه و الكرامه عند اللّه،لأنّها كما بيّنت الآيات مجمع كلّ صفه حسنه،و سعى صالح.و من أراد الجنه و الكرامه فإنّها شرطهما،أمّا التمنّيات التى تفرغ حياه الإنسان من أىّ سعى و فضيله،و تسوقه إلى الخوض و اللعب-غفله عن الآخره-فإنّها تجعل أصحابها خاشعه أبصارهم،ترهقهم ذلّه فى يوم القيامه!

بينات من الآيات:

[۲۱-۱۹]لأنّ القرآن رساله اللّه و عهده إلى الإنسان فإنّه أودع تبيانا لكلّ شىء حتى لا تكون لأحد حجه على ربه فى الإدبار عنه إلى غيره من السبل و المناهج،ففيه يقرأ الإنسان سنن الخالق فى الحياه،و يقرأ الخير و الشر،و الحق و الباطل،و الجنه و النار،و الدنيا و الآخره..

و من أبرز ما فى القرآن تعريف الإنسان بنفسه،ذلك أنّ الإنسان قد خلق جهولا،يجهل أقرب الأشياء إليه(و هى نفسه)و فى ذلك خطر عظيم عليه،فقد يدعوه الجهل بالنفس إلى الشرك باللّه،و قد يدعوه إلى ممارسه الأخطاء الفظيعه فى قيادتها و تربيتها..و من هنا وجد توجّها أساسيّا فى القرآن اختص بمعالجه موضوع الذات الإنسانيه،و بيان أهمّ صفاتها و طبائعها،كما الآيات التاليه من هذه السوره.

إِنَّ الْإِنْسٰانَ خُلِقَ هَلُوعاً

قیل الهلع شدّه الحرص،و قلّه الصبر،و قیل:الهلوع الضجور (۱)،و فی البصائر:

أی البخل و الحرص،أو الخوف و قلق القلب،و اضطرابه من کلّ صوت و حدوث أمر (۲)،و الذی یبدو أنّ أصل الهلع هو الخوف،فالهلوع یخاف عند الشر فیجزع، و یخاف عند الخیر من نفاذه و انتقاله إلی غیره من یدیه فیمنع،و هی الصفه التی تفقد الإنسان توازنه و ثباته أمام الظروف و العوامل و الحوادث المحیطه.

و یبقی بیان القرآن لمعنی الهلع أجلی و أبلغ من بیان کلّ مفسّر و أدیب حیث یقول تعالی:

إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً فإذا به یصبح طعمه لحالات الخوف النفسیه،فیفقد توازنه النفسی و الفکری و السلوکی،إلی حدّ الهزیمه و الیأس.و«الشر»الذی تقصده الآیه شامل لکلّ الحوادث السلبیه معنویه و مادیه،فالخساره الاقتصادیه شر،و فقدان الأحبه شر، و المرض شر،و..و..

و لو أنّنا حقّقنا فی حوادث الانتحار و الحالات النفسیه فی العالم فسنجد أنّ معظمها عائده إلی صفه الهلع(الجزع)عند الإنسان. و یقول اللّه«مسّه»لأنّ المس أدنی ما یصیب الإنسان من الشر أو الخیر.

وَ إِذٰا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً و السبب حبّه المفرط لذاته،و شح النفس الذی یجعله یرید الخیر لنفسه فقط،

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۰-ص ۶۱۲.

۲- ۲) تفسیر البصائر/ج ۴۹-ص ۱۲۰.

وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (۱)و حقّ ما

جاء فی الروایه: «ما فتح اللّه علی عبد بابا من أمر الدنیا إلا و فتح اللّه علیه من الحرص مثله» (۲)،و فی الآیه بصیرتان:

الأولی:إنّ المتتبع لکلمه الإنسان فی استخدام القرآن یجدها ترد دائما عند الحدیث عن الصفات السلبیه فیه،قال تعالی: وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِیفاً (۳)وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَهً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَیَؤُسٌ کَفُورٌ (۴)إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفّارٌ (۵)وَ کانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (۶)وَ کانَ الْإِنْسانُ أَکْثَرَ شَیْءٍ جَدَلاً (۷)وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ کانَ ظَلُوماً جَهُولاً (۸)..و هکذا ترد الکلمه عند الحدیث عن الصفات الذاتیه للإنسان.

الثانیه:إنّ المفسرین اختلفوا فی معنی الخلق،و جری بینهم بحث کلامی و فلسفی حول صفه الهلع کیف خلقها اللّه و هی ذمیمه أم هی صفه یوجدها الإنسان فی شخصیته بنفسه؟فصاحب التبیان أکّد کونها من فعله تعالی فقال:و إنّما جاز أن یخلق الإنسان علی هذه الصفه المذمومه لأنّها تجری مجری خلق شهوه القبیح لیجتنب المشتهی،لأنّ المحنه فی التکلیف لا تتم إلاّ بمنازعه النفس إلی القبیح لیجتنب علی وجه الطاعه للّه تعالی،کما لا یتم إلاّ بتعریف الحسن من القبیح فی العقل لیجتنب

۱- ۱) العادیات۸/.

۲- ۲) أصول الکافی/ج ۲-ص ۳۱۹.

۳- ۳) النساء۲۸/.

۴- ۴) هود۹/.

۵- ۵) إبراهیم۲۴/.

۶- ۶) الإسراء۱۱/.

۷- ۷) الکهف۵۴/.

۸- ۸) الأحزاب۷۲/.

أحدهما و يفعل الآخر (۱).

و فی التفسير الكبير:قال القاضی قوله تعالی:«الآيه»نظير لقوله خُلِقَ الْإِنْسٰانُ مِنْ عَجَلٍ و ليس المراد أنّه مخلوق علی هذا الوصف،و الدليل عليه أنّ تعالی ذمّه عليه،و اللّه تعالی لا يذم فعله،و لأنّه تعالی استثنی المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم فی ترک هذه الخصله المذمومه،و لو كانت هذه الخصله ضروريه حاصله بخلق اللّه تعالی لما قدروا علی تركها (۲)،و علّق الفخر الرازی مفصّلا بأنّ الهلع واقع علی أمرين:أحدهما نفسی باطن،و الآخر فعلی ظاهر،و هو يدل علی ما خفی..

و قال:أمّا تلک الحاله النفسانيه فلا شک أنّها تحدث بخلق اللّه تعالی،فهی مخلوقه علی سبيل الاضطرار(و الجبر)،و الأفعال الظاهره من القول و الفعل يمكنه تركها و الإقدام عليها،فهی أمور اختياريه (۳).

و الظاهر أنّ صفه الهلع صفه ذاتيه مركوزه فی الطبائع الأوليه للإنسان،و إنّما يبيّنها اللّه و يذمّها لكی يعرّفنا بها و يحذّرنا منها فنجتنبها،و ليس فی ذلک شیء من الجبر لأنّ اللّه سبحانه قد خلق الإنسان فی أحسن تقويم إلاّ أنّ ذاته المرتكزه فی الجهل و الجهاله و الضعف و العجله و ما أشبه لم تتغيّر.أ رأيت الذی يشعل شمعه فی الليل فتضیء ما حولها يحمد عليها و لا يذمّ علی الظلام المحيط لأنّه ليس من صنعه، و هكذا تركّب الإنسان من صنفين:النور(من اللّه)و الظلام(من نفسه)،قال ربنا سبحانه: مٰا أَصٰابَکَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَکَ مِنْ سَيِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ (۴)، و سائر ما فی الإنسان من جوانب القوه و الضعف و الخير و الشر فإنّما هی ظلال لهذين

۱- ۱) التبيان/ج ۱۰-ص ۱۲۱.

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۳۰-ص ۱۲۸-۱۲۹.

۳- ۳) المصدر۱۲۹/ بتصرف.

۴- ۴) النساء۷۹/.

الصنفين،إلاّ أنّ على الإنسان أن يسعى جاهدا للتغلّب على الظلام و ظلاله فى نفسه،و تنميه النور،و إشعاعاته،و الهلع واحد من ظلال الظلام الذى يجب أن يتغلّب عليه بسعيه و عزم إرادته.

و اللّه تعالى عرّف البشر كوامن نفسه شرها و خيرها،و أعطاه إراده الإختيار التى يتجاوز بها صفات السوء و طبائعه إن شاء أو يسترسل معها،و رسم له المنهج الذى يسلم بتطبيقه منها.فما هو المنهج القرآنى لعلاج صفه الهلع عند الإنسان؟ أولا:حضور الآخره فى وعيه نفسيّا و فكريّا،فإنّ من يتذكر أهوالها و مشاهدها لا يجزعه من الدنيا شر بالغ ما بلغ،لأنّه يكون أبدا مشغولا عنه بذلك الشرّ المستطير، بل تراه يعيش السكينه و الاطمئنان كالمؤمنين: اَلَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قٰالُوا إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ ،كما لا يبطره خير فيمنع خشيه العذاب و طمعا فى الثواب..

و لعل هذه الفكره تفسر لنا العلاقه بين الحديث عن مشاهد القيامه(الآيات ١٨/٨) و بين الحديث عن الإنسان(١٩-٢١).و المستقرئ للآيات القرآنيه يجد أنّ الوحى ما يكاد يحدّثنا عن صفات الإنسان السلبيه إلاّ و يمهّد لذلك بالحديث عن الآخره، أو يلحقه بالتذكير بها،لأنّه علاج ناجح لها.

[٢٢-٣٥]ثانيا:الصلاه التى هى معراج المؤمنين إلى الفضيله،و وسيلتهم للتزكيه و التربيه الذاتيه.أ و ليست هى الوسيله التى دعانا اللّه أن نبتغيها إليه؟ أ و ليست هى حبل اللّه و سفينه نجاه الإنسان من الباطل و الشر؟..بلى.و لكن يجب أن نفهم الصلاه و نقيمها بشروطها كما يبيّنها القرآن حتى نخلص من صفه الهلع و سائر الصفات السيئه،و نعرج بأنفسنا روحيّا و سلوكيّا إلى آفاق الكمال و الفضيله،فإنّ الإنسان كإنسان متورّط فى الهلع.

إِلاَّ الْمُصَلِّينَ

الـذین عرفوا الصـلاه علی حقیقتهـا فأقاموها فی حیاتهم..عرفوا الصـلاه بأنّها الاتصال الـدائم بلا انقطاع مع اللّه،و الکون فی طاعته کـلّ سـاعه و لحظه..عرفوا الصـلاه برنامجـا متکاملاـ یتصل بکلّ شؤون الحیاه و مفرداتها الخاصه و العامه،الفردیه و الاجتماعیه و التربویه و الاقتصـادیه و الأخلاـقیه و القضـائیه و..و..،لاـ صـلاه القشور المحصوره فی الرکوع و السـجود و بعض المظاهر.فما هی الصـلاه الحقیقیه فی مفهوم القرآن؟! إنّ القرآن لا یفصّل لنا فی کیفیه الصـلاه و لا عدد رکعاتها و سجداتها،و إنّما یعرفنا الصلاه الربّانیه ببیان صفات المصلّین الواقعیین عند اللّه،و هی:

الأولی:الدوام علی الصلاه.

اَلَّذِینَ هُمْ عَلیٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ قال الزمخشـری:یواظبون علی أدائها،و لا یخلّون بها،و لا یشـغلون عنها بشیء من الشواغل (1)،و فی الـدر المنثور عن ابن مسـعود قال:علی مراقبتها،و عن عقبه بن عامر قال:الذین إذا صـلّوا لم یلتفتوا عن یمین و لا شـمال (2)،و کلّ ذلک صـحیح،إلاّ أنّ الآیه جاءت لتعطی البعد الأشـمل و الأصح للصلاه کما یراها الإسلام و یلتزم بها المصلّون الحقیقیّون،و هی الصلاه الدائمه التی تورث الصله المستمره مع ربّ الکائنات فی القیام و القعود فی آناء اللیل و أطراف النهار.

إنّ البعض فهـم الصـلاه فهمـا خاطئـا علی أنّهـا مجرد عـدد من الرکعـات و الأذکـار الـتی یؤدّیهـا المسـلم فی وقت مخصـوص،و قطعوها-و هی عمود الدین-عن الاتصال

۱- ۱) الکشاف/ج ۴-ص ۶۱۲.

۲- ۲) الدر المنثور/ص ۲۶۶.

بمفردات الحياه و سلوك المصلّى.أمّا الصلاه التى يريدها الإسلام فإنّها الصله الدائمه بين العبد و ربه،و ما العباده المتعارفه إلّا رمز و مظهر لذلك الجوهر..فالمصلى الحقيقى لا يعيش الحياه مجزّأه،و لا يحدّ الصلاه بوقت معين،إنّما يعتبرها موصوله بكلّ مفرده فى حياته،و أنّه لو خالف قيمها و أهدافها فى واحده منها فإنّها لا تعدّ فى نظره مقبوله،فلا يغشّ الناس عند المعامله،و لا يكذب فى كلامه،و يبخسهم أشياءهم، و لا يغتاب،و لا يتهم،و لا يركن للظالمين،و لا..و..،لأنّ كلّ ذلك يسلب صلاته روحها و معناها و ثوابها..فالصلاه لا بد أن تنهى عن كلّ فاحشه فرديه أو اجتماعيه،و لا بد أن تقطع المسلم عن كلّ أحد غير اللّه فيعيش مستقلا حتى تسمّى صلاه.

إنّ الذى يصلّى ثم يحيد عن أهداف الصلاه فى سائر يومه و حياته لا يمكن أن يطلق عليه مصلّيا،لأنّ من شروط المصلى أن يدوم على صلاته بالتزام مضامينها و قيمها و أهدافها و الاستقامه عليها طيله يومه و حياته.و حيث فهم الواعون المخلصون من الرعيل الأول الصلاه منهج حياه فداموا عليها أصبحت إليهم معراجا إلى كلّ فضيله و كرامه.

و لقد أوّل أئمه الهدى الصلاه فى الآيه بأنّها النوافل(الصلوات المستحبه)،

قال الإمام الباقر عليه السلام : «هذا فى النوافل» (۱)و قال القمّى:إذا فرض على نفسه شيئا من النوافل دام عليه (۲)،و هذه الأخبار تهدينا إلى أمرين:أحدهما:مدى حرصهم على صلاتهم الواجبه و دوامهم عليها،فإنّ من دام على المستحب كان أدوم على الواجب، و الآخر:درجه التزامهم بالإسلام و منهجيته فى الحياه،بحيث أنّهم يرفعون المستحبات المندوبه إلى مستوى الواجبات أداء و التزاما،و هذا بدوره يكشف عن

۱- ۱) البصائر/ج ۴۹-ص ۱۲۰.

۲- ۲) تفسير القمى/ج ۲-ص ۳۱۶.

مدى حبهم للعباده.

و قد ذكر اللّه صفه المداومه على الصلاه لأنّ المعطيات الحضاريه و غيرها كالتغلّب على صفه الهلع فى النفس البشريه لا تتأتّى بصوره سريعه منذ أوّل ممارسه للصلاه من قبل الإنسان،بل لا بد من الدوام عليها و الاستقامه حتى تعرج بنا إلى تلك المعطيات.

الثانيه:الإنفاق فى سبيل اللّه.

و به يخرج المصلون من سلطان المال و الثروه الذى يأسر الكثير من الناس الذين أنعم اللّه عليهم فيمنعون حقوق اللّه و حقوق المجتمع،و إنّها لآيه على تحوّل الصلاه إلى برنامج عملى فى حياتهم.أو ليس هدفها أن يتمحّض الإنسان فى الخلوص للّه، و يتنازل عن كلّ شىء حتى ذاته من أجل الحق؟بلى.فلما ذا يبخلون بالمال؟ إنّ المصلين الحقيقيين حينما يكرّرون فى صلاتهم قوله تعالى اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ فإنّهم يعون بعمق أنّ الحمد ليس مجرد كلمات و شعارات يلوكها الواحد بلسانه،بل هو باللسان المعبّر عن النيه الصادقه و الإيمان المخلص،و بالعمل من خلال تطبيق منهجيه الحمد فى واقع الحياه،و منها إنفاق نعم اللّه فى سبيله شكرا له و تعبّدا.

إنّهم قد اتصلوا باللّه و عرفوه(ربّ العالمين)و علموا بأنّ ما فى الوجود كلّه من عنده و هو مالكه،حتى أنفسهم،و ما الأموال التى عندهم إلاّ أمانات استودعهم إيّاها،فكيف يبخلون بها و يمنعون عن أدائها إليه حين يطلبها فيأمرهم بإنفاقها فى سبيله؟! إنّ الامتناع عن الإنفاق فى يقينهم لون من الخيانه للمستأمن،و هذا ما يدفعهم

إلی الإنفاق فی وجوه الخیر من جهه،و من جهه أخری یدفعهم الشعور بالمسؤولیه الاجتماعیه إلی مدّ ید العون لأصحاب الحاجه و العوز تطبیقا لمنهجیه التکافل الاجتماعی التی تستهدفها الصلاه.

وَ الَّذِینَ فِی أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسّٰائِلِ وَ الْمَحْرُومِ و السائل هو الذی یعرض حاجته علی الناس و یسأل العون مع أنّه قد یکون محتاجا و قد لا یکون کذلک،و لکنّ کرامه المصلین و عزتهم تمنعهم أن ینتظروا یدا تمتد إلیهم بالسؤال حتی یعطوه مهما کان المعطی کثیرا..فهذا سید الشهداء و قد طرق الباب طارق یناوله صره من النقود الکثیره،و لا ینظر إلیه بل یمدّ یده الکریمه من وراء الباب.هکذا

قال المجلسی: فسلّم الحسین و قال:«یا قنبر هل بقی من مال الحجاز شیء»قال:نعم أربعه آلاف دینار،فقال:«هاتها قد جاء من هو أحقّ بها منّا»،ثم نزع بردیه و لفّ الدنانیر فیها و أخرج یده من شقّ الباب حیاء من الأعرابی و أنشأ:

خذها فإنی إلیک معتذر*و اعلم بأنی علیک ذو شفقه لو کان فی سیرنا الغداه عصا*أمست سمانا علیک مندفقه لکنّ ریب الزمان ذو غیر*و الکفّ منی قلیله النفقه قال:فأخذها الأعرابی و بکا،فقال له:«لعلک استقللت ما أعطیناک؟» قال:لا.و لکن کیف یأکل التراب جودک؟ (۱).

أما المحروم فإنّ فرقه عن السائل أمران:أحدهما:وجود الحاجه الماسه عنده و کونه مستحقّا،و الثانی:حیاؤه الذی یمنعه عن السؤال..هکذا جاء فی تفسیر

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۴۴-ص ۱۹۰.

الرازی و المجمع و التبیان و المیزان و الکشّاف: و المحروم الـذی یتعفّف عن السؤال فیحسب غنیّا فیحرم (۱)،و هذا یدل علی أنّ المؤمنین ینفقون أموالهم علی المحتـاجین و هم یشـعرون بـأنّهم هم أهـل الحـاجه إلی الإنفاق..فلاـ ینتظرون السائـل یسـألهم، بل یعطوه للسائلین،و یبحثون بأنفسهم عن المحتاجین لینفقوا علیهم لوجه اللّه،و لقد

جاء فی التاریـخ: أنّ الإمام زین العابـدین علیه السـلام استشـهد و فی کتفه أثر الجراب الذی کان یمرّ به لیلا علی بیوت الفقراء و المحتاجین و قد ملأه تمرا و خبزا.

و الظاهر من الروایات أنّ الإنفاق الـذی تعنیه الآیه لیس الواجب المفروض فی الشـریعه بقـدر ما هو الإنفاق المندوب الذی یبادر إلیه المصلون أنفسهم قربه للّه تعالی،

قـال الإمـام الصادق علیه السـلام : «إنّ اللّه عزّ و جلّ فرض للفقراء فی مال الأغنیاء فریضه لا یحمـدون بأدائها(أی أنّه لیس فضـلا یمـدحون بـأدائه)و هی الزکـاه،بهـا حقنوا دمـاءهم،و بها سـمّوا مسـلمین،و لکنّ اللّه عزّ و جلّ فرض فی أموال الأغنیاء حقوقا غیر الزکـاه،فقـال عزّ و جـل: فِی أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ فـالحق غیر الزکـاه، و هی شـیء یفرضه الرجـل علی نفسه فی ماله،یجب علیه أن یفرضه علی قـدر طـاقته وسـعه ماله،فیؤدی الـذی فرضه علی نفسه،إن شاء فی کلّ یوم،و إن شاء فی کلّ جمعه،و إن شاء فی کلّ شهر» (۲)، و

عنه قال-علیه السـلام-: «هو الرجل یؤتیه اللّه الثروه من المال فیخرج منه الألف و الألفین و الثلاثه آلاف،و الأقل و الأکثر، فیصـل بـه رحمه،و یحتمـل به الکـلّ عن قـومه» (۳)، و هـذا المحمـل هـو الأـقرب لأـن الإنفـاق المسـتحب أدلّ علی رسوخ الإیمـان من الواجب.

و حیث یبادر المصلّون إلی هذا النوع من الإنفاق فإنّهم لا یعتبرون أنفسهم

ص:۳۶۴

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۰-ص ۱۳۰.

۲- ۲) البرهان/ج ۴-ص ۳۸۴.

۳- ۳) المصدر/ص ۳۸۵.

متفضلين على من أعطوا،بل يشعرون فى أنفسهم أنّ ذلك«حق»واجب عليهم أداؤه،ممّا يبعدهم عن الرياء و المنّ و الأذى.ثم أنهم من الناحيه الاقتصاديه متوازنون فى إنفاقهم،فهم لا يسرفون و لا يقترون،بل يقدمون على مواقف و خطوات مدروسه قائمه على الحسابات الدقيقه..فإنفاقهم كما يصف«معلوم»مدروس و مخطّط و محدّد.

الثالثه:التصديق بالآخره.

وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ قال العلّامه الطبرسى:يؤمنون بأنّ يوم الجزاء حق لا يشكّون فيه (۱)،و فى الكشّاف:تصديقا بأعمالهم و استعدادا له (۲).و سمّيت الآخره«يوم الدين» لأنّها يوم الجزاء و فيها الميزان،و لأنّ الحاكميه المطلقه فيها لدين اللّه عزّ و جلّ.و إذا كانت الدنيا صولات و جولات بين الحق و الباطل فإنّ الآخره دوله مطلقه للحق.

و تصديق المصلين بذلك اليوم و ما فيه من الحقائق تصديقان:تصديق القلب بالإيمان و اليقين الراسخ أنّ الآخره حق واقع، و تصديق الجوارح بالعمل و السعى الصالح، الذى يكون مصداقا للإيمان،و دليلا على صدق مدّعيه.و قد أعطى الإسلام لهذه الكلمه مفهومها الحقيقى الشامل حينما اعتبر كلّ صالحه و حسنه صدقه،

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله : «كلّ معروف صدقه إلى غنىّ أو فقير» (۳)، و

قال صلى الله عليه و آله : «تبسّمك فى وجه أخيك صدقه،و أمرك بالمعروف صدقه،و نهيك عن المنكر صدقه،و إرشادك الرجل فى دلو أخيك صدقه» (۴).

ص:۳۶۵

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰-ص ۳۵۶.

۲- ۲) الكشاف/ج ۴-ص ۶۱۲.

۳- ۳) موسوعه بحار الأنوار/ج ۹۶-ص ۱۲۲.

۴- ۴) كنز العمال/ج ۵-ص ۱۶۳.

و نهتـدی من قوله: یُصَدِّقُونَ بِیَوْمِ الدِّینِ إلی أنّ أعمالهم الصالحه مصداق إیمانهم بالآخره،فلا یعملون ریاء أو سـمعه،أو أشـرا أو بطرا،أو استعلاء فی الأرض.کما نستوحی من ذلک أنّ یوم الدین هو العامل الرئیسی الذی به یصدّقون و یندفعون إلی الأعمال الصالحه.أ تری لو کفر أحد بالجزاء ماذا یدفعه إلی التصدّق و الإنفاق و التضـحیات؟لا شـیء،و لهذا فإنّ توقّف مسیره الإحسان و العطاء عند الکفره سببه کفرهم بالآخره.

و حیث اعتبر القرآن التصدیق بالآخره صفه أساسیه عند المصلّین حقّا فلأنّهم عند ما یقومون إلی الصلاه یعیشون بوعیهم الإیمانی ظواهر الآخره و أحداثها الفظیعه.

و ما هی قیمه الصلاه إذا لم یکن المصلی حاضرا بروحه و بصیرته فی الآخره عند أدائها؟ و إیمانهم بالآخره له دور أساسی و کبیر فی حیاتهم إیمانا و تفکیرا و عملا،فهو مقیاسهم فی القضایا المختلفه، فلا یقربون الذنوب خشیه الخزی و العذاب یومئذ، و یستزیدون من عمل الصالحات طمعا فی الفوز بالجنه و رضوان اللّه،و لا یجزعون عند البأساء و الضراء لأنّ الشر الحقیقی لیس الفقر و لا فقدان الأحبه و لا المرض إنّما هو عذاب اللّه و سخطه،و لا یمنعون عند الخیر برّهم عن أحد طمعا فی الخیر العظیم عند لقاء اللّه.و بعباره:إنّ الإنسان لا یمکن له الثبات،بل یبقی هلعا متقلّب الشخصیه حتی یؤمن بالآخره،لأنّ ذلک وحده الذی یعطیه الاطمئنان إذ یشبع تطلّعاته الفطریه،و یشعره بأنّه یسیر نحو مستقبل أفضل و أنبل.

الرابعه:الخوف من عذاب اللّه.

وَ الَّذِینَ هُمْ مِنْ عَذٰابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ فی التبیان:الإشفاق رقّه القلب عن تحمّل ما یخاف من الأمر،فإذا قسی قلب

الإنسان بطل الإشفاق،و قيل:من أشفق من عذاب اللّه لم يتعدّ له حدا و لم يضيع له قرضا (1)،و خوفهم فى الحقيقه ليس من شده العذاب بقدر ما هو خوف من سخط اللّه،لأنّ فراق رضوان اللّه أعمق و أشدّ ألما من ألسنه النيران.

إنّ المصلين الحقيقيين يفترضون أنفسهم فى النار،و ينطلقون من ذلك بالجدّ و الاجتهاد و السعى الحثيث لإنقاذ أنفسهم منها،و إنّما لا يفترضون أنفسهم فى الجنه لكى لا يستبدّ بهم الغرور فيركنون إلى الراحه و الدّعه،و لكى لا يعيشوا فى ظلّ خرافه الشرك أو أمنيه الشفاعه المحتومه على اللّه تعالى سبحانه أو حلم الأعمال الصالحه التى لا يعرفون مدى قبولها من عند اللّه، فهم لا يعطون لها الأمان بالاعتقاد الخاطئ أنّ اللّه لا يعذّبهم،و لا بالاتكال اغترارا على أعمالهم،و لا بالفهم السيء للشفاعه.

إِنَّ عَذٰابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ و تأكيد هذه الحقيقه من قبل اللّه يأتى فى سياق المنهج التربوى للقرآن،فإنّ من لا يأمن العذاب لا يسمح لنفسه بالغفله،و ضياع الفرصه،كما أنّه يتحرك فى بعدين:بعد اجتناب الذنوب التى جزاؤها العذاب،و الثانى:بعد العمل الصالح الذى يقرّب العبد إلى اللّه،و ينجيه من غضبه،و يقرّبه من الأمان الحقيقى من عذابه.

إنّ الذى يأمن مكر اللّه و عذابه أو يكفر به و يكذّب كأولئك الذين بلغ كفرهم بوعد اللّه حدّ الاستهزاء و التحدى بالسؤال عن العذاب؛إنّ هذا الإنسان لا يتحسس المسؤوليه،و من ثمّ يخوض و يلعب،و قد يعتمد على التمنّيات فيودّ لو يفتدى

١- ١) التبيان/ج ١٠-ص ١٢۴.

بالآخرین و ینجو،أو یطمع أن یدخل جنه نعیم،و لکنّها لا تعطی أمانا أبدا،قال شیخ الطائفه مفسّرا الآیه:قیل یخافون أن لا تقبل حسناتهم و یؤخذون بسیئاتهم (۱)، و فی الکشاف:أی لا ینبغی لأحد و إن بالغ فی الطاعه و الاجتهاد أن یأمنه، و ینبغی أن یکون مترجّحا بین الخوف و الرجاء (۲)،و قیل:لأنّ المکلّف لا یدری هل أدّی الواجب کما أمر به،و هل انتهی عن المحظور کما نهی (۳).

و کون العذاب غیر مأمون لا یعنی أنّه تعالی لا یعدل،حاشا و هو السلام المؤمن، بل لکون الإنسان غیر معصوم،و لکون التمحّض فی الحقّ من جانبه صعبا و قلیلا أهله،

قال الإمام الصادق علیه السلام : «أتی رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-فقیل له:

إنّ سعد بن معاذ قد مات،فقام رسول اللّه صلی الله علیه و آله و قام أصحابه معه،فأمر بغسل سعد و هو قائم علی عضاده الباب،فلمّا أن حنّط و کفّن و حمل علی سریره تبعه رسول اللّه صلی الله علیه و آله بلا حذاء و لا رداء،ثم کان یأخذ یمنه السریر مره و یسره السریر مره حتی انتهی به إلی القبر،فنزل رسول اللّه صلی الله علیه و آله حتی لحّده و سوّی اللبن علیه، و جعل یقول:ناولونی حجرا،ناولونی ترابا رطبا؛یسدّ به ما بین اللّبن،فلمّا أن فرغ و حثا التراب علیه و سوّی قبره قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«إنی لأعلم أنّه سیبلی و یصل البلی إلیه،و لکنّ اللّه یحب عبدا إذا عمل عملا أحکمه»،فلمّا أن سوّی التربه علیه قالت أمّ سعد:یا سعد هنیئا لک الجنه،فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :یا أمّ سعد مه،لا تجزمی علی ربک فإنّ سعدا قد أصابته ضمّه،قال:فرجع رسول اللّه صلی الله علیه و آله و رجع الناس فقالوا له:یا رسول اللّه لقد رأیناک صنعت علی سعد ما لم تصنعه علی أحد،إنّک تبعت جنازته بلا رداء و لا حذاء،فقال صلی الله علیه و آله :إنّ الملائکه کانت بلا رداء و لا حذاء فتأسیت بها،قالوا:و کنت تأخذ یمنه السریر مرّه،و یسره السریر

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) الکشاف/ج ۴-ص ۶۱۳.

۳- ۳) المیزان/ج ۲۰ ص ۲۰.

مرّه،قال:کانت یدی فی ید جبرئیل آخذ حیث یأخذ،قالوا:أمرت بغسله و صلّیت علی جنازته و لحّدته فی قبره ثم قلت إنّ سعدا قد أصابته ضمّه؟!قال:

فقال صلی الله علیه و آله :نعم.إنّه کان فی خلقه مع أهله سوء» (۱).

الخامسه:العفّه الجنسیه.

إنّ ممّا یبعد المصلّین عن صفه الهلع هو سیطرتهم التامّه علی شهواتهم،فبینما تسیّر الآخرین غرائزهم و أهواؤهم تجد المؤمنین یوجّهونها علی أساس القیم کیفا و مقدارا، مما یعطیهم الثبات فی شخصیتهم.

وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ و یفسّر علاقه هذه الآیه بالآیتین السابقتین عن الخشیه من العذاب

حدیث أمیر المؤمنین-علیه السلام-: «من اشتاق إلی الجنه سلا عن الشهوات،و من أشفق من النار اجتنب المحرّمات»، و هذا یؤکّد العلاقه بین عقائد الإنسان المؤمن و سلوکه،و أنّ المصلی بحقّ هو الذی یترجم القیم الإیمانیه إلی حقائق واقعیه فی حیاته،فالتصدیق بیوم الدین و الإشفاق من العذاب لیس مجرد أقوال علی ألسنتهم أو أفکار فی أذهانهم،بل هی واقع ملموس فی شخصیاتهم.

و بالتدبر فی معانی الآیه الکریمه نهتدی إلی الحقائق التالیه:

ألف:إنّها باستثناء أَوْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُهُمْ شامله للزوجین الرجل و المرأه، فإنّ المرأه کالرجل مکلّفه بصیانه نفسها جنسیّا إلاّ علی زوجها،و أن لا تبحث عن طرق ملتویه لإشباع غریزتها الجنسیه.

ص:۳۶۹

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۶-ص ۲۲۰.

باء:إنّ حفظ الفرج يبدأ من طهاره القلب بعفّه الإيمان و عفّه النظر عمّا حرّم اللّه،و هكذا سائر الجوارح كالسمع و اللمس،فإنّ فرج الإنسان لا يزال محفوظا حتی تدخل قلبه أفکار الشیطان،أو یزیغ نظره إلی الحرام،و کذا سمعه و جلده.

جیم:إنّ التعبیر جاء بالجمع«فروجهم»و لیس بالمفرد،و ذلک یهدینا إلی أنّ من حفظ فرجه فإنّه یحفظ فروج عرضه و من یتعلّق به کسنّه اجتماعیه طبیعیه، و هکذا من یقتحم به الفواحش فإنّما یجعل فروجه-زوجته و أخواته و إخوانه و عقبه-عرضه للتورّط فی الفاحشه،

فقد أوحی اللّه إلی موسی علیه السلام :«یا موسی! من زنی زنی به،و لو فی العقب من بعده» (1)

«یا موسی!عفّ یعفّ أهلک» (2)،

«یا ابن عمران!کما تدین تدان» (3)، و

فی حدیث آخر: «لمّا أقام العالم(الخضر علیه السلام)الجدار(للیتیمین)أوحی اللّه إلی موسی علیه السلام :إنّی مجازی الأبناء بسعی الآباء،إن خیرا فخیر،و إن شرا فشر،لا تزنوا فتزنی نساؤکم،و إنّ من وطئ فراش أمری مسلم وطئ فراشه. کما تدین تدان» (4).

دال:و إذا نظرنا إلی الآیه بتفکّر أمکننا توسیع معنی الفروج لیشمل کلّ فرجه یساهم بها الإنسان فی ممارسه الجنس،کالفم و الأذن و العین و فتحات الشم،و إنّ المصلین یعفّون بها عن ممارسه الحرام،فلا یقبّلون بشفاههم غیر أزواجهم،و لا یتلفظون بها کلمات الغرام و الغزل،کما أنّهم لا یستمعون بآذانهم أحادیث الهیام و کلمات الحبّ،و یصونون أعینهم عن النظر إلاّ إلی محاسن الأزواج و زینتهنّ،بل و یحفظون مشامّهم قدر المستطاع عن الاستلذاذ بالحرام!

1- 1) کلمه اللّه للشهید الشیرازی/ص 191.

2- 2) المصدر.

3- 3) المصدر.

4- 4) المصدر/ص 193.

هـاء:و لعلّنـا نقرأ فى بطون الآيه الكريمه أنّ المصـلين يحسـنون إداره عوائلهم فى كلّ الأبعاد و منها الجنس،بحيث تتصل الفروج المتعلّقه بهم إلى حدّ الإشـباع جنسيّا و عاطفيّا،مما يحفظها عن التفكير فى ممارسه الجنس الحرام خارج إطار العلاقه الزوجيه،هذا ما يستفاد من السياق و بالذات من قوله سبحانه فى خاتمه الآيه فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ كما يأتى تفسيره.

و إنّ الـدراسات العلميه فى جنس الاجتمـاع لتؤكّـد على أنّ أغلب الانحرافـات فى هـذا الجانب-و بالتالى فشل الأزواج فى حفظ أزواجهم و حصر علاقاتهم الجنسيه بهم-مبتنيه على سوء إدارتهم للعائله.

إنّ الإسـلام دين الفطره،و معنى ذلك أنّه ينسـجم مع طبيعه الإنسان،و الغريزه الجنسـيه غريزه طبيعيه،و الإسـلام لا يحاربها،و لكنّه يفرض عليه منهجـا سـليما، فهو من جهه يحرّم ممـارسه الجنس الحرام،و من جهه أخرى يفتـح المجـال فيما يخصّ الزوجات و ما ملكت اليمين.

إِلاّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ و إذا عرفنا أنّ الزوجه تتعدّد فى الإسـلام إلى أربعه،كما أنّها تشـمل الدائمه و المؤقّته،فإنّ مصـادر التمتّع بالغريزه الجنسيه تكون متنوّعه،خصوصا عنـد ما كانت الظروف مواتيه لملك اليمين فى ظلّ نظام الرّقّيه الشائع فى القديم.

فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ لا من قبل اللّه و لا من قبل الناس.

و الغريزه الجنسيه أشبه شيء بتيّار ماء عارم لا يدعه المؤمن يندفع حيث يشاء،

بل یصنع حوله السدود،و یحفر القنوات التی تستوعبه و توجّهه إلی ما فیه الحقّ و الصلاح.

فَمَنِ ابْتَغیٰ وَرٰاءَ ذٰلِکَ نتیجه للشذوذ بممارسه الحرام زنا و غیره (۱).

فَأُولٰئِکَ هُمُ الْعٰادُونَ یقال عدی فلان:اعتدی،و عدی فی مشیه إذا أسرع و تجاوز الحدّ المعروف، و هو الأصل،و العادی:الظالم بالتجاوز.قیل:فأولئک الذین تعدّوا حدود اللّه، و خرجوا عمّا أباحه لهم (۲).و من مصادیق «وَرٰاءَ ذٰلِکَ » الاستمناء(العاده السریه)،

فقد سئل الإمام الصادق علیه السلام عن الخضخضه فقال:«إثم عظیم قد نهی اللّه عنه فی کتابه،و فاعله کناکح نفسه،و لو علمت بمن یفعله ما أکلت معه»، فقال السائل فبیّن لی یا ابن رسول اللّه من کتاب اللّه و نهیه؟فقال:«قول اللّه:

«الآیه»و هو ممّا وراء ذلک» (۳)و إنّ من انتصر علی هوی النفس و وسواس الشیطان بشأن الشهوه الجنسیه فقد أوتی خیرا کثیرا،

قال الإمام الباقر علیه السلام : «ما عبد اللّه بشیء أفضل من عفّه بطن و فرج» (۴)،و هذه الروایه تفسر لنا العلاقه بین العفّه الجنسیه و بین کون العفیف من المصلین الحقیقیین عند اللّه.و کیف یقیم الصلاه من یخبط خبط عشواء فی الفواحش و ربنا یقول:

۱- ۱) راجع سوره المؤمنون عند الآیه:۶-۷.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰-ص ۳۵۵.

۳- ۳) تفسیر البصائر/ج ۴۹-ص ۱۲۳.

۴- ۴) المصدر/ص ۱۲۲.

وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ (۱)؟أی أنّ تجنّب الفواحش و المنکرات شرط أساسی لإقامه الصلاه بحدودها.

السادسه:رعایه الأمانات و العهد.

وَ الَّذِینَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ قال العلاّمه الطبرسی:الأمانه ما یؤتمن المرء علیه مثل الوصایا،و الودائع، و الحکومات و نحوها (۲)،و قیل:کل نعمه أعطاها اللّه عبده من الأعضاء،فمن استعمل شیئا منها فی غیر ما أعطاه اللّه لأجله و أذن له فی استعماله فقد خانه (۳).

و إطلاق المعنی هو الأصح،فالأمانه کل ما استؤمن علیه الإنسان،و العهد کل ما تعاقد علیه و قطع علی نفسه الوفاء به.و أظهر مصادیق الأمانه العقل و ما یفرضه من مسئولیه اختیار الحق و الذی یتجلّی فی رسالات اللّه،تلک الأمانه التی عرضها علی السموات و الأرض فأبین أن یحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان.کما أنّ أظهر مصادیق العهد ما أخذه اللّه علی بنی آدم أن یوحّدوه و لا یشرکوا به شیئا،و المشار إلیه فی قوله تعالی: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قٰالُوا بَلیٰ شَهِدْنٰا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیٰامَهِ إِنّٰا کُنّٰا عَنْ هٰذٰا غٰافِلِینَ (۴).و ما هی قیمه الصلاه التی لا تردع الإنسان عن خیانه الأمانه و العهد؟ و ما هی قیمتها إذا لم تعطه روح الوفاء بهما و الرعایه لهما؟! السابعه:القیام بالشهاده.

ص:۳۷۳

۱- ۱) العنکبوت/۴۵.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰-ص ۳۵۶.

۳- ۳) المیزان/ج ۲۰-ص ۲۱.

۴- ۴) الأعراف/۱۷۲.

وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ فلا يكتمون الشهاده،و لا يشهدون بالباطل،لا فرق عندهم أ كانت لهم أم عليهم،لأنّ المهم هو إقامه الحق و إعلاء كلمته لوجه اللّه.و بالتالى فإنّهم لا يتأثرون بالضغوط التى تدعوهم للعدول بالشهاده عن الحق.

و الشهاده أوسع من أن نحصرها فى القضاء،بل هى قيام الإنسان بالشهاده للحقّ فى كلّ حقل و بعد،و ذلك بالدفاع عن الحقّ قولا و فعلا،مما يجعله ميزانا للحق،و حجه بالغه على المخالفين له،كما قال اللّه يخاطب حبيبه: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۱)،و قال: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (۲).

و بكلمه«قائمون»أعطى القرآن مفهوما أعمق للشهاده،فهى ليست مجرّد قول الحقّ عند اختلاف الناس فيه،بل قد يرقى إلى خوض الصراع الذى قد ينتهى إلى القتل فى سبيل اللّه،و هو قمّه شهاده المرء للحق.و بكلمه:إنّ القيام هنا قد يكون نقيض القعود فى قول اللّه: وَ فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجٰاهِدِينَ عَلَى الْقٰاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (۳)، مما يجعل كلّ مؤمن شهيدا شاهدا على عصره،و يجعل الصلاه رمز شهادته و معراج شهوده.

الثامنه:المحافظه على الصلاه.

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ

۱- ۱) الأحزاب۴۵/.

۲- ۲) البقره۴۳/.

۳- ۳) النساء۹۵/.

بمظهرها و كيفيتها(يعنى الصلاه المتعارفه)،و قد قدّم اللّه تلك الصفات للتأكيد بأنّها الجوهر و الأهم فى الصلاه،لأنّها المحتوى و الصلاه إطارها،و هى القيم و الصلاه مقامها،و هى النور و الصلاه مشكاتها،و ينبغى لكلّ مقبل على الصلاه أن يضعها نصب عينيه قبلها و بعد أدائها،و يسعى للالتزام بها إلى جانب التزامه بمظاهر الصلاه.قال صاحب المجمع:أى يحفظون أوقاتها و أركانها فيؤدّونها بتمامها، و لا يضيعون شيئا منها (۱)،و قال الرازى:و محافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل وجه (۲).و لا يمكن لأحد أن يحفظ صلاته من الفساد حتى يلتزم بشروطها فلا يقتحم الفواحش و المنكرات،لأنّها تبطل أجرها،و تمنع قبول اللّه لها من أحد.

ما هو أجر المصلين الحقيقيين الذين تقدّمت صفاتهم؟يقول ربّنا:

أُولَـٰئِكَ فِى جَنّٰاتٍ مُكْرَمُونَ كرامه حقيقيه تتمثل فى القرب من اللّه،و كرامه ظاهره فى نعيم الجنّات،و فى هذه الآيه تسكين لروعتهم من العذاب،و تأمين لهم بأنّه بعيد عنهم.و جزاؤهم هذا نقيض جزاء الكافرين الذين تخشع أبصارهم،و ترهقهم ذلّه و إهانه.

و فى نهايه سردنا لصفات المصلين فى مفهوم القرآن نسجل هاتين الفكرتين:

۱-إنّ التعبير يكون صحيحا لو قال اللّه عند كلّ صفه(الذين)من غير إلحاق للضمير المنفصل«هم»بالكلام،و لكنّه أثبته تعالى لغرض التأكيد أوّلا،و لبيان أنّ صفاتهم ليست عرضيّه،بل هى سجايا و ملكات دافعهم إليها مرتكز فى أنفسهم،

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰-ص ۳۵۷.

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۳۰-ص ۱۲۹.

لا اتباعا لهوى أحد أو استرسالا مع ظرف محدّد.

۲-إنّ بيان تعريف المصلين بهذه الصفات يعطينا مقياسا لتقييم أنفسنا، و ميزانا لمعرفه الناس من حولنا،فما أكثر من يصلى و لكنه لا يقيم الصلاه،فيكون له الويل و اللعنه،لا كرامه اللّه و الجنه.

[۳۶]و من بيان صفات المصلين التى هى ثمن الكرامه فى الجنّات ينعطف السياق القرآنى لانتقاد موقف الكافرين الذين يطمعون فى دخول الجنه،و يتمنّونها نصيبا و مصيرا من غير سعى و اجتهاد،مؤكّدا بأنّها منهجيه خاطئه،لأنّها تقوم على التمنّيات،و لأنّها لا تقود إلاّ إلى الخوض و اللعب فى الدنيا،و الخسران المبين فى الآخره.

فَمٰا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ قيل أذلاّء (۱)،و فى المنجد:من ينظر فى ذلّ و خضوع لا يقلع (۲)،قال تعالى:

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لاٰ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوٰاءٌ (۳)،و الأقرب هنا أنّ الإهطاع إسراع فى ذل،يقال:استهطع البعير فى سيره أسرع،و ناقه هطعى:

سريعه (۴).و يدل على ذلك قوله تعالى: خُشَّعاً أَبْصٰارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدٰاثِ كَأَنَّهُمْ جَرٰادٌ مُنْتَشِرٌ* مُهْطِعِينَ إِلَى الدّٰاعِ (۵)أى مسرعين فى إجابه داعى اللّه منكّسى رؤوسهم أمامه.

ص:۳۷۶

۱- ۱) القمى/ج ۲-ص ۲۳۸.

۲- ۲) المنجد/ماده هطع.

۳- ۳) إبراهيم۴۳/.

۴- ۴) المنجد ماده هطع.

۵- ۵) القمر/

و الآیه تستنکر علی الکفّار بالرساله مسارعتهم فی الفرار من دعوه الرسول صلی الله علیه و آله ، کأنّهم قطیع بعیر شارده،أو کما وصفهم تعالی حال إعراضهم عن التذکره: کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (1)حیث لا یثبتون قبل الرسول الذی یحمل إلیهم منهج الفلاح و العزه فی الدنیا و الآخره،و لا یعلمون أنّهم بذلک الإسراع فی الفرار إنّما یسارعون فی الذلّ و الفشل،و لیس کما یزعمون مسارعه فی الخیر،و هذا ما یعاینونه فی الآخره یَوْمَ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً کَأَنَّهُمْ إِلیٰ نُصُبٍ یُوفِضُونَ* خٰاشِعَةً أَبْصٰارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ،و هاتان الآیتان بیان واضح لمعنی الإهطاع أنّه الإسراع.

[37-39]و لا یفرّ الکافرون قبل الرسول فی صفّ منتظم واحد،بل فی صفوف مختلفه،و ذلک لأنّ المسارعه فی الفرار من الحق موقف مبدئی اجتماعی سیاسی یتخذه المهطعون لعوامل متفاوته بینهم،مما یجعل مواقفهم التابعه للأهواء مختلفه،فمن مشرق و من مغرّب کما یقول اللّه و یصف القرآن:

عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ عِزِینَ أی متفرقین جماعات کلّ ینتسب إلی جماعه مختلفه.و أصل العزی من النسبه، یقال:تعزّی إلیه یعنی انتسب،و العزیه:الانتساب (2)،قال الأزهری:عزا فلان نفسه إلی بنی فلان،یعزوها عزوا،إذا انتمی إلیهم،و الاسم العزوه.و کأنّ العزوه کل جماعه اعتزاؤها(و انتسابها)إلی أمر واحد (3).و لقد رأینا کیف أنّ الانحراف عن الرساله صیّر الناس مذاهب و طوائف،بینما کانت الرساله-لو استجابوا لها-تجمعهم أمه واحده قویه و عزیزه..إلاّ أنّهم مزّقوا أنفسهم بالضلال

1- 1) المدثر 50/-51.

2- 2) المصدر/ماده عزی بتصرف.

3- 3) التفسیر الکبیر ج 30-ص 131-132.

عن هداها كلّ ممزّق فصاروا إلى الضعف و الذل.

و فى الروايات إشاره من رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى معنى«عزين»على أنّه التفرّق جماعات و مذاهب،

فعن جابر بن سمره قال: دخل علينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله المسجد و نحن خلق متفرّقون فقال:«مالى أراكم عزين؟ألا تصفّون كما تصفّ الملائكه عند ربّها؟»قالوا:و كيف تصفّ الملائكه عند ربّها؟قال:«يتمّون الصفوف الأول و يتراصّون فى الصفّ» (۱).

و التفرق نتيجه طبيعيه للكفر باللّه و الرساله،لأنّ الإيمان يجمع الناس على محور واحد هو محور الحق،أمّا الكفر فإنّه يتخذ أشكالا مختلفه..أحزابا و أفكارا و قيادات.و هناك قول بأنّ المقصود بالكافرين هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان و يخفون الكفر و التكذيب (۲)،و الأقرب تعميم المعنى ليشمل الكافرين و المنافقين جميعا.

و إذا تنكّب الإنسان عن صراط الجنه الرسول(قياده)و الرساله(منهجا)فكيف يسعد؟و من أىّ باب يدخل الجنه؟و بأىّ وسيله؟ إنّ الإنسان إنّما يرفض الحق قياده و منهجا فرارا من المسؤوليه و الاجتهاد،لا بغضا للحقّ فى ذاته أو جهلا به،بينما نفسه تظل تتطلّع إلى الخلاص من العذاب و الفوز بالجنه،و هكذا تراه يلجأ إلى التمنّيات و الظنون.من هنا يستنكر عليهم السياق ذلك الطمع الزائف فيقول:

أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ

۱- ۱) تفسير البصائر/ج ۴۹-ص ۱۲۴.

۲- ۲) هكذا فى مجمع البيان،و إليه ذهب الفخر الرازى و العلامه الطباطبائى و صاحب تفسير فتح القدير للشوكانى.

و للآيه إيحاء بأنّ ذلک الـذی رفض دخول الجنه بالصّد عن طریقها و بابها من أین یدخلها؟و هل ینتظر أحدا یأتی لیدخله فیها و هو لاـ یریـد؟ کَلّا إنّه لا یکون فلا یـدخل الجنه أحـد من غیر بابها،و من دون أن یسـعی إلیها سـعیها، و ما یحمل جناح التمنی و الطمع صاحبه إلاّ إلی النار و التهلکه.و قال ربنا:

«یـدخل»مبنیّا للمجهول لبیان أنّ صاحب التمنیات لا یسـعی بنفسه،إنّما یترقّب نجاته من غیره،و لیس یفعل ذلک أحـد،فأمّا اللّه و الأولیاء فهم أعداؤه،و أمّا الأنداد فإنّهم لا یملکون نفعا و لا ضرا.

ثـم إنّ الإنسـان حینمـا یتفکّر فی الخلیقـه مـن حـوله،بـل فی خلـق نفسه،یصـل إلی حقیقه مهمه تنفی له التمنیـات و الأطمـاع من أساسـها،و أنّها لا تـدخل أحـدا إلی جنه النعیم،لأنّه أینما نظر و تفکّر لن یجد شـیئا یدور فی الفراغ،بلا قانون أو سنّه،و من ذلک نفسه.

إِنّا خَلَقْناهُمْ مِمّا یَعْلَمُونَ إشاره إلی خلقه الإنسان المادیه(العناصر التی یتکون منها)و المعنویه(الأطوار و القوانین و السنن).و فکره أخری تفسّـر العلاـقه بین نسف القرآن للتمنیـات و بین إشـارته إلی خلقه النـاس و هی أنّ فی الإنسـان جانبین لا بـد أن یتکاملا: الجسـد و الروح،و هو لاـ یملک فی تکامل جسـمه شـیئا کثیرا،فمن نطفه یصـیر علقه فمضـغه حتی یولـد طفلا فیشبّ و یشـیخ ثم یموت،بینما یعتمد تکامل روحه علی إرادته و سـعیه، و الجنه جزاء إحرازه للتکامل فی هذا الجانب،و لن یدخلها بمجرد الطمع و التمنیات.

و بصیره ثالثه:أنّ الکافرین إنّما ترکوا الإیمان و السعی للطمع و التمنّی بسبب

كفرهم بالآخره،حيث قالوا:كيف نعود أحياء بعد أن نصير ترابا؟فذكّرهم اللّه بأصل خلقتهم(التراب)لبيان أنّه تعالى قادر على إعادتهم بشرا أسوياء بعد أن يصيروا ترابا.و لعلّ الآيه تقرير بأنّ جذر ذلك التمنى و الكفر راجع إلى طبيعه الإنسان الترابيه و جانب الظلام فى وجوده.

[۴۰-۴۱]و يعالج اللّه موقف الكفّار من وعده و عذابه الواقع بالردّ على تحديهم للحق و سؤالهم عن العذاب،و ذلك من خلال تذكيره بحقيقتين:

الأولى:طبيعتى الجهل و الضعف عند الإنسان،و اللتان تجعلان تحديه فى غير محلّه،فإنّه لو اطلع على عذاب ربه و عرف قدر خالقه لما ساقه الكفر و التحدى.

و ما عسى أن يكون و هو المخلوق الضعيف حتى يتحدى خالقه،و يسأله إنزال عذابه عليه تكذيبا و هزوا؟!و إلى هذه الحقيقه تشير الآيه(۳۹).

الثانيه:قدره اللّه المطلقه و حكمته النافذه،فهو قادر لو أراد أن يهلك الكفّار و يمحوهم من الوجود،و لكنّه حكيم لا يفعل ذلك..و من تحسّس هاتين الصفتين للّه ينبغى الإيمان بالآخره و خشيه العذاب.

فَلاٰ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ إِنّٰا لَقٰادِرُونَ* عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ و أول سؤال يفرض نفسه:

ماذا تعنى المشارق و المغارب؟يجيب الإمام أمير المؤمنين على-عليه السلام-عن ذلك عند ما وجّه ابن الكوّا تهمه التناقض إلى القرآن،فقال له-عليه السلام-:ثكلتك أمك يا ابن الكوّا!هذا المشرق و هذا المغرب(مشيرا بيده إلى الجهتين)،و أمّا قوله: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »فإنّ مشرق الشتاء على حده و مشرق الصيف على حده،أما تعرف بذلك من قرب الشمس و بعدها؟!و أمّا قوله: بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ فإنّ لها ثلاثمائه و ستين

برجا،تطلع كلّ يوم من برج،و تغيب فی آخر،فلا تعود إليه إلاّ من قابل فی ذلک اليوم (۱).

و عن ابن عبّاس قال:«للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه،و مغرب تغرب فيه،غير مطلعها و غير مغربها بالأمس» (۲).

و العلاقه واضحه بين إشاره اللّه إلی آيه المشارق و المغارب الكونيه،و بين تأكيده علی أنّه قادر علی التبديل،ذلک أنّ تبدّل المشارق و المغارب اليومی-هذه الحركه الكونيه-آيه من آيات قدرته تعالی علی التبديل،و أنّ الخلق و الأمر إليه؛بحيث لو أراد الردّ علی تحدی الكفّار بإنزال عذابه لفعل فأهلكهم،و أتی بغيرهم خيرا منهم، لا يعجزه شیء أبدا.

و السؤال الثانی:لماذا قال ربنا:«خيرا منهم»؟لعل الجواب:أنّ سنّه هلاک الأمم الغابره قائمه علی أساس أنّ الأمّه الناشئه البديله تكون أفضل لقربها من فطره الخلق،و عدم تلوّثها بعوامل الفساد و الزيغ.لقد أهلک اللّه قوم نوح،و طهرت الأرض جميعا من فسادهم و زيفهم،و أنشأ من بعدهم قوما صالحين(هم ذريه الناجين فی السفينه)،ثم أهلک فرعون و قومه و استعمر بلادهم بنو إسرائيل،و كانوا أمّه مؤمنه..و هكذا لا يكون خلق اللّه إلاّ صالحا،كما قال ربنا سبحانه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .

وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ أی لا يسبقنا شیء،و لا يعجزنا أحد،و لم نمارس فی أمر الخلق لغوبا و لا

۱- ۱) الإحتجاج/ج ۲-ص ۲۵۹.

۲- ۲) الدر المنثور/ج ۶-ص ۲۶۷.

علاجا،و لا تعلّمنا التجربه من أحد أو احتجنا إلى شريک أو معين،سبحان اللّه..

و إنّما تقتضى حکمته الإمهال.قال شيخ الطائفه مشيرا إلى هذا المقطع من الآيه:

و قوله:«الآيه»عطف على جواب القسم،و معناه أنّ هؤلاء الکفّار لا يفوتون بأن يتقـدموا على وجه يمنع من إلحاق العذاب بهم،فلم يکونوا سابقين،و لا العقاب مسبوقا منهم،و التقدير:و ما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إيّاهم (۱).و يستشفّ من الکلمه معنى الغلبه لأنّ من دخل السباق و سبق فهو مغلوب،و تعالى اللّه أن يغلبه أحد و هو القادر على کل شيء (۲).

و فى الآـيه نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ اختلاف فى کيفيه الإبـدال،فقيل:بالإهلاک و ذلک بأن يهلکهم اللّه و يخلق غيرهم،و قيل:بأنّه تعالى يبـدّل الرسول عنهم-و هم المکـذّبون المهطعون عن اليمين و عن الشـمال عزين رافضـين لرسالته-يبدّلهم بآخرين قبله يطيعونه و يصدّقون بدعوته.و الاثنان صحيحان.

ثم يشـير تعالى إلى حقيقه أساسيه و هى:أنّ الدنيا و إن کانت تتجلّى فيها سنّه الجزاء إلاّ أنّه ليس ضروريّا أن يجازى اللّه فيها کلّ أحد،و السبب أنّها دار الابتلاء،أمّا دار الجزاء فهى الآخره،و إنهم-أى الکفّار-لن يفوتوه،بل سيلاقون جزاءهم يوم القيامه.

فَذَرْهُمْ فى الدنيا.

يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا

ص:۳۸۲

۱- ۱) التبيان/ج ۱۰-ص ۱۲۹.
۲- ۲) لقد مرّ بيانه فى سوره النجم و مواضع أخرى لمعنى(لا أقسم)فراجع.

فیذهبوا بکلّ خلاقهم،و یتمادوا فی الذنوب حتی یأتوا فی الآخره لا خلاق لهم،و قد فعلوا ما یستحقّون به المزید من العقاب و العذاب،فإنّ فرصتهم أنّی بدت طویله فهی محدوده بالدنیا.

حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ یعنی یوم الجزاء عند ما یلاقون الإذلال و العذاب.و من مصادیقه یوم یتوفّاهم اللّه.أ و لیس إذا مات ابن آدم قامت قیامته؟أ و لیس الموت یضع حدّا لخوضهم و لعبهم؟ و أصل الخوض دخول الماء،یقال:خاض بالفرس إذا أورده الماء،و الغمرات اقتحمها،و کذا المهالک (1)، و لعلّه الدخول فی الشیء بالکامل،و خوض الکافرین هو دخولهم فی الذنوب و اتباعهم الأهواء و الشهوات مسترسلین بلا ضوابط أو حدود.

و اللعب کل ما یقدم علیه الإنسان بأهداف شهوانیه تافهه.و قول اللّه تعالی:

«فذرهم»هو تحدید لموقف الرسول و من یتبعه تجاه الفریق المذکور من الکافرین، و لا یعنی ذلک أن یعتزل الرسالیون ساحه الجهاد و العمل فی سبیل اللّه،بلی.إنّهم من الناحیه الدینیه العقائدیه لیسوا مسئولین عن دعوتهم لقبول الحق و الإیمان بالآخره عن طریق الجبر،بل یترکونهم فالخیار لهم،کما لا ینبغی أن یذهبوا أنفسهم حسرات علی عدم إیمانهم و اختیارهم طریق النار.هذا من جانب،و من جانب آخر یجب أن لا تدعوهم تحدیات الأعداء و استفزازاتهم إلی التعجّل بردّات الفعل غیر المدروسه، و إنّما یجب أن یصبروا صبرا جمیلا،فی الوقت الذی یواصلون فیه مسیره الجهاد، حسبما یوحی إلیه السیاق العام لهذه السوره الکریمه.

1- 1) المنجد ماده خوض بتصرف.

[۴۳-۴۴]و يبيّن القرآن صفات اليوم الذى يوعد الكافرون و أعداء اللّه، مصوّرا مشاهد منه،تبعث فى القلوب رهبه و تدعوا الإنسان إلى التفكير فى اتّقاء سوء عذابه.

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً بإراده اللّه،فإذا بجسد الإنسان تتصل به روحه،و يصير بشرا سويّا واعيا فى ساعات معدوده،«سراعا»بحيث لا يحتاج الأمر أن يمرّ كلّ واحد بمراحل خلقه الاولى..نطفه فعلقه فمضغه..إلخ.و الجدث هو القبر.و إنّ الكافرين الذين تنكّبوا عن الصراط و رفضوا دعوه اللّه عن طريق رسله فى الدنيا لا يملكون يومئذ حيله و لا قدره للصدّ عن دعوه الحق،بل يجيبون دعوه الداعى مسرعين.

كَأَنَّهُمْ إِلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ أى يعدون و يسرعون.و للنصب معان:

الأول:العلامات،فكلّ ما نصب و جعل علما و علامه فهو«نصب»و ما أشبه إسراعهم يومئذ بإسراع الضائع فى الصحراء حينما يقع بصره على العلامات الهاديه إلى الطريق! الثانى:الأصنام،جاء فى المنجد:الأنصاب حجاره كانت حول الكعبه تنصب فيهلّ عليها و يذبح لغير اللّه (۱)،قال تعالى: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصٰابُ وَ الْأَزْلاٰمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۲).

ص:۳۸۴

۱- ۱) المصدر/ماده نصب.

۲- ۲) المائده ۹۰/.

قال صاحب التبيان:شبّههم فی إسراعهم من قبورهم إلی أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم یستبقون إلیه (۱)،و قال الفخر الرازی مثله:کما کانوا یستبقون أنصابهم (۲).

الثالث:قصب السبق الذی ینصب حدّا لمیدان السباق أو علامه لمعرفه السابق من المسبوق،و کأنّ أهل النار یومئذ یسرعون سرعه المتسابق الذی یسعی للوصول قبل غیره من المنافسین.

خاشِعَهً أَبْصارُهُمْ فالموقف منعکس علیهم من الناحیه المادیه حیث یعلوهم الوجوم،و لا یرتدّ إلیهم الطرف،و ترجف أطرافهم من شدّه الموقف..و من الناحیه المعنویه أیضا حیث یشملهم الصغار و الذل.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّهٌ ذٰلِکَ الْیَوْمُ الَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ

ص:۳۸۵

۱- ۱) التبیان/ج ۱۰-ص ۱۲۹.

۲- ۲) التفسیر الکبیر/ج ۳۰-ص ۱۳۳.

سوره نوح

اشاره

ص:۳۸۷

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

عن أبی عبد اللّه الصادق-علیه السلام-قال: «من کان یؤمن باللّه و یقرأ کتابه لا یدع قراءه سوره إِنّٰا أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ فأیّ عبد قرأها محتسبا صابرا فی فریضه أو نافله أسکنه اللّه تعالی مساکن الأبرار،و أعطاه ثلاث جنان مع جنته کرامه من اللّه،و زوجه مائتی حوراء،و أربعه آلاف ثیّب إن شاء اللّه» تفسیر الثقلین ج ۵ ص ۴۲۰

الإطار العام

فی الوقت الذی تبین هذه الآیات من السوره الملامح العامه لرساله نوح علیه السلام و من خلالها للرسالات الالهیه جمیعا(الآیات ۴/۱)کما تشیر الی قصته مع قومه و التی انتهت بهلاکهم غرقا بالطوفان(الآیات ۲۸/۵)،فإن محورها الأساسی کما یبدو لیس ذلک و انما هو الترکیز علی أن نوحا-علیه السلام-ضرب مثلا رائعا للمعاناه فی سبیل اللّه،و الاستقامه علی نهج الرساله رغم التحدیات الخطیره المتمادیه،حیث بقی-سلام اللّه علیه- أَلْفَ سَنَهٍ إِلاّ خَمْسِینَ عاماً (۱)یکابد مراره نفور قومه الذین أصروا علی الباطل،و استکبروا عن الحق،و مکروا مکرا کبّارا،لا ینثنی عن أهدافه،و لا یتراجع عن نهجه،و تلک الاستقامه درس عظیم لنا،لأنها کانت من الثوابت التی لا تقبل التغییر..بلی.کان یغیّر من أسالیبه فمرّه یدعو جهارا،و أخری إعلانا،و ثالثه إسرارا،لا یدخله ادنی شک فی الحق الذی بین یدیه بسبب تکذیب قومه،و البشریه یومئذ معارضه لدعوته،و لا

۱- ۱) العنکبوت/۱۴

بسبب تأخر نصر اللّه عنه،و انما كان على عكس قومه تماما،يزداد مضيّا على الحق، و تسليما لأمر ربه،و يقينا بنصره.

إن العناد المقـدس الذى اتصف به نوح عليه السـلام جعله رمز الرساليين(دعاه و قاده) عبر التاريخ،و من ثم واحدا من أولى العزم من الرسل،و أيّ عزم ذاك الذى واجه به عناد البشريه كلها..فلله درک يا شيخ المرسلين!و لعمرى انک لايه العزم و الاستقامه!

ص:۳۹۱

[سوره نوح (۷۱): الآیات ۱ الی ۲۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ . إِنّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۱) قالَ یا قَوْمِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲) أَنِ اُعْبُدُوا اَللّهَ وَ اِتَّقُوهُ وَ أَطِیعُونِ (۳) یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُؤَخِّرْکُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی إِنَّ أَجَلَ اَللّهِ إِذا جاءَ لا یُؤَخَّرُ لَوْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴) قالَ رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَیْلاً وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ یَزِدْهُمْ دُعائِی إِلاّ فِراراً (۶) وَ إِنِّی کُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ وَ اِسْتَغْشَوْا ثِیابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اِسْتَکْبَرُوا اِسْتِکْباراً (۷) ثُمَّ إِنِّی دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (۸) ثُمَّ إِنِّی أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (۹) فَقُلْتُ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کانَ غَفّاراً (۱۰) یُرْسِلِ اَلسَّماءَ عَلَیْکُمْ مِدْراراً (۱۱) وَ یُمْدِدْکُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِینَ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ جَنّاتٍ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ أَنْهاراً (۱۲) ما لَکُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَکُمْ أَطْواراً (۱۴) أَ لَمْ تَرَوْا کَیْفَ خَلَقَ اَللّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (۱۵) وَ جَعَلَ اَلْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ اَلشَّمْسَ سِراجاً (۱۶) وَ اَللّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ نَباتاً (۱۷) ثُمَّ یُعِیدُکُمْ فِیها وَ یُخْرِجُکُمْ إِخْراجاً (۱۸) وَ اَللّهُ جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ بِساطاً (۱۹) لِتَسْلُکُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (۲۰) قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اِتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّ خَساراً (۲۱) وَ مَکَرُوا مَکْراً کُبّاراً (۲۲) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً (۲۳) وَ قَدْ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ لا تَزِدِ اَلظّالِمِینَ إِلاّ ضَلالاً (۲۴) مِمّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ یَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ أَنْصاراً (۲۵) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی اَلْأَرْضِ مِنَ اَلْکافِرِینَ دَیّاراً (۲۶) إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلاّ فاجِراً کَفّاراً (۲۷) رَبِّ اِغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ اَلْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ اَلظّالِمِینَ إِلاّ تَباراً (۲۸)

اللغه

۲۳[ودّا]:صنم اتخذه قضاعه فعبدوه بدومه الجندل،ثم توارثوه حتی صار الی کلب حتی جاء الإسلام و هو عندهم، قال الواقدی:کان ودّا علی صوره رجل.

[سواعا]:کان صنما لآل ذی الکلاع،و قیل:هو صنم لهذیل برهاط،و قال الواقدی:ان سواعا علی صوره امرأه.

[یغوث]:کان یعبده بطنان من طیّ،فذهبوا الی مراد فعبدوه زمانا،ثم ان بنی ناجیه أرادوا أن ینزعوه منهم ففروا به الی بنی الحرث بن کعب،و قیل:إن یغوث کان لبنی غطیف من مراد،و قال الواقدی:کان یغوث علی صوره أسد.

[يعوق]:صنم لكهلان ثم توارثوه حتى صار إلى همدان و قال الواقدى:انه على صوره فرس.

[نسرا]:صنم لخثعم،و قيل لآل ذى الكلاع من حمير،و عن الواقدى:أنه على صوره نسر من الطير.

۲۶[ديارا]:ديار من فيعال،من الـدوران،و نحوه القيام، و الأصل:قيوام و ديوار،فقلبت الواو ياء،و أدغمت إحـداهما فى الأخرى،قال الزجاج:يقال:ما بالدار ديار:أى ما بها أحد يدور فى الأرض،و قال الراغب:أنه الساكن.

ص:۳۹۵

أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ

بينات من الآيات:

[١]ان اتباع الحق ضروره حياتيه ليس فى الأفق المعنوى(الروحى و العلمى) و حسب،و إنما فى الواقع المادى أيضا،و هذه الحقيقه أعظم تجليا فى حياه المجتمع منها فى حياه الفرد،و الـذى يسـتقرئ تاريـخ البشـريه يجـد شواهـدها ماثله فى الأمم الغابره،و هكذا حينما ينظر الى الحياه من حوله.

و حيث تسـير البشـريه بأقـدام الضـلال و الفسـاد الى هـاويه العـذاب الأليم و نهايه الهلاك بين الحين و الآخر يعطف الرب عليها بلطفه و رحمته فيبعث الأنبيـاء برسالاـته لإنقاذهـا قبـل أن تحين سـاعه الصـفر،و ذلـك من أظهر آيـات رحمته،و الـتى تتجلى فى الرسالات و الرسل الذين هم قمّه الرحمه الإلهيه للناس.

و لقد انحرف قوم نوح عليه السـلام و كان الخط البيانى لمسـيرتهم يتجه نحو الموت الجماعى،و لكن اللّه الرحمن الرحيم ابى إلاّ أن يرسل إليهم رسولا منهم رأفه بهم،

ص:٣٩۶

و إقامه للحجه عليهم،و إمضاء لسنته فی خلقه،إذ ما كان اللّه معذّبا قوما حتی یبعث فیهم رسولا،و علی هذا الأساس و لهذه الأهداف جاء نوح یحمل رساله الإنذار الی قومه.

إِنّٰا أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ و قومه یومئذ كل البشر الذین عددهم علی بعض الأقوال(۷۰۰)ألفا،و نهتدی الی ذلك من طبیعه العذاب إذ عم الأرض كلها طوفانه،و

فی الحدیث عن الامام الباقر علیه السلام قال: «كان بین آدم و نوح عشره آباء كلهم أنبیاء،و إن الأنبیاء بعثوا خاصه و عامه،فأما نوح فانه أرسل الی من فی الأرض بنبوه عامه،و رساله عامه» (۱). و فی الأخبار ان اسمه لیس«نوحا» (۲)،بل«سكن»عن الامام علی علیه السلام (۳)و قیل

«عبد الأعلی و عبد الملك» عن الإمام الصادق (۴)

«و انما سمّی نوحا لأنه ناح علی قومه ألف سنه إلاّ خمسین عاما» (۵)كما قال أمیر المؤمنین علیه السلام للشامی، و

فی معانی الاخبار: «معنی نوح أنّه كان ینوح علی نفسه،و بكی خمسمائه عام،و نحی نفسه عما كان فیه قومه من الضلال» (۶)و

قال الصادق علیه السلام عن النبی: «عاش نوح ألفی سنه و أربعمائه و خمسین سنه» (۷)، و

عنه قال:

«كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائه سنه،ثلاثمائه سنه» (۸)

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۴۲۱ نقلا عن كمال الدین و تمام النعمه

۲- ۲) راجع موسوعه بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۲۸۶/۲۸۷

۳- ۳) المصدر ص ۲۸۶

۴- ۴) المصدر ص ۲۸۷

۵- ۵) المصدر ص ۲۸۶

۶- ۶) المصدر ص ۲۸۷

۷- ۷) المصدر ص ۲۹۰

۸- ۸) المصدر ص ۲۸۹

و الآیه تشیر الی ان الأمم تسیر عبر دوره حضاریه،ففی البدء یکونون علی فطره الإیمان و الاستقامه ثم ینحرفون،و عند منعطف خطیر من حیاتهم و بالضبط عند الانحدار القاتل یبعث الرسل و المصلحون لکی یوقفوا مسیره السقوط،و لذلک یبدأ الأنبیاء فی الغالب بالإنذار باعتبارهم یرسلون الی قوم ضلوا و انحرفوا لیحذرونهم مغبه استمرارهم فی الضلال.

أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ لأن العذاب لا یأتی من الفراغ،بل هو سنّه إلهیه و قانون تکوینی له أسبابه و مبرراته التی یستطیع الإنسان بإزالتها تلافیه و النجاه منه،و لهذا فان الاستجابه للإنذار تنفع ما دام العذاب لم یحن أجله، حیث الفرصه لا تزال قائمه،یمکن فیها الإصلاح و التغییر.

و معرفتنا بخلفیات انبعاث الرسل فی الأمم المختلفه و أهدافهم..و بالذات انهم ینهضون للتغییر و یتصدون لقیاده الإصلاح حینما تتردی أوضاع المجتمعات و تسیر الی العذاب إنّ ذلک یحملنا بالتأکید مسئولیه التصدی للتغییر إذا کنا نرید اتباع الأنبیاء و مواصله مسیرتهم،و إذا کنا نرید للناس الخیر و الصلاح.بلی.ان النبوه سمه غیبیه یختص بها اللّه من یشاء من عباده،و لکن الرساله أمانه و مسئولیه یمکن لأی إنسان ان یرتفع الی مستوی حملها و التصدی لها،فیکون قائدا رسالیا بالتزام الحق،و اتباع النهج الإلهی الذی مشی علی هداه الأنبیاء و الرسل علیهم السلام.

[۴-۲]إنّ أحدا لا یستطیع أن یدعی العصمه،أو حضور جبرئیل عنده،و لا حتی بلوغ درجه الأنبیاء،و لکن یستطیع أن یحمل رساله اللّه الی قومه،إذن فللرساله وجهان:وجه خاص یتفرد به من اصطفاهم لوحیه مباشره،و وجه عام یتسع لاتباعهم و السائرین علی نهجهم و خطاهم،فما هو نهج الأنبیاء فی ضلوعهم

ص:۳۹۸

بـدورهم الخطير؟إن حـديث القرآن فى هـذه السوره يبيّن لنـا الخطوط العامه للنهـج الـذى تلتقى عليه كل الرسالات و الزعامات الإلهيه،و ذلك بعرض قصه نوح عليه السلام.

اولا:التصدى لقياده التغيير:

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَـذِيرٌ مُبِينٌ ان نوحـا لم ينظر للأوضـاع نظره لاـ أبـاليّه-كما هو شأن الكثير من الناس الـذين لا يهمّهم سوى أنفسـهم و مصالحهم-إنّما تحسـس الانحراف بكل أبعاده (الاجتماعيه،و السياسيه،و الاقتصاديه،و الاخلاقيه)و لم ينتظر من الأقدار ان تغيّر أحوال الناس،و لم يلق بالمسؤوليه على غيره،بل كان متيقّنا بأن الواقع رهن إراده الإنسان ذاته،و لا يتغير سلبا أو إيجابا إلّا تبعـا لتغييره مـا بنفسه،فبـدأ بتغيير ذاته و انطلق منهـا لإصـلاح المجتمع،متحملاـ من أجـل ذلـك كامل المسؤوليه، و متحـديا كل العقبات و الضغوط مع إصرار على إبلاغ الرساله،و الاستقامه فى طريق ذات الشوكه.

و من هنـا طرح نفسه كقائـد و رمز للتغيير،و قبلهـا بالعمـل الـدؤوب المبرمـج، و المخلص لوجه اللّه.اعتقادا منه بأن القياده أمانه و مسئوليه قبـل ان تكـون منصـبا و شـهره،و عملاـ و تحـدّيا،فكـان أول طريقه مصـارحه المجتمـع بـالحقيقه،و تـوجيهه الى وجـود الانحراف،باعتبار أن وضع اليد على الداء،و القناعه بأصل الخطأ أول خطوه فى طريق الإصلاح،فإن الأمّه التى يأخذها الغرور،و لا تنتهج النقد الذاتى تبقى إلى الأبد فى انحرافها و أخطائها و تخلفها.

و لم يكن نوح عند ما طرح نفسه جاهلا بمدى التحديات التى سيواجهها،و لكنه

تحمل ذلک استجابه للمسؤولیه الإلهیه،إذ أمره اللّه بإنـذار قومه،و إذ یـدعوه ضـمیره الی القیام بـذلک الـدور الحضاری الهام،و حیث نهض ینـذر قومه اعتمـد الأسـلوب الواضـح و البلیغ،إیمانا منه بأن حقانیه الـدعوه وحـدها لا تکفی بل لا بد حتی یسـتجیب الناس لها ان یکون الإنـذار بها بیّنا، یمتاز به الحق عن الباطل و تقوم الحجه،و قـد اعطی ذلک بصـیره واضـحه لمن قد یطلع علی عاقبه قومه بان عدم استجابتهم لم یکن بسبب الغموض فی البیان،و من ثم فإنهم لا یستحقون ما حل بساحتهم من العذاب.

و من تکرار کلمه القوم ثلاـث مرات فی هـاتین الآـیتین الی قومه،انـذر قومـک،یـا قوم»نهتـدی إلی فکره مهمه و هی:أن الإنسان الفرد مسـئول عن قومه و مجتمعه،کمـا أنهم مسـئولون عنه،و لاـ یجوز لأحـد أن یعیش فردا لاـ یبـالی بغیره، و أنّ الفرد قادر علی الخروج عن سـیاق المجتمـع الفاسـد و تحـدی الاـنحراف،و أنّ نوحـا بـوقفته الرسـالیه الشـجاعه لآـیه علی بطلاـن حتمیه التـوافق الاجتماعی.

ثانیا:تشخیص أسس الواقع المنحرف و طرح البدائل الصالحه:

أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِیعُونِ و بهذه الجمله حدد نوح علیه السـلام معالم النظام القائم و النظام البدیل معا (ثقافیا و اجتماعیا و سیاسـیا)فـإن الآـیه تهـدینا إلی البصـائر التـالیه:الاـولی:الی انحراف المجتمـع(کفرا و شـرکا و فسـادا)و مشـکله الإنسـان(فردا و مجتمعـا)لیست الجهل بالخالق من الأساس،بل هی فی الـدرجه الأولی عـدم الخضوع لإرادته، و تلقی القیم من لـدنه،و لقـد کان مجتمع النبی نوح علیه السـلام متورطا بالفعل فی الوثنیه و الشـرک بتصریح الآیه الکریمه: وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُوٰاعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً و ما أکثر ما یؤدی الیه الانحراف المبدئی عن عباده اللّه و التوحید من تعویق

لمسيره الإنسان نحو الرقى و التحضر الحقيقى،و من ضلال كبير فى الحياه و بالذات فى جانبها الروحى و الاخلاقى و الثقافى،مما يجعله عاجزا عن الوصول الى أهدافه و طموحاته الحقيقيه التى لا يبلغها أحد الاّ بعباده ربه.الثانيه:ان المجتمع يومئذ لم يكن ضالاّ عن المبادئ الأوليه و حسب،بل كان بعيدا عن ربه حتى فى التفاصيل العمليه لمفردات الحياه،إذ لم يكن يخشى اللّه و يتقيه،و ذلك يعنى انفلاته من كل الضوابط،و استرساله مع الهوى،حيث أن ضمانه الالتزام بالقيم الانسانيه و الدينيه على السواء مرهونه بمدى التقوى عند الفرد و المجتمع.

كما تكشف لنا الكلمه الأخيره وَ أَطِيعُونِ عن وجود الفساد فى النظام السياسى و من ثم الاجتماعى،باعتبار أن النظام السياسى إطار للنظام الاجتماعى و سائر النظم،و المتدبر موضوعيّا فيما ورد عن قوم نوح من آيات القرآن يجد فيها بيانا واضحا لطبيعه القياده السياسيه و الاجتماعيه،و التى ترمز بدورها الى الانحراف المبدئى و العملى،فهى لم تكن قائمه على أساس الكفاءه،إنما على أساس الأموال و الأتباع،الأمر الذى قسم المجتمع الى طبقتين:الاولى:طبقه المترفين الحاكمين، و الأخرى:طبقه المعدمين(الأراذل بتعبير المترفين)و لا ريب أن القياده فى أىّ مجتمع رمز لقيمه الواقعيه،و من المعالم الاساسيه لمسيرته.

و حيث رأى نوح-عليه السلام-الوضع المتخلف و الفاسد عقد العزم على تغييره،فجعل خطوته الأولى تشخيص العوامل الأساسيه للانحراف باعتباره المصلح و بيانها للناس،و واضح للمتدبر،أنه لم تخدعه المظاهر و النتائج،انما توجه الى الجذور الأوليه،لأن علاجها هو النهج السليم لعلاج الأعراض و الظواهر التى لا تعدو كونها مجرد نتائج لها،و هذه من أهم خصائص الحركات الرساليه.

و مع أننا نقرأ فى الآيه معالم الوضع القائم إلا أن الظاهر منها هو الإشاره الى

البـدائل الحضـاريه الثلاـثه اُعْبُـدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ مما يؤكـد ان التفكير فى البـدائل من قبل المصـلحين لا يقلّ أهميه عن التفكير فى جـذور التخلف،بل إنه الأهمّ،إذ كيف يعرف الناس أن المسيره تكون الى الأمام بعـد هـدم الواقع إذا لم تكن البدائل مطروحه بوضوح كاف؟و لقد جسّد نوح عليه السلام هذه القيمه فى حركته فأكد:ان تحكيم القانون الالهى(بعباده اللّه)و الذى لا يتم إلاّـ(بالتقوى) و تطبيق تفاصـيل النظام الاجتماعى من جهه،و الطاعه للقياده الرساليه من جهه أخرى هو البـديل القويم للوضـع الفاسد،و من ثم السير بالمجتمع نحو الحياه الأفضل.

و نسـتطيع القول:أن عباده اللّه بـديل للأصول المنحرفه،و التقوى بديل للفروع الخاطئه،و الطاعه للقياده الرساليه من أجل إصـلاح الممارسـات اليـوميه السلبيه، و بـالتعبير القـانونى الحـديث تمثـل عبـاده اللّـه الدسـتور(الخطـط الاـصوليه العـامه)و تمثـل التقـوى القانون(مجموعه القوانين الاقتصاديه و الاجتماعيه و السياسيه و..و..)، و تمثل الطاعه للقياده اللوائح(مفردات الأمور و التطورات)و من هنا قال بعض المفسرين:و فى الآيه ندب الى أصول الدين الثلاثه:التوحيد المشار اليه بقوله:

«اعْبُدُوا اللّهَ »و المعاد الذى هو أساس التقوى،و التصديق بالنبوه المشار اليه بالدعوه الى الطّاعه المطلقه (1).

و فى قول نوح-عليه السلام-: وَ أَطِيعُونِ دلاـله واضـحه و اكيـده على ضـروره بل وجوب أن يطرح القائـد المصـلح نفسه بـديلا للقياده المنحرفه،لأنه ما دام قادرا على تخليص المجتمع من بليته فهو مسئول عن النهوض بمهمته و دوره،و فى الإسلام تفريق بين حب الرئاسه الذى يبغضه اللّه،و طموح الإمامه الذى يندب اليه

۱- ۱) تفسير الميزان عند الآيه.

و یفرضه علی أهل الکفاءه (۱).

ثالثا:التأکید علی المعطیات:

و هـذا من الأصول فی کلّ دعوه،أن یبین الـداعیه المعطیات التی تنبثق عن اتباع دعوته،و لا ینبغی للرسالیین الغفله عن ذلک،لأنه یسـاهم بصوره إیجـابیه فعاله فی دفع المجتمع للالتزام بالمنهـج المطروح،و خلق دینامیکیه التطبیق فی نفوس أفراده، و لعل ذلک من دواعی تفصـیل القرآن فی التشویق الی الجنه کنتیجه للعمل بالحق و التخویف بالنار کعاقبه لا تباع الباطل،و بـذات المنهـج و المنطق حدث نوح قومه:

یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُؤَخِّرْکُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی و هذان المعطیان أهم ما تحتاجه الأمم و المجتمعات التی تتجه نحو الهلاک و النهایه حضاریا و مادیا،ذلک أن العذاب الألیم الذی یحل بالأقوام لیس الا نتیجه للذنوب و الانحرافات التی یتورطون فیها،فتکون سببا فی هلاکهم،و السؤال:لماذا قال اللّه: مِنْ ذُنُوبِکُمْ و لیس ذنوبکم،مع أن من تفید التبعیض؟ لعل ذلک لأمور ثلاثه:

الأول:أن مجرد العباده و التقوی و الطاعه للرسول لا تجبّ عن الإنسان کل ذنوبه،لأن منها ما هو متعلق بحقوق الناس،فلا تغفر إلاّ بإرضـائهم و أدائهـا،و منهـا مـا لا یغفر الا بالعمل الصالـح بعـد الایمان،بلی.إن(العباده و التقوی و الطاعه) تسـبب غفران اللّه لأهم الذنوب،أی التی تؤدی الی الهلاک،و هی بعض ذنوب الناس و لیس کلها.

۱- ۱) لقد مر الکلام فی سوره الفرقان بهذا الشأن عند قول اللّه وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً فراجع

الثانی:أنه تعالی لا یرید أن یعطی أحدا صکّ الأمان المطلق حتی لا یغتر بإیمانه و عمله،إنما یوازن فیه الخوف إذ من الممکن انه لم یغفرها،و الرجاء بما غفر له، و یعبر القرآن عن هذه المنهجیه الالهیه بصوره أخری مثل: لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ و التی تفید الترجی لا القطع.

الثالث:و إذا فسرنا الغفران بأنه محو الآثار السلبیه للذنب،فانه یمکننا القول:

بأن لبعض الذنوب آثارا واقعیه لا تنمحی بمجرد الإیمان،بل یمحو اللّه ما یترتب علیها من الآثار الأخرویه و بعض الآثار الدنیویه السیئه.

و قیل المعنی:یغفر لکم ذنوبکم السالفه،و هی بعض الذنوب التی تضاف إلیهم،فلما کانت ذنوبهم التی یستأنفونها لا یجوز الوعد بغفرانها مطلقا،لما فی ذلک من الإغراء بالقبیح. (1)

و لأن الأجل الذی ینتظر قوم نوح مترتب علی منهجهم الخاطئ فی الحیاه، و بالتالی ذنوبهم الفظیعه،فان عدولهم الی المنهج الرسالی سوف یجنبهم الأخطاء، و من ثم یؤخر أجلهم الی مدته الطبیعیه أو أکثر و هذا من أعظم الأهداف التی ینشدها الأنبیاء باعتبارهم یأتون منقذین.

و من قوله تعالی: وَ یُؤَخِّرْکُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی نهتدی الی ان للإنسان(فردا أو أمه)اجلین:أجل حتمی و آخر معلق،فاما الحتمی فهو الأجل الاعتیادی الذی یوافیه کل فرد فرد عند انتهاء مدته المقدره له بالموت بعد ستین سنه،أو سبعین أو أقل أو أکثر،و أما المعلق فهو الأجل الذی یکتب للمجتمعات بسبب من الأسباب سلبا بتقصیر الأجل المسمی نتیجه الذنوب،و إیجابا بمدّه و إطالته نتیجه الأعمال الصالحه

جاء فی الحدیث عن الصادق علیه السلام فی تفسیر قوله:«ثم قضی أجلا و أجل

۱- ۱) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۳۴

مسـمّی عنـده...»قال:«الأجل الـذی غیر مسـمّی موقوف،یقدم منه ما شاء، و یؤخر منه ما شاء،و أمّا الأجل المسـمّی فهو الذی ینزل مما یرید أن یکون من لیله القدر..» (۱).

و

عنه-علیه السـلام-أنه قال: «الأجل المقضـی هو المحتوم الـذی قضاه اللّه و حتمه،و المسـمّی هو الـذی فیه البـداء،یقدم ما یشاء،و یؤخر ما یشاء، و المحتوم لیس فیه تقدیم و لا تأخیر» ۲.

و الـذی یظهر من الآـیه الاـولی و الرابعه:أنّ قوم نوح حینما ضـلوا و کفروا قـدر لهم الهلاک السـلبی،و ثمه التقاء بین الأجلین هو أنهما حینما یأتیان لا یمکن دفعهما بشیء أبدا إلاّ أن یصلح الناس أمرهم من قبل ان یأتیهم العذاب.

إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذٰا جٰاءَ لاٰ یُؤَخَّرُ لَوْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ و یؤکـد اللّه هـذه الحقیقه لأن الإیمان بها یزرع الخشـیه فی النفس،و یـدفع الإنسان إلی المزید من الجد و العزم و استغلال الفرصه.

[۵-۷]تلک کانت رساله شیخ المرسلین-علیه السلام-التی تصدی لإبلاغها،و أعمل کل جهده و صبره و حکمته لکی یؤمن قومه بهـا،و لکنهـم رفضـوه و رفضوهـا إصـرارا علی اتبـاع المسـتکبرین،و علی ضـلالات الشـرک،بـالرغم من أنهم و هم یسـیرون الی الهلاک أحوج ما یکونون إلیه و إلیها.

قٰالَ رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَیْلاً وَ نَهٰاراً و هذه من صفات المجاهدین الرسالیین أنهم لا یعرفون وقتا مخصوصا یحصرون فیه

۱- ۱،۲) موسوعه بحار الأنوار ج ۵ ص ۱۳۹

دعوتهم و جهادهم،إنما يسخرون كل طاقاتهم،و يصرفون كل أوقاتهم من أجل رسالتهم و أهدافهم،يدفعهم إلى ذلك أمران مهمّان:أحدهما:الرغبه فی ثواب اللّه و خشيه عقابه،و الآخر:إحساسهم بعظمه أهدافهم و تطلعاتهم،و أن بلوغها لا يمكن إلاّ بالجد و الاجتهاد و المزيد من السعی،إذ الأهداف كبيره و الإمكانات محدوده، فلا بدّ من سد النقص الكمی فی العدد و العده بالكيف،الأمر الذی لا يجعل حتی ليلهم-كما يتصور البعض-وقت راحه و استرخاء،فإنهم إن لم يشتغلوا فيه بدعوه الناس و الأدوار الاجتماعيه المباشره، فسيجعلونه فرصه للتفكير فی شأن رسالتهم و مسئولياتهم،و الاتصال بربهم تعرّضا لنفحاته و مرضاته،و تلقّيا لإراده العمل الدؤوب فی سبيله،و تزودا بالإيمان و روح التسليم.

و لكن جهود نوح ما كانت تنفع قومه لأن بينهم و بين دعوته حجبا سميكه من الإصرار و التحدی الأعمی للحق،بل كانت تزيدهم فرارا منه،و بعدا عن الحق، و هذه من خصائص الصراع بين الحق و الباطل،انه كلما صعدت جبهه الحق من تحركها و نضالها ازدادت جبهه الباطل فی عنجهيتها و عنادها.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعٰائِی إِلاّٰ فِرٰاراً و قد احتار المفسرون بسؤالهم:كيف يعقل أن تكون دعوه نوح سببا لفرار قومه من الحق؟إلا أن المسأله طبيعيه و قد أكدنا فی مواضع من تفسيرنا علی القول بأن فی داخل الإنسان ضميرا يدعوه الی الحق(فطرته و نفسه اللوامه و عقله)و حينما يعقد الكفّار عزمهم علی رفض الإيمان فإنهم يواجهون حربا نفسيه باطنيه مع الضمير،مما يدعوهم لتحدی عقولهم و وجدانهم،و من جمله وسائل التحدی للحق التهرب من مجالس الدعوه و الدعاه،و ذلك لإقناع النفس بعزه الإثم،و فی عالم السياسه لا يخفی علی المراقب أن وجود الحركات الرساليه فی مجتمع ما تؤثر علی النظام القائم

بصوره معاكسه،حيث يقوم بالمزيد من القمع و الظلم،و قد سمى دعوته بالدعاء لأنها فى حقيقتها طلب لنجاتهم من العذاب الأليم.

وَ إِنِّی کُلَّمٰا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ و بالتالی یتأخر عنهم العذاب الأليم،و الأجل المعلق.

جَعَلُوا أَصٰابِعَهُمْ فِی آذٰانِهِمْ کنایه عن الحجب التی تمنعهم عن سماع الدعوه و الاستجابه لها،و ربما کان بعضهم یضعها بالفعل.

وَ اسْتَغْشَوْا ثِیٰابَهُمْ ای استتروا بها فهی حجاب کالغشاء تمنعهم من الاتصال بالدعوه،بل حتی من مجرد النظر إلی الداعیه،و الی جانب هذه الحجب الظاهره،هناک حجب باطنه تغشی قلوبهم أهمّها:الإصرار علی الباطل،و الضلال،و الاستکبار عن التسلیم للحق.

وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَکْبَرُوا اسْتِکْبٰاراً و المفعول المطلق«استکبارا»یفید التأکید و التهویل.أی استکبروا أیّما استکبار فاحش،تحدوا به الحق رمزا و قیما،و هذا تمهید لتبریر الحکم الإلهی بعذابهم تبریرا موضوعیا،فإن من یعرف مدی تودد نوح لهم و تلطفه بهم من جهه، و مدی عنادهم و جحودهم من جهه أخری لا یستبعد العذاب عن ساحتهم،و لا یشک فی عداله اللّه.و فی الدر المنثور عن قتاده قال:بلغنی أنه کان یذهب الرجل بابنه الی نوح فیقول لابنه:احذر هذا لا یغرنک،فان أبی قد ذهب بی و انا مثلک

فحذّرنی کما حذرتک (۱)و من ظاهر الأخبار أنه-علیه السلام-عاصر ثلاثه أجیال،کلها کانت لا تؤمن به إلّا قلیل منهم.لأن معدل الأعمار یومئذ کان ثلاثمائه سنه تقریبا.

قال الصادق علیه السلام : «کانت أعمار قوم نوح ثلاثمائه سنه» (۲).

[۱۲-۸]و أمام الموقف الصلف الذی اتخذه قوم نوح علیه السلام ضده و ضد رسالته لم یجعل خیاره الهزیمه و التراجع،و لا التوافق و المداهنه،إنما أصر بعزیمه الإیمان علی المضی قدما نحو الهدف،و أداء الرساله بأکمل وجه،فهو متیقن من الحق الذی بین یدیه،و لا یساوره أدنی شکّ فیه،فالأهداف و القیم بالنسبه الیه ثوابت لا تقبل التبدیل أو التحویل،و هذه من أهم خصائص الخط الرسالی الأصیل.و لذلک عمد شیخ المرسلین الی تغییر أسلوبه.

ثُمَّ إِنِّی دَعَوْتُهُمْ جِهٰاراً ای صارح قومه بأمره،فبدل أن یطرح أهدافه و قیمه لمن یتصل بهم بصوره غیر مباشره،خشیه ردات الفعل،أو خشیه عدم استیعابها جاهرهم بها.

ثُمَّ إِنِّی أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرٰاراً و من الآیتین یتضح لمن یدرس تاریخ الحرکه الرسالیه فی عصر نوح علیه السلام انها کانت تنتقل بین الحین و الآخر من أسلوب الی غیره تبعا لمقتضیات الظروف،و هذه مسیره طبیعیه عند الحرکات الرسالیه و بالخصوص تلک التی یمتدّ عمرها اجیالا و تعاصر تطورات کثیره،فلیست اذن العلنیه صحیحه علی طول الخط،کما أن

۱- ۱) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۶۸

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۲۸۹

التقیه لیست أسلوبا ثابتا الی الأبد؛لان الحرکه الرسالیه حرکه واقعیه،فقد لا تعلن الدعوه لأن الظروف السیاسیه و الاجتماعیه و التربویه لا تسمح بذلک.

و قد احتار المفسرون فی التفریق بین الجهار و الإعلان،و الذی یبدو:ان الجهار یعنی التصریح الواضح و المباشر بأفکار الدعوه و قیمها للناس،و قد تکون هذه العملیه محدوده فیمن یتصل بهم الرسالیون اتصالا خاصا،فالقیم الرسالیه کالتغییر الجذری و الکفاح المسلح أمر صعب و مستصعب لا یتحمله الناس من البدایه مما یضطر الداعیه الرسالی الی الارتقاء بهم نفسیا و فکریا حتی یتسنی له مجاهرتهم ببعض الأمور،فلیس صحیح مثلا ان یفهم الفرد أنه فی تنظیم ثوری رسالی من أول لقاء بل لا بد من إیصاله الی هذه الحقیقه شیئا فشیئا لکی یمکن مصارحته بها و استیعابه لها.أو أن الجهر مرحله بین الکتمان و الإعلان فلیست سریه مائه فی المائه و لا العکس،أما الإعلان فهو أشبه ما یکون بالإعلام-حسب المصطلح الحدیث-أی الطرح الجماهیری السافر للدعوه الرسالیه،و قوله فی الأخیر:

«و أسررت»یدلنا علی ان هذه المراحل و التکتیکات لیست ذات مراتب حتمیه (اسرار،ثم إجهار،ثم إعلان)کلا.و إنما هی معطیات یملیها الواقع،فقد ینتقل العمل الرسالی من الإعلان الی الکتمان الشدید مباشره لسبب من الأسباب.

و مع هذه التغیرات الظاهریه تبقی الاستراتیجیات المحوریه واحده و ثابته؛إنها دعوه الناس الی العوده الی اللّه،و الترغیب فی معطیات الإیمان،و اتباع الرساله، و التحریض علی نبذ الأنداد الموهومین من دونه عز و جل.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کٰانَ غَفّٰاراً أی دعاهم الی الاستغفار،و طمأنهم بأن الغفران صفه اللّه الرحمن،و لا ریب ان المعنی من الاستغفار لیس مجرد القول:استغفر اللّه،انما هو الندم علی الخطایا فی

النفس،و الرجوع منها بالقول و العمل،و اللجوء الى اللّه استجاره به منها و من عواقبها،و بتعبير آخر:إن الاستغفار برنامج متكامل و هذا ما تفصح عنه المعطيات التى يأتى بها.

يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً اى مطرا كثيرا متواصلا،تدرّه السماء كما يدرّ ضرع البقر الحليب،و قد قدم القرآن ذكر الماء لأنه عصب الحياه و الحضاره.

وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِينَ يعنى أن الاستغفار يتسبب فى النمو اقتصاديا و بشريا،و قيل:انهم كانوا قد قحطوا،و أسنتوا(أجدبوا)و هلكت أموالهم و أولادهم(قبيل العذاب الأليم) و لذلك رغبهم فى رد ذلك بالاستغفار مع الإيمان و الرجوع الى اللّه (۱)و الى ذلك ذهب أكثر المفسرين،و نهتدى من هذا السياق الى أن الإيمان و الاستغفار ليس من شؤون الآخره و حسب بل هو متصل أيضا بحياه الإنسان فى الدنيا.و عن قتاده قال:رأى نوح عليه السلام قوما تجزعت أعناقهم حرصا على الدنيا،فقال:هلمّوا الى طاعه اللّه فإن فيها درك الدنيا و الآخره (۲)و

إلى ذات الحقيقه أشار الإمام على عليه السلام فى خطبه الاستسقاء حيث قال:«و قد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق، و رحمه الخلق فقال سبحانه:«الآيه» (۳).

وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّٰاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهٰاراً

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۶۱

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۶۸

۳- ۳) نهج البلاغه خطبه ۱۳۴

تستوعب المياه و تقلّها للشاربين إنسا و حيوانات،و سقاء للجنات و الأشجار و المزارع،و ثابت علميا و عمليا ان وجود الأنهار من العوامل الحضاريه الأساسيه، لأنه سبب الزراعه التى هى بدورها من مظاهر الحضارات و مقوماتها،و الجنات و الأنهار يشبع كلاهما حاجات ماديه و معنويه عند الإنسان.و لا ريب أن الجعل هنا لا يتم عن طريق المعجزه بحيث تتنزل الجنات من السماء بأشجارها و أثمارها أو تزداد الأموال و الأولاد بعوامل غيبيه مجرده،انما تحدث البركه و تكون الحضاره بعاملين(سعى الإنسان الذى قمّته و رمزه الاستغفار+بركه اللّه و فضله)و نحن يجب ان نقرأ فى ثنايا دعوه نوح-عليه السلام-حينما قال اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ كل عوامل التقدم و الترقى من سعى و إتقان وجد..أو ليس الاستغفار غايه سعى الإنسان نحو الفضيله و الكرامه؟!أو ليس يعنى تجنب الأخطاء،و السير على المنهج القويم؟و كما ان الاستغفار يجلب الخير و التقدم للأمم فإن الذنوب تسلبهما، و تصير بها الى الشر و التخلف، و يبدو من سياق الآيات و من الأحاديث:أن قوم نوح أصيبوا بنقص فى الأموال و الأنفس و الثمرات.بل أنضب ماؤهم،فجاءت دعوه النبى نوح-عليه السلام-بهدف إصلاح مسيرتهم و انتشالهم من حضيض هذه المشاكل إلى آفاق البركه و الرفاه،قال العلامه الطباطبائى معلقا على هذا السياق:أى أن هناك ارتباطا بين صلاح المجتمع الانسانى و فساده و بين الأوضاع العامه الكونيه المربوطه بالحياه الانسانيه،و طيب عيشه و نكده (1)و الى ذلك أشار الفخر الرازى مستدلا بقول اللّه: ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِي النّٰاسِ (2)و بقوله تعالى: وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (3).

1- 1) الميزان ج 20 ص 30

2- 2) الروم 41

3- 3) الشورى 30

[۱۴-۱۳]و يخاطب نوح قومه بلغه الوجدان،مذكّرا بنعم اللّه و آياته لعلهم يعودون الى فطرتهم،فيعبدون اللّه و يتقونه،و يطيعونه بدل الطاعه للمترفين.

مٰا لَكُمْ لاٰ تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقٰاراً قال ابن عباس:الوقار هو الثبات،من وقر إذا ثبت و استقر،و منه قوله:

«وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ »فوقاره تعالى ثبوته و استقراره فى الربوبيه،المستتبع لألوهيته و معبوديته (۱)و قيل:المعنى ما لكم لا توحدون اللّه تعالى؛لأن من عظّمه فقد وحده، و عن الحسن:ما لكم لا تعرفون للّه حقّا، و لا تشكرون له نعمه (۲)و قد ذهب أكثر المفسرين الى القول بالعظمه،و يبدو أننا نهتدى الى معنى الآيه لو قارناها بقول اللّه: وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ (۳)فان توقير اللّه بحق هو معرفه قدره بمعرفه أسمائه و صفاته الحسنى،و العيش فى الحياه على ضوء هذه المعرفه،و ذلك لا يمكن الا بعبادته و تقواه و اتباع رسله و رسالاته.

و تكشف لنا الآيه عن مدى الضلال المتورط فيه أولئك القوم،و نستوحى ذلك من كلمه لاٰ تَرْجُونَ إذ تبيّن أنهم ليس لا يوقرون ربهم و حسب،بل لا يرجون أن يوقره الآخرون،و لا أن يأتى يوم يوقرونه فى أنفسهم،فليس ثمه و لا بصيص نور فى فكرهم يمكن أن يوقروا ربهم به فى المستقبل.

ثم يذكر نوح بعض الآيات و النعم الإلهيه الهاديه إلى الايمان باللّه و التسليم، و من ثم توقيره لو أن الإنسان توجه إليها و أراد شكرها،و أولها خلق الإنسان و نظام خلقته.

۱- ۱) تفسير البصائر ج ۴۹ ص ۲۰۱

۲- ۲) راجع المصدر فقد أورد(۱۵)رأيا فى الآيه

۳- ۳) الانعام ۹۱

وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوٰاراً و لهذه الكلمه معان من بينها:

۱-المراحل التی یمر بها الإنسان فی خلقه،حیث یبدأ نطفه ثم علقه ثم مضغه...و هکذا،حتی یصیر شیخا کبیرا،و ان خضوع البشر الحتمی لهذه الأطوار دلیل أکید علی أنه لا یملک أمر نفسه فی کل شیء؛إنما حیاته محکومه بالقانون و النظام،الذی یهدیه الی المقنن و المنظم،کما یدله علی الحساب و الجزاء،حیث أن الإخراج من الأرض کما أطوار الخلق حقیقه لا یمکن لأحد أن یرفضها أو یدعی القدره علی مقاومتها.

۲-التنوع البشری الذی یؤدی الی التکامل،فقد خلق اللّه الناس مختلفین فی مواهبهم و قدراتهم و توجهاتهم،مما یکامل مسیرتهم فی الحیاه،فلم یخلقهم کلهم أمراء و لا أطباء.و ذلک من عظیم نعم اللّه،و إلا أصبحت الحیاه قسریه، و ذات لون واحد مما یؤدی الی فشلها قال تعالی: وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا (۱)(سخریّا:أی سخره)،و ثابت بالتجربه أن النظریات القسریه نظریات خاطئه فاشله،فقد خطط ماوتسی تونغ و سعی لجعل المجتمع الصینی علی نمط واحد،و غفل عن أن المجتمع بحاجه الی التنوع لکی یتقدم و یتطور،و لذلک وجدنا کیف ان من خلفه خطّأه و خطّط للتغییر.

قال الامام الباقر علیه السلام فی معنی الأطوار:«و قد خلقکم علی اختلاف الأهواء و الإرادات و المشیئات» (۲).

[۱۵-۲۰]و ینطلق السیاق بنا یعرفنا ببعض نعم اللّه و مننه علینا فی الآفاق،

ص:۴۱۳

۱- ۱) الزخرف۳۲/

۲- ۲) تفسیر القمی ج ۲ ص ۳۸۷

و ذلـک لیطمئن الإنسان بأنّه مهما جال ببصره و فتش فی الوجود فإنها تهـدیه ایات الخلق الی ربه،حیث آثار قـدرته و حکمته و رحمته مطبوعه علی کل جزء جزء فیه.

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ طِبٰاقاً انها سبع سـموات و لکنک لا تجد فیها فطورا و لا تناقضا،انما هی منسـجمه یکمل بعضـها بعضـا،کمـا الأطوار فی الخلق و الناس،و الآیه تهـدینا إلی أن من بین المقصود بالسـموات السـبع تلک التی تظل الأقالیم السبعه و ذلک بدلالتین،الاولی:

انه قـال: أَ لَمْ تَرَوْا مما یعنی ان المقصود مما یراه الإنسان و یشاهـده و ذلک لا یمکن لو قصـدت السـموات التی تنقل بینها النبی صلی الله علیه و آله فی رحله المعراج لأنها طبق فوق أخر و لیس ظاهرا منها سوی الأولی.

و الثانیه:ان التعبیر فی الآیه اللاّحقه جعل القمر نورا فیها کلها،بینما أطلق سـراجیه الشمس،لأن دور القمر محدود فی أفاق الأرض فقط،بینما دور الشـمس یشمل کواکب و آفاقا أخری فکلمه«فیهن»إذن إشاره الی سماوات الأقالیم و لیست السموات التی بعضها فوق بعض حسب الظاهر،إذ القمر فی واحده منهن و لیس فیهن جمیعا.

وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرٰاجاً و بهذه الآیه کشف القرآن للبشریه جانبا من أسرار الکون فی وقت ما کانت تحلم بـالتطلع الی معرفـه طبیعه الأرض فکیـف بالاجرام الـتی حولهـا کـالقمر و الشـمس؟إن القمر یختلـف عن الشـمس فی خلقته و دوره،فبینمـا خلقت من کتـل النیران حتی توفر الطّاقه الحراریه،و الإضاءه فیها ذاتیه،نجـد القمر کالمرآه التی تعکس أشعه الضوء الساقطه من الشمس،و کما أنه تعالی لم یترک الأرض

و السـماء تكوينيا مظلمتين من دون نور و سـراج،كـذلك لن يدع المجتمع البشـرى من دون إمام و نهج يهتدى بضوئه،فلا غرابه اذن ان نجد بعض الروايات تأول القمر و الشمس فى أئمه الهدى-عليهم السـلام-و كل امام حق..قال أبو ذر -عليه السـلام-:«ان أهل بيت النبوه فينا كالقمر السارى» (۱) وَ اللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبٰاتاً قال شـيخ الطائفه ابو جعفر الطوسى:فالانبات إخراج النبات من الأرض حالا بعـد حال،و النبات هو الخارج بالنوى حالا بعد حال،و التقدير فى«أنبتكم نباتا» اى فنبتم نباتا،لأن«أنبت»يدل على نبت من جهه انه متضمن له (۲)و علق صاحب المجمع فقال:يعنى مبدأ خلق آدم،و آدم من الأرض و الناس ولده،و هذا كقوله: وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالاً كَثِيراً وَ نِسٰاءً و قيل:أنبت جميع الخلق باغتذاء ما تنبته الأرض،و قيل معناه:أنبتكم من الأرض بالكبر بعد الصـغر،و بالطول بعد القصر (۳).

فالإنسـان اذن ابن الأرض،لا فرق بين آدم و بين كل فرد فرد من أبنائه،فمع أنه-عليه السـلام-خلق مباشـره من التراب إلّا أننا عند التحليل العلمى الواقعى نهتدى الى أن كل ذرأت الجسم أصلها الأرض.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهٰا كما أنبتكم منها حيث يذوب البدن بالموت و تتحلل أعضاؤه فى التراب.

۱- ۱) البرهان ج ۴ ص ۲۷۰

۲- ۲) التبيان ج ۱۰ ص ۱۳۸

۳- ۳) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۶۳

وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرٰاجاً بالبعث و النشور،و إننا نعرف بأن هناك تشابها بين الإنسان و النبات فی أطواره،حتی فی الإخراج من الأرض التی تصیر یوم البعث کما رحم الأم یمطرها اللّه أربعین صباحا، فاذا بک تری الأرض تنشق عن الناس سراعا.

وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ بِسٰاطاً نفترشها و نمشی علی ظهرها،و الجعل یعنی التمهید الذی تم بلطف اللّه و رحمته من خلال القوانین الطبیعیه،و خلق الأرض بالکیفیه التی تجعل الحیاه علیها ممکنه و میسره.

لِتَسْلُکُوا مِنْهٰا سُبُلاً فِجٰاجاً ای طرقا کثیره واسعه،و قیل:طرقا مختلفه،و الفج المسلک بین الجبلین (۱)و هذه الآیه تأکید علی انه تعالی بسط الأرض لنا،إذ لو لم یبسطها ما کنا نجد لنا طرقا للمشی فیها و التنقل بین بقعها المختلفه،و من الآیات الالهیه انه لا توجد بقعه الا و فیها سبلا یستطیع البشر ان یسلکها،و قوله:«سبلا»بالجمع یهدی الی الکثره و التنوع فی نفس الوقت،فبسط اللّه للأرض یعم الیابسه و الماء و الهواء.

و إذا قلنا:ان الفجاج هی الطرق بین الجبال فانه ثابت عملیا بأن أغلب الطرق البریه بین البلدان تمر من خلال السلاسل الجبلیه،و ذکر اللّه للطرق التی بین الجبال بالذات لأنها أظهر آیه و دلاله من التی فی السهوب و الصحاری.

[۲۱]و هکذا ذکرنا سبحانه بتلک النعم لعلنا نعرف عظیم منّه علینا فلا نعبد

ص:۴۱۶

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۱۳۷

سواه،و تذکیر نوح-علیه السلام-لقومه بمنائح اللّه و نعمه یأتی فی سیاق استثاره عقولهم و ضمائرهم التی حجبها الضلال لعلهم یتذکرون الحق و یتبعونه و یعرفون ان تلک النعم من عند اللّه رب العالمین،و أنها تدعوا الإنسان الی التسلیم بالحق قیما و قیاده،و بعباره أخری:تفرض القیم الأساسیه التی تتضمنها رسالات الأنبیاء علی البشر(عباده اللّه و تقواه و الطاعه للقیاده الرسالیه)الا ان قوم نوح بلغوا من الانحراف عن الحق و الجحود ما لا تنفع معهم الموعظه.

قٰالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی و هذا لوحده ذنب عظیم ان یرفض الإنسان التسلیم لقیاده الحق،و لأن أحدا لا یستطیع ان یعیش فراغا قیادیا فإنهم اتبعوا قیادات الباطل و الضلال.

وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مٰالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّٰ خَسٰاراً و نستوحی من الآیه:انهم کانت تحکمهم طبقه الأغنیاء المترفین،و من الطبیعی ان یقف هؤلاء ضد دعوه الأنبیاء و القیادات الرسالیه و طرحهم القیادی لأنهم حریصون علی رئاسه المجتمعات و السیطره علی افرادها و خیراتها و مقدراتها، قال العلامه الطبرسی:ای اتبعوا أغنیاء قومهم اغترارا بما أتاهم اللّه من المال، فقالوا:لو کان هذا رسولا لکان له ثروه و غنی،و قیل:اتبع الفقراء السفله الرؤساء الذین لم یزدهم کثره المال و الأولاد الا هلاکا فی الدنیا،و عقوبه فی الآخره (1)و ذلک مما یدلنا الی مدی ارتکاسهم فی المادیه و الشیئیه،إذ اعتبروا الأموال و الأولاد مقیاسا لاختیار القائد و لیس الحق،و هنا نصل الی فکره هامه و هی: ان الخطأ الفظیع الذی وقع فیه قوم نوح علیه السلام أنهم لم یسلکوا السبیل القویم فی الحیاه مما أدی

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۱۳۷

بهم الی الخسران العظیم،مع انه تعالی فرض علی الإنسان ان یختار طریقه تشریعیا و فی الحیاه المعنویه و الاجتماعیه کما یختار طریقه بین فجاج الأرض و مناکبها.

و قد أکد نوح ذنب معصیتهم له بالذات،فلم یقل مثلا:أنهم لم یعبدوا اللّه أو لم یتقوه لأن معصیه القیاده الالهیه فی الواقع معصیه للّه و عنوان کل انحراف و فساد،و إنما لم یعبدوا ربهم و لم یتقوه لأنهم لا یریدون الطاعه للرسول و اتباعه، بل إن العصیان هنا شامل لعدم استجابتهم للاهداف الثلاثه کلها(عباده اللّه و تقواه و اتباع القیاده الرسالیه)لأنه هنا یعنی رفض الدعوه و الداعیه کلاّ و تفصیلا.

و السؤال لماذا یتبع الإنسان المترفین؟و نجیب:لأنه ینبهر بالمال أو القدره فیلهث وراء من یملکهما،لعله یحصل علی بعض الفتات من الخبز،أو تصیبه عزه من عزته،و لکن الأمر علی العکس من ذلک بالضبط إذ المجتمع الذی تشیع فیه هذه الثقافه سوف یصبح فریسه میسره للمترفین،فیمتصون جهوده و یستغلونه استغلالا بشعا،و لو أننا حققنا فی ظاهره تسلط المستکبرین من أصحاب الثروه و القدره علی المجتمعات و الشعوب المستضعفه لوجدناها متأسسه علی هزیمه المحکوم نفسیا أمامهم،و لا یزید المستضعفین ذلک الا خساره،لأنه کلما زاد الانبهار زاد المستکبر استکبارا،و استغلالا لجهود المستضعفین،و قمعا لتطلعاتهم المشروعه، و طبیعی أن من لا یسخر المال من أجل مصالحه الحقیقیه سوف یزداد خساره کلما ازداد مالا،من هنا قال ربنا سبحانه: مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مٰالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّٰ خَسٰاراً لأن المعنی هنا شامل لخساره الطرفین التابع و المتبوع،بینما قد لا یشملهما لو جاء التعبیر بما هو مفترض(لم یزدهم)ذلک أنه إذا خسر المتبوع فستنجر الخساره نفسها علی التابع الذی یلحق به فی کل شیء.

[۲۲]فی قلب الإنسان عقل یتوهج بقیم الصدق و الصلاح،و وجدان یقظ

یحاکم صاحبه عنـد کل انحراف،و فی المجتمع الانسانی عرف عام یلاحق المجرم باللّائمه و اللعنه..کل ذلک یدعوا المجرم الی صنع ثقـافه تـبریریه للتهرب مـن و خز الضـمیر و محـاکمه الفطره کمـا یـدعوه الی مقـاومه المصـلحین و إسـکات أصـواتهم المعارضه،لعلهم ینجون من لومهم و ادانتهم و لعل هذا هو السبب فی أن الإنسان کلما ازداد إجراما کلما ازداد مکرا و کیدا لأنه تزداد حاجته الی الفرار من لوم ذاته و إدانه العرف العام.

وَ مَکَرُوا مَکْراً کُبّاراً بنسبه عصیانهم و ضـلالهم،و هذا ما یفسر مدی اهتمام المستکبرین و أذنابهم فی هذا العصر الذی تزداد فیه الجریمه،و یطغی فیه المستکبرون بأجهزه الاعلام و وسائله،حتی تکاد المیزانیه الإعلامیه تضاهی أحیانا المیزانیه العسکریه.

[۲۶-۲۳]و من عظیم مکرهم تواصیهم بالباطل و تضلیلهم لبعضهم،إبقاء علی الانحراف و إصرارا علی الضلال.

وَ قالُوا لا تَـذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَ لا تَـذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً و قد اختلف المفسرون فی هذه الأسـماء،و أقرب الآراء:أنهـا ترمز الی رجـال عظمـاء من أبناء آدم،أوحی إبلیس الی تابعیهم باتخاذ تماثیل لهم،ثم أمرهم بعبادتهم،و بهـذا وردت بعض النصوص.

و قولهم:«لا تـذرن»حتی نهایه الآیه(۲۳)ممـا لاکته ألسن المترفین الـذین أحسوا بخطر الرساله علی زعامتهم و مصالحهم،و هم لا یـدعون النـاس للتمسک بتلـک الأصـنام ایمانا بها انما لأنها رمز للثقافه التی تمکنهم من السـیطره علی المجتمع،کما تنفـخ دعاه العنصریه فیها و فی رموزها لمواجهه الحرکات التحرریه.

وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً بهذه الدعوات الباطله،حيث وجدوا بين الناس من اتبعهم بسبب الجهل أو انسياقا وراء المصلحه الدنيويه.

وَ لاٰ تَزِدِ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ ضَلاٰلاً قيل:ان الضمير فى«تزد»راجع الى الأصنام،فالمعنى أنها لا تزيد الظالمين باتباعها الا ضلالا،و قيل:ان الجمله استئنافيه،و هى دعوه من نوح على قومه بأن لا يزيدهم اللّه إلاّ ضلالا،و هى دعوه عليهم بكل شرّ مستطير، أو ليس الضلال أصل كل شر،و قد استجاب اللّه دعاء نبيه الذى أيقن بأن الحياه لا تصلح لهم،و ان الموت أولى لهم،و كذلك اوحى اليه ربه: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ (1) فأهلكهم غرقا بالطوفان،و هنا يلفتنا السياق الى حقيقه أساسيه،و هى أن سنه الجزاء مرهونه بالإنسان نفسه،فهى تجرى فى سياق العداله الإلهيه،و ان كانت مظهرا لقدره اللّه أيضا،و لو أننا فتشنا فى الأسباب لهلاك أى قوم لوجدناها أعمالهم و مساعيهم لا غير،و هذه بالضبط قصه قوم نوح مع الطوفان.

مِمّٰا خَطِيئٰاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نٰاراً أصابهم الغرق فى الدنيا،و نقلهم الموت إلى سوء العذاب فى الآخره،حيث نار جهنم التى تنتظر كل كافر و مشرك،و ما كان موتهم فى لجّه الأمواج ينجيهم من نيران جهنم فى البرزخ،لأن تلك النار تكمن فى وجودهم.

فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْصٰاراً

1- 1) هود36/

یحجزون عنهم العذاب،أو یقاومون بهم سلطان اللّه و مشیئته،کما یزعم المشرکون بعبادتهم الأصنام بشرا أو حجرا أو غیرهما.

وَ قٰالَ نُوحٌ رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکٰافِرِینَ دَیّٰاراً و الدیار-کما یبدو-هو من یسکن الدور و الدیار،و إنها حقّا دعوه بعذاب الاستئصال الذی حقت به کلمه اللّه علیهم،فما بقی یومئذ أحد إلاّ من آمن بنوح و رکب السفینه،و من هنا نهتدی الی أن عذاب الاستئصال یأتی بهدف تطهیر الأرض من العناصر الفاسده التی لا تنفع معها النصیحه،و ان مبرر وجود الإنسان هو ما یشتمل علیه من الحق فی کیانه فإذا صار خلوّا من أیّ حق فقد مبرر الوجود تشریعیا و تکوینیا مما یؤدی به الی الهلاک،و هذه الحقیقه تنطبق بصوره أجلی علی الإنسان(المجتمع)منها علی الإنسان(الفرد)و من هنا نفهم الآیه الکریمه:

وَ لَوْ لاٰ دَفْعُ اللّٰهِ النّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (1)و کذلک الروایات التی تقول:

«ان اللّه لیدفع بالمؤمن الواحد عن القریه الفناء» (2)لأنه لو لا وجود المؤمنین من الناس لما بقی مبرر لوجود الآخرین.

[27]ثم یبین شیخ المرسلین الخلفیات و الحیثیات وراء دعوته علی قومه،فهو لم یدع علیهم لأنه مل و تعب من الجهاد فی سبیل اللّه،و لا لأنه یحمل العداء الشخصی ضدهم لما لقیه من الأذی و المعاناه علی أیدیهم،إنما کان منطلقه فی ذلک رسالیا خالصا لوجه ربه.

إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبٰادَکَ الموجودین،فیزیدون الضالین ضلاله،و یؤثرون علی من آمن لیعود کافرا

1- 1) البقره 251

2- 2) موسوعه بحار الأنوار ج 67 ص 143 عن أبی جعفر علیه السلام

مشرکا مثلهم،و فی هذه الآیه یجب ان نقرأ مدی الضغط الذی یواجهه المؤمنون حینما یستقلون برأیهم و مسیرتهم عن مجتمع الضلال و الفساد..إنه یبلغ حدّا یخشی علیهم من الانحراف بسببه،هذا من جانب،و من جانب آخر أنّه لا یرتجی خیرا و لا مستقبلا سلیما للأجیال التی تنسل منهم،باعتبارهم قد أحکموا أسالیبهم التربویه السیئه التی من شأنها بناء شخصیه الأولاد علی أساس الباطل و العداء للقیاده الرسالیه و لخط المؤمنین.

وَ لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّٰاراً بالوراثه و بالتربیه،و الفاجر هو من لا یقف عند حدّ شرع أو عرف،و لا یقیم وزنا لقیمه لا فی نفسه و لا فی المجتمع،إنما یطلق لشهواته العنان،بینما الکفّار صیغه مبالغه من الکفر و هو خلاف الإیمان،و الکفور خلاف الشکر.

و لقد انتهی نوح الی هذه النتیجه بتجربته المره الطویله التی عاصر فیها ثلاثه أجیال علی الأقل و خبرهم بتمام المعرفه،و کذلک بإخبار اللّه له،

قال الراوی: قلت لابی جعفر الباقر علیه السلام :ما کان علم نوح حین دعا علی قومه انهم:« لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّٰاراً »؟!قال:أما سمعت قول اللّه لنوح:« أَنَّهُ لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ » (1)و قد ذهب أغلب المفسرین الی القول:بان اللّه تعالی أخرج من أصلابهم کل من یکون مؤمنا،و أعقم أرحام نسائهم،و أیبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعین سنه (2).

و الآیه تبین بأن الإنسان قد یرحمه اللّه لیس لذاته بل لآخرین یتعلقون به کالأولاد.

۱- ۱) تفسیر القمی ج ۲ عند الآیه

۲- ۲) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۶۵

[۲۸]و ختاما لهذه السوره المتضمنه للحديث عن المعانات الصعبه،و دعاء شيخ المرسلين على قومه نجد آثار اللطف و حب الخير يجليها لسان نوح عن قلبه الحنون،و ذلك حتى لا يظن أحد أنه-عليه السلام-يحمل العداء الشخصى ضد قومه بالذات،فإنه وازن بين الدعاء سلبا ضد الكفار الفاجرين،و الدعاء ايجابيا لصالح المؤمنين الصالحين.

رَبِّ اغْفِرْ لِي و هذه قمه العبوديه للّه و الخشيه منه،فبالرغم من الجهاد الطويل فى سبيل الحق الذى امتد طيله حياته إلا أنّه لم يمن على اللّه بشىء من طاعاته لإيمانه بأنها ما كانت تكون لو لا لطفه و توفيقه،و ان الخضوع له و الاعتراف بالتقصير تجاهه خير وسيله للمزيد من القرب منه و السعى فى خدمته و إنّه حقّا درس يحتاجه كل مجاهد فى سبيل اللّه ليقاوم به الغرور و همزات الشيطان،و بالذات أولئك الذين يتطاول بهم العمر فى خدمه الرساله.

و لكنه بأخلاق النبوه التى تدعوه للخروج من قوقعه الذات،و التفكير فى نجاه الآخرين بمقدار التفكير فى نجاه نفسه،لم ينس غيره بالرغم من أن ساعه دعائه كانت صعبه حرجه،سواء قلنا بأنه دعا ربه قبل الطوفان أو أثنائه أو بعده..فهذا هو يلتفت لأولى الفضل عليه(أبوه و أمّه)و لشركاء الصف و المسيره(المؤمنين) لا فرق عنده بين من عاصروه و بين من سبقوه أو يأتون بعده،و يلتفت مره مؤكدا براءته من الظلم و الظالمين،كما أكد بسابقتها ولاءه للحق و اهله.

وَ لِوٰالِدَيَّ إذ لهما الفضل فطريّا و تربويا فى وجوده و بناء شخصيته،و هكذا نتعلم درس

الوفـاء لأول معلم يلتقيه الإنسـان فى الحيـاه،إنه لم ينس عنـاء والـديه،حيث حملته أمه و هنـا على وهن،ثم سـهرت ليلهـا و تعبت نهارها من أجل راحته،و حيث أجهـد أبوه نفسه فى طلب المعاش له و أكله و شـربه و كسوته،و فوق ذلك كله ما تلقاه من تربيه طيبه على الإيمان و حب اللّه.

وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً يعنى المؤمنين الذين انتموا الى خطه و مسيرته ممن عاصروه.

وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ فى كـل زمان و مكان لأنهم و إن اختلفت الظروف و الازمنه اخوته الـذين تجمعه بهم وحـده الهـدف و الخط و المسيره.

وَ لاٰ تَزِدِ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ تَبٰاراً أى هلاكا و عـذابا و ضـلالا،و هـذه الجمله تأكيد للبراءه من الباطل قيما و أناسا فى مقابل تأكيد الولاء للانتماء للحق الآنف.

ص:۴۲۴

سوره الجنّ

اشاره

ص:۴۲۵

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-قال: «من أکثر قراءه« قُلْ أُوحِیَ إِلَیَّ »لم یصبه فی الحیاه الدنیا من أعین الجن و لا نفثهم و لا سحرهم و لا من کیدهم،و کان مع محمد-صلّی اللّه علیه و آله-فیقول:یا ربّ لا أرید به بدلا،و لا أبغی عنه حولا» نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۳۰

ص:۴۲۷

الإطار العام

إنّ التخرّصات بوجود قوى غيبيه قاهره تؤثّر فى مجريات الحياه من الأفكار التى لا تكاد تخلو منها ثقافه من الثقافات البدائيه،و هى عامل رئيس فى الشرك باللّه و عباده الأصنام و الأوثان،فالذى يعبد شجره فإنّما لظنّه بأنّ فيها حلولا من عالم الغيب،و الذى يعبد الحجر لا يعبده بذاته و إنّما يعبد الروح التى يزعم أنّها تحوم حوله.

و الجن من بين تلك الأرواح التى أثير و لا يزال حولها الكثير من الجدل إلى حدّ الخرافه و الخيال المبالغ،فقد زعم البعض أنّها أرواح خلقت ذاتيّا من غير خالق، و قال آخرون أنّها تقوم بدور الخير و الشر فى الحياه،و على هذا الأساس ارتأوا ضروره إرضائها فأشركوا بها..

و قد أفرز الوحى الإلهى الخرافه عن الواقع،فبيّن الحق،و نسف الثقافات الباطله حول الجن،كما كشف فى هذه السوره التى سمّيت باسمهم عن جوانب من حضارتهم اعتمادا على علم اللّه المحيط بكلّ شىء،و ليس على الظنون و التخرصات،

ص:۴۲۹

و تحدّثنا آياته بلسانهم:(الآيات ۱-۱۴).

و الذى يدقّق النظر فى آيات هذه السوره يهتدى إلى وجوه تشابه أساسيه بين حضارتهم و حضاره البشر:

/۱فهم مخلوقون مكلّفون من قبل اللّه بالإذعان للحق،و اتباع رسالته المتمثله فى القرآن.

/۲و إنّ واقعهم الاجتماعى و السياسى يشبه إلى حدّ بعيد واقع المجتمع البشرى،ففيهم الزعماء الذين يتسلّطون على المجتمع و يشطّون طغيانا و سفها..

كطواغيت الناس و حكّامهم الفاسدين.

/۳كما أنّهم يقعون فى ذات الأخطاء التى يتورّط فيها ضلّال الناس كالشرك باللّه عز و جل.

/۴و بالتالى فإنّ فيهم الصالحين و دون ذلك و المسلمين و القاسطين كما هو حال البشر.

و فى البين يشير القرآن إلى أنّ الالتقاء بين حضارتى الإنس و الجن القائم على الشرك باللّه و زياده الانحراف و الرهق فإنّه منبوذ و محرّم فى شرع اللّه..و منه استعاذه السحره و المشعوذين بالجن،مما يزيدهم بعدا عن الحقّ و توغّلا فى الباطل.

و يفضح الوحى مجموعه التخرصات و الخرافات التى صوّرت الجنّ قوى خارقه، و رفعتهم إلى مستوى الربوبيه،ممّا دعا بعض جهّال الناس لعبادتهم و الشرك بهم،فيؤكّد:

أولا:أنّهم لا يحوزون على العلم الحقّ المطلق،فلا يصح الاعتماد على ما يلقونه

من ثقافتهم و أفكارهم فی روع من يعوذ بهم،لأنّ علمهم محدود إذ يجهلون الكثير من الأمور..و واضح تأكيد القرآن على أنّ كثيرا من تصوّراتهم و ثقافاتهم قائمه على الظن لا على العلم الواقعی القاطع(يلاحظ تكرار كلمه«ظننا»بلسان حال الجن مرّات عديده)،كما أنّهم لا يدرون بمصير من فی الأرض أريد بهم شرا أم أراد بهم ربّهم رشدا.و حيث جاء القرآن كشف لهم عن مدى ضلالتهم و جهلهم بجمله من أهمّ الأمور و أوضحها..أعنی الإيمان باللّه و توحيده.

ثانيا:و أنّهم ليسوا قوى ذات قدرات خارقه حتى يخشى منهم البشر أو يعوذون بهم طمعا فی نيل القدره،و دليل ذلك اعترافهم أنفسهم بعجزهم عن اختراق الحجب و استراق السمع من الملأ الأعلى،و عجزهم عن مقاومه إراده اللّه،أو حتى الهرب من حكومته و سلطانه.

و حيث تتمحور السوره حول الحديث عن الجن الذين أشرك بهم و لا يزال بعض الإنس تؤكّد الآيات الأخيره على حقيقه التوحيد،و أنّه تعالى الذی يملك الضرر و الرشد،و هو أهل الاستعاذه به،و عالم الغيب لا يشاطره أحد فيه إلاّ من ارتضى من رسله..مما يعطی الشرعيه لخطّ الأنبياء فقط،أمّا الجن و من يتصل بهم-سواء كانوا كهنه و سحره و منجّمين-فلا يجوز إتباعهم أبدا.

[سوره الجن (٧٢): الآيات ١ الى ٢٨]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اِسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ اَلْجِنِّ فَقٰالُوا إِنّٰا سَمِعْنٰا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى اَلرُّشْدِ فَآمَنّٰا بِهِ وَ لَنْ
نُشْرِكَ بِرَبِّنٰا أَحَداً (٢) وَ أَنَّهُ تَعٰالىٰ جَدُّ رَبِّنٰا مَا اِتَّخَذَ صٰاحِبَةً وَ لاٰ وَلَداً (٣) وَ أَنَّهُ كٰانَ يَقُولُ سَفِيهُنٰا عَلَى اَللّٰهِ شَطَطاً (۴) وَ أَنّٰا ظَنَنّٰا أَنْ
لَنْ تَقُولَ اَلْإِنْسُ وَ اَلْجِنُّ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ كٰانَ رِجٰالٌ مِنَ اَلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجٰالٍ مِنَ اَلْجِنِّ فَزٰادُوهُمْ رَهَقاً (۶) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا
كَمٰا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اَللّٰهُ أَحَداً (٧) وَ أَنّٰا لَمَسْنَا اَلسَّمٰاءَ فَوَجَدْنٰاهٰا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (٨) وَ أَنّٰا كُنّٰا نَقْعُدُ مِنْهٰا مَقٰاعِدَ
لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ اَلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهٰاباً رَصَداً (٩) وَ أَنّٰا لاٰ نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي اَلْأَرْضِ أَمْ أَرٰادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠) وَ أَنّٰا مِنّٰا
اَلصّٰالِحُونَ وَ مِنّٰا دُونَ ذٰلِكَ كُنّٰا طَرٰائِقَ قِدَداً (١١) وَ أَنّٰا ظَنَنّٰا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اَللّٰهَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَ أَنّٰا لَمّٰا سَمِعْنَا
اَلْهُدىٰ آمَنّٰا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاٰ يَخٰافُ بَخْساً وَ لاٰ رَهَقاً (١٣) وَ أَنّٰا مِنَّا اَلْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا اَلْقٰاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً
(١۴) وَ أَمَّا اَلْقٰاسِطُونَ فَكٰانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١۵) وَ أَنْ لَوِ اِسْتَقٰامُوا عَلَى اَلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنٰاهُمْ مٰاءً غَدَقاً (١۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذٰاباً صَعَداً (١٧) وَ أَنَّ اَلْمَسٰاجِدَ لِلّٰهِ فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اَللّٰهِ أَحَداً (١٨) وَ أَنَّهُ لَمّٰا قٰامَ عَبْدُ اَللّٰهِ يَدْعُوهُ كٰادُوا يَكُونُونَ
عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّمٰا أَدْعُوا رَبِّي وَ لاٰ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّي لاٰ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ
اَللّٰهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلاّٰ بَلاٰغاً مِنَ اَللّٰهِ وَ رِسٰالاٰتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نٰارَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً
(٢٣) حَتّٰى إِذٰا رَأَوْا مٰا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نٰاصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (٢۴) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ مٰا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي
أَمَداً (٢۵) عٰالِمُ اَلْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (٢۶) إِلاّٰ مَنِ اِرْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧)
لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ بِمٰا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)

اللغه

٣[جدّ]:الجدّ العظمه،قال الطبرسى فى مجمع البيان:

الجد أصله القطع،و منه:الجد العظمه لانقطاع كلّ عظمه عنها لعلوّها عليه.

۴[شططا]:أى قولا بعيدا عن الحق،جاء فى مفردات.

الراغب:الشطط الإفراط فى البعد،يقال شطّت الدّار،و أشطّ يقال فى المكان و فى الحكم و فى السّوم،و شطّ النهر حيث يبعد عن الماء من حافته.

۶[رهقا]:تعبا شدیـدا،و سـمّی بذلک لأنّه یعلو المرهق کالغشاوه،و قال البعض:رهقا أی طغیانا حیث أنّهم رأوا الجنّ ظهیرا لهم،أو زاد الإنـس الجنّ طغیانـا حیث أنّهم ظنوا أنّ لهم مـدخلا فی الأـمور الکونیه حتی اسـتعاذ بهم الإنس،و أصل الرهق اللحوق،و منه غلام مراهق،فکأنّ الإثم و الطغیان یلحق الإنسان.

۱۱[قددا]:جمع قدّه و هی القطعه،فالجنّ علی مذاهب مختلفه و قطع متعدّده،و کلّ قطعه مخالفه للأخری.

ص:۴۳۳

۱۴[تحرّوا]:التحرّی تعمّد إصابه الحق،و أصله طلب الشیء و القصد له.

۱۶[غدقا]:کثیرا،و غدق الماء یغدق غدقا کثر فیه الماء.

۱۷[صعدا]:شاقّا شدیدا غلیظا متصعدا فی العظم و منه التنفّس الصعداء،و قال البعض: عَذٰاباً صَعَداً أی عذابا یصعد علیه و یعلو بحیث یشمل جمیع جسمه من قرنه إلی قدمه.

ص:۴۳۴

۱۹[لبدا]:متکاثرین علیه لیمنعوه عن الدعوه. الواحده لبده کاللّبد المتلبّد أی المجتمع،و جمع اللّبد ألباد و لبود،و قد ألبدت السرج جعلت له لبدا،و ألبدت الفرس ألقیت علیه اللّبد نحو أسرجته و ألجمته و ألببته،و ألبد البعیر صار ذا لبد من الثّلط،و قد یکنّی بذلک عن حسنه لدلاله ذلک منه علی خصبه و سمنه.

۲۵[إن أدری]:ما أدری.

ص:۴۳۵

إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً

بينات من الآيات:

[۳-۱]إنّ علاج القرآن لموضوع الجن ليس ترفا فكريّا يهدف إعطاءنا مجرد رؤيه عن خلق غريب،بل هو علاج لمشكله حقيقيه موجوده فی ثقافات الناس، و منعكسه على واقع بعضهم بصوره خطيره،حيث الخرافات و الأساطير،و حيث الشرك باللّه عزّ و جلّ.و مع أنّ القرآن كلّه موحى به من عند اللّه إلى رسوله إلاّ أنّ مطلع هذه السوره المباركه يؤكّد بأنّ الحديث عن الجن و الذى تتضمّنه الآيات ليس حديثا من الرسول عن تجربه شخصيه حدثت له،و لا كسائر كلام البشر عن الجن الذى لا يتأسس إلاّ على الخيال و الظنون،بل هو حديث لعالم الغيب و الشهاده أطلع عليه رسوله-صلّى اللّه عليه و آله-عبر الوحى الذى لا ريب فيه.

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ قال ابن عباس:انطلق رسول اللّه صلى الله عليه و آله فی طائفه من أصحابه عامدين إلى

سوق عكـاظ،و قـد حيـل بين الشـياطين و بين خبر السـماء،فرجعت الشـياطين إلى قومهم فقـالوا:مـالكم؟قالوا:حيل بيننا و بين خبر السـماء،و أرسـلت علينا الشـهب، قالوا:ما ذاك إلاّ من شـيء حدث،فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها،فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهـامه بـالنبى صـلى الله عليه و آله و هو بنخل عامـدين إلى سوق عكاظ،و هو يصـلّى بأصـحابه صـلاه الفجر،فلمّا سـمعوا القرآن اسـتمعوا له و قـالوا:هـذا الـذى حـال بيننـا و بين خبر السـماء،فرجعوا إلى قومهم و قـالوا: إِنّٰا سَمِعْنٰا قُرْآناً... حتى نهايه الآيه الثانيه فـأوحى إلى نـبيّه-صـلّى اللّه عليـه و آلـه-:«الآيه الأولى».و رواه البخـارى و مسـلم فى الصـحيح أيضـا (۱).قال الزمخشـرى فى النفر:جماعه منهم ما بين الثلاثه و العشره (۲).

و الاسـتماع على الأظهر هو مرحله متقدمه من السـماع حيث يعنى التركيز و التدقيق فيما يسـمع،و لقد انبهر النفر من الجن بإعجاز القرآن و عظمه آيـاته،انبهـارا قـادهم إلى التسـليم له،و اكتشاف ما هم فيه من الضـلال و الباطل بنور آياته البينات.و هكـذا يجلى الاسـتماع و التـدبّر عظمه القرآن لقارئه.أمّا الـذى يهـذّه هـذّ الشـعر،و ينثره نثر الرمـل،أو يكون همّه آخر السوره،فـإنّه لا يتجاوز الحروف و الكلمات إلى المعانى المعجزه،كما تجاوز إليها أولئك الجن.

فَقٰالُوا إِنّٰا سَمِعْنٰا قُرْآناً عَجَباً و هذا الإعجاب يشبه إلى حدّ بعيد إعجاب السحره بمعجزات موسى-عليه السلام-و من ثمّ إيمانهم به و نبذهم للسحر.و حرىّ بالإنسان أن يبحث عمّا حملهم على ذلك من القرآن،و أن يعجب إذا عجب به و ليس بهم.

ص:۴۳۷

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵-ص ۴۳۰

۲- ۲) الكشاف/ج ۴-ص ۶۲۳.

إنّ الجن كما الإنس لديهم ثقافات،و بينهم دعاه العلم(السفهاء بحدّ تعبيرهم) و هم يضلونهم دائما عن الحق،و لكنّهم حينما استمعوا للقرآن و أنصتوا بدا لهم الفرق واضحا بين رساله اللّه التى تحمل العلم و الهدى،و بين الثقافات الشائعه عندهم و التى لا تنطوى إلاّ على الجهل و الضلال.و لعل هذه المفارقه من أهم عوامل الإعجاب بالقرآن إذ استمعوا له.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أى يعرّف بالحق،و يرسم للإنسان المنهج السليم الذى يوصله إليه.و إنّ القرآن ليعلّمنا الحق،و ينمّى فينا العقل و الضمير و سائر حوافز الخير،ممّا يدفعنا إلى تطبيق الحقّ بالصوره الأكمل،و أين تجد هذه فى غير كتاب اللّه؟هل تجدها فى أفكار الفلاسفه الغامضه التى تحتجب وراء الكلمات الكلّيّه لإخفاء الجهل و التناقض،أم فى ثقافه البدائيين و الشعراء؟كلاّ...و هذا ما دفع النفر من الجن إلى الإيمان بالقرآن و نبذ كلّ الأفكار و الثقافات الأخرى،فهم وجدوه وحده الذى يهدى إلى الرشد.

و مع أنّ للرشد معنى عامّا يتسع لكثير من المفردات،فالقرآن يهدى إلى معرفه الحقائق العلميه،و السنن الطبيعيه،و الأنظمه الحكيمه التى أجراها اللّه فى سائر الحقول الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه..إلاّ أنّ أعظم الرشد الذى يهدى إليه هو التوحيد باعتباره سنام الهدى و قمّه الرشد.

و قد أشار بعض من المفسرين إلى ذلك،قال الفخر الرازى:«يهدى إلى الرشد»إلى الصواب،و قيل إلى التوحيد، وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً أى و لن نعود إلى ما كنّا عليه من الإشراك به،و هذا يدل على أنّ أولئك الجن كانوا

مشركين (۱).

و لأنّ الهـدايه لا تتمّ بمجرد معرفه الحق بالضـمير و العقل،بل لا بـد من الشـجاعه الكافيه لنقد الذات،و تحدی الواقع المنحرف،و بالتالی تحمّل مسـئوليه الصـراع ضد كلّ باطل،لذلک بادر الجن إلی الإيمان بالحق من جهه،و نبذ الباطل بعزيمه الإيمان من جهه ثانيه.

فَآمَنّا بِهِ و الإيمـان بـالقرآن يعنی رفضـا قاطعـا للقوی الأـخری غير اللّه،و عزمـا علی المضـیّ قـدما فی طريق التوحيـد أنّی كـانت التحديات..و قد فهم النفر من الجن الإيمان بهذه الكيفيه و عزموا علی رفض الأنداد المزعومين فقالوا:

وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً و هذا يعنی الاستعداد لدخول الصراع،و الاستقامه علی الحق،و تقديم التضحيات من أجل الإيمان و قيمه التوحيـد،و كذلک ينبغی أن يكون كلّ من يختار الحق،فالرشد غايه يجب أن يسترخص المؤمنون فی سبيلها كلّ شـیء،كما فعل السـحره(عنـد مواجهه عصا موسـی)إذ ألقوا ساجـدين،و توجّهوا إلی فرعون بخطاب الرفض و التحـدی: فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِی هٰذِهِ الْحَیاةَ الدُّنْیا (۲)، و قـدّموا أنفسـهم قرابين فی طريق ذات الشوكه، حيث قطع فرعون أيـديهم و أرجلهم من خلاف،و صلبهم فی جذوع النخل صبرا.

و نفی الجن القاطع المؤبّد بأنّهم لن يشركوا ربما يهدينا إلی وجود قوی تضغط

۱- ۱) التفسير الكبير/ج ۳۰-ص ۱۵۴.

۲- ۲) طه۷۲/.

علیهم باتجاه الشرک باللّه بما قد یصل إلی حدّ الإکراه،مثلما أکره فرعون السحره علی السحر،و کما یکره الطغاه الیوم جنودهم عسکریین و إعلامیین و مخابرات علی ممارسه الظلم ضد الشعوب.و لأنّ أعظم الضغوط التی تمارس و أخطرها هو ضغط التضلیل عن الحق،و الإیحاء بالشرک من خلال التربیه الفاسده و الاعلام المضلّل،فقد أعلن أولئک النفر المؤمنون أنّهم لن یقبلوا التغریر بوجود الشرکاء أو التشکیک فی عظمه اللّه.

وَ أَنَّهُ تَعالیٰ جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَهً وَ لاٰ وَلَداً و فکره الصاحبه و الولد آتیه من تصوّر المخلوق المحدود للخالق العظیم تصوّرا معتمدا علی مقایسته بذاته،و هذا بالضبط العامل الفکری الرئیس الذی تقوم علی أساسه النظریات و الفلسفات البشریه التی خاض أصحابها فی الحدیث عن ذات اللّه و صفاته فشبّهوه بخلقه سبحانه و تعالی عمّا یصفون.

إنّ الجاهل ینکر وجود آفاق متسامیه لا یبلغها علمه،فیرید تشبیه کلّ شیء بما یعرفه،فإذا به یتخیّل أمورا لا واقع لها،و یصبح هذا التخیل-بدوره-حاجزا بینه و بین معرفه الحقائق.لذلک ینبغی تسبیح اللّه و تقدیسه عن الشبه،لأنّ ذلک السبیل الوحید لمعرفته سبحانه.

و هناک عامل نفسی للشرک یتمثّل فی أنّ المشرکین یریدون الزعم بأنّهم أبناء اللّه،کما قالت الیهود و النصاری« نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ »..فلا بد من التأکید علی وجود الصاحبه باعتبار الأبناء نتیجه للعلاقه بین الطرفین،تعالی اللّه علوّا کبیرا.

و لا ریب أنّ دعاه هذه الفلسفه هم أوّل من یرید تعریف نفسه ابنا للربّ حتی یعطی لنفسه شرعیه خضوع الناس و تقدیسهم و طاعتهم له أو ربط نفسه بابن اللّه حتی یخلّصها من المسؤولیه.مما یعنی أنّ نفی الشرک لیس رفضا لفکره مجرده،بل هو

رفض لنظام ثقافیّ و اجتماعیّ و سیاسیّ ثقیل.

و فی کلمه«جدّ»اختلاف بین المفسرین،

ففی البرهان عن أبی جعفر علیه السلام قال:

«إنّما هو شیء قاله الجنّ بجهاله فحکی اللّه عنهم» (۱)، و علی هذه الروایه یکون المعنی هو المتعارف أی الجدّ أبو الأب و الأم.و قال الرازی:الجدّ الغنی،و منه الحدیث:«لا ینفع ذا الجد منک الجد»أی لا ینفع ذا الغنی منک غناه،و کذلک الحدیث الآخر:«قمت علی باب الجنه فإذا عامّه من یدخلها الفقراء،و إذا أصحاب الجدّ محبوسون»یعنی أصحاب الغنی و الدنیا،فیکون المعنی:و أنّه تعالی غنی عن الاحتیاج إلی الصاحبه،و الاستئناس بالولد (۲).و لا نجد فی السیاق ما یشیر إلی أنّ الکلام جاء علی سبیل الحکایه،و إنّما یهدینا السیاق إلی أنّه تقریر للحق الذی جری علی ألسن أولئک النفر من الجن.و الذی یبدو لی أنّ الجدّ هنا بمعنی العظمه بحیث یمکن أن نجعل الغنی عن الصاحبه و الولد فی إطارها أیضا،و قد أشار العلاّمه الطبرسی فی بیان لغویّ لطیف إلی هذا المعنی فقال:الجدّ أصله القطع،و منه:الجد العظمه لانقطاع کلّ عظمه عنها لعلوّها علیه،و منه:الجد أبو الأب لانقطاعه بعلوّ أبوّته و کل من فوقه لهذا الولد أجداد،و الجد الحظ لانقطاعه بعلوّ شأنه،و الجد خلاف الهزل لانقطاعه عن السخف،و منه:الجدید لأنه حدیث عهد بالقطع فی غالب الأمر (۳)،فالمعنیّ من«تعالی جدّ ربنا»أی سمت عظمته و علت.و الفرق بین هذه الآیه و قولنا:(ربنا تعالی)أنّها هنا صرحت بالمتعلّق و هو العظمه(الجدّ)، بینما نطلق فی قولنا بدون المتعلّق علوّ اللّه علی کلّ شیء و عن کلّ ما یصفه المشرکون.

و قد خصّص القرآن فی الآیه ذکر العظمه بالذات لأنّ مشرکی الجن یعملون من خلال نسبه الشرکاء للّه علی الطعن فی عظمته و التقلیل من شأنه.و کیف لا تقلّ

۱- ۱) البرهان/ج ۴-ص ۳۹۱.

۲- ۲) التفسیر الکبیر/ج ۳۰-ص ۱۵۰.

۳- ۳) مجمع البیان/ج ۱۰-ص ۳۶۷.

عظمه من يحتاج إلى الصاحبه و الولد؟و نفى الصاحبه عن اللّه هو نفى قاطع لوجود أىّ شريك له عزّ و جل،لأنّ المزاعم بوجود الشركاء مبنيّه على أساس بنوّتهم له و التى لا تكون إلاّ بوجود الصاحبه.أمّا نفى الولد فهو نفى للوالد أيضا لأنّ من يلد فهو مولود مخلوق بالقطع،

قال الإمام على عليه السلام فى صفه اللّه:«لم يلد فيكون مولودا،و لم يولد فيصير محدودا» (۱)،و قال:«لم يولد سبحانه فيكون فى العزّ مشاركا،و لم يلد فيكون موروثا هالكا» (۲).

[۴]و يؤكد القرآن على وجود التشابه بين المجتمع البشرى و مجتمع الجن من الناحيتين الفرديه و الاجتماعيه،فهم خلق مكلّفون عاقلون مختارون، و محدوده علومهم كما نحن،و لذلك يقعون فى الأخطاء المقاربه لأخطائنا كالشرك،و هذا يهدينا إلى خطأ الإعتقاد باطّلاعهم على كلّ شىء،و الاعتماد على ما يقولون،إذ قد يقولون شططا.هذا من الناحيه الفرديه،و من الناحيه الاجتماعيه يتشابهون معنا فى كونهم فرقا مختلفين،و طبقات مستضعفه و مستكبره،بل و يعيشون فى ظلّ أنظمه اجتماعيه و سياسيه متشابهه..حيث يترأسهم سفهاء منهم،كما يتزعم المجتمعات البشريه الحكّام و الملوك.

وَ أَنَّهُ كٰانَ يَقُولُ سَفِيهُنٰا عَلَى اللّٰهِ شَطَطاً و الشطط فى الأصل:الكلام الذى يبعد عن الحق،قال الراغب الأصبهانى:

الشطط خفّه النفس لنقصان العقل،و الشطط:القول البعيد من الحق (۳).و الكلمه تستوعب كلّ قول يحيد عن الصواب إلى الخطأ،و لكنّ أظهر مصاديقها فيما يتصل باللّه عزّ و جل هو قول الشرك،و إلى ذلك أشار القرآن فى قوله على لسان أصحاب

۱- ۱) نهج البلاغه/خ ۱۸۶-ص ۲۷۳.

۲- ۲) المصدر/خ ۱۸۲-ص ۲۶۰.

۳- ۳) مفردات الراغب/ماده شطط.

الکهف: فَقٰالُوا رَبُّنٰا رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنٰا إِذاً شَطَطاً (۱).

و أمّا السفیه فمعناه لغه الجاهل الذی لا یحسن رأیا و لا تصرفا،ففی المنجد:سفه سفها:کان عدیم الحلم أو جاهلا أو ردیء الخلق فهو سفیه،و السافه الأحمق (۲).

و یبدو أنّها کلمه جامعه لمساوئ الصفات و الأخلاق.و اصطلاحا-المعنی الذی یریده الجن من الکلمه-هو کلّ زعامه سیاسیه أو اجتماعیه أو علمیه شطّت بها الأفکار نحو الباطل،وسعت فی تضلیل المجتمع کالحکّام الطغاه و علماء السوء.و ما أکثر ما یقوله سفهاؤنا-نحن البشر-علی ربّ العالمین،من علی منابرهم،و فی وسائلهم التضلیلیه،فی کلّ زمان و مکان!فما أحوجنا أن نکون کأولئک النفر من مؤمنی الجن؛نستمع القرآن،و نؤمن بما یهدی إلیه من الرشد،و نرفض الشرک باللّه بجمیع ألوانه و صوره،و ننتفض علی سفهائنا تحت رایه التوحید و علی هدی الوحی! و نخلص هنا إلی الحقائق التالیه:

الأولی:أنّ الجن لیسوا مجرد أرواح شریره و حسب،و إنّما فیهم المؤمنون الصالحون،و بهذا یعالج القرآن مزاعم البشر و تصوراتهم الخاطئه عن طبیعه عالم الجن بأنّه شر محض.

الثانیه:أنّ الهدایه و الرشد لا تتحقق لأحد بمجرد وجود الکتاب الهادی إلی الحق،بل لا بد من التقاء بین العقل الباطن و بین رساله اللّه،و ذلک بحاجه إلی المزید من الإصغاء للآیات،و استماعها،و التدبر فی معانیها.

الثالثه:أنّنا إذا فسّرنا الشرک بالتشریع من دون اللّه فإنّ الآیات تدلّ علی أنّ

۱- ۱) الکهف۱۴/.

۲- ۲) المنجد/ماده سفه.

الجن كما الإنس يبتدعون لهم تشريعات غير هدى اللّه و آياته،و أنّ القرآن جاء بديلا عن مناهجهم الضاله،و علاجا لكلّ انحراف فى حياتهم..فهو رساله اللّه للعالمين إنسا و جنّا.

و إذا فسّرناه بالخضوع لغير حاكميه اللّه،فإنّ الآيه الرابعه بالذات تدل على أنّ الجن-كما نحن-مبتلون بالحكّام السفهاء و الأنظمه الفاسده،و أنّ رساله اللّه التى تهدف الهدايه إلى الرشد و غايته التوحيد تهدف قبل كلّ شىء إلى تحرير المجتمعات إنسيه و جنّيه من ربقه الطواغيت و الحكومات الظالمه(الحاكميات السفيهه).

الرابعه:أنّ أصل أكثر الأفكار الشركيه-كما تقدّم القول-و أصل قبول استعباد السلطات المنحرفه،و أصل التمييز العنصرى و غيره،يعود إلى الزعم بولاده اللّه،و من ثمّ وجود شىء أو شخص أقرب من شىء أو شخص قربا ذاتيّا إلى اللّه عزّ و جلّ.

[۵]و يوصل السياق كلام النفر عن طبيعتهم بما يكشف لنا واقع الجن.

وَ أَنّٰا ظَنَنّٰا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً و لعلّ الظن هنا يعنى العلم،و لكن ليس العلم القائم على الحجه و البرهان، و إنّما هو العلم المتأسّس على التصوّر المجرد.و الآيه تبيّن صفتين سلبيتين كانتا وراء تورّطهم فى الضلال:

الأولى:السذاجه المغرقه إلى حدّ الوثوق فى الآخرين و تصديقهم فيما يقولون، بحمل ما يصدر عنهم على محمل الصدق و الصواب.

الثانيه:التقليد الأعمى للآخرين،قال العلاّمه الطبرسى معلّقا على الآيه:

و فی هـذا دلالـه علی أنّهم کـانوا مقلّـده حتی سـمعوا الحجه،و انکشف لهم الحق فرجعوا عمّـا کانوا علیه،و فیه إشاره إلی بطلان التقلید،و وجوب اتباع الدلیل (۱).

و کلتا الصـفتین نتیجه لإلغاء دور العقل و فقـدان الاسـتقلال بالتوافق مع تیّار المجتمع و التبعیه العمیاء له.إلاّ أنّ القرآن الذی أنزله اللّه لإثاره دفائن العقول فجّر فیهم لمّا استمعوا آیاته کوامن قدراتهم،العقلیه و الروحیه، و خلق فی أنفسهم إراده التحرّر من أغلال السذاجه و الجهل و التبعیه،و إراده التحدی للانحراف بکلّ کیانه قیما(السـفه)و أشـخاصا(السفهاء).إنّ مشکله الکثیر من الإنس و الجن أنّهم یتخذون الأشـخاص لا القیم مقیاسا،فمتی ما ضـلوا أولئک و انحرفوا ضـلّوا و انحرفوا معهم،بینما یجب أن تکون القیم هی المقیاس،لأنّها الضمانه الأصیله و الوحیده لمعرفه الحق و الاستقامه علی هداه.

و فیمـا یتصل بالکـذب تهـدینا الآیه إلی أنّ الإنسان یرفضه و یسـتقبحه بالفطره بحیث لا یتصور أنّ أحـدا یجرأ علی التورّط فیه،و هذا ما یجعله فریسه للکذّابین المرّه بعد الأخری.

[۱۰-۶]ثم یحدّثنا النفر بآیه محوریه عن التظاهر بین بعض الإنس و بعض الجن علی الباطل،کصوره من صور الشرک لدی بعض أبنـاء حوّاء،حیث الهـاله الکبیره من الأسـاطیر و الأوهـام تـدعوا البعض إلی الإعتقـاد بـأنّ الجن قوی خارقه لـدیها العلم و القـدره المطلقین،مما یحدو بهم إلی الاتصال بالجن و طلب العون منهم.

و یجهلون أنّ الأمر علی العکس،یضیف جهلا إلی جهلهم و تعبا إلی تعبهم،إلی حدّ الرهق الشدید.

وَ أَنَّهُ کٰانَ رِجٰالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجٰالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزٰادُوهُمْ رَهَقاً

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰-ص ۳۶۵.

و الرهق:الغشاوه،و قیل للتعب الشدید إرهاق لأنّه یعلو المرهق کالغشاوه فلا یکاد یبصر بقلب و لا بعین.و إذا کان المعنیّون بالآیه کلّ من غرّتهم خرافه الاستعاذه بالجن و تعظیمهم فإنّ الکهنه و السحره و من یتصل مباشره بالجن مخصوصون بقول«رجال من الإنس»أو لیسوا یستعینون بهم فی الشعوذه و سحر أعین الناس و الکهانه؟! و لأنّ الجن لیسوا-کما یتوهّم هؤلاء الرجال-یعلمون کلّ شیء،و یقدرون علی صنع المستحیل،فإنّهم یزیدونهم رهقا فی أبدانهم و أنفسهم،و ضلالا عن الحق باتباع أخبارهم الکاذبه،و خوض اللجج اعتمادا علی وعودهم التی یعجزون عن الوفاء بها.أمّا من جانب الجن فلعلّهم کانوا کرجال الإنس یتمادون فی الغیّ و الضلاله،حیث یکبرون أنفسهم،و یتوهّمون أنّهم أنصاف آلهه نتیجه تقدیس رجال الإنس لهم و استعاذتهم بهم.

و الکهنه و السحره بدورهم کانوا یضللون من حولهم من الناس،

قال الإمام الباقر علیه السلام : «کان الرجل ینطلق إلی الکاهن الذی یوحی إلیه الشیطان فیقول:

قل لشیطانک فلان قد عاذ بک» (۱).

و العیاذ الاعتصام و هو الامتناع بالشیء من لحاق الشر (۲)،و للاستعاذه هنا أحد معنیین:

الأول:أنّهم کانوا یعتقدون بأنّ الجن قوی شر فی الطبیعه،و بالتالی یجب إرضاؤها للتخلّص من شرها و أذاها.

ص:۴۴۶

۱- ۱) البرهان/ج ۴-ص ۳۹۱.

۲- ۲) التبیان/ج ۱۰-ص ۱۴۸.

الثانی:أنّهم کانوا یعتمدون علی الجن فی مواجهه الأخطار و المشاکل،أو فی مقاومه القوی التی یخشونها،ظنّا منهم بأنّهم ینفعونهم أو یضرونهم..فبدل أن یفکّروا فی حلّ مشاکلهم من خلال العقل و السعی تراهم یلجأون للخرافه و الأساطیر،و بدل أن یتقرّبوا إلی اللّه عزّ و جلّ بالطاعه تراهم یعوذون بالجن،ظنّا بأنّهم قادرون علی صدّ غضب اللّه أو التأثیر علی أمره سبحانه و تعالی.و هکذا عوض أن یشحذوا إرادتهم و یعملوا فکرهم لمواجهه العدو عسکریّا یتوسّلون بهذه الثقافه المیته و المضلله..فلا یصلون إلاّ إلی الشر و الرهق.

و من وجوه التلاقی بین الإنس و الجن-بالإضافه إلی التعاون علی الباطل- تشابه وجوه الانحراف و الضلال فی الأفکار و الثقافات،و من بین ذلک الکفر بالآخره کنتیجه للثقافه القائمه علی الظنون و التصورات،لا علی الوعی بالواقع و المنهجیه العلمیه المعتمده علی الدلیل و الحجّه.

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا کَمٰا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ یَبْعَثَ اللّٰهُ أَحَداً فی المجمع:أن لن یبعث اللّه رسولا بعد موسی و عیسی (1)،و فی التفسیر الکبیر:

و یحتمل أن یکون المراد أنّه لن یبعث أحدا للرساله علی ما هو مذهب البراهمه (2)، و مع إمکانیه صحه هذا الرأی إلاّ أنّ الأقرب بعث الناس للحساب و الجزاء،و هذا هو جذر کلّ انحراف و فرار من إطار المسؤولیه.و الآیه تنسف الإعتقاد الواهی بأنّ الجن آلهه خلقوا ذاتیا و لا یموتون،کلاّ..إنّهم یموتون-کما یموت بنو آدم- و یبعثون کما یبعث البشر،بلی.و بعضهم یشکک فی البعث ممّا یدعوه إلی الشرک و المزید من الزیغ.

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰-ص ۳۶۹.

۲- ۲) التفسیر الکبیر/ج ۳۰-ص ۱۵۷.

و قد جرى جدل بين المفسـرين حول هذه الآيه هل هى من جمله ما حكاه النفر من الجن،أم هى قول اللّه؟فقال بعضـهم:أنّها قول من اللّه،و قـال آخرون-و هو الأقرب-:أنّهـا قول الجن،قـال الفخر الرازى:و اعلم أنّ حمله على كلام الجن أولى لأنّ ما قبله و ما بعـده كلام الجن،فإلقـاء كلام أجنبىّ عن كلام الجن فى البين غير لائق (۱).و لعـل التعبير اختلف من المتكلم«و إنّا»إلى الضـمير الغائب «و أنّهم»لأنّ المتكلم نفر من المؤمنين،و هم ليسوا من جمله الكافرين بالبعث، ممّا دعاهم إلى نسب الأمر إلى غيرهم.

ثم يعود السـياق إلى مجراه(ضـمير المتكلم)باعتبار أنّ ما يأتى أمر عام و شامل حتى للنفر الـذين آمنوا من الجن،باعتبارهم كسائر الجن سعوا لاستراق السمع،إلّا أنّهم حيث احتجبوا عن ذلك تحسسوا قدره ربهم،و آمنوا به تائبين.

وَ أَنّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً و الحرس هم الملائكه،بينما الشـهب أسـلحتهم التى يرمون بها كلّ من يحـاول استراق السـمع،فهى مشـحونه جنودا و عتـادا إلى حـدّ الامتلاء،بحيث لا يجـد مسترق ثغره ينفـذ منها إلى الملأ الأعلى.و قال:«لمسـنا»و لم يقل:(رأينا)لأنّ اللمس صفه ماديه ممّا يؤكّد المعنى و يقرّبه.و حقّا:إنّهم لمسوا السماء و عرفوا تلك الحقيقه من خلال التجربه العمليه..إذ هلك الكثير منهم بالشهب و هم فى مهمه الاستراق.

وَ أَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ سابقا قبل أن يشاء اللّه منعهم تماما.

فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً

۱- ۱) المصدر.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ۱۴۲۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.